

مُصْطَفَى السَّابِقِينَ

رَأْسُ أُمَّةٍ.. وَقَائِدُ دَعْوَةٍ

تأليف
الدكتور محمد عادل الهاشمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُصْطَفَى السَّبَّاحِي

لِلشَّيْخِ مُحَمَّدٍ وَطَّافٍ وَدَعْوَةٍ

١٠٠٧٦ - ١٣١٥

الْمَدِينَةُ الْمَكِّيَّةُ

مُصْطَفَى السَّبَّاحِي

رَأْسُ دَامَةِ.. وَقَلْبُ دَعْوَةٍ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

قامت بطبعته وإخراجه شركة دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيروت - لبنان - ص.ب: ٥٩٥٥ - ١٤ ويطلب منها

هاتف: ٧٠٢٨٥٧ - فاكس: ٧٠٤٩٦٣ / ٩٦١١..

e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

مُصْطَفَى السَّبَاغِي

رَأْسُ أُمَّةٍ.. وَقَائِدُ دَعْوَةٍ

تأليف

الدكتور محمد عادل الهاشي

دَارُ الْبَشَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُ

بِأَنفُسِكُمْ وَلَا تَنصَحُوا

بِأَنفُسِكُمْ وَلَا تَنصَحُوا
بِأَنفُسِكُمْ وَلَا تَنصَحُوا

بِأَنفُسِكُمْ وَلَا تَنصَحُوا

الإهداء

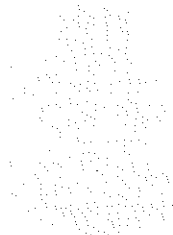
إلى محبتي السباعي وعارفي فضله...
إلى ذويه وأسرته ومن سار على دربه،
إلى من اقتفى خطاه في الدعوة إلى الله ومنهج رسوله...
أهدي كتابي

My dear

I am very sorry to hear

that you have been ill.

I hope you will be better soon.



Yours truly,

المقدمة

لن أفيض في الحديث عن الجهود التي بذلتها في هذا الكتاب - على أهميتها - وإنما أود أن أهدي إلى القارئ في غضون صفحاته شخصية نادرة، قلَّ نظيرها، جاءت حسب متطلبات عصرها، فكأنها صيغت لمهامه، وهيئت لمجموع قضاياها..

فتح مصطفى السباعي عينيه في ثلاثينيات القرن الميلادي الماضي على عصر قلق، في بلاد أوفر حساسية، فسورية، بلده، على تخوم تركيا حاضنة الدولة العثمانية التي انتقلت إلى حكم تركي قومي علماني، قطع بينها وبين البلاد العربية أوثق الصلات. ثم ابتليت بالاستعمار الفرنسي، فجمعت في حياتها ألواناً من تخلف الأتراك - حينذاك - والرزوح تحت الحكم الفرنسي الأجنبي الذي كان لا يرفع فيها إلا ولا ذمة، يتحلب أرزاقها ويهدر كرامة أبنائها.

هذه الأوضاع المتردية للبلاد كانت تقابل من أكثر الناس بعدم الاكتراث، لا سيما الذين ذاقوا الويلات من حكم التتريك المتخلف المتعسف، ومن ظلم الفرنسيين الجائر، فانصرفوا إلى تحصيل الرزق، وترك الأمور لرجال الاستعمار وأعوانهم.

كانت أوضاع البلاد تزداد سوءاً، والوعي يتردى بين أبناء الأمة، حتى ليكاد الشعب يفقد انتماءه وأصوله بعد أن فقد حريته وإرادته، إذ هيمن

المستعمرون الفرنسيون على مقدرات البلاد وأنظمتها وأرزاقها وجعلوا من أبناء الشعب خولاً وأتباعاً، وحصر الدين في دور العبادة، ومسخت تصوراتهم في نفوس الناس، فحسبوا أن ما يصيبهم قدر من الله، وما علموا أنه تفريط من الناس في مقدراتهم وشخصية أمتهم ورضاهم بالهوان. ولكن كان من عقلاء الأمة من تمرد على هذا الواقع الذليل ومنهم السباعي.

إن الأقدار التي ساقى الفتى السباعي وهو ابن خمس عشرة سنة يتهدد خطيباً على منبر جامع والده في مدينة حمص في وسط سورية قد رسمت له خط حياته المستقبلي في الإصلاح والتطوير والتغيير.

لا أزعم أن السباعي كان الوحيد الذي رشحته الأمة لمهمة الإنقاذ، فقد جادت العناية الإلهية برجال قام كلٌّ بدوره في إنهاضها من كبوتها، ولكن كان للسباعي دوره المتميز المتكامل الذي يجمع بين أطراف الحياة، فقد رزق من المواهب، ما لو حاز المرء إحداها لكان من وجوه الأمة ومصلحيها.

كان داعية مجاهداً، عالماً فقيهاً، أديباً خطيباً، سياسياً أريباً، اجتماعياً حكيماً.

ولم تكن هذه المؤهلات وحدها سبب تميزه، وإنما كانت تضمها وتؤلف بينها شخصية مؤمنة، فعالة، مجاهدة، أبيّة، بذل صاحبها كل طاقاته ومواهبه لأُمته، لا يبتغي ذكراً أو جاهاً، أو منصباً أو رياسة، وإنما يبتغي الرضوان من الله، والنصرة لدينه غيرَةً على حرّماته، وشغفاً بتقدّم أُمته وبلاده، لتعيد مجد أسلافها أمة رائدة في كافة ميادين الحياة.

وأوثر أن يعلم القارئ أن كثيراً مما في الكتاب قائم على المعاينة والمعايشة الحية، لم أنقل المشاعر من الكتب بل عشتها على اختلاف ألوانها.

أما الرجل الذي أؤرخ له فمائل أمامي حتى هذه اللحظة بمهابته وجاذبيته وسعة موهبته، بنورانيته وتوجهه، بحماسة وحلمه، بتماثل لي قامته الفارعة المهيبة، يمرق كالسهم في اتجاه هدفه الأسمى، لا يثنيه عن إنجازهِ مرض أو وهن. ثم يتماثل لي - في أخريات عمره - وقد اتكأ على عصا بعد شلله، لم تزايله بسمّة الثقة، ولم تفارقه همته العالية، تسبق عزمته طاقة جسده، لا يآبه بما يصيبه من ألم، فقد كانت حلاوة الحركة والإنجاز تذيب لديه كل سقم.

لقد أثرت أن أقدم السباعي في أكثر المواقف من خلال أقواله وأسلوبه المتميز وروحه المتدفقة في كلماته الملهمة الأخاذة، بما يوحي بتمثل شخصيته، وإعادة صورته حية في مخيّلات الأجيال وهو يتهدر حماساً ووعياً، وفي ظني أن تلخيص هذه المواقف لا يغني غناء عرضها بأسلوب صاحبها حية فوارة، حيث لا تفقد شيئاً من حرارتها وأثرها.

وأما منهجي في عرض الكتاب فقد حرصتُ على طريقة البحث العلمي - ما استطعت -؛ أعدت الأخبار والأقوال منسوبة إلى مصادرها، مفرداً النصوص، ولا سيما نصوص السباعي كي يتذوق القارئ أسلوبه الصافي ونكهته المتميزة.

وبعد، لعلنا نلمح من إسهامات السباعي وإنجازاته في غضون الكتاب ما يؤكد أنه لم يكن يخص سورية أو بلاد الشام بجهادهِ أو علمه أو دعوته، وإنما كان رجل العالم العربي والإسلامي بذلاً وعوناً. فمنذ مقتبل عمره لم يفرق بين سورية ومصر في كفاحه، حيث تصدر في سورية معارك التحرير ضد فرنسا جِلاًداً ومقاومة، حتى إذا ما قصد الأزهر بمصر للدراسة قاد المظاهرات ضد الاستعمار البريطاني، ودفع الثمن لكفاحه هذا سنوات من الاعتقال في سورية ومصر وفلسطين.

أما فلسطين فقد عرفت كفاحه وتوعيته لقضيته وانطلاقه على رأس كتيبة من إخوانه لجهاد الصهاينة، وذودهم عن المسجد الأقصى. وعرفته لبنان رائداً ومؤسساً للدعوة الإسلامية، وعرفته باكستان حين نشوئها زائراً معززاً وراعياً. وكان ركناً بارزاً في المؤتمر الإسلامي العالمي. وقد زار جل الأقطار العربية والإسلامية في رحلات دعوية، وكتب منافعاً عن حرياتها.

وعرفته ديار أوروبية في رحلة علمية حفلت بتصويب المستشرقين والكشف عن ألعيب بعضهم وتشويههم، فنلفي عنده إبان رده، معارض لحقائق الإسلام وشموخها...

ولعل الكثيرين الذين تستأسرهم أعمال السباعي الخارجية من جهاد ودعوة وخطبة... يغفلون عن دوره الاجتماعي الحضاري الذي نهض به بقوة في حياته، نهض به نظرياً بكتبه الرائعة، وبالكثافة في المجالات والصحف، وأخص بالذكر: «حضارة الإسلام»، ونهض به عملياً بتربية الدعاة، وتعهّد النشء، وبناء المؤسسات الاجتماعية والثقافية التي تحتضن ناشئة الجيل في ظل التربية الإسلامية التي تؤهل أبناءنا لحمل الأمانة والمسؤولية بوصفهم رجال الغد...

لقد أعطى للشباب حقه من التربية، وأعطى الفتاة حقها كذلك، وخصّها بكتاب كامل الخصائص يتعهّد المرأة المسلمة لتكون مربية للأجيال.

وبعد، فأنوه بأن هناك فصولاً من الكتاب تجلو لنا مواهب السباعي أدبياً وحضارياً، ستخرج في إصدار خاص إن شاء الله...

وفي الختام أشكر كل من زوّد الكتاب بواقعة عن حياة السباعي أو بوثيقة أو ذكريات صحبة، فضلاً عمن أعان بالكتب والصحف والرسائل، مختصاً بالشكر الدكتور عبد اللطيف الهاشمي، الذي نهض بعبء إخراج الكتاب، ومثوله بين أيدي القراء.

كما أزجي شكري إلى الأخ الكريم محمد بسام الأسطواني لما قدّمه لنا في العدد الممتاز لـ «حضارة الإسلام» من صُوى هادية في البحث كانت مصدراً خصباً للكتاب.

وأخص بالشكر الأستاذ محمد فاروق بطل بوصفه الحافظ على إصدار الكتاب، والمعين على إخراجه بالكتب والوثائق والآراء.

وأخيراً أذكر بالامتنان الإخوة الأساتذة الذين سبقوني في إصدار كتبهم عن السباعي لما بذلوه من جهد مشكور اطلعت عليه وأفدت منه... والله أسأل أن يتقبّل عملي هذا ابتغاء رضوانه وفي سبيله، والله من وراء القصد.

أبها، غرة رمضان المبارك سنة ١٤٢٩ هـ

٢٠٠٨/٩/١ م

الدكتور محمد عادل الهاشمي



السباعي في ذروة انفعاله خطيباً

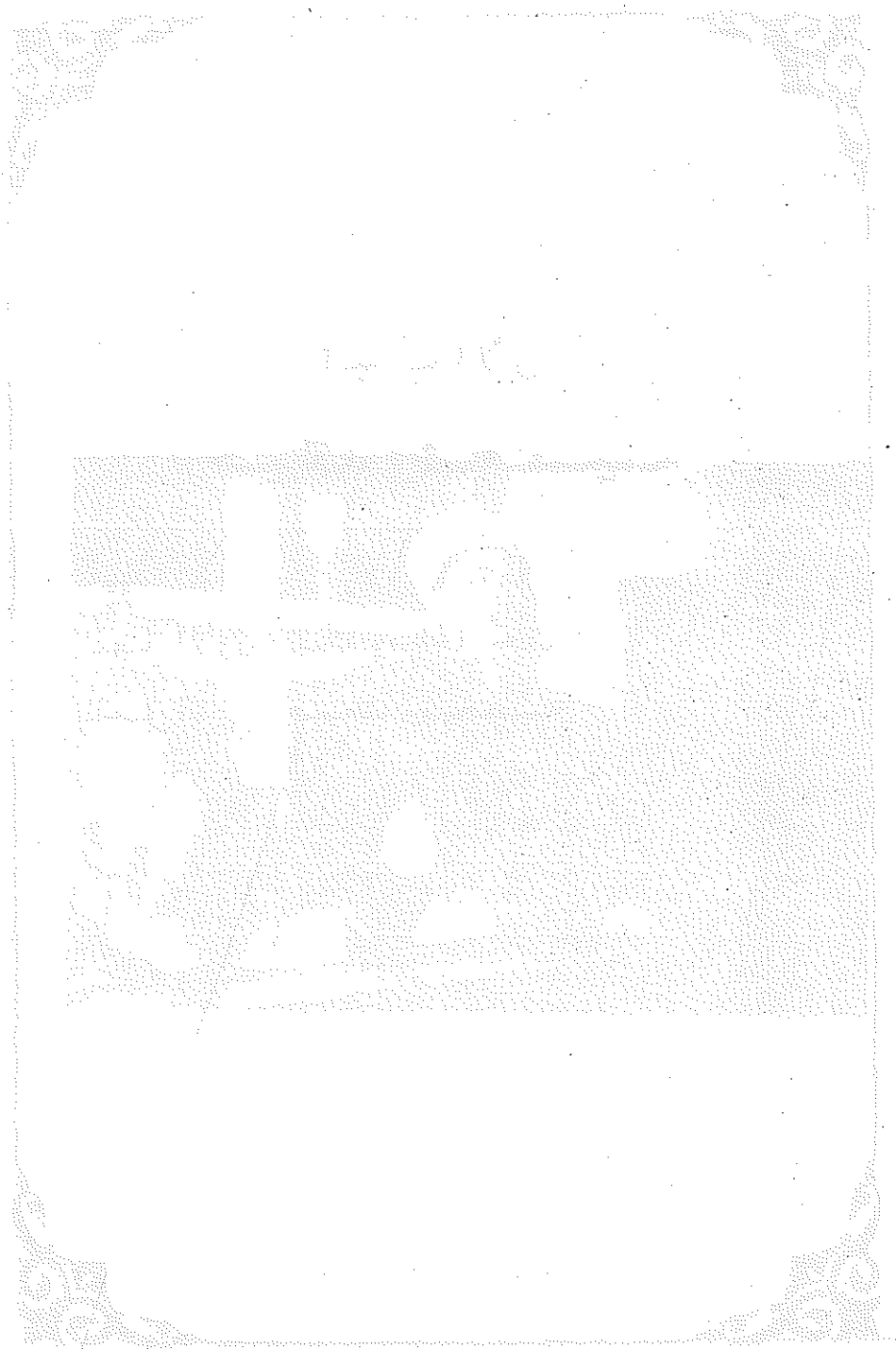
الباب الأول

حياته وشخصيته

تمهيد.

الفصل الأول : نشأته ومراحل حياته.

الفصل الثاني : طبيعته وشخصيته.



تمهید

إن سِيرَ عظماء الرجال لا تحيط بها الأقوال، ولا يسعها الرصد التاريخي، لأنها قطعة من الحياة المتحركة المتوثبة التي لا تعرف لها قراراً ولا لحركتها هدوءاً.

إن أصحابها يعيشون عظام المهام، ويجدون في إنجازها المعنى الإيجابي الأسمى لحياتهم؛ تلقي جلّ أيامهم جهاداً وجداً، مكابدة وكداً.. يستيقنون أمتهم بالنظر، ويبتكرون لها خطط الحياة.. يتقدمونها في مواكب العمل؛ ليقدموا لها حلول حياتها ومفاتيح قضاياها؛ ويجنبوها مزالق الخطر والزلل.

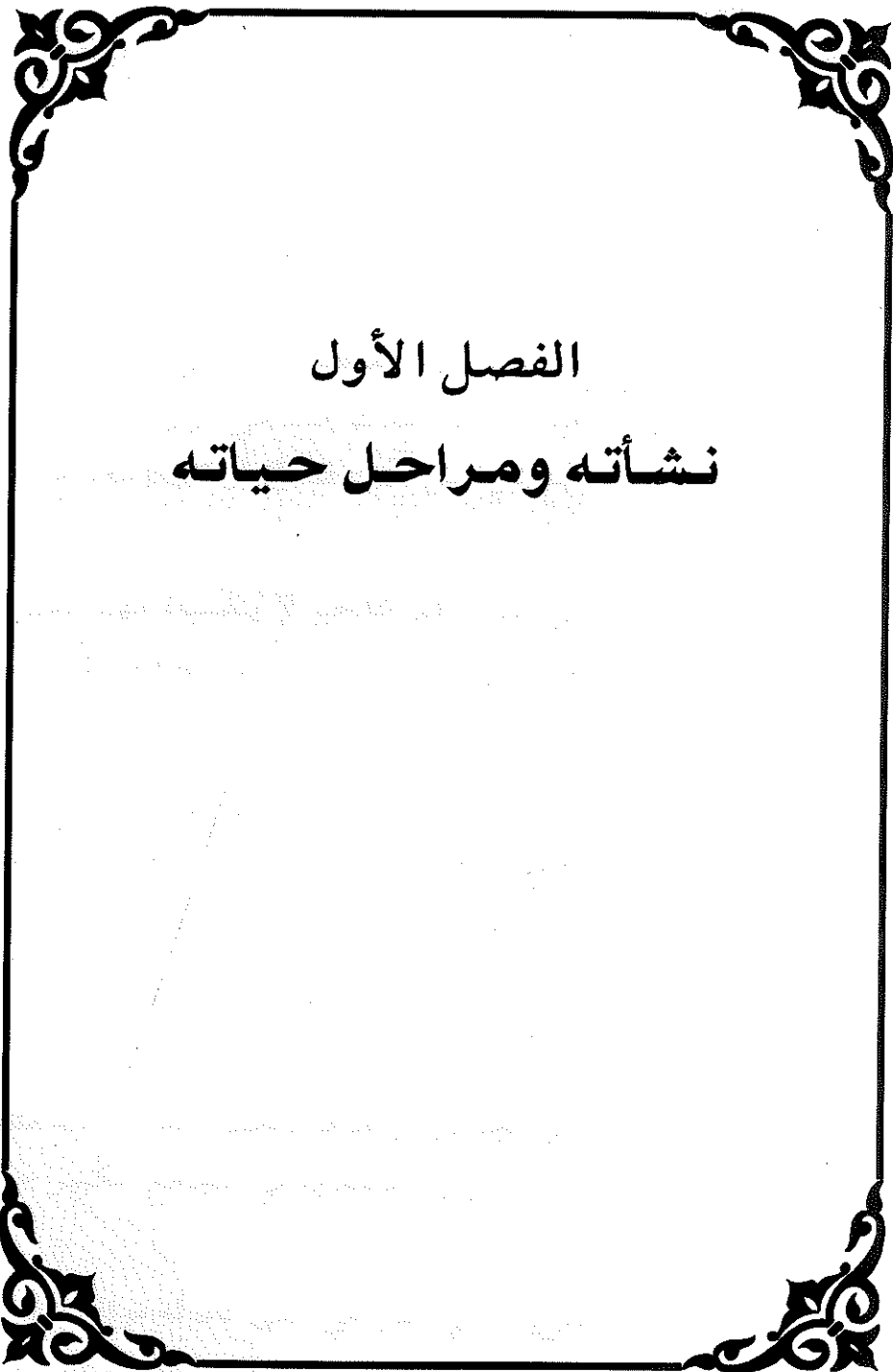
ومصطفى السباعي من ركب هؤلاء العظماء..

كان يعيش أهدافاً كباراً، ويتقلد أعباءً جساماً، ندر أن يحملها سواه؛ ويتكبد آلام أمة عصفت بها مآسي القرون.

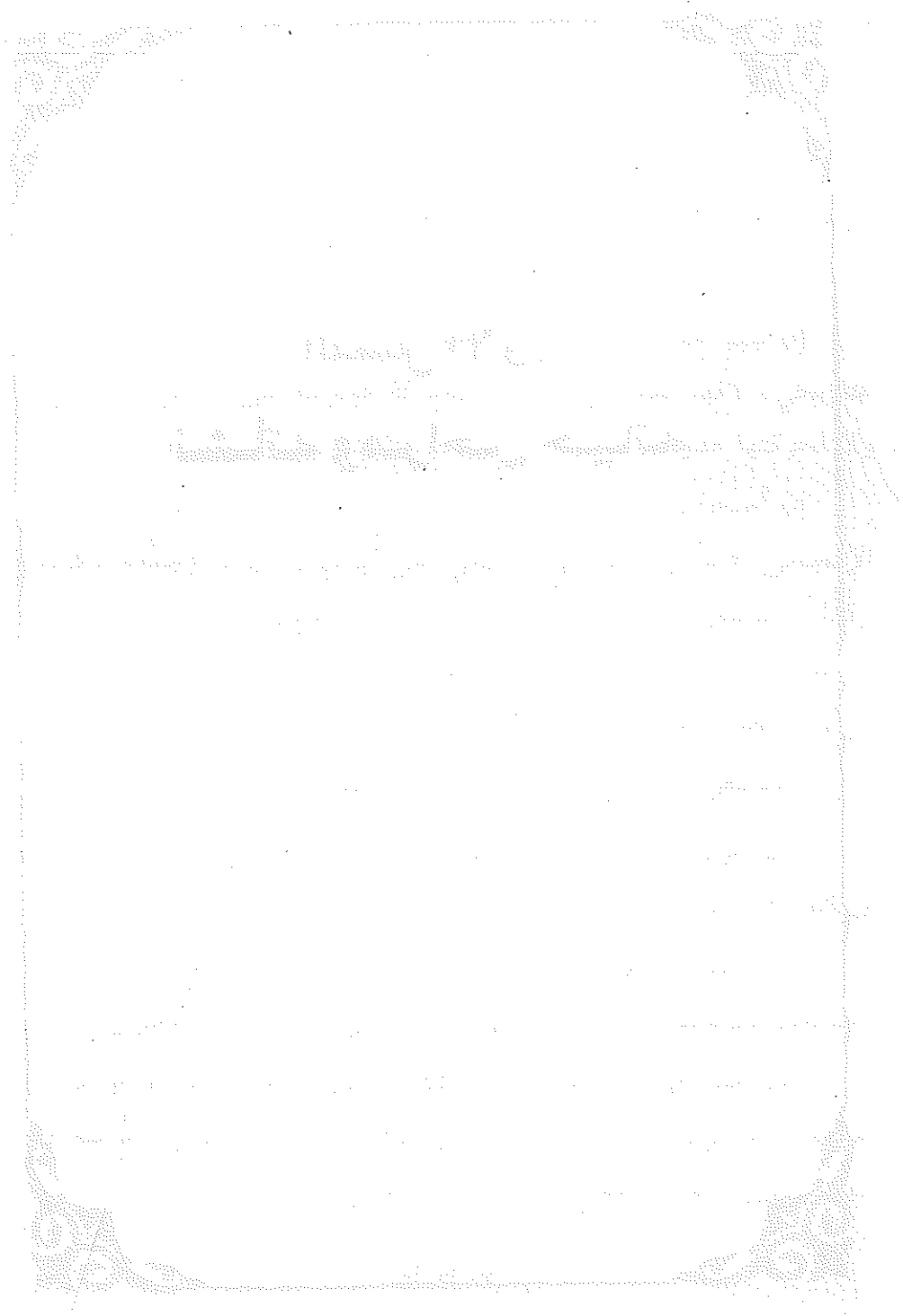
وكان يحيا لهذه الأهداف يومه وليله، عمله وراحته، سكينته وحركته.. كان كالبركان دائم الاشتعال، لا يهدأ له بال حتى يحقق أهدافه الكبرى.

كان السباعي ذا شخصية فذة اكتملت فيها صفات القيادة الواعية.. طبيعة ذواقة ترف إنسانية مرهفة، يعززها إيمان وثقة وإقدام، رشحته لأن ينهض بدور رائد في عصر كان يرقب أمثاله من الرجال.





الفصل الأول نشأته ومراحل حياته



Monday 17th

1870

Dear Mother

I have just received your letter of the 14th and was very glad to hear from you.

I am well and hope these few lines will find you the same.

I have not much news to write at present.

I am very affectionately yours

Your affectionate son

John Smith

إننا حين نعرض لحياة الدكتور مصطفى السباعي ونتتبع مراحل هذه الحياة، نجد أنفسنا أمام فلك إنساني دوّار، ملأ حياته كلها عملاً، لم يستثن من ذلك فتوة أو كهولة، صحة أو مرضاً.

كان وقود الإيمان في نفسه دائم التذخير لا ينضب، مهما بذل من جهود أو قدّم من تضحيات، وهو في تجدد مستمر يمدّه بطاقات لا تحملها العصبية من الرجال.

١ - إننا إذا تتبعنا مراحل حياته، وشرعنا بولادته ألفينا - بتقدير من الله - أن ولادته كانت أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥م، وكأنه اشتق من زمن ولادته حيوية وتوثباً وأواراً.

يضاف إلى ذلك أنه ولد لأسرة السباعي بجمص في سورية التي شهرت بطبيب المَخْتَد وعراقة الأصل وزكاء المنبت...

كانت من أكرم الأسر الحمصية وأغناها بالعلم والعلماء منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير جيلاً بعد جيل.

وقد تأثر بوالده الشيخ حسني السباعي الذي كان له مواقف مشرّفة ضد أعداء البلاد، وأسهم بقسط وافر في المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين

قائداً للمجاهدين . كما كان من محبّي الخير، مسهماً في تأسيس الجمعيات الخيرية والمشاريع الاجتماعية، مغنياً للملهوفين، مدافعاً عن المظلومين، وكان لذلك أثره الكبير في نشأة ولده مصطفى السباعي^(١).

٢ - توقدت ألمعية السباعي وهو فتى، فكان يتدفق ذكاءً وحيوية، ويطوي النفس على مطامح عراض في تحرير الأمة من الاستعمار الثقافي والعسكري، وهو لم يجاوز الخامسة عشرة..

كان يجمع أقرانه من ذوي الأسنان الغضة ويؤسس بهم جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي كانت تلتقط أولاد الأغنياء وذوي النفوذ لتصنع هؤلاء الأولاد على عينها..

وكانت هذه الجمعية السرية تجتمع برئاسته، وتصدر المنشورات وتتصل بالأسر التي تبعث أبناءها إلى مثل هذه المدارس المعادية لدين الأمة وأخلاقها ومبادئها، كل ذلك والبلاد ترزح تحت وطأة الأحكام العرفية.

وكان والده يوطئ له الصعود على منبر المسجد الكبير بحمص، في هذه السن الغضة، فيتدفق الفتى بشآبيب الحماس ضد الاستعمار الفرنسي ووجوده العسكري في البلاد؛ وكان هذا فاتحة لنضال أكبر حين اشتد عوده وبلغ سن الشباب.

٣ - ولم تكن نشأته العلمية منذ صباه تجري على طريق تقليدي، وإنما كانت نشأة متميزة تجمع بين أسلوب القديم الكثيف وأسلوب الحديث الطريف..

«بدأ بحفظ القرآن الكريم وتلقي مبادئ العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السن التي تخوّله دخول المدرسة الابتدائية حيث التحق بالمدرسة السعودية الابتدائية.

وبعد أن أتم دراسته الابتدائية بتفوق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية حيث أتم فيها دراسته عام ١٩٣٠م بنجاح باهر لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلاً علمياً باهراً؛ لما كان يتمتع به من الذكاء المبكر، والنباهة المتوقدة، والبديهة الحاضرة، والنشاط المتوثب. فقد كان منذ صغره حركة دائبة لا تعرف الكلل ولا الملل ولا الفتور. . . فكان لذلك محط إعجاب أساتذته وأقرانه وجميع معارفه. . .

ولم يقتصر في دراسته الشرعية على المناهج المدرسية وإنما كان إلى جانب ذلك يحضر مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار فقهاء وعلماء حمص، نذكر منهم الشيوخ الأساتذة: طاهر الرئيس، سعيد الملوحي، فائق الأتاسي، راغب الوفاي، محمد البني. . . حيث كانوا يتدارسون الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله، وكان فيهم الحنفي وفيهم الشافعي.

وكان السباعي مصطفى على صغر سنه يحضر مع أبيه هذه المجالس مما حبب إليه أجواءها، وكان لها أثرها في تكوينه العلمي.

وقد دفعه أبوه بعد ذلك وشجعه لدراسة علوم الشريعة وبخاصة دراسة الفقه المقارن، ومسالك الأئمة في اجتهاداتهم، فصار كما أراد له أبوه عالماً فقيهاً من نوادر العلماء الفقهاء. . .»^(٢).

ولقد شهد الأحياء من الأساتذة في حمص - حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية - بأن ملامح العبقرية كانت تلتمع على مُحْيَاه منذ حداثة سنه ونعومة أظفاره^(٣).

٤ - كان السباعي يعيش هموم أمته منذ صباه - كما أسلفنا - وما كان عكوفه على العلم ليصرفه عن المشاركة في خدمة قضايا أمته المسلمة، حتى إذا نال الشهادة الثانوية - وقد مثُنَّ عودُه وفاض ضرامُ حماسه - أخذ نشاطه العام يتصاعد ويأخذ أبعاداً أوسع، من ذلك:

«قام يعلن الحرب على الاستعمار وجرائمه من فوق المنابر بخطب مثيرة قوية، ويدعو المصلين في كثير من الأحيان إلى التظاهر والمقاومة، وكان يسير على رأس هذه المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها غير عابئ بالأحكام العرفية والإرهاب المفروض على البلاد؛ مما أزعج السلطات الاستعمارية والحاكمة التي ضاقت به ذرعاً ولم ترَ سبيلاً للخلاص منه إلا باعتقاله وزجه بالسجن، فألقت عليه القبض لأول مرة عام ١٩٣١م بتهمة توزيع نشرات نارية ضد سياسة فرنسا في المغرب.

ولكنه... ما إن خرج من السجن حتى عاد أشد مما كان حرباً على الاستعمار وبغية وعدوانه؛ فعاد لاعتلاء المنابر وإلقاء الخطب الحماسية المثيرة؛ مما ألجأ السلطات الإفريقية لإعادة اعتقاله عام ١٩٣٢م... وذلك عقب خطاب مثير ألقاه في خطبة الجمعة بالجامع الكبير في حمص ألهم فيه الشعور وأسأل العبرات وهيج الجماهير، واستمر سجنه عدة شهور»^(٤).

٥ - ولم يكن السباعي يقصر نشاطه على لون واحد، وإنما كان يدير نشاطه على مستويات عدة، تخدم قضيته الكبرى وهي تحرير البلاد من الاستعمار وعودة الأمة إلى حقيقة إسلامها وتاريخها المجيد.

لذا، لم يكن يقتصر في جهاده على محاربة الاستعمار الثقافي والعسكري وحسب، وإنما كان في الوقت نفسه، يصرف كثيراً من الجهد في هذه الفترة المبكرة من حياته إلى تربية النشء على أساس من مبادئ الإسلام ومنهجه، وبناء القواعد البشرية للنهوض بذلك، فكان أن رعى عدداً من الجمعيات الإسلامية في سورية، كالرابطة الدينية في حمص، وشباب محمد ﷺ في حماة، والشبان المسلمون في دمشق، ودار الأرقم بحلب، وتولى السباعي قيادتها وريادتها، فكانت هذه الجمعيات الإسلامية المبدئية النواة الناضجة فيما بعد لتأسيس حركة الإخوان المسلمين بعد عشر سنين.

٦ - وغادر مصطفى بلاد الشام إلى مصر لاستكمال دراسته الجامعية. ولعل البعض كان يرى في سفره هذا إتاحة لبعض الراحة له من عناء الكفاح ضد المستعمر الفرنسي الذي ناله منه الاعتقال مرتين. ولكن السباعي ابن الكفاح قد انتقل في كفاحه من ميدان إلى ميدان..

زاول السباعي حياته الدراسية في مصر؛ إذ التحق بالأزهر عام ١٩٣٣م، وانتسب إلى قسم الفقه؛ فأدهش أساتذته بما أبداه من تفوق علمي. ثم انتسب إلى كلية أصول الدين ونال إجازتها بتفوق. والتحق بعدها بقسم (الدكتوراه) لنيل شهادتها في التشريع الإسلامي وتاريخه^(٥).

ولكن هل انصرف السباعي إلى الدراسة وحسب؟ وهل بمقدوره الصبر على مزاوله نشاط واحد؟

هذا زميل دراسته يطالعنا بنظرتة وطموحه فيقول:

«إن طموح السباعي - خلال دراسته - كان أكبر من طموح الطالب الذي يذاكر المحاضرات. كان يرى العمل للإسلام فرضاً، وعلى المسلم أن يبذل الجهد في نصرة الإسلام سواء كان طالباً أو غير طالب»^(٦).

ويحدثنا زميل الدراسة عن ألوان نشاطه خلال دراسته في الأزهر فيقول:

«كان السباعي متحمساً للإسلام ولقضاياها جداً، وكان على صغر سنه - حينما جاء إلى الأزهر - كالبركان. لم يقتصر على انتسابه للأزهر الشريف للدراسة وتحصيل العلم الشرعي، وإنما انتسب إلى عدد من الجمعيات التي تدعو إلى مكارم الأخلاق في مصر، وصاحبَ رجالها، وفي مقدمتهم الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين. كما صاحبَ رجال الدعوة والفكر الإسلامي في الأقطار العربية.

أسس عدداً من الجمعيات الطلابية في الأزهر، وكان خطيباً في المنتديات المتعددة. وكنت أختلف معه في أن طالب العلم ينبغي أن يقصر همه على طلب العلم، بينما كان يرى أخي السباعي أن عليه أن يجمع بين طلب العلم والعمل للإسلام. ولم يكن نشاطه الواسع يحول بينه وبين النجاح في الامتحانات نجاحاً باهراً»^(٧).

وكان السباعي يؤدي هناك رسالته بين الطلبة، كان يرجو من رجال الغد أن يدركوا في مرحلة دراستهم مسؤولياتهم أمام أمتهم التي بعثتهم للدراسة لكي يعودوا إليها مذكرين بالعلم والخلق فيقودوها في سائر الميادين ويأخذوا بيدها إلى الفلاح والسعادة.

وقد ضمّن السباعي الطالب هذه المعاني والأمانى في كلمة له في الطلبة السوريين في مصر، فمما قاله:

«إن أمتنا التي أرسلتنا إلى هذه البلاد لننهل من معين ثقافتها
لهي الآن تنتظرنا على أحرّ من الجمر، لنعود إليها أبطالاً
كما خرجنا منها أطفالاً. تنتظرنا لنعود إليها أسوداً كما خرجنا
منها أشبالاً. تنتظرنا لنعود إليها قادة كما خرجنا منها جنوداً،
وسياخذ كل واحد منا على عاتقه قيادة الجهة التي
يكون فيها.

نحن لا نريد هذا النادي للسهر والسمر، ولا نريده للهو
والعبث، فحرام على شباب أمة مضطهدة معذبة أن يسمروا،
وبلادهم في عناء، وقومهم في شقاء. وحرام على شباب أمة
علقت عليهم الآمال أن يخيبوا لها الرجاء..

ولكننا نريد هذا النادي لنؤكد بيننا أواصر الإخاء، ونوطد
دعائم الثقة، ونتعرف مواضع العلل في نفوس أمتنا، ونتمرن
على القيادة كما يتمرن الجندي على أساليب الحرب، ولنرفع
رأس بلادنا عالياً في هذه البلاد الكريمة...»^(٨).

ويذهل الراصد لنشاط السباعي الطالب في الأزهر، يذهل من كثرة
الارتباطات التي كان يعقدها، ومن وفرة الصّلات التي كان يوثقها مع
علماء مصر ورجالها، يحدثنا عن ذلك زميل دراسته:

«كان للسباعي أثناء دراسته في الأزهر ارتباطات كثيرة،
وكان ذا صلة واسعة برؤساء الجمعيات الإسلامية،
وكان يتصل بعلماء الأزهر، وكانت له صلات مع
السيد محمد رشيد رضا ومع الشيخ محمد خضر حسين،

وكانت صلاته وطيدة مع المجاهد محب الدين الخطيب صاحب جريدة «الفتح»... وكان لها أثرها في السباعي.

وتتسع دائرة الاتصال لدى الشيخ مصطفى، فنراه يلتقي بالوافدين من أقطار العالم الإسلامي، يتعرف منهم أحوالهم وقضاياهم، ولا سيما المسلمون في الشمال الإفريقي الواقع تحت الاستعمار البغيض، وكانوا يتلقون جريدة «الفتح» سرّاً، إذ كانت في ذلك الحين جريدة «الوعي الإسلامي»^(٩).

ولقد اكتسب السباعي ثقة أساتذته وزملائه بما عرفوه عنه من سمات الطالب المجاهد، وانتزع ثناءهم وإعجابهم إبان دراسته في مصر...

«إن أساتذته كانوا يرون فيه أمانة العالم، وإخلاص المجاهد، وملامح البطل... ولقد سمعت من العلامة المرحوم شيخه الشيخ عيسى منون - عميد كلية الشريعة في الأزهر وشيخ رواق الشوام آنذاك - خير ما يقال عن شاب تتوفر له كل مواهب المجاهدين من العلماء الذين يقوون على حمل الأمانة ويتقدمون الركب غير عابئين ولا هائين»^(١٠).

٧ - وكان من أبرز الشخصيات التي تعرّف إليها مصطفى السباعي في مصر الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب جريدة «الفتح» الإسلامية، وهي من أقدم الصحف الإسلامية المعاصرة، لعبت دوراً حيوياً بارزاً في توعية المسلمين وتبصيرهم بقضاياهم، وأسهمت في تحرير الأقطار الإسلامية المغتصبة من الاستعمار الشره البغيض في آسيا وإفريقيا.

وإذا ما تتبعنا مقالات السباعي النارية التي كان يكتبها في صحيفة «الفتح» ألفينا له إسهاماً قلمياً ثراً بلغ أكثر من خمسين مقالاً خلال عشر سنوات، صاغ جلّها حين إقامته في مصر^(١١) - عالج فيها موضوعات حيوية تعبر عن نضج مبكر في تفهم العمل للإسلام والتفاني في سبيل الدعوة الإسلامية وتحرير الأقطار الإسلامية المغتصبة.

ولعلّ من يطلع على مستوى هذه المقالات الرفيعة المبكرة يتجلى له ما سيكون لصاحبها من شأن كبير في الصحافة الإسلامية، وشأن أكبر في قيادة مسيرة الفكر الإسلامي والعمل الإسلامي.

إنّ نشاط السباعي الواسع الأطراف في مصر كان يقلق سلطات الاحتلال البريطانية، ولا سيّما حينما كان يتزعم طلبة الأزهر والمعاهد المصرية الأخرى في مظاهرات ضد الاحتلال البريطاني ومظالمه، لذا لجأت السلطات الاستعمارية الإنكليزية في مصر إلى اعتقاله عام ١٩٣٤م، وبعد إطلاق سراحه توالى مدامات السلطة له:

«وفي عام ١٩٤٠م اتهمته القيادة البريطانية في مصر بتأليف جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني ودعوة الشعب المصري إلى الثورة على الإنكليز، فأمرت بالقبض عليه ثانية. وبعد أن سجن شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين، ولم تفرج عنه إلا بعد أن قضى أربعة أشهر في السجن»^(١٢).

٨ - وعاد السباعي مصطفى بعد هذه الرحلة الشاقة إلى سورية عام ١٩٤١م. وقد جمعت رحلته الحافلة إلى مصر بين العلم والجهاد وبين التنوير والتحرير.

عاد يحمل درجة العالمية في الشريعة من الأزهر. ولا يدري أحد كيف استطاع أن ينتزع شهادته العلمية بتفوق وتقدير، وقد قضى جُل وقته في مصر في العمل للإسلام ومقاومة الاستعمار، وقيادة الطلبة ولقاءات العلماء، وتأسيس الجمعيات.

وكانت الحركة الإسلامية متمثلة في رابطة شباب محمد ﷺ في سورية تنتظر قائدها، فتولى ريادتها في هذه الحقبة العصيبة التي كانت مستهل نضال حاسم لسورية ضد الفرنسيين المستعمرين.

٩ - ولكن ما كاد يستقر به المقام في بلاد الشام عام ١٩٤١م حتى سارع الفرنسيون إلى اعتقاله خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير. وجعلوا ينقلونه بين سجون حمص وبيروت [والمية ومية] وقلعة راشيا، حيث بقي ستين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من العذاب^(١٣).

١٠ - حين خرج السباعي من سجن الفرنسيين عام ١٩٤٣م كانت فلسطين آنذاك تشتعل بالثورات ضد الاستعمار البريطاني الذي كان يسوم العرب والمسلمين فيها العنف والتنكيل، ويحرمهم من المناصب والفرص، ويخص بها اليهود، ويمهد لإقامة وطن لهم في البقاع المقدسة.

انطلق السباعي كالأسد الحبيس قد خرج من معقله يهاجم الاستعمار البريطاني في فلسطين، ويجول في بلدان سورية يلقي محاضراته المنددة بالاستعمار، وينبه الأذهان إلى ما يحاك لأرض النبوات من مؤامرات. ولعل الشباب الذين قيص لهم الاستماع إلى هذه المحاضرات ليذكرون كيف عمد السباعي إلى هز القلوب والضمائر في سورية والبلاد العربية - بعد الغفلة الطويلة -؛ لتتحرك للعمل لقضية فلسطين بعد أن عرفت مدى خطورة المؤامرات التي تحاك لها.

وقد أُتبعَت هذه الجولات والمحاضرات بجهود مكثفة متواصلة من السباعي على سائر المستويات لخدمة قضية فلسطين، بدءاً من التوعية وانتهاءً بالجهاد مما سنخص ذلك بالحديث وبالتفصيل في موضعه.

١١ - كانت فرنسا التي بسطت نفوذها على البلاد السورية منذ عام ١٩٢٠م قد وعدت أثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٤١ - ١٩٤٤م) البلاد التي تحتلها بالاستقلال، حين كانت أثناء الحرب في حال من الإرهاق والذلة وسيطرة الألمان على عاصمتها ونصف بلادها. كانت آنذاك تستجدي العون من الأقطار المستعمرة، حتى إذا ما انجلت الحرب عن هزيمة الألمان وانتصار الحلفاء عام ١٩٤٥م، تنمر المستعمر الفرنسي فنقض عهوده وشمّر عن شراسته ورمى البلاد التي يحتلها بالحديد والنار، وأصاب سورية - التي خرج شعبها يطالب بالاستقلال - التنكيل الكثير مما يورده تاريخنا المعاصر والشهود العيان. لقد عمد المستعمر الفرنسي إلى دك البرلمان السوري بدمشق بالمدافع، وقصف أحياءها، كما قصف أحياء في حلب وحماة وحمص، وجرد حملة إرهاب وتدمير على البلاد السورية.

هَبَّ مصطفى السباعي إبان هذا العدوان الفرنسي يقود المقاومة المسلحة في مدينة حمص ضد القوات الفرنسية، وأطلق الرصاص الأولى بادئاً هذه المقاومة، وأظهر هو ورجاله بسالة نادرة وشجاعة أذهلت الفرنسيين، وكبدتهم الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، وردتهم خائبين^(١٤).

هذه صفحات من جهاد مصطفى السباعي وكفاحه ضد الاستعمار.

فما هي صفحات جهاده وبنائه للدعوة الإسلامية؟

١٢ - كانت الجمعيات الإسلامية التي يرأسها مصطفى السباعي في سورية قد استكملت استعداداتها للعمل الدعوي المنظم، والخروج من الإقليمية المحدودة والأهداف الصغيرة إلى مطامح عليا للدعوة الإسلامية، وكانت اتصالات السباعي بالإمام حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين عام ١٩٤٥م قد آتت أكلها، فرأى السباعي أن الوقت قد حان ليعلن قيام جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وبذلك أصبحت الجماعة في سورية عضواً بارزاً في جماعة الإخوان العالمية التي أخذت تضم أقطار العالم العربي. وانتخب السباعي من المجلس التأسيسي للجماعة في سورية مراقباً عاماً لها، وبذلك اتسعت أطراف عمله ومهامه، وتضخمت أعباؤه. هذه الأعباء التي استغرقت جل ساعات حياته..

١٣ - وخرج الفرنسيون من سورية مدحورين عام ١٩٤٦م، وكان جلاؤهم عنها بفضل جهاد الشعب السوري الأبي، وفي مقدمته أبناء الدعوة الإسلامية. وكانت فرحة الشعب بالجلء تبعث مزيداً من الأمل أن تستعيد سورية مكانتها الإسلامية التي حفظها لها التاريخ، ولما ورد من بشارات النبي عليه الصلاة والسلام بيمين وبركة بلاد الشام.

ولكن الفرنسيين قبل أن يخرجوا، كعادة الاستعمار في كل بلد، خلفوا وراءهم من أذئابهم من يدعو إلى فكرهم المنحرف، ويروج لأخلاقهم الهابطة، ويتخذ من الأفكار اليسارية التي غشيت فرنسا آنذاك ستاراً للأفكار التغريبية والأخلاق المنحرفة. وقد اتخذ هؤلاء من فترة الحرية في عهد الاستقلال سبيلاً إلى بث فكرهم المريض ومبازلهم، وكان لهم صحف تنطق باسمهم، خلا الدعم المشبوه الذي كان يأتيهم من خارج البلاد.

كان لا بد للدعوة الإسلامية في سورية وعلى رأسها مصطفى السباعي أن تتخذ مواقعها وتزاوّل مسؤوليتها الإسلامية إزاء هذا الخطر الجديد الذي لا يقل خطراً عن الاستعمار العسكري الفرنسي، فنزلت الدعوة الإسلامية في سورية إلى سائر المواقع بجدارة وقوة، تزدود عن حياض الإسلام. وأسّس قائدها السباعي جريدة «المنار» اليومية بوصفها لسان حال الجماعة عام ١٩٤٧م، وكان لهذا الصوت الإسلامي القوي المجلجل الأثر الكبير في نشر الدعوة الإسلامية على سائر المستويات في البلاد، ودّخر الأفكار الدخيلة التي كان يروّج لها الاستعمار.

«كانت الصحافة إحدى أهم الركائز التي أحسن السباعي استخدامها في تلك المعركة، فعن طريق (المنار) - جريدة الدعوة يومئذ - كان يحرك الجماهير بالكشف عن محاذير المسلك غير الإسلامي، وبافتتاحياته البليغة بل الساحرة كان يناقش المساندين لتجريد الدستور من اللون الإسلامي، باسم العلوم الدستورية، فيرد بالحجج القانونية... دعاواهم الباطلة التي توهم الجاهليين وأنصاف المتعلمين بصحة مزاعمهم، فتأتي هذه الافتتاحيات لتحيل ما بنوه في الهواء هباءً منثوراً، وتستقطب كل يوم أفواجا من المؤيدين للاتجاه الإسلامي، بعد أن كانوا من المعارضين له، أو المترددين بشأنه، حتى ليرتفع ثمن العدد الواحد بسبب هذه الافتتاحية إلى أضعاف أضعاف ثمنه» (١٥).

بيد أن هذه الجريدة الميمونة نالت من جهد السباعي ما تنوء به العصبية أولو القوة. إذ كان عليه أن يكتب افتتاحيتها كل يوم وبعض زواياها مع أعبائه الكثيرة، كما كان عليه أن يمولها بالمال اللازم لإخراجها،

وقلما تعيش جريدة على مال شخص أو أشخاص، فاستنفدت جُل ماله وجهده. ولكنه كان بها فرحاً؛ لأنها كانت الصوت الإسلامي الذي يبلغ الدعوة ومنهجها وأسلوبها ومعالجاتها لقضايا الأمة. وظل ينافح لإخراجها سنتين كاملتين، ثم اضطر إلى أن يعهد إلى أحد الإخوة بتولي أمرها، بعد أن استنفدت جُل طاقاته.

١٤ - بادر السباعي بعد خروجه من المعتقل الفرنسي عام ١٩٤٣م - كما أسلفنا - إلى توعية الجماهير العربية والإسلامية إلى ما يُكاد لفلسطين ومقدساتها وأهلها من مؤامرات. وأخذ يواصل المحاضرات والمسيرات لذلك رغم الأحكام العرفية المضروبة على البلاد من المستعمرين الفرنسيين آنذاك. ولكن المؤامرات تواصلت على فلسطين حتى بلغت ذروتها باتخاذ الأمم المتحدة قرارها المشؤوم الجائر عام ١٩٤٨م بتقسيم فلسطين. عندئذٍ دوى نفير الجهاد.

«وانطلق السباعي يجوب المدن والقرى السورية من حدود فلسطين في الجنوب إلى حدود تركيا في الشمال، ومن حدود العراق في الشرق إلى الساحل السوري في الغرب يدعو إلى التطوع لإنقاذ فلسطين، ويثير لهفة المؤمنين إلى جنة الرضوان التي فتحت أبوابها خلف نيران المعركة في الأرض المقدسة.

واندفع في مقدمة الركب يقود كتائب الشباب المؤمن ممن رباهم على مبدأ: «والموت في سبيل الله أسمى أمانينا»... فحاض بهم المعارك القاسية في الميدان الذي اختاره مركزاً لانطلاقه وحركاته، وكان في قلب مدينة القدس وأطرافها؛ ليحتمي بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وكان القتال يومذاك يدور فيها من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع، فضرب حينذاك وإخوانه أروع نماذج البطولة،

وقد تساقط من حوله عشرات الشهداء من المجاهدين الأبرار... أودع أكثرهم الثرى بجوار المسجد الأقصى، ودُفن بعضهم بدمشق.

وفي أرض المعركة تم لقاء كتائب إخوان سورية بكتائب إخوان مصر، والتقى السباعي بالبنا، عليهما رحمة الله، وتعاون القائدان ووضعوا خطة مشتركة للمعركة وتوزعا أماكن القتال، واستمر مجاهدو الدعوة يقاتلون ببسالة وشجاعة نادرتين بقيادة الدكتور السباعي، إلى أن توقف القتال بتوقيع الهدنة التي فرضت على العرب بعد أن كاد يتم لهم النصر على اليهود، فكانت هذه الهدنة المشؤومة بداية القوة لإسرائيل وبداية التقهقر للقضية الفلسطينية... وأبعد المجاهدون رغماً عنهم عن أرض المعركة إلى بلادهم^(١٦).

بعد الهدنة المشؤومة التي عقدها الذين تخاذلوا عن نصره فلسطين وأسلموها للمؤامرات..

«عاد السباعي إلى دمشق يحمل جراحات قلبه... عاد إلى شعبه وإلى جماهيره يروي لهم قصص المأساة الدامية والكارثة الأليمة والنكبة المفجعة... عاد يطوف المدن والقرى السورية من جديد، يشرح للجماهير أسرار المعركة وأسباب الهزيمة المفتعلة التي دبرت بليل مشؤوم، ويبين الأخطار التي تتهدد الأمة من جراء إعطاء اليهود فرصة للتقوي والاستعداد، ويدعو لاستئناف القتال قبل أن يتم لهم ذلك...»

وعلى مر الأيام والسنين لم ينس السباعي - الذي اكنى بنار المعركة ونار المؤامرات التي سببت فشلها - القضية

الفلسطينية التي أعطاها من اهتمامه الشيء الكثير، فاستمر يذكرها ويذكر بها في كل مناسبة، وأراد أن يجعلها قضية حية في ضمير الجماهير حتى لا تفتر روح المقاومة والرغبة في الثأر والشعور بالمسؤولية الكبيرة»^(١٧).

١٥ - وعاد مصطفى السباعي بعد تلك الأزمات العصيبة إلى سورية ليأخذ دوراً جديداً فيها . فلقد فاز بعضوية الجمعية التأسيسية - التي تحولت بعد ذلك إلى برلمان في دورة ١٩٤٩ - ١٩٥٤ م عن مدينة دمشق - بتفوق أذهل المراقبين وكشف عن تقدير سورية للرجال، فقد منحته دمشق ثقتها الكبرى وهو ابن مدينة حمص لما علمت من إخلاصه وجهاده وعظيم طاقاته . .

«وسرعان ما لمع نجمه كبرلماني شعبي متفوق، إذ كان الصدى الحقيقي المعبر لأمني الشعب وآلامه، والصوت المدوي المجلجل لجماهيره يصدع بالحق ولا يداري، ويقارع الباطل والفساد ولا يهادن، ويترفع عن المكاسب والمغانم ولا يساوم . . فاتجهت إليه الأنظار والتفت حوله القلوب داخل البرلمان وخارجه . . فانتخب نائباً لرئيس المجلس، وأصبح عضواً بارزاً في لجنة الدستور العامة وأحد الأعضاء التسعة الذين وضعوا مسودة الدستور وقدموها إلى اللجنة العامة لإقراره بعد أن ضمنه مواد إسلامية رائدة .

وقد بُذلت له العروض بالحاح مغرٍ للدخول في الوزارات المتعاقبة، فتأبى مؤثراً العمل الشعبي والبقاء بين الجماهير يعيش مشكلاتها وقضاياها عن الانشغال عنها بالمناصب والمغانم»^(١٨).

وكان له وإخوانه - الذين فازوا بثقة الشعب صحبته - دور كبير في حفظ هوية الأمة والحفاظ على خط سيرها الإسلامي بما ضمّنه دستور سورية من مواد حفظت لسورية إسلاميتها وأصالتها.

١٦ - لم ينقطع السباعي عن العلم في الفترة السابقة رغم الأعباء الطاحنة التي نهض بها والجهد المتواصل؛ فقد كان يواصل كتابته لرسالة الدكتوراه حتى إذا كان عام ١٩٤٩م، عاد إلى مصر، وناقش الدكتوراه، وكان موضوع أطروحته العلمية: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ومُنح لقب الدكتوراه عنها بدرجة الامتياز.

«ولقد أدهش اللجنة بدقته العلمية، واستيعابه للموضوع من كل جوانبه، وما أبداه من آراء ومناقشات ودفاع، دحض به شبهات المستشرقين وأعداء السُّنة النبوية بأدلة علمية دامغة، ولقد أصبح هذا الكتاب القيم من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكل باحث وعالم، وطالب علم...»^(١٩).

وعلى الجانب الآخر لم يُغفل السباعي الجانب التربوي الباني من منهجه المتكامل، فبعد أن زاول التدريس في ثانويات حمص عام ١٩٥٠م انتقل إلى دمشق ليؤسس المعهد العربي الإسلامي بدمشق ليكون مؤسسة تربوية إسلامية، ثم أخذ السباعي مكانه أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية الحقوق، فكان لأسلوبه الدعوي دور تربوي بارز فيها. ثم انتدبت الدعوة الإسلامية في سورية ليرأس المؤتمر الإسلامي الشعبي إلى باكستان عام ١٩٥١م.

وقد شارك في سلسلة من المؤتمرات الشعبية التي كان يعقدها كبار رجال الدعوة الإسلامية وقادتها في العالم الإسلامي. وسنعرض لاحقاً لدوره التربوي المتميز في تأسيسه لكلية الشريعة بدمشق.

١٧ - في عام ١٩٥٢م أعلن السباعي تأييده الحار للثورة الشعبية في مصر، ومساندته لإخوانه الفدائيين في القنال ضد الاستعمار البريطاني، وصرّح أنه سيرسل الآلاف من متطوعي الإخوان في سورية لنجدة إخوانهم ومشاركتهم الجهاد، فأغضب هذا التصريح الحاكم أديب الشيشكلي، فأمر باعتقاله وأخيه محمد المبارك. فأعلن المثقفون والأحرار في كل مكان في سورية ثورتهم على الطغيان، فجرد عليهم الشيشكلي الاعتقال والتنكيل. ولبت السباعي والمبارك في سجن الشيشكلي عدة شهور.

وحين خرج السباعي من السجن لم يسلم من تعسف السلطة الديكتاتورية..

«فلقد تعرّض لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته..»

ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات، ولكنه اشتط في ذلك وطلب من أساتذة الجامعة وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهد والدخول في الحركة التي أسسها باسم «حركة التحرير».

ولكن السباعي الذي تعشّق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة، رفض الانصياع للأوامر وتمرد عليها؛ فغضب الشيشكلي وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد، فاختار لبنان وبقي فيه حتى أواخر عهد الشيشكلي. وهناك في لبنان التفّ حوله مئات من الشباب الجامعي

المثقف وأظهروا له استعدادهم لإنشاء حركة إسلامية في لبنان بقيادته . وفعلاً ، فقد أسس معهم هذه الحركة التي استمرت بعد ذلك حتى الآن تسير على النهج الذي رسمه لها السباعي» (٢٠) .

١٨ - لقد كان إرساء الأستاذ السباعي المواد الدستورية التي تحفظ هوية الأمة وتعبّر عن شخصيتها في الدستور السوري سبقاً موفقاً في إرساء قواعد الإسلام في سورية . وكانت هذه المواد - كما صرح - لا بد لها من مصادر تغذية حية ، فإن مادة «الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع» تقتضي تخريج علماء في الفقه والتشريع الإسلامي ، وإن تخريج العلماء لا بد له من مؤسسة علمية عليا تقدم لهم العلوم الشرعية على أرقى مستوى يؤهلهم لتزويد المواد الدستورية بالعقول الشرعية الخصيبة ذات الثقافة الواسعة (٢١) .

هذا ما استند إليه السباعي في مطالبته البرلمان بتأسيس كلية الشريعة بدمشق . وكان تأسيسها من مآثره الفضلى ومن إسهاماته الجلّى في البناء التربوي . .

«ولقد نجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود، فكان أن تمّ تأسيسها عام ١٩٥٥م، وكان أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق واضطلاعه بكافة المسؤوليات العامة الملقاة على عاتقه كداعية وصاحب فكرة . .

ولقد عمل منذ تسلمه عمادة كلية الشريعة بالتعاون مع إخوانه من الأساتذة الجامعيين الذين يؤمنون بفكرته على إرساء

دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية
والأساليب الحديثة، لتحقيق الهدف المنشود في تخريج أجيال
من العلماء الدعاة والفقهاء والمدرّسين الجديرين بحمل لواء
الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له»^(٢٢).

ولكن هل أروى هذا العمل الجليل مطامح مصطفى السباعي؟
إن آماله التربوية كآماله الجهادية تظل دائماً في صعود..

«كان يهدف لإحياء التراث الفقهي الإسلامي العظيم،
وبعثة بقلب جديد يلائم التطورات الاجتماعية والتشريعية
الحديثة، فعمل بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه تأسيس
كلية الشريعة على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى
إحيائه وصياغته صياغة جديدة وتبويبه وتصنيفه على أحدث
الأساليب المتبعة في أرقى الموسوعات العلمية والقانونية
في العالم»^(٢٣).

وغني عن الذكر أن الدكتور السباعي كان يواصل، مع ذلك كله،
خدمة قضية فلسطين وجهاده لها، فكان الميدان الذي يواكب الميدان
العلمي لديه. وكان آنذاك عام ١٩٥٥م عضواً في المجلس النيابي وعميداً
لكلية الشريعة بجامعة دمشق، فوظف نفوذه في كليهما وجهوده لخدمة قضية
فلسطين، فابتكر لخدمة القضية وتأهيل الناس لمواصلة العمل لها أسلوباً
جديداً..

«دعا إلى تخصيص أسبوع من كل عام باسم «أسبوع الخطر
الصهيوني» تقام فيه المهرجانات الشعبية في سائر أنحاء
البلاد، وقد قرن القول بالعمل، فبدأ في عام ١٩٥٥م هذا
المشروع، ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي
للاشتراك في هذا الأسبوع وطاف معهم في شتى أنحاء البلاد

يتحدثون عن الخطر الصهيوني ويقودون المظاهرات الشعبية لمطالبة الحكومات والمسؤولين بإعداد الشعب للمعركة واتخاذ كافة الاستعدادات لمعركة الثأر..

كما طالب إخوانه في المجلس النيابي بتدريس القضية الفلسطينية كمادة أساسية في مناهج التعليم. وقد أقر هذا الاقتراح ونفذ بالفعل..

وفي عام ١٩٥٥م نفسه ألقى خطبة في مسجد جامعة دمشق بمناسبة أسبوع التسليح، ونقلت الإذاعة هذه الخطبة على جميع محطاتها، وقد علقت الصحف الدمشقية وغيرها في ذلك الوقت على ما كان لهذه الخطبة المثيرة الرائعة من أثر بليغ جعل الناس يقدمون التبرعات السخية التي بلغت بضعة ملايين من الليرات. واستمر كذلك يكتب المقالات في مجلته (حضارة الإسلام) يذكر بالقضية الفلسطينية ويدعو للاستعداد، وأحدث لذلك باباً خاصاً في المجلة لمتابعة تطورات القضية ومراحلها هو «الدرة المغتصبة»^(٢٤).

١٩ - ولقد كان عام ١٩٥٥م عاماً خصيباً في نتاج أستاذنا السباعي، إذ كان العام الذي عادت فيه الأوضاع الشرعية الدستورية إلى البلاد، ففضلاً عما أوردناه من قبل بتأسيسه كلية الشريعة فيه، وتخصيصه أسبوعاً من كل عام للتذكير بالخطر الصهيوني وضرورة الإعداد له، كان هذا العام عنده عام برنامج الصحافة..

«أصدر فيه جريدة «الشهاب» السياسية الإسلامية الأسبوعية، وكان المشرف على تحريرها وسياستها العامة، وقد استمر صدورها حتى قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨م، وتوقفت بعدها عن الصدور بعد أن قامت بواجبها نحو قضايا الأمة

العربية والإسلامية وقضايا الشعب خلال أكثر من ثلاث سنوات خير قيام، ولقد كان للسباعي فيها مقالات وبحوث روحية وفكرية واجتماعية وتاريخية وسياسية رائعة.

وفي نفس العام ١٩٥٥م حصل الدكتور السباعي على امتياز بإصدار مجلة «المسلمون» بعد احتجاجها في مصر وظلّ رئيساً لتحريرها إلى سنة ١٩٥٨م حيث رأى تغيير اسم المجلة وتجديدها، فاختار لها اسم: «حضارة الإسلام»، التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشق طريقها بقوة ومضاء، ولقد أراد أن يجعل من هذه المجلة مدرسة للفكر الإسلامي، توضح معالم الطريق، وتوحد مناهج التفكير، وتعكس حقيقة الإسلام الناصعة في صورة مشرقة واضحة» (٢٥).

إزاء هذا النشاط العارم للدكتور السباعي يفاجأ الرأي العام بعد هذه الأحداث بالخبر المذهل الآتي:

«حاول أحد المجرمين المأجورين الإقدام على اغتيال مصطفى السباعي، وكانت محاولة فاشلة، تمكنت على إثرها سلطات الأمن من إلقاء القبض على المجرم، ولدى التحقيق تبين أنه من عصابة مأجورة لمصلحة دولة أجنبية، وأن السبب هو وقوف السباعي في وجه الأحلاف الغربية وفضحه نواياها الاستعمارية. وقد نشرت الصحف المحلية آنذاك نبأ محاولة الاغتيال» (٢٦).

وهكذا سلّم الله الأستاذ المجاهد من كيد الأعداء. وليست المحاولة الأولى، فإن مواقف السباعي الجريئة جعلته يواجه كثيراً من الأخطار. فكم من خطابات التهديد وصلته من الخصوم الداخليين والخارجيين،

وكم من المغريات بذلت له ليعدل عن مواقفه الجهادية، ولكنه كان كالجبل الأشم - بعون الله - إيماناً وصموداً على طريق الدعوة والحق.

٢٠ - وینفتح أمام السباعي عالم جديد من الجهاد، وتلتئم أمامه آفاق جديدة للدعوة خارج البلاد العربية والإسلامية خلال عدد من الرحلات ..

«ففي عام ١٩٥٦م أوفدته الجامعة السورية إلى ديار الغرب لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، فزار تركيا وإيطاليا وبريطانيا وإيرلندا وبلجيكا وهولندا والدانمارك والنرويج وأسوج وفنلندا وألمانيا والنمسا وسويسرا وفرنسا .. واجتمع في هذه البلاد كلها بالمستشرقين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية وناقشهم في مؤلفاتهم عن الإسلام وكشف لهم الأخطاء العلمية والتاريخية التي وقعوا فيها، وبين لهم حقائق الإسلام، بأسلوب علمي، فأدهشهم بقوة حجته، وغزارة علمه، وحضور بديهته، وسعة آفاقه، ومرونة أسلوبه ..

وفي عام ١٩٥٧م سافر إلى موسكو مع إخوانه عمداء كليات الجامعة بدعوة من جامعة موسكو .. زار خلالها معظم الجامعات الروسية في مختلف الأقاليم، والتقى بأساتذة الدراسات الشرقية والتاريخية والاجتماعية وناقشهم في أقوالهم وآرائهم في الإسلام، كما ناقش غيرهم من الشخصيات. وشرح لهم فكرة الإسلام الثائر على كل باطل وعلى كل ظلم واستعباد واستعمار وطمغيان وفساد» (٢٧).

٢١ - وكان أن شغل مقعداً في المجلس النيابي عن مدينة دمشق مطلع عام ١٩٥٧، رشحت له مصطفى السباعي النخبة السياسية في البلد، ورشح اليساريون والعلمانيون شخصية تدعمها السلطة، ورغم التأييد الشعبي الكبير للسباعي فقد فرضت السلطة المرشح الآخر بسائر الوسائل غير المشروعة. وكانت سابقة في سورية مؤسفة.

٢٢ - لقد أذهلنا - لا ريب - ما قطعه السباعي في سنوات حياته المعدودة من أشواط في العمل والإنجاز، لا تستطيعها العصبية أولو القوة.. ولقد ظل جواد السباعي يطارد الزمن دون راحة، وينتقل من ميدان إلى ميدان، يجد في التعب راحته وفي المشاق أنسه. فهل سيظل الجسم يطاوع الروح في ركضها ومسابقتها للزمن عبر المطامح الكبرى؟ أو إن للجسم طاقة لا يستطيع تجاوزها؟

هذا ما يجيبنا عنه من أرّخ للفترة القادمة من حياته..

«ولقد كان يحمل جسمه وأعصابه من إرهاق العمل المتواصل في سبيل الله ما جعل هذا الجسم - على ما يتمتع به من قوة وبأس وحيوية نادرة - ينوء بالأثقال التي حملها وحده، وانطلق بها يسابق الزمن ليشيد خلال عمره القصير صرح الدعوة الإسلامية ويعبّد الطريق لجنودها، ولم يعبأ بنصح الأطباء ولا بأعراض المرض التي كانت تحمل النذير بانهايار هذا الجسم إن لم يرفق به صاحبه، ولكن الشعور بالواجب والمسؤولية كان يتغلب عليه ويصم آذانه عن سماع نصائح الأطباء ونذير الأعراض المرضية..»

فعندما قاد إخوانه في معارك فلسطين كان مصاباً قبلها بارتفاع ضغط الدم، وكان الأطباء قد أشاروا عليه بضرورة الإخلاق

إلى الراحة والسكينة والهدوء وعدم الخطابة . وكأن الأستاذ السباعي قد فهم من الأطباء عكس ما أشاروا عليه ، فلم يعبا بما قالوا ، كما أنه تلمظ باعتذاره لأبيه عندما ذكّره بنصائح الأطباء وأن مجرد الخطابة تشكل على صحته خطراً ، فكيف بالحرب وخوض المعارك ..

كل ذلك لم يثبط من عزيمته ، فمضى يثير الجماهير ويدعوها للتطوع . . ومضى يقود الكتائب إلى المعركة دون أن يحسب حساباً لصحته وما يتهددها ، ولقد نسي مرضه خلال المعارك . . ولمّا عاد من فلسطين استمر في كفاحه وجهاده لا يثنيه عن عزمه شيء . . فلم تلبث أن ظهرت عليه أعراض مرض السكر ، فكان يستشفى من أمراضه ويأخذ ما ينبغي لها من علاجات ، ولكنه ما كان يحب الراحة ولا يفكر فيها بل كان يستلذ الكفاح والعمل والنشاط ، وكم مرة وقف خطيباً يتدفق بالحيوية والنشاط ويثير الحماسة ويلهب المشاعر ويفجر البراكين ، وهو يعاني المرض والأوجاع دون أن يظهر شيء من أثر ذلك على محياه الطلق المشرق أو على كلامه العذب الجميل ، أو على صوته الجهوري العاصف الرنان . . .

وحمل المرض والأوجاع على كتفيه عبئاً من جملة الأعباء ، ومضى يدفع الركب ويبني الصرح ويعبّد الطريق ويقود الأجيال . . . ولعمري إذا كان المرض سبب انطفاء شعلة بعض الناس وسبب تهاونهم وقعودهم ، فقد أضاف المرض دليلاً من أقوى الأدلة على جَلَدِهِ ، فلم يقعه ولم تفتربه همته ، ولم تخب شعلة نشاطه أو تدفق حيويته .

وفي عام ١٩٥٧م وبُعِيد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفياتي هجم عليه المرض هجمة عنيفة فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشل حركته وأثار فيه الآلام المضنية.. فأقعده بعد طول مجالدة.

ولقد ضرب أستاذنا السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل، مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله وتحاشي التسخط والتبرم والشكوى، فما كنا نسمع إلا الحمد لله يجري على لسانه كلما سألناه عن آلامه مهما اشتدت وازدادت.. وكان رحمه الله كلما برحت به الآلام وأرقت ليله وحرمته لذة النوم أسرع إلى القلم والقرطاس ليسجل ما تفيض به نفسه من معانٍ روحية سامية يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل»^(٢٨).

من نماذجه الرفيعة مناجاته الرهيفة الآتية إبان مرضه ينشد فيها رضاء الله، ويؤدعه حين الرحيل غرسات الدعوة أمانة عنده..

- «يا حبيبي: ها أنا بعد خمس سنين لم ينفعني علم الأطباء، ولا أفادني حكمة الحكماء، ولا أجداني عطف الأصدقاء، ولا آذني شماتة الأعداء. وإنما الذي يفيدني بعد اشتداد المحنة كسوة الرضا منك؛ وينفعني بعد القعود عنك حُسْنُ القدوم عليك؛ ويخفّف عني جميلُ الرعاية لمن زرعتهم بيدك وعجزتُ بمحتتي عن متابعة العناية بهم، ومَنْ مثلك يا حبيبي في صدق الوفاء، وجميل الرعاية، وحسن الخلافة؟ فإن قضيتَ فيّ أمرَك - وهو نافذ فيّ لا محالة -، فهم وأرضهم الطيبة أمانة عندك، يا من لا تضيع عنده الأمانات، ولا يخيب فيه الرجاء، ولا يُلتمس من غيره الرحمة والإحسان»^(٢٩).

٢٣ - إن عهدنا بالمرض يوهن القوى، ويجفف الفكر، ويحبط النشاط، إذ الجسم في المرض - بل حتى في النقاهة - بحاجة إلى راحة قسرية لاستعادة النشاط والحيوية.

ولكن هل للكبار والعظماء مع المرض شأن آخر؟ وكيف كان حال السباعي مع المرض؟

«لقد كانت فترة مرضه الطويل الذي استمر ثماني سنوات حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء.

ورغم هذه الآلام المبرحة المستمرة، فقد كانت فترة مرضه هذه من أخصب فترات حياته إنتاجاً فكرياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً. فألف القسم الاجتماعي من كتابه «هكذا علمتني الحياة» وهو في مستشفى المواساة عام ١٩٦٢م وكان يختلس القلم والقرطاس في غفلة من أعين الأطباء الذين شددوا عليه في ضرورة الابتعاد عن التفكير والقراءة والإخلاد إلى الراحة التامة، فكان هذا الكتاب من أروع كتبه وأطرفها؛ لما حواه من الحكمة والتجارب والإرشاد والتوجيه السديد والرأي الرشيد والبلاغة الرائعة.

وفي هذه الفترة أيضاً طبع كتابه «القلائد من فرائد الفوائد» وهو مختارات من بطون أمهات كتب الأدب والعلم والفقه والتاريخ. وكذلك طبع كتابه العلمي الكبير: «السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، وهو أثر علمي خالد في الدفاع عن السُّنة ومكانتها وفي الرد على خصومها من المستشرقين والمغرضين»^(٣٠).

وكان الطلبة في الجامعة السورية (دمشق) يشهدون السباعي يتوكأ على عصاه في كل أمسية من أمسيات رمضان إلى قاعة محاضرات كلية الشريعة ليلقي درسه اليومي الذي أسماه «قاعة البحث». وكنت تشهده وهو يتهدر أمام المنبر، وكأن المرض قد زايله ولم يعد يشعر بالآلام والأسقام، بل كان يزداد حيوية وقوة كلما اعتلى منبر قاعة البحث، حيث ألقى من على متنه ذخائر من فكره ودعوته، ضمّنها أفئدة طلابه، وذخّره بها قبل رحيله الأبدي.

٢٤ - حج السباعي إلى بيت الله الحرام، وأنس بزيارة النبي عليه الصلاة والسلام مرات عدة، وحَدَّث عن حجه وذكريات زيارته في محاضرات خصيبة له، لعلها من الذخر الذي ضاع. ولكن حين أقعده المرض عام ١٣٧٧هـ، وظل يكابد الآلام ثماني سنوات ساوره الشوق إلى الحج وشده الحنين إلى زيارة النبي ﷺ.

«... وبالرغم من شدة المرض وقسوة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة من ليل أو نهار فإن حنينه إلى زيارة الرسول القائد ﷺ والبيت العتيق كان يهيج ويزداد حتى لم يبق للصبر مجال، فعزم الأمر وحزم الأمتعة وسافر إلى المدينة المنورة في «رحلة إلى الله ورسوله» وذلك قبيل موسم الحج الأخير ١٣٨٤هـ، ولم يمنعه المرض والألم من أداء شعائر الحج للمرة الثالثة. ولقد كانت هذه الرحلة «حجة الوداع» التي ودع فيها الديار المقدسة وودع فيها مثنوى الرسول الأعظم قبل أن ترتفع روحه الطاهرة إلى الله»^(٣١).

وفي هذا الحج سطعت له آلاء، وتكشفت آفاق، فكانت أنواره الكاشفة قبيل الرحيل.. وقد خلف لنا من ذكرياته في هذا الحج الأخير

مقالاً حافلاً بروحانية السباعي وقربه من ربه أسماه: «رحلة إلى الله ورسوله» سنعرض له في حينه.

٢٥ - وفي يوم السبت ٣/١٠/١٩٦٤م انطفأت الشعلة المتوقدة، وتوقف القلب الكبير. لقد لاقى صاحب هذا النشاط الخصب وجه ربه بعد أن أدى الأمانة حق أدائها، جاهد الاستعمار وأعوانه في كافة مراحل حياته وتوج ذلك بقيادة ركب المجاهدين إلى فلسطين للحفاظ على القدس والمسجد الأقصى. وأرسى - بدور تاريخي رائد - قواعد جماعة الإخوان المسلمين في سورية، وقادها بقوة وحكمة، ذخرها بكل ما يستطيع من زاد، وبنى لها الأجيال الصاعدة التي ستحملها. وركز مبادئ الإسلام في البرلمان السوري، وأسس كلية الشريعة وموسوعة الفقه الإسلامي، ودعم أسس الفكر الإسلامي المعاصر بمؤلفاته ومقالاته ومحاضراته. وأخرج الصحف الإسلامية «المنار» و«الشهاب» و«المسلمون» و«حضارة الإسلام»، وعالج من خلالها قضايا الإسلام المعاصرة، وذاد بها عن الإسلام مدى عقود. وكان عوناً لأبناء الإسلام وذائداً عن حياضه في كل بقعة من بقاع الأرض.

لاقى الرجل الكبير وجه ربه بعد أن صنع ذلك كله، وعيون الأصدقاء والخصوم ترنو إلى نعشه بإكبار وتقدير وإعجاب يملؤه الأسى..

ولقد عبرت سورية عن وفائها للراحل الكبير، فتقاطر المشيعون من مختلف المحافظات والأقطار المجاورة على مدينة دمشق ليشاركوا في تشييع جثمانه في موكب فريد في مهابته وأثره وحشده، لم تشهد له دمشق مثيلاً. فلنصنع إلى وداع سورية راحلها الحبيب في هذا الوصف المهيب:

«بدأ الموكب سيره تتقدمه السيارات التي تحمل أكاليل الزهور باسم ممثلي الدول العربية والإسلامية في دمشق،

وباسم مختلف الجمعيات والهيئات الإسلامية.. وسار في
المقدمة سفراء البلاد العربية والإسلامية والعلماء وأساتذة
وممثلو الهيئات وأهل الفكر والمثقفون والشباب المؤمن
الحزين الذي فقد قائده ورائده...

كان الناس يبدون في الشوارع وكأن كلاً منهم قد ألمّت به
المصيبة، حتى الذين وقفوا يتابعون الموكب على جنبات
الشوارع كانت عيونهم دامعة ووجوههم واجمة حزينة..

وعند وصول الموكب إلى سوق «الحميدية» كانت متاجر
السوق قد أقفلت أبوابها وشارك أصحابها في مسيرة الجنازة
حتى وصلت إلى مدخل المسجد الأموي، فانضمت إليها
الجماهير التي كانت تنتظر في مدخل المسجد وساحته
الكبرى، وهنا بلغ الانفعال غايته وغدا الموقف مؤثراً لدرجة
شديدة، وفي جو هذا التأثير أقيمت للجنازة صلاة لم تشهدها
دمشق منذ زمن طويل، فقد غصّ المسجد الأموي
على اتساعه بألوف المصلين.. وتعالّت الأصوات تسأل الله
للفقيد أعلى المراتب في جنات الخلد وأن يجعله حيث كان
يتمنى مع سيد المرسلين محمد عليه الصلاة والسلام
ومع إخوانه من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..
كما تسأل الله الثبات على العهد وأن يعوض الإسلام
والأمة عنه بخير عوض.. ورددت أصوات الآلاف من
الشباب قسم العهد بالثبات والوفاء للدعوة الإسلامية التي
حمل السباعي لواءها..

ولم تهدأ الأصوات إلا عندما ارتفع صوت أحد الإخوان من
وراء مكبر الصوت يقدم الخطباء الذين توالوا على المذيع

يؤبنون الفقيد بكلمات مؤثرة يعددون فيها بعض مزاياه
وشمائله، وقد كان أول المتكلمين الدكتور حسن هويدي،
ثم الأستاذ محمد المبارك، ثم الأستاذ محمد المجذوب،
ثم الأستاذ مشهور حسن من الأردن، ثم الشيخ عبد الرؤوف
أبو طوق باسم رابطة العلماء، ثم الدكتور أديب صالح،
ثم الأستاذ الشاعر محمد الحسناوي..

وبعد ذلك تقدم المشيعون من آل الفقيد يشاركونهم العزاء،
ولقد استغرق تشييع الجنازة من بيت الفقيد إلى المشوى
الأخير مدة أربع ساعات كانت من أشد ساعات العمر وطأة
بأحزانها وآلامها وشدتها على الشباب المؤمن الذي رباها
الفقيد الكبير»^(٣٢).

وقد أقامت جامعة دمشق في ذكرى الأربعين لوفاته حفلاً تأبينياً كبيراً
تعاقب على الكلام فيه أساتذة الجامعة مشيدين بمناقب الفقيد وآثاره
الخالدة^(٣٣).

كما أقامت الهيئات الإسلامية في لبنان حفلاً تأبينياً كبيراً أشاد فيه
كبار المتكلمين بمناقب الفقيد ومنجزاته في سورية والعالم الإسلامي على
سائر المستويات^(٣٤).

٢٦ - ولمصطفى السباعي من الأولاد: ثلاثة ذكور، هم: حسان،
وعامر، ومحمد. وثلاث إناث، هن: سلمى، وأمل، ووفاء. وأكبرهم
سلمى وحسان، وكانا حين وفاة والدهما في الثانية عشرة والحادية عشرة.



المراجع

- (١) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، ٤، ٥، ٦ جمادى الآخرة، رجب، شعبان ١٣٨٤هـ/ تشرين أول، تشرين ثاني، كانون أول ١٩٦٤م - السنة الخامسة، مقال: «تاريخ دعوة في حياة رجل»، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٢٥-١٢٦.
- (٢) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٢٦.
- (٣) نفسه، مقال: «السباعي على طريق المعرفة والحق»، الدكتور محمد أديب الصالح، ص: ١٠٨.
- (٥، ٤) نفسه، الأسطواني، ص: ١٣٢، ١٢٧.
- (٧، ٦) مقابلة مع زميل السباعي في الدراسة بالأزهر الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٨) جريدة «الفتح» (المصرية)، العدد: ٤٨٤، العام العاشر ١٣٥٤هـ، مقال: «واجب الشباب نحو بلادهم»، مصطفى حسني السباعي، ص: ١٤.
- (٩) مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (١٠) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، د. محمد أديب الصالح، ص: ١٠٨.
- (١١) جدول بمقالات الدكتور مصطفى السباعي في جريدة «الفتح» المصرية من عام: ١٣٥٠ - ١٣٥٩هـ المصادف: ١٩٣٠ - ١٩٣٩م، ص: ٣٧٤ - ٣٧٧ وموضوعاتها مبسطة في الكتاب.
- (١٢، ١٣، ١٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني.
- (١٥) «علماء ومفكرون عرفتهم: مصطفى السباعي»: محمد المجذوب، ١: ٣٩٨.
- (١٦، ١٧) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٤٠ - ١٤٣.
- (١٨، ١٩، ٢٠) نفسه، الأسطواني، ص: ١٣١، ١٢٧، ١٥٠.

- (٢١) تصريح شفوي حملة أحد تلامذة السباعي.
- (٢٢ - ٢٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٢٩، ١٤٤، ١٤٧، ١٥١، ١٥٠، ١٦٠.
- (٢٩) هكذا علّمتني الحياة: الدكتور مصطفى السباعي، ط ١ دمشق، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م، ١: ٢٠٢ - ٢٠٣.
- (٣٠، ٣١) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٦٢، ١٥٩.
- (٣٢) نفسه: مقال: «مصطفى السباعي في ذمة الرحمن»، قلم التحرير، ص: ٢٦٩.
- (٣٣) انظر: حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، «على طريق الوفاء للراحل الكبير»، ص: ١: ٢٤٧ - ٢٤٩.
- (٣٤) نفسه، ص: ٢٤٩.





السباعي في جماهير ١٩٥٤ دفاعًا عن إخوانه في مصر

الفصل الثاني

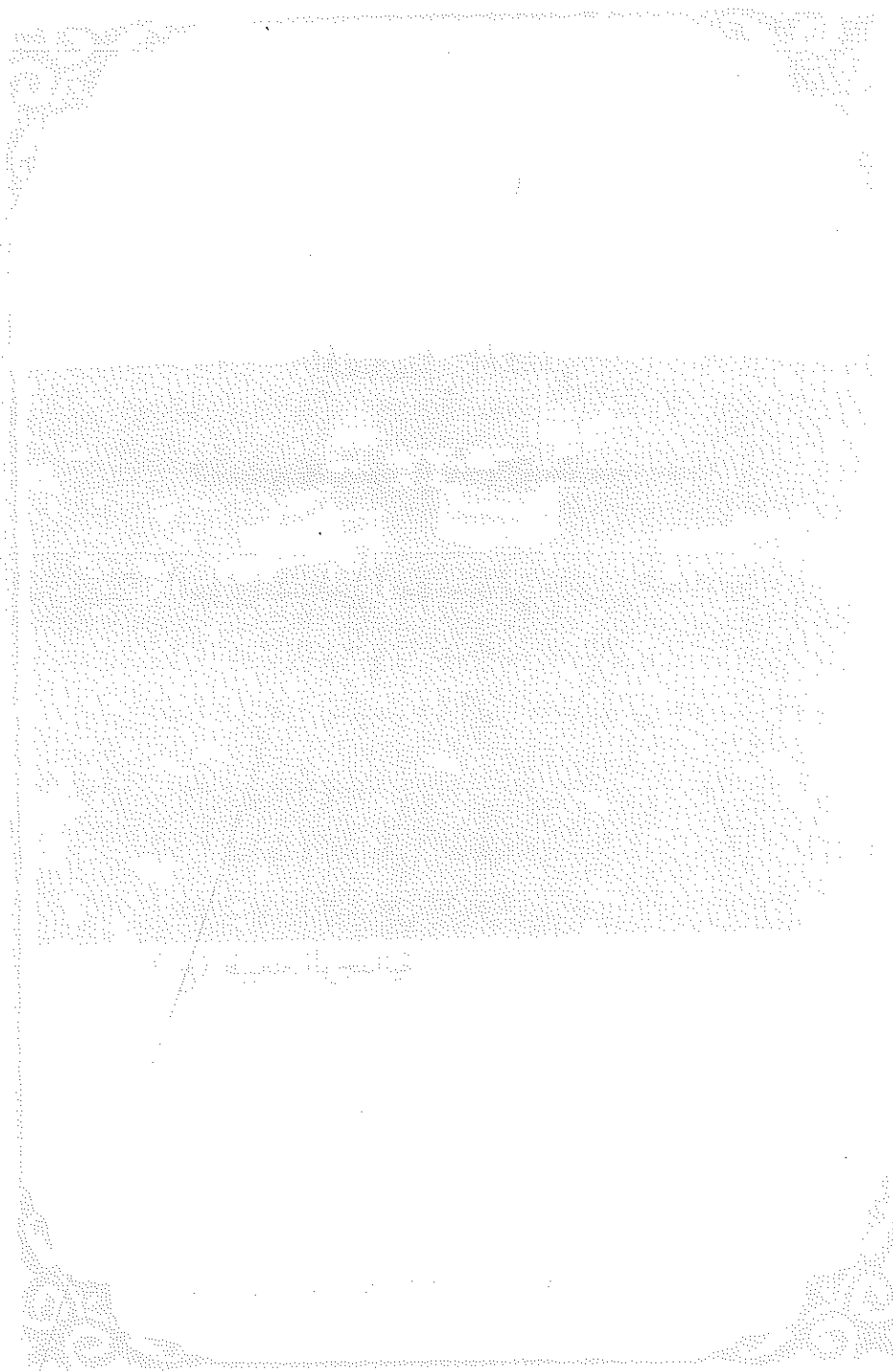
طبيعته وشخصيته

أولاً : المؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصيته :

- (أ) المكونات الذاتية لشخصية السباعي .
- (ب) العوامل الموضوعية التي أسهمت في تطوير شخصيته .

ثانياً : محاور شخصيته :

- (أ) شخصية السباعي العقدية .
- (ب) شخصية السباعي القيادية .
- (ج) طبيعته الوجدانية .



قد يأتي الحديث عن طبيعة الرجل الكبير بعد استعراض مواهبه ومنجزاته، وقد يربحاً تحليل شخصيته إلى حين استكمال عرض تلك المواهب والمنجزات. ولكن حرصني على أن يأتي الباب الأول تعريفاً مستكماً لشخصية مصطفى السباعي، أثرت أن أتبع ما عرضت من إجمال نشأته ومراحل حياته بتحليل لشخصيته وطبيعته رغبة في أن يأتي الباب تعريفاً مكتملاً لشخصيتنا الكبيرة. وأشرع بما يأتي:

أولاً: المؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصيته

إن من رأى الأستاذ السباعي في حياته أو اطلع على سيرته يطالعه من الرجال نموذج فذ قد رعاه الله وهياه ليؤدي دوره الخطير في أمته. لقد كانت شخصية السباعي ذات أبعاد كبرى أخرجته نسيج وحده، مغايراً في شخصيته لمألوف الناس.

يرسم لنا داعية كبير شخصية السباعي المتفردة فيقول:

«ورأيت نفسي واقفاً متهيئاً أمام سيرته الحافلة بوافر الإنتاج وجليل الأعمال، كالواقف على شواطئ البحر الكبير، تهوله عظمتُهُ، وتروعه قوّته، وتبهره لآلئُهُ وكريم أصدافه.

لقد كان السباعي رحمه الله كالبحر، عميقاً في فكرته، غنياً في مكنون جواهره، مهيباً في طلعتة، جميلاً رائعاً في منظره، سمحاً كريماً لمن طلب رفته أو مدّ يده ليغترف من خيريه.

لقد فقدناك يا أخي أبا حسان؛ ففقدنا أخ الهدى والتقى، وقوة العزيمة، ونفاذ الرأي، وحسن التدبير، والحلم الواسع على جهلاء الصف في الدعوة؛ لشدة مراقبتك لنفسك أن تنتصر لهواها.. عفيف اليد واللسان، طاهر الذيل والسريرة.. وكل هذا، مع إشراقة الوجه الجميل، وسماحة الخلق الكريم، ومهابة الرجولة الصادقة^(١).

ولمّا كان هناك مكونات داخلية لشخصيته نابعة من ذاته وأسرته، وعوامل موضوعية أسهمت في تكوين هذه الشخصية، وجدتُ أن أسلك في رصد المؤثرات استعراض مكونات شخصية السباعي ثم الانتقال إلى العوامل التي أسهمت في تطويرها.

(أ) المكونات الذاتية لشخصية السباعي :

لقد تهيأت لمصطفى السباعي المكونات الذاتية التي صاغت شخصيته الرفيعة، من والد عالم مجاهد، وأسرة رفيعة، وشعور فياض بمآسي الأمة المسلمة. تُظاَهِر ذلك ثقافةً عالية، ومطالعة دائبة، وطموح وثاب، وطاقات كبرى..

١ - ولد مصطفى السباعي لأسرة عريقة، ذات نسب أصيل، فتقلّب في مولده وصباه في مهاد العزة والرفعة، ونشأ على الاعتزاز بأسرته وأصلها العريق، وكان لاسم حيّه (حارة السباع) ما يوحى بالقوة والشمم،

وكان له من الأشقاء ما يكون قبيلة في أسرة، الأمر الذي أضفى على أسرته في نفسه القوة والمنعة، فلا يخاف صاحبها ولا يحزن.

ولما كانت هذه الأسرة العزيزة المنيعة تضيي الخير والفضل على الناس وتشتهر بهما، كان الإعجاب بأبنائها والثناء عليهم يطيب القلوب ويزرعها بالثقة في نفس كل فرد منها.

٢ - نشأ مصطفى في هذه الأسرة الفاضلة العريقة في كنف والد عالم مجاهد، فقد كان الوالد حسني السباعي سليل بيت علمي منذ مئات السنين، وكان أبوه وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل، فلا غرو أن تُعقد للوالد في حمص زعامة الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي . .

فمما يحدثنا ولده عن سيرته ومواقفه الجهادية:

«كان يرحمه الله قوي الشكيمة مع أعداء البلاد، مسارعاً إلى الجهاد حين يدعو الداعي وتمكّنه الفتوة والشباب من ذلك، مؤيداً للحركات الوطنية قولاً وعملاً، ولا أزال أذكر وأنا ابن ست سنين كيف رأيته مع أكثر علماء حمص وهو أصغرهم سناً، يطوفون في شوارع المدينة وأسواقها، وقد تمنطقوا بأحزمة الرصاص، وبأيديهم البنادق، يمشون على مهل صفوفاً منتظمة مكبرين مهللين، داعين الشعب إلى مقاومة الإفرنسيين حين اقتربوا من حمص عند احتلالهم لسورية، وقد تقدمهم الشيخ عبد الغفار عيون السود، ولا تزال ذاكرتي تحفظ منهم الشيخ أحمد صافي، والشيخ عبد القادر الخوجة، والشيخ نجم الدين الأناسي، وخال والدي الشيخ بدوي السباعي، والشيخ جمال الدين

الجمالي، رحمهم الله جميعاً وأسكنهم فسيح جناته .
فاستجاب الناس إلى دعوتهم للجهاد، واشتروا السلاح
والذخيرة، واستعدوا لمقابلة الجيش الفرنسي الذي كان قادماً
من طريق طرابلس .

ولا أزال أذكر تلك الليلة التي غاب فيها أبي عن البيت
ليخرج مع المجاهدين، وكيف سهرنا الليل كله مع أخي
نسمع أزيز الرصاص وطلقات المدافع، وأمي تضمّني وأخي
إلى صدرها وهي تدعو الله أن ينصر المجاهدين»^(٢) .

لذا لا نعجب أن نجد لولده مصطفى تلك المواقف البطولية المبكرة
التي عرضنا لها، والتي استمرت - على مستويات - طيلة حياته .

- وكان الوالد حسني السباعي من الجلة البارزين في المدينة في تزعم
أعمال الخير والخدمات الاجتماعية . .

«كان محباً للخير والإسهام في تأسيس الجمعيات الخيرية .
فهو أحد مؤسسي الجمعية الخيرية الإسلامية التي أنشأت بعد
ذلك الميتم الإسلامي بحمص، وكان يقف هو وعدد من
إخوانه على باب الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة من كل
أسبوع ليجمعوا من المصلين تبرعاتهم للميتم الإسلامي .

ولمّا حصل الإضراب العام ضد الفرنسيين في سورية عام
١٩٣٦م واستمر ستين يوماً أصابت العمال منها ضائقة
شديدة، فألّف لجنة من إخوانه لجمع التبرعات لهم . . وقد
طافوا على التجار في الأسواق فجمعوا من الأقمشة آلاف
الأمّاتار، ومن الرز والسمن مقادير كبيرة وزعت كلها على
العمال المتضررين»^(٣) .

فلا غرو أن نجد لدى ولده مصطفى وراثة عمل الخير المنظم، ونجد
يده سحّاء، مبسوطة لنجدة ذوي الحاجات.

وكان حسني السباعي رجل كفاح وجهاد وإصلاح، استقبل عزمات
النشاط العام لدى ابنه بالتشجيع والتحييد، وهو يكتّم عواطف الوالد
المشفق على ابنه، الموجس من الأخطار التي تعترض حياته، وهو يستقبل
الأهوال تلو الأهوال..

«وكان - رحمه الله - يحب دعوة الإصلاح ويشجع عليها،
وإني لا أذكر في حياتي التي قمت فيها بدعوة الإصلاح.. أنه
انتهرني مرة أو ثنائي عن طريقي، ولقد كان يستقبل سجلي
 واعتقالي بهدوء. حدثني أخي الشيخ محمد الحامد..
أنه قابل أبي بعد اعتقالي في مصر ونقلني إلى معسكر صرفند
في فلسطين.. وأخبر والدي بأمر اعتقالي، فتبسم وقال:
لا بأس، السجن للرجال..

ولمّا قامت معركة فلسطين بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٨م..
كنت قد مررت بحمص.. مع نفر من شباب الإخوان
المسلمين بأسلحتهم وذخيرتهم.. فلم أخبر أبي بعزمي على
الجهاد في فلسطين مع هؤلاء الشباب المؤمنين؛ لخوفي أن
يصرفني عن الجهاد معهم؛ لما يعلم فيّ من مرض (ارتفاع
ضغط الدم).. واتفق أن أصرّ أحد إخوتي الصغار على
التطوع في هذه القافلة؛ فلم يستطع والدي إقناعه بأنه صغير
لا يصلح لذلك، وتابعنا سيرنا إلى دمشق.

وفي اليوم الثاني قرأ والدي في بعض صحف دمشق أنني
سأذهب على رأس تلك القافلة إلى فلسطين، فحضر إلى
دمشق من حمص وسألني عن صحة الخبر، فأجبت بأنه

صحيح، ففكر قليلاً ثم قال: ألا ترى أن سفرك يعرض حياتك للخطر دون أن تقاتل، فكيف إذا قاتلت؟ قلت له: أنت تعلم يا أبي أن الآجال بيد الله، ولأن يموت الإنسان شهيداً خير من أن يموت مريضاً. فقال: إنني لا أحاول أن أثنيك عن الجهاد، فوالله لو كنت مستطيعاً القتال لكنت أول من يقاتل معكم، ولكنك تعلم أن أخاك صغير، وأمك لا تتحمل أن تذهب أنت وأخوك معاً إلى فلسطين لتقاتلا؛ فهلاً نصحت أخاك بالعدول عن السفر معكم؟ قلت له: فعلت فلم يستمع. فما تمالك أن فاضت من عينيه دمعان ثم قال لي: سلّمكما إلى الله، والله يحفظك وإخوانك المجاهدين، أيدكم الله وأعانكم. ثم عاد إلى حمص^(٤).

ترى، أي مناخ ذاتي هذا الذي كان ينمي روح الجهاد في نفس الولد مصطفى، وهذا والده؟! ومن هنا نعلم كم أعان الوالد ولده على تحقيق أهدافه الكبرى. مهما كلفت الوالد من تضحية!

وبيرٍ منقطع النظير يودع الولد والده حين وفاته، فهو يذكر تلك الآلاء الكبرى التي كانت سبب تدفق حياته على النحو الفذ الذي لا يتاح لكثير من الرجال، فمما يقول في تأييده:

«يا أبي!

لقد شهدت فجر حياتي وشهدت غروب حياتك، وشتان ما بين المشهدين! أنت استقبلت بولادتي ثواباً لا ينقطع إن شاء الله، وأنا ودعت بوفاتك برّاً كنت أستجيب به لأمر الله ما استطعت، وبركة - بدعائك ورضاك - كنت أستدفع بها المكاره، وأستجلب بها لطف الله في قضائه وقدره،

فأين فرحتك بي من حزني عليك؟ وأين ما انقطع عني من
خير مما دام لك من أجر؟! وهل نافعي بعد اليوم أن أذكر
فضلك عليّ إذا لم يجمعني الله معك ومع رسوله ﷺ ومع
أحبائه وأصفياه في جنات النعيم؟^(٥)

٣ - ولقد كان من مكونات شخصية السباعي الذاتية ما اشتعل به ذهنه
من ذكاء وتوقُّد منذ صباه، تجلّى في تسنمه منبر والده في الجامع الكبير في
مقتبل العمر، وقد ترامى إلينا ما كان ينشره أساتذته من ثناء على نباهته
وفطنته أوائل دراسته.. كما مر معنا كيف تولى قيادة الطلبة وريادتهم إلى
مكافحة المستعمر الغاصب في سن مبكرة.. وكيف كان أساتذته في
الأزهر يشنون على ذكائه وسعة أفقه، وقد مكّنه ذكاؤه الذي كان يسبق سنّه
من الارتقاء إلى مجالسة العلماء وكبار الرجال. ولقد كان ذكاؤه اللّماح
يبعث في نفسه وقوداً من الطاقات - من عون الله - لا يفنى.

٤ - ومن عوامل تكوين شخصيته حساسيته المرهفة لقضايا أمته
المسلمة، وتفاعله مع أحداثها ومآسيها. إنه لفرط هذه الحساسية كانت
تحفر هذه المآسي أخاديد في نفسه المرهفة، جعلته - على مرّحه -
دائم التفكير والتيقظ. وقد ظل التفاعل يحفره في شبابه إلى المزيد من
جهاد المستعمر والإيغال في كفاحه، حتى لاقى في ذلك - ما عرّضنا له -
من سجن وتنكيل. ولكنه كان راضي النفس، باسم الشجر، قد وجد في
جهاده ذاته، وأروى غليل نفسه، وأفرغ بعض ما يحتبس فيها من وقود.

٥ - وكان من أبرز مكونات شخصيته ما كان يطوي عليه نفسه من
طموح وثاب، وتطلعات رفيعة، وآمال بعيدة.. كانت نفسه مرجلاً من
الأماني تدفعه لتحقيقها في واقع الحياة. وما أحفل أمانيّ السباعي التي
كانت تزدهم بها نفسه ومشاعره.. لقد كان يطمح أن يبلغ معالي الأمور،

وذؤابات العلا . وكان يطمح أن يبلغ بأمته الحرية والمنعة ليُبْلِغها الحياة
المهتدية بهدى الله السائرة على منهجه ودستوره . . كانت هذه المطامح
العليا التي لا تبْلُغها أعمار الرجال تساوره صباح مساء ، لذا كانت تظل
نفسه في اتقاد مستمر .

٦ - ومن المكوّنات الذاتية لشخصية السباعي ، مما نحسب أنه تفرّد
به وولد معه : الاشتعال والحرقة . .

«كانت في نفس السباعي جذوة متقدة ولدت معه يوم ولد
وذهبت معه يوم ذهب . . جذوة عجيبة كانت تحت إمرته
كل حين .

كان يبدو رجلاً عادياً في الساعات التي كانت فيها الجذوة
راكنة هادئة تشع على نفسه كالمصباح الذي هدأت شعلته ،
فما أن يشعر السباعي أنه بحاجة إلى إيقاد تلك الجذوة حتى
يفتح مفتاحها ، وإذا هي تعلو ويسري لهبها في كل جارحة
من جوارحه ، فيتغير الرجل ويبدو على غير ما تعرفه ،
فإذا هو لهب مشتعل مضطرم . . وبهذه الشعلة المضطربة
يقف أمام الخصم ويقارع الأحداث ويصبر على الشدائد .
إنها جذوة الإيمان استمد منها في كل ساعة قوته وعزيمته
ولا أظنها خيّته في لحظة من لحظات حياته»^(١) .

(ب) العوامل الموضوعية التي أسهمت في تطوير شخصيته :

تلك بعض مكونات شخصية السباعي الذاتية التي كانت تنبثق
في نفسه ، وتشع من خلده أو من موروثاته ، وقد كان بها عالماً فذاً بذاته ،
أخذ هذا العالم ينمو في نفسه على وهج الأحداث والقضايا فيطور
شخصيته ويسمو بها . . ومن هذه الأحداث والقضايا :

١ - مجالات كفاحه :

إن من المسلّمات بأنّ النشاط والفعالية ينميّان الشخصية الإنسانية، ويطورانها قدماً، فإذا ما نَهَدَا إلى الجهاد والكفاح، كان ذلك مقوم ارتقاء لهما، وتجديداً لطاقتيهما في ذات الإنسان. ولقد كان كفاح السباعي المتدرج من قيادة الطلبة في المدارس والجامعات إلى النهوض لكفاح الاستعمار، ومن المطالبة بالإصلاح إلى قيادة الدعوة الإسلامية، ومن ثمّ قيادة العمل السياسي في البلاد.. هذه القفزات كان لها أثرها الواضح في نمو شخصية مصطفى السباعي، وتطوّر مكونات شخصيته.. وهذا ما يبدو جلياً في رصد مستويات إنجازاته العملية

فبعد أن كان الكفاح عنده سلبياً، يجيش في التظاهرات والاحتجاجات الرافضة للاستعمار والاستبداد والفساد، أضحي كفاحاً لإرساء قواعد الحياة الكريمة الراشدة في البلاد.. وبعد أن كان الإصلاح مناداة برفض الظلم والاستغلال، أضحي جمعياتٍ ترعى حق الأمة، ومؤسساتٍ تنهض بتربية وتوعية الجيل.. وكان لهذا الارتقاء المطرد أثره البين في تسامي شخصيته.

٢ - اتصاله بكبار الرجال :

ولقد أسهم أيضاً في تطوير شخصية السباعي اتصاله بكبار الرجال، بما في ذلك من مزية تلاقح العقول ونموّها، فقد كان إبان دراسته في مصر لا يقتصر على زمالة الطلبة، وإنما كان يزور كبار علماء مصر، ويغشى مجالسهم ومنتدياتهم، ويسعد بحوارهم ومحادثتهم، فيلفون لديه روحاً جديدة وثابة، ويلقي عندهم نضجاً وتجربة، فقد اتصل بالشيخ محمد خضر حسين كما اتصل بالسيد محمد رشيد رضا ومحب الدين الخطيب وسواهم، ونهل من علمهم وفضلهم.

وكان أبرز اتصال له التقاؤه بالإمام حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، وكان لذلك أثره الكبير في تطوير حياته؛ فلقد كان المرشد رجل عصره، يعود إليه الفضل في تأسيس الدعوة الإسلامية في مصر والعالم العربي، وكان - رحمه الله - ذا مقدرة فذة في نشر الدعوة الإسلامية، وخبيراً ماهراً بصنع الرجال، يحسن التخطيط واصطفاء المواقف والظروف..

لقد كان لذلك كله أثره في شخصية السباعي الذي أحسن قيادة الدعوة الإسلامية في سورية وأخصبها، وانتقل بفضل التقائه بالبنا، من المحيط الإقليمي إلى المحيط العالمي في الدعوة. بدا ذلك فيما نهض به من إنجازات واسعة، وأبرزها انضمام جماعة الإخوان في سورية إلى المد الإسلامي العام في البلاد العربية والإسلامية، كما بدا في المؤتمرات الإسلامية العامة التي عقدها السباعي أو شارك فيها بعد ذلك.

٣ - قيادته الدعوة الإسلامية:

لقد تطورت شخصية السباعي حين تولّى قيادة جماعة الإخوان في سورية، من منزع الثورة على الاستعمار والطغيان أوائل حياته إلى منزع البناء والنظام المؤسسي.

نعم، إن روح الثورة المضطربة في أستاذنا ظلت متقدة، ولكن روح الثورة في مرحلة البناء لمؤسسات الدعوة كانت أوفر نضجاً وخبرة وحكمة؛ فكان في قيادته للجماعة يجمع بين الحماس للعمل والحكمة في البناء، وإن كان الجانب الثاني قد غلب على قيادته للجماعة، بمقتضى المسؤولية، فكفكف من روح الاندفاع - وإن ظلت الروح ساخنة -، وتعمق جانب البناء والتطوير والتخطيط؛ فكان لذلك أثره في نضج نظرته - مع حرارتها -، وهو لا يزال في ريعان الشباب.

٤ - مزاولته العمل السياسي :

لم تكن مزاوله مصطفى السباعي العمل السياسي بمعزل عن العمل الدعوي - في سورية - الذي يتولى قيادته ، وإنما كانت السياسة عنده امتداداً للعمل الدعوي وتوسيعاً لميادينه . لذا ، كان منبر النيابة في سورية للسباعي بمثابة منبر دعوة يحقق على متنه ما تقتضيه الدعوة الإسلامية من منجزات على الصعيد السياسي ، فضلاً عن المهام الجديدة التي أنيطت به ، منها : النيابة عن أبناء الشعب في تحقيق مطالبه الضرورية العاجلة والآجلة ، وهي مهمة قيادية وسّعت عنده دائرة العمل السياسي ، فإذا به يتصل بسائر طبقات الشعب ، يأخذ ويعطي ، يأخذ منهم ما يرومون تحقيقه من مطالب ، على النائب الإسلامي الذي اصطفوه للدفاع عن قضاياهم أن يُنفذها ، ويعطي لهم الخير والنصح والأمان . ومنها : النيابة عن أبناء الشعب في حراسة موارد الأمة وحدودها بما يزيد في المسؤوليات التي اضطلع بها ، ويوسع في المجالات ، ويلوّن المواقف .

إن هذا كله كان يزيد في طاقات السباعي الفذة ويطورها ، ويجعل منه الرجل الذي تتسع نفسه وجهده لخدمة الشعب كله على مختلف المستويات ، ويحمل على عاتقه هموم الأمة وأمانها . وقد أورثه ذلك نماء وارتقاءً مطرداً بشخصيته وطاقاته الرجحية المتسعة .

٥ - الاطلاع الواسع :

نشأ السباعي شاباً متحمساً ، قد أذكت نفسه تربية والده في ظل نشأة شرعية وطموح وثاب ، فكان خطيباً مفوهاً وهو لا يزال يافعاً ، وكان قائداً ناجحاً لجمعيات ومؤسسات وهو في العشرين . . . وقد أدى دوره ثائراً مكافحاً ، وقدم في سبيل ذلك توضيحات جُلّى .

ولكن هذه الشخصية ذات الأتون الحار، ما إن أخذت في صعودها الثقافي حتى أخذ حماسها وتوهجها مسارات جديدة، طفقت تزداد مع الأيام تضخماً وخصباً، لقد كان السباعي يأخذ نفسه بالمطالعة في كل علم وفن؛ ويواصل المطالعة حتى لا يكاد يغادر الكتاب يده، وهذا من أسباب تنامي شخصيته وأخذها بأسباب التطور والنماء المستمر، والذي كان من ثماره أن أخذت مطالعات الرجل تُثمر الكتاب تلو الكتاب والبحث تلو البحث الآخر، حتى كانت الحصيللة من تطور هذه الشخصية نخبة من المؤلفات النفيسة التي تمثل نضج شخصية أستاذنا السباعي، وجدة تفكيره، وثناء عطائه الذي لم يتوقف حتى آخر لحظة من حياته.

ثانياً: محاور شخصيته

بعد أن قدمنا للتعريف بشخصية مصطفى السباعي بالمؤثرات الذاتية والموضوعية التي أسهمت في تكوين شخصيته. نرسم فيما يأتي لوحة كبرى، تتراءى لنا من خلالها محاور شخصيته الإيمانية، وسماتها القيادية، وطبيعتها الوجدانية.

(أ) شخصية السباعي العقيدية

لقد كان السباعي رجلاً ربانياً مؤمناً، وكان من أسرار شخصيته الفذة هذا الإيمان المتقدم الذي يعمر جوانحه ويملاً فؤاده، ويملي عليه خط سيره. هذا الإيمان فتّح في شخصيته فجاً من السجايا التي تغرف من العقيدة، وتعمر نفس صاحبها بنفحاتها، وتبني شخصيته متألثة بالنور الرباني.

من محاور هذه الشخصية الإيمانية:

١- حرارة الاعتقاد:

كانت شخصية السباعي تقبس من معين إيمان علوي، يتخلل ذاته، ويسكن جوارحه، فلا يدع للمؤثرات الدخيلة على شخصه سبيلاً.

الإيمان هو المصدر الأول المعتمد عنده، وهو السبيل والمدد

والزاد..

إنه إيمان يصعد من الأعماق، ويحتل كل جراحة في الجسم، وينتهي إلى العقل يتخلل كل خلية منه.. يستمد من الإيمان قوته وعزمه، صبره وجلده، علمه وفهمه، حياته ومعيشته. إذا حدثته عن الله وجدته مسروراً، ووجدته خاشعاً، ثم ألفتته يتدفق في الكلام عن خالق الكون وكأنه يراه^(٧).

لقد كان إيمانه يتدفق من قلبه كالبركان، وكان على جسمه أن يتحمل

أعباء قلبه.

يحدثنا أحد صحابه فيقول:

«كان السباعي شديد الانفعال، حينما يسمع ما يصيب المسلمين من أذى، تراه في ثوانٍ كالشعلة المتقدة، كان يتحرك وجدانه بقوة، لذا دفع الثمن من أعصابه وصحته وحياته لتحيا دعوته. وكنت أنصحه أن يؤجل هذه الاندفاعات، ولكنها كانت جبلة فيه. كان حينما يتحدث عن الإسلام لا يتحدث عنه بلسانه، ولكنه يتحدث عنه بقلبه ولسانه وسائر جوارحه»^(٨).

ويحار التحليل النفسي في تفسير هذه الحرارة الإيمانية في نفس

السباعي التي لم تقف لها العقبات جميعاً، لكن التفسير الإيماني للوجدان

الإنساني يلقي لذلك تعليلاً وحلاً .. إنه الحب .. إنه اللوعة القلبية التي تشقّ حجب الظلمات وتفتت العقبات ..

«هذه اللوعة كان منها في قلب الأستاذ السباعي قدرٌ غير يسير. كان أكثر ما يحركه ويدفعه إلى العمل المتواصل المضني هذه اللوعة التي تغمر قلبه. وما كان للفكر العقلاني وحده أن يهيّج صاحبه ويحمله على بذل شيء من الطاقة والجهد.

وكم في المسلمين ودعاتهم من أناس لا يعجزهم أن يحلوا معضلات الدين وأحكامه في عقلانية دقيقة واعية، ولكن أعينهم لا تعرف الدموع، وأفئدتهم لا تذوق الخشوع.

ولن تجد في هؤلاء الناس من يتخلص يوماً ما من رطائبه الفكرية وأثقالها ليندفع في سبيل من سبُل التضحية وتحمل الجهد والمشاق.

إن لوعة المحبّ وحدها هي السّوط السّائق، والتّيّار المحرّك. والمحبّ هو وحده الذي يبذل الجهد شوقاً إلى المحبوب، فيسهل بذلك عليه الصّعب، ويقرب أمامه البعيد، وتفنى القوَى، وتذوب الحياة، ولا يرى أنّه قد أوفى بُعد المحبّة، أو قام بواجب شكر النّعمة.

لقد كانت هذه اللّوعة هي الوقود الذي كنتُ أراه دائم الاشتعال وراء صدر السباعي (منذ أن عرفته)، فيحمله على العمل الدائب وتحمل الجهد المؤلم، دون أن يحسّ بنضب أو مشقّة، بل كان على العكس من ذلك: يرى فيه لذّة وسعادة غامرة!«^(٩).

ولكن من العجيب أن يكون المرض الجسمي الزاد والمعين للوعة القلبية. فما أبعد غور الإيمان إذا صدر عن لوعة القلب. هذا جليس للسباعي يروي لنا سر هذه اللوعة القلبية:

«ولقد وجدتني يوماً أبصر إنساناً امتزجت آلام المرض في جسمه بلوعة الدعوة الإسلامية في قلبه، وربّت بين جوانحه محبة إلهية عارمة، فغدا مرضه الجسمي معيناً جديداً للوعة القلبية، وأخذت آلامه المبرحة تذكي محبته الإلهية العارمة. فلم يكن يُعاني، في مجموع أمره، إلا آلاماً تنبعث من القلب وإن كانت تتجمع فيه من أنحاء الجسم كله.

ومن ثمّ فلم يكن ليتّرجم هذه الآلام يوماً ما إلى شيء من التأوهات الجسمية، وإنما كان يعبر عنها كلها بمزيد من عمله الإسلامي الدائب، وجهاده اللساني والكتابي المستمر. إي والله، وكأنني أنظر إليه الساعة وهو يستقبل نوبات من الألم الحاد في جسمه، دون أن يتبدّى ذلك إلا في تقبّض يسير في وجهه، ومزيد من الانشغال بما بين يديه من كتابة أو دراسة أو بحث»^(١٠).

ولقد كان السباعي في مرضه ضنيناً بهذه اللوعة القلبية، فهي رصيد سعادته في هذه الحياة وهنائه، يفتيدها بمُرّ الآلام والأوصاب..

«ولا أنسى يوماً التقى فيه فضيلة العلامة والذي حفظه الله بالمرحوم السباعي وراح الوالد يدعو له - متأثراً - بالشفاء من مرضه، فقال له المرحوم السباعي وقد اغرورقت عيناه بالدمع: يا سيدي، إذا كان شفاي من المرض يحرمني من حالتي القلبية مع ربي عزّ وجلّ، فأنا أشهدك أنني أفضل بقاء المرض على أن لا أحرم سعادة هذه الحال»^(١١)!

٢ - تعبد لله :

لعلَّ قِلَّةَ تَفْظُنَ إلى هذا الجانب الرهيف من شخصية السباعي، وهو حُسن تعبد الله؛ إذ إن جلائل أعماله ومنجزاته التي حبا بها عصره على سائر المستويات - من فكرية، وسياسية، وجهادية، ودعوية - قد استحوذت من الراصد بالاهتمام لبروزها ونشرها.. ولكن المسلم الحق يعلم أن الجانب العبادي للداعية أساس لتلك المناشط كلها، ولو لم تُفَعَم نفسُ السباعي بحب الله ومخافته وتقواه والإخبات إليه ما استطاع أن يبلغ ما بلغ من سمات ويحقق ما أنجز من مهمات في زمن قصير.

إن التعبد لله - ورضاه غاية الغايات - واسعُ الرحاب، لا يقف عند المناسك والذكر، فهناك منازل للعبادة جليلة، في الرضا بقضاء الله وقدره، والاتجاه إليه - جل وعلا - بالرغبة والرغبة في كل حال، والمناجاة والدعاء.

ونعرض فيما يأتي لبعض ما يطالعنا من آفاق تعبد أستاذنا السباعي إلى جوار ذكره الله ونسكه:

(١) خشوعه وتقواه:

إن رجلاً كالسباعي لا يمكن أن يحدثنا عن خشوعه وتقواه؛ لأن هذا الجانب مما يحرص الثقة على كتمانها ابتغاء رضوان الله، لذا لا يستطيع الدنو منه إلا الأقربون الذين يمكنهم إزاحة الستر عن هذا الجانب العظيم بحكم تبسطهم أو ملازمتهم. لذا حاولنا استشفاف وصفهم لتقواه.

يحدثنا أحد كبار الإخوة عن برنامج العبادي فيقول:

«قد كان ما بيننا من الأخوة في الله والعشرة الطويلة في السفر والحضر وتمتن المودة في شتى الأحوال ومراحل الحياة

مسوغةً لي أن أتحدث عنه ببعض ما علمته فيه، وإن له عند الله مما وهبه كثيراً جداً من صفات البر والتقوى والخير والإحسان، فلقد كان كما شهدته غير مرة لا ينام إلا بعد تلاوة شيء من القرآن الكريم في المصحف، وإذا استيقظ فعل مثل ذلك، ما يمنعه من ذلك إلا نوبات المرض الشديدة إذا ألمت به في هذين الوقتين»^(١٢).

وهناك من الإخوة الكبار من لازمه في السجن، فأخذ يحدثنا كيف كان السباعي يقضي وقته، فيكشف لنا من خلال هذه الملازمة عن سر كبير من أسرار شخصية السباعي العبادية إذ يقول:

«شاءت الأقدار أن أدخل السجن في عهد أديب الشيشكلي في أواخر عام ١٩٥٢م وقد كنت في غرفة منفردة (زنزانة) مكثت فيها سبعة أيام، يا طالما أسمع من الغرفة المنفردة بجواري تلاوة القرآن العظيم ليلاً ونهاراً.

وكنت مشوقاً لمعرفة القارئ حتى جمعتنا الأيام بغرفة واحدة، وكنا أربعة من مبدأ واحد وعمل واحد وفكرة واحدة، على رأس الجميع المغفور له، فعلمت منه أنه كان في تلك الغرفة يتلو القرآن بصوت جهوري ليعرفه جيرانه ويعرف من بجواره. وقد كان علينا كالأخ الشقيق الأكبر، فكان لا يأكل حتى نجتمع كلنا على مائدة واحدة، وكنا نتدارس القرآن سوياً، وقد استعاد حفظه غيباً. وقد كان عفيف النفس طيب الأريحية قانتاً لله كثير القيام يوقظني تهجده ويؤنسني صوته حين يتلو القرآن، وفي هذه المدة كلها ليس له من الأحاديث سوى أربعة:

١ - تلاوة القرآن الكريم .

٢ - ذكر الله .

٣ - قراءة كتب الأدب .

٤ - التأليف .

لعمرى، إن الأستاذ المغفور له جمع بين علمي الحقيقة والشرعة؛ فقد عرف باطن الإسلام ولبابه وسره، وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل إلى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والأخلاق، والعلم بصفات الله وسنته في خلقه. والدليل على ذلك ما هو ماثور عنه رحمه الله: «مَنْ أُنِسَتْ نفسه بالله، لم يجد لذة في الأنس لغيره، ومن أشرق قلبه بالنور لم يعد فيه متسع للظلام، ومن سمت روحه بالتقوى لم يرض إلا سكنى السماء، ومن أحب معالي الأمور لم يجد مستقراً إلا في الجنة، ومن أحب العظماء لم يقنعه إلا أن يكون مع محمد ﷺ، ومن أدرك أسرار الحياة لم يرَ جديراً بالحب حق الحب إلا الله تبارك وتعالى» (١٣).

إن هذا الأنس بالله الذي غمر نفس السباعي قد أورثه روح التقوى وابتغاء رضوان الله في القول والعمل. لنصغ إليه يزودنا بالتوجيهات التي تستميل النفس العصية إلى التقوى وتروضها عليها. وأول ما يوصي به في هذا المضممار الصدق مع الله بقوله:

«إذا صدقت الله في الزهد في الدنيا كرَّهك بها، وإذا صدقته الرغبة في الآخرة حبَّب إليك أعمالها، وإذا صدقته العزم على دخول الجنة أعطاك مفاتيحها، وإذا صدقته حب رسول الله

حَبَّبَ إِلَيْكَ اقْتِفَاءً أَثَرَهُ، وَإِذَا صَدَقْتَهُ الشُّوقُ إِلَى لِقَائِهِ كَشَفَ
لَكَ الْحَجَبَ إِلَّا حِجَابَ النُّورِ»^(١٤).

ويزيح الستار عن أسباب إخفاق الناس في اجتلاء الأنوار الربانية
وُبُعْدَهُمْ عَنِ نَشْوَةِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ فَيَقُولُ:

«مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ الْخُلُوعِ مَعَ اللَّهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ
قَلْبُهُ بِاللَّهُوِ لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ الْأَنْسِ بِكَلَامِ اللَّهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ
بِالْجَاهِ لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ التَّوَاضُعِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ
بِالْمَالِ لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ الْإِقْرَاضِ لِلَّهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالشَّهَوَاتِ
لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ
لَمْ يَجِدْ لَذَّةَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ الْأُمُالُ
لَمْ يَجِدْ فِي نَفْسِهِ شَوْقًا إِلَى الْجَنَّةِ»^(١٥).

ويرى في التقوى سر النصر والنجاح في حياة المسلمين. فإنهم
لو تقلدوها اليوم في حياتهم لغيروا وجه التاريخ من جديد.

«حَدَّثَنِي الشَّبَابُ الْمُثَقَّفُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْحَجَّاجِ أَنْ مَا أَفَادُوهُ فِي
الْحَجِّ مِنْ تَصْفِيَةِ نَفُوسِهِمْ وَتَقْوِيَةِ إِيْمَانِهِمْ، لَا يَسْتَطِيعُونَ
وَصْفَهُ، فَلَوْ أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ حَجَّ بِرُوحِهِ وَجَسَمِهِ، كَمَا حَجَّ
هَؤُلَاءِ، لَتَغَيَّرَ وَجْهُ تَارِيخِ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ»^(١٦).

(٢) رِضَاؤُهُ بِقَدَرِ اللَّهِ وَتَسْلِيمُهُ لِحُكْمَتِهِ:

لعل هذا الجانب من شخصية السباعي العبادية لا يقل شأنًا عن
خشوعه وتقواه، وإنما هو ثمرة له. فالخشوع لله وتقواه تثمر الرضا بأمره
والتسليم بقضائه وقدره. وتلك لعمرى تُعجزُ العصبة الأشداء. إنها انتصار
على النفس اللجوج وتطويعها لأمر الله.

ويقدم السباعي في هذا المضمار من آفاق شخصيته ومن تجاربه للأمم المسلمة ما ينهج لها سبيلاً علوياً للنظر . . إنه ليشرع بتصحيح نظر الناس إلى القدر حين يفسرون بمألوفهم - خطأ - كثيراً من قضاياه، فيقول:

«الأقدار أوسع نظراً منك فلا تتحير معها، وأرحم منك فلا تتهمها، وأحكم منك فلا تستجهلنها، وأقوى منك فلا تعاندها، وأسرع منك فلا تسابقها»^(١٧).

ويتبع ذلك بجلاء إيمانه الراسخ بحكمة الله في القدر من خلال تجاربه الحية، وهو على سرير المرض، يكابد ما لا يطاق من الآلام:

«لا أزال أومن بحكمة الله وعدالة قدره، مهما استعصى مرضي على الشفاء، واستشرى في أمتي تحكُّم الظالمين ودجل الكذابين»^(١٨).

وبتسليم الراضي بحكمته تعالى نلني أمله بالله وطيداً لا يتزلزل:

«عاد حجيج بيت الله الحرام، فأكد لي إخواني أنهم أكثروا لي من الدعاء في الأماكن الطاهرة، أما أجرهم فلا أشك أن الله كتبه لهم، وأما استجابة دعائهم فلا شك أن الله ادّخر لي أحد أمرين: إما الشفاء، وإما ما هو خير منه، وحاشا لكرمه أن يردهم، فلا يكتب لي واحداً منهما»^(١٩).

ويضرب المثل بتسليمه لحكمة الله والإذعان لأمره، وهو في أشد حالات الألم، فيكافئه الله بشفاء، وجد أثره في نفسه في تجربة إيمانية طريفة يرويها لنا:

«قضيت في فترة أيام الحج أياماً لم أعرف مثلها خلال مرضي سبع سنوات كاملات، فلأول مرة منذ سبع سنين يهدأ الألم في دماغي وأقوى على الصلاة واقفاً على قدمي وأجلس للتشهد فيها، ولقد قدمت مكة فطفت طواف العمرة محمولاً على المحفة، ثم غادرتها وطفط طواف الوداع على قدمي... وإني لأرجع ذلك إلى العقيدة وأثرها، وإلى بركة تلك الأماكن الطاهرة المقدسة.

إن الله تعالى أكرمني بزوال آثار بعض الأمراض التي كنت أعالج منها بالحمية كمرض السكر. ولكني منذ وصلت المدينة المنورة حرصت على أن أتصيح كل يوم بسبع تمرات من تمرها إيماناً مني بالحديث الصحيح: «من اصطحب كل يوم بسبع تمرات - وفي رواية من تمر المدينة - لم يضره في ذلك اليوم سم ولا داء». وقد جربت الطب النبوي بنفسني وتحققت صحة الحديث الوارد في التمر. وطب النبوة إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء به وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان»^(٢٠).

(٣) مناجاته ودعاؤه:

مناجاة البارئ - عز وجل - أدب علوي، هو طريق المبتهلين إلى الله من العارفين والزهاد والمنقطعين عن الدنيا. فكيف غشي السباعي هذه الطريق، ومشاغله في الدنيا أكبر من أن تحصي؟!

إننا لنرى السباعي يسلك في مناجاته ربّه منهجاً جديداً في الابتغال. لعله ليس انقطاعاً عن الدنيا، وإنما هو تطويع لها ولتجارب البشر حسب مقياس الإيمان، وربط الأسباب كلها بالله.

يقدم لنا من ذلك نموذجاً لمنهجه بمناجاته ربّه، مدعناً لعظمته،
مُقراً بربوبيته وجلاله، ينشد الاتصال فيقول:

«ضلّت في معرفة ذاتك العقول، وتاهت في بدائع صنعك
الأفكار، وتعدّدت في البحث عنك السبل، وكلُّ يريد
الوصول إليك حتى الذين يجحدونك، وما كلّهم بالواصلين
إلا من أنرت قلوبهم بنور معرفتك، وشرحت صدورهم
بنفحات عنايتك، وكتبت لهم النجاة بقديم قدرك، وشرّفتهم
بالانتساب إليك»^(٢١).

ويناجيه بما امتلأت به نفسه من تمجيد له وتنزيه وخشوع لجبروته
وجلاله، يقول:

«إلهي...! جلّت ذاتك عن أن تدركها أبصارنا، وجلّت
أفعالك عن أن تدرك تمام حكمتها أفهامنا، وجلّت ألوهيتك
عن أن تقوم بحقّها عبادتنا، وجلّت نعمتك عن أن تؤدّي
شكرها جوارحنا، وجلّت عظمتك عن أن تخشع لها حقّ
الخشوع قلوبنا، وجلّت رحمتك عن أن نستوجبها بقليل
أعمالنا. نعوذ بك منك، ونفرّ منك إليك، لا نحصي ثناء
عليك أنت كما أثّبت على نفسك»^(٢٢).

ثم تشف عباراته كالطل الندي عن حب واله لله، وتعلّق بجنابه في
عبودية خاشعة ذلول، تجد آلاءه وقدرته في كل الوجود:

«وصالك نعيم، وعذابك عتاب، وعقابك عدل، وعطاؤك
تفضّل، ومنعك تأديب، وكل خير فمنك، والشر منك
لا ينسب إليك، والقليل منك كثير، والطلّ من فيضك غدير،
وأي مكان في كونك العظيم لا يملؤه الجلال؟ وأي شيء من

صنعتك البديع لا يكسوه الجمال؟ وأي أمر مما يسرنا
ليس إليك فضله؟ وأي أمر مما يسوءنا ليس علينا وزره؟
تباركت يا ذا العظمة والعلم والحكمة! كيف لا نعبدك
وقد سجدت لك الأرض والسموات؟ وكيف لا نحمدك
وقد غمرتنا من جودك البركات؟ وكيف لا نحبك وقد توالى
علينا من عطائك الرحمات؟ وكيف لا نخشاك وعذابك
في لمح البصر يجعل الديار خراباً؟ وكيف لا نرجوك
ورحمتك تحيي الأرض بعد أن كانت مواتاً؟ وتجعل الماء
الأجاج عذباً فراتاً؟ وكيف لا ندعو إليك وأنت تدعو إلى
دار السلام؟ وكيف لا ننثني عليك وأنت الذي بددت بنورك
سحب الظلام والأوهام؟ فاهدنا بفضلك صراطك المستقيم،
واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين» (٢٣).

ويسوءه نكران البشر وتهاونهم وجحودهم فضل الله ورحمته، فيتوجه
إليه بالرجاء، ينشد الصفح والغفران...

«يا رب! خلقتنا فنسيناك، ورزقتنا فكفرناك، وابتليتنا لنذكرك
فشكوناك، ونسأت لنا في الأجل فلم نبادر إلى العمل،
ويسرت لنا سبيل الخير فلم نستكثر منه، وشوقتنا إلى الجنة
فلم نطرق أبوابها، وخوفتنا من النار فتقحّمتنا دروبها،
فإن تعذبنا بنارك فهذا ما نستحقّه وما نحن بمظلومين،
وإن تدخلنا جنتك فذاك ما أنت أهله وما كنا له عاملين» (٢٤).

ثم لا تقرّ عين السباعي ولا تهناً نفسه بعد هذه الخفقات إلا بالتوجه
إلى الله بالشكر على سابغ نعمه، والإنابة لأمره في مناجاة رخيّة رضية،
نقتطف منها فقرات:

«إلهي! ما زلت تغمرنا بوابل النعم حتى لا نستطيع إحصاءها، وما زلت تسيع علينا آيات الرضى حتى عجزنا عن أداء الشكر عليها، وما زلت تستر من سيئاتنا ما لا نملك معه إلا الطمع بغفرانك لها، وما زلت تمددنا بوسائل العون حتى لا نرى أنفسنا أهلاً لاستحقاقها، ملأت قلوب المذنبين طمعاً برحمتك، وملأت قلوب العابدين أملاً بجنتك، وملأت قلوب العارفين رجاءً بدوام تجلياتك، وملأت قلوب المحييين رغبة في دوام أعطياتك. يا مفيض النعم حتى على الجاحدين، ويا واهب الكرم حتى للمنكرين، ويا واسع الحلم حتى على المتكبرين، ويا عظيم الرحمة حتى للمعاندين؛ نشهدك أننا لك مستجيبون، وبك مؤمنون؛ فاسلكنا مع المهتدين، واجعلنا مع الراشدين، واكتبنا مع المقربين؛ ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٦) وَسَلِّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨٧) وَلَحْمَدُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٠).

ويأتي بعد الشكر الرجاء والدعاء، ورجاء السباعي ربّه فريد في أسلوبه فرادته في مناجاته كلها. فمن رجائه إرساله هذه الضراعة الخاشعة مع ملايين الحجيج في عرفات، يسأل الله تهذيب النفوس وتطهير القلوب لتخلص إلى طاعة الله وامثال أمره:

«إلهي! إن حبيبك واقفون الآن بين يديك شعثاً غبراً، شبه عراة، يمدّون إليك أيديهم بالدعاء، ويملئون منك قلوبهم بالرجاء. وحاشا لكرمك أن تردّهم وتردّ من كان بقلبه وروحه معهم، فأفِضْ علينا من رحمتك. وأمددنا بسبب إلى سماواتك، وطهّر قلوبنا من نزغات الشر، واملأ نفوسنا برغبات الخير، وأعنا على طاعتك، وكرّهنّا بمعصيتك،

وارزقنا الصبر على مُرِّ بلائك، والشكر على حلاوة قضائك،
ولا تمتحنَّا بما لا نستطيع، ولا ترهقنا من أمرنا عسراً،
واجعل ما نكرهه من الأذى سبيلاً إلى ما تحبُّه من الطاعة،
وما نرغبه من المعافاة وسيلة إلى ما تطلبه من العمل،
ولا تحرمنا لذَّة مناجاتك، ولا رَقَّة الانكسار إلى عظيم
ذاتك، واجعلنا من أصفِيائك، واحشرنا في زمرة
أوليائك... واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان،
وتذكِّرنا بالدعاء، وخفِّفوا عنا وقع البلاء، بجميل العزاء،
ربنا إنك رؤوف رحيم» (٢٦).

ومن رجائه في الموقف الخاشع المهيِّب هذا الدعاء الفريد للحجيج،
يسأل الله لهم فيه العون حين العودة على أداء الرسالة الإسلامية
وحسن الجهاد في سبيله، ويأتي رجاءه في تميِّز دعوي وجدة في
المناجاة والدعاء:

«مولاي...! إن المؤمنين بك قد اجتمعوا إليك
تلبية لدعوتك، ووقفوا بين يديك رغبة في مرضاتك؛
فاجمعهم على العمل لدينك كما جمعتهم على السعي
 لعبادتك، وارفع عزائمهم للضرب على أيدي أعدائك
كما رفعت أيديهم في الرجم عند جمراتك، ونقِّ قلوبهم
من الضغينة كما ألبستهم بياض الثياب، ووقفهم للتعاون
على الجهاد كما وقَّفتهم لرجاء الثواب، وجمِّع قلوبهم
عند شريعتك كما جمَّعت أجسامهم عند كعبتك،
وألهمهم الرحمة فيما بينهم كما ألهمتهم بطلب الرحمة
منك، وردَّهم إلينا رسلاً عنك يصلحون كما بعثناهم إليك
رسلاً عنا يلبُّون، وفرِّحنا بهم هداة مرشدين كما فرحت بهم

عصاة منيبين، واجعلهم أيمن وفودك إلينا كما جعلناهم
أسرع وفودنا إليك، واقبلنا بقبولك لهم، وارحمنا
برحمتك إياهم، وارض عنا برضاك عنهم وتجلّ
علينا بتجليك عليهم؛ فهُم منا، ونحن منهم، ونحن جميعاً
عبادك النائبون» (٢٧).

ومن رجائه هذا الابتهاال اللهيف إلى الله أن يتدارك عباده المؤمنين
- في المحنة - باللطف والرحمة، وأن ينعش آمالهم بالاستجابة
والقبول:

«يا عظيم الجود.. حاجتنا لا يكفيها إلا كرمك، وشدتنا
لا يزيلها إلا لطفك، ومحنّتنا لا يكشفها إلا عطفك،
وقد أكّدت لنا في كتابك أن نسمات رحمتك تحيي ما كاد
يجفّ من آمالنا، وبشائر مغفرتك تستر ما عظم من سيئ
أعمالنا، وسريع يُسرك يغلب ما تفاقم من عُسرنا، وعظيم
لطفك يمحو ما اشتدّ من آلامنا، فتداركنا بما يضمن
جراحنا، ويقوّي عزائمنا، ويوفقنا للسير في الطريق الذي
اخترته لنا، ولا تحرمنا من عمل ننوي القيام به لخالص
وجهك ومحض مرضاتك، ولا تحجب عنا من لطائف
رحمتك ما تنعش به آمال المنتمين إليك، المستجيرين بك،
الداعين لك، إنك بنا رؤوف رحيم» (٢٨).

ويسيل رجاؤه عبرات إلى المولى عزّ وجلّ، أن يعين المصابين
على آلامهم وأوصابهم. وأن يلهمهم الرضا والصبر على قضائه،
وأن يعوضهم في الباقية خيراً، وأن يكون الخليفة فيمن خلفوا من الأهل
وفلذات الأكباد.. وتأتي الوصية لقرب الاتصال وحرارة النفحات كأنها
ابتهاال مودّع:

«إلهي! جلّت رحمّتك عن أن تترك المحزونين صرعى آلامهم حتى يدركهم اليأس، وجلّت قدرتك عن أن تدع المصابين أسارى محتتهم حتى يدركهم الفناء، وجلّت حكمتك عن أن تبثلي الطائعين بما يعجزهم عن طاعتك، وتمدّ الفاجرين بما يغريهم بعصيانك؛ إلا أن تكونَ ادّخرت للعاجزين خيراً من ثواب طاعتهم، واستدرجت الفاجرين بما يضاعف عقوبتك لهم على قبيح عصيانهم.

يا من أبدع السموات والأرض، وسخّر ما فيهما للإنسان، وكلّ شيء عنده بمقدار، يا من وسعت رحمته كل شيء؛ ابسط يد الرحمة لعبادك الذين سُدّت في وجوههم أبواب الخلاص إلا أن يكون عن طريقك، وأسبغ على نفوسهم برّد الرضا بقضائك، والصبر على بلائك، وأمدّهم بالعون على ما هم فيه، حتى يخلصوا إليك راضين عنك وراضياً عنهم، وعوّضهم خيراً مما أخذت منهم، وأنزلهم داراً خيراً من دارهم، وأنسهم بجوارٍ خيّر من جوارهم، وأحباب خيّر من أحبابهم، وأخلفهم فيمن خلّفوا من فلذات أكبادهم، إنك نعم الخليفة في الأهل والولد، وأنت نعم المولى ونعم النصير» (٢٩).

٣ - الشعور بالتبعية :

كان شعور السباعي بالتبعية نحو الإسلام والمسلمين شعوراً غامراً يملك نفسه وأعصابه ورأيه ومناشطه، إذ كان يرى العمل لعزة الإسلام والمسلمين فرضاً، وأن كل إنسان مسؤول عن تقصيره في العمل لخدمة الإسلام والمسلمين ورفع شأنهم... يقول رفيق دراسته :

«كان شعور السباعي بالمسؤولية عظيماً، وكان مفعماً بالمشاعر نحو إخوانه المسلمين في أنحاء الأرض، وكان يملئ عليه هذا الشعور العمل الدائب في سبيل الإسلام والمسلمين؛ لذا وجدناه منذ نعومة أظفاره يبذل قصارى جهده في سبيل الإسلام، ويكرس جل وقته لهموم المسلمين وقضاياهم؛ فكان يشترك في الجمعيات والنوادي، أو يلجأ إلى تأسيسها ليحقق من خلالها النهوض بالواجب الذي يفرضه الإسلام على كل مسلم»^(٣٠).

ولقد بلغ من إحساسه المرهف حيال إخوانه المسلمين أن جعل العيد موسماً للتذكير بالآلامهم والتبعات نحوهم. إنه لم يكن يطيق أن يفرح بالعيد وديار المسلمين تصاب وتنكب.

يقول في افتتاحيته لجريدة «الفتح» إبان طلبه العلم في مصر،
يذگر بمآسي المسلمين في ذلك الحين:

«أي عيد سيكون غداً وهؤلاء إخواننا المسلمون الصينيون في مقدمة أهالي الصين الذين تسلط عليهم اليابان الجائرة أظفح أنواع التنكيل والدمار؟

أي عيد سنفرح به غداً وهؤلاء إخواننا في المغرب الأقصى يلاقون الجوع والعذاب والقتل والتشريد على أيدي أبناء الحرية والتمدن والحماية؟ حتى لقد بلغ ما يلاقونه من عسف وجور أن مات بعض زعمائهم في الصحراء بعد أن منع عنه الطعام أياماً كاملة، وأن كان الرجل منهم يعلق من رجليه في جذع شجرة ثم يدلى في الهواء تنهشه سياط الظالمين وأعقاب بنادقهم!..

أي عيد سيطالعنا غداً وها هي فلسطين البائسة الشهيدة
المضرجة بالدماء ما زالت تلقى من أذى المستعمرين
وطغيانهم ما لا يتحملة حيوان ولا جماد»^(٣١).

ثم يعبر عن مشاعره الحرى اللهيفة إزاء ما يقع للمسلمين من مآسي
فينقلنا بمشاعرنا إليها، ولعل التاريخ في زماننا يعيد نفسه؛ إذ ما انقطعت
مآسي المسلمين!

«لا أطيق أن أذكر أكثر من هذا، فوالله إن يدي لترتعش،
وإن قلبي ليدق دقات مزعجة أخشى منها على حياتي.
وحسبي أن أقول لك إن أعمال النهب والسلب والتخريب
والقتل والتعذيب لا تزال مستمرة حتى هذه الساعة،
وأغلب الظن إنها ستستمر طويلاً، فإلى الله نشكو بقلوب
مضّها الظلم فظائع هؤلاء المتمدين الذين حببوا إلينا توحش
الزنج من أكلة لحوم البشر!

أفیفعل بالمسلمين كل هذا ثم يكون لنا عيد، ثم نتلاقى فيه
ونبتسم ونلهو ونلعب؟! إنا إذاً لأمة حرام عليها أن تُمنع بنعمة
الحرية والكرامة!»^(٣٢).

ثم يأخذ العهد على نفسه ألا تتسرب إليها البهجة بالعيد
إلا حين تعود للمسلمين عزّتهم ومنعتهم، ويضرب بذلك مثلاً لشباب
المسلمين!

«عليّ عهد الله وميثاقه أن لا أفرح في عيد، ولا ألبس له
الجديد، حتى أرى أمتي تملأ يديها بقوة الدين والخلق
والحديد، أو ألقى الله عزّ وجلّ وإنه لعلى هذا العهد شهيد.
فهل تبلغ كلمتي هذه أسماع شباب المسلمين؟»^(٣٣).

وتستفيض في نفسه مشاعر الحزن والأسى المبكر لحال المسلمين، وما ينخر في بلادهم من دسائس ومؤامرات وسط الغفلة واللامبالاة، فيرسلها من لواعج ألمه وحرقة قلبه على المسلمين مناشدةً، يقطعها من فؤاده لظى كلمات، عساها تبعث في المسلمين العزائم فتكون وراءها الأعمال التي تأتي بالفرج بعد الكرب، محذراً من العواطف السلبية التي يستنفدها التوجع والتألم دون التشمير للجهد والعمل:

«لمن يشكو الحزين إن تملكه الأسى، وامتلأ فؤاده بالحسرات؟ لمن يبث المحزون ما يلقاه من تكاثر الهموم وتدافع الآلام؟

فقد والله أدتني هذه الآلام حتى ما أكاد أطيق لها احتمالاً، ولطالما تساءلت في نفسي: لئن كان هذا هو مبلغ ما أعانيه من الأحزان وأنا في ميعة الصبا وعنفوان الشباب، فكيف تكون الحال إذا امتدَّت بي الحياة حتى بلغت زمن المشيب؟!!

لا تحسبنَّ أيها القارئ الكريم أنني أشكو آلاماً كهذه التي يشكوها مرضى الأجسام والقلوب! ولا كتلك التي يضح منها أصحاب الأموال والأعمال، ولا هي كالتى يتوهمها أهل الحبِّ والغرام؛ فأننا بحمد الله لست أجِد من هذا كله قليلاً ولا كثيراً.

وإنما أشكو آلاماً تتصل بحياة هذه الأمة وسيرتها وسمعتها، آلاماً مبعثها هذه الدسائس على دين الله الآخذ بعضها برقاب بعض، مع ما نراه من استسلام الحماية ونوم الزادة، وإهمال القادة، آلاماً طالما صبرتُ عليها وحملتُ نفسي على تحملها، فما كنت أزداد كل يوم بما أرى وأسمع

إلا أَلماً على أَلَم، وأسى فوق أسى؛ حتى فاض الإناء
ولم يبق في قوس الصبر منزع.

فلا بد من أن أُلقي إليك هذه الآلام في كلمات متعاقبة،
أقتطعها من فؤادي، وأنزعها من قرارة نفسي، لا لأندب
وأنوح كما يفعل أهل اليأس والجزع، بل لأستثير فيك
لواعج الألم وحرقة الفؤاد. عسى أن تجتمع الآلام، فتنبعث
منها الآمال، فتقوى بها العزائم، فتكون من ورائها الأعمال،
فتنفرج بعدها الكربة إن شاء الله.

ولو بحثت لرأيت آلام الناس مصدر كثير من أعمالهم؛
فأعِرنِي سمعك وفقك الله، وكن لي ذلك الشهم الذي عناه
شاعرنا القديم بقوله:

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروءة

يواسيك أو يسليّك أو يتوجّع

بيدّ أني لا أريد منك التوجع إلا أن تعقبه بالعمل، ولا التسلية
إلا أن يسيغها منك الأمل، ولا المؤاساة إلا أن تكون الجهاد
حتى يحينّ الأجل؛ فإن وفيت لي بذلك - وهذا ظني بك -
فأنت ذو المروءة، وأخو الشدّة، ورفيق الكفاح حتى نلقى الله
عزّ وجلّ^(٣٤).

كان هذا شعوره المبكر بالألم لحال أمته المسلمة، واستشعاراً
بالمسؤولية نحوها، ظل يربو منذ صباه وينمو حتى كهولته
ويستزيد، يعكس أعباء المرحلة التي يزاولها ومسؤولياتها، حتى
وافاه الأجل.

٤ - الإخلاص :

إنه لحري بمن صوّبته اللوعة القلبية إلى العمل للإسلام، ومن عاش الإحساس بالمسؤولية بكيانه كله وشعوره أن يكون الإخلاص لله في عمله كيانه شخصيته التي صاغها الإيمان . .

وفي عملية تقويم سنوية - على محكّ الإخلاص - لعام؛ تطالعنا كلمات السباعي الآتية التي يضمنها دستور حياته ومنهجه قبيل وفاته :

«نحن على أبواب عام جديد بعد أن ودّعنا عاماً من أعوامنا فيه الفرح والترح، وفيه الخير والشر، وفيه ما تحقق من آمياتنا وما لم يتحقق، ونحن نذكر الآن الذي نودعه وكأنه الأمس لا نحسبه إلا ساعات، وكذلك الإنسان في غفلته تمر به الأيام والليالي وهو يلهث وراء أحلامه التي لا يتحقق أكثرها، وإن تحقق منها شيء فهو أمر فان لا بقاء له ولا دوام إلا العمل الصالح الذي يقدمه صاحبه بين يديه؛ ليكون له نوراً يوم العرض على ربه، ونسأل الله أن نكون من هؤلاء الذين قدموا من صالح العمل ما يبقى أثره، ويعظم نفعه، ويكثر أجره، وينير له ما بين يديه وما أمامه حتى يقدم على الله بعمل يدخله جنته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (٣٥).

ويشهد من عايشه بأن نفسه قد خلصت لله وحده وللعمل في سبيله، فلا يرى في ذاته أو ما حوله من مظاهر الحياة إلا وسائل لخدمة هذا الهدف الأكبر والانضواء تحت لوائه :

«فقد كان واضحاً لكل من عاشره وعرفه أنه لم يكن يرى في لقمة الطعام التي يأكلها، ولا في بيته الذي يؤويه،

ولا في الدنيا البسيطة التي تطولها يداها، ولا في الصحب
الذين يراهم من حوله، ولا في الأنفاس الصاعدة والنازلة
وراء صدره؛ إلا أدوات تُستعمل من أجل العمل الإسلامي
وتحقيق مبادئه. وما كان يوماً ما ليجعل العمل الإسلامي أداة
أو وسيلةً لشيءٍ من مظاهر الدنيا وأغراضها. وما عُرف عنه
يوماً أنه كان يكتفي من العمل الإسلامي بأن يتكئ على
أريكة، ثمَّ يصرف الوقت كله في نقد الناس والبحث عن
دخائل أعمالهم ومعاييها، بل لقد كان من صفاته المعروفة أنه
يفرح الفرح الشديد، في براءة وطيب صدر، إذا ما قيل له
عن عمل إسلامي قام به بعضُ الناس أيّاً كان نوع العمل،
ومن أيّ كان أولئك الناس. وفي ذهني أمثلة كثيرة
لذلك» (٣٦).

ولما كان الإخلاص في نفسه سجية وأصلاً. فما كان يبالي بنكران
البعض ونسيانهم المعروف، وإنما يجعل الإخلاص هنا سبيلاً إلى رياضة
النفس بقوله:

«لا تندم على أن شجعت من توسّمت فيهم الخير فصنعت
منهم رجالاً ثم جحدوك وحاربوك! فحسبك أنك قاومت في
نفسك الأنانية، وحاولت زرع الورد، فما أنبتت التربة
السبخة إلا شبحاً وقبصوماً!» (٣٧).

ويعرض الشيخ محمد نمر الخطيب صورة موحية لما كانت تتألق به
نفس رفيق دراسته السباعي من إخلاص فريد فيقول:

«لقد كان السباعي يتناول قضايا الإسلام وكان غيره من
الدعاة يتناولها، ولكن الفرق بين السباعي وسواه، أنه كان
يتناول قضايا الإسلام من حشاشة قلبه ومن سويداء فؤاده.

كان السباعي يتفتت قلبه على الإسلام المأ. كان إذا خطب كاللهب، وإذا كتب كالبركان. كان الكثيرون يكتبون عن الإسلام بالقلم ويتكلمون عن الإسلام باللسان، أما السباعي فكان يكتب بقلبه، وكان قلمه ترجمان هذه البراكين التي تتأجج في هذا القلب. وأستطيع أن أقول: إني عاشرت كثيراً من الدعاة فما كانوا على شاكلة مصطفى السباعي. كان يمتاز على كثير منهم بأنه قلب وروح، وأنه صاعقة على الملحدين والكافرين والجامدين»^(٣٨).

ولقد استشعر الداعية الدكتور الهريدي آلاء الإخلاص مما عرضنا له عند السباعي فأبّنه حين رحيله بالكلمات الآتية، ولعلها تتصاعد من نفس كل داعية عرف السباعي وشام إخلاصه:

«لقد أخلصت يا أبا حسان حتى نسيت نفسك ومالك وولدك، ولقد ثبتت وصبرت حتى هددت كيالك وطرحت بصحتك وعافيتك، وأنت في كل ذلك مما أصابك لا تشعر أنه أصابك، وأنت تقترب من الموت ولا تشعر أنك قريب من الموت، ولقد وافاك الأجل وأنت بمنأى عن التفكير في الأجل، تغمرك نشوة الإخلاص، وتسحرك نفحة الجهاد حتى قضيت وأنت على قدم الثبات»^(٣٩).

٥ - التضحية والبذل:

وتأتي التضحية والبذل ثمرة لما تحلّت به شخصية السباعي وازدانت به حياته من مثل رفيعة سامقة. ولقد كانت تضحيته وبذله جزءاً من طبيعته التي فطرت على الإيثار والتفاني، فلا تراه إلا في مواقفها بما يعطي نموذجاً حياً لكل داعية يود أن يعمل للإسلام. ولعلك لا تراه إلا على أبواب هذه التضحية.

فمن مواقفه المشرفة ما يذكره العلامة الشيخ مصطفى الزرقا حين أسس السباعي كلية الشريعة :

«وكان الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي قد تم تعيينه قبل فترة قصيرة أستاذاً أصيلاً لمادة الأحوال الشخصية في كلية الحقوق. وإني لأعترف وأنا أغض من بصري أنني أنا والأستاذ الدكتور معروف الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق لم نقبل أن نضحي بمراكزنا في كلية الحقوق وننتقل إلى كلية الشريعة لاستلام عمادتها، لاعتبارات عديدة تجعل هذه التضحية ثقيلة علينا، فضعفت نفوسنا عنها.

ولكن الذي أقدم عليها غير مبالٍ مهما كانت النتيجة عندما امتنعنا نحن وضحى بمركزه الجديد الثابت في كلية الحقوق إلى مركز في كلية الشريعة لم يكن من الممكن إذ ذاك أن يُعرف مصيرُهُ، إنما هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. فهو الذي من بيننا قَبْلَ أن ينتقل بمرتبته وراتبه دون أن يتطلب مرتبة أعلى، وهو في أشد الحاجة إلى زيادة المرتبة - وتملك اللجنة إعطاءه إياها - ولكنه قال: أريد أن أضرب المثل بنفسي حتى لا يفكر بالمجيء إلى هذه الكلية إلا من يريد منفعتها لا منفعة نفسه، وأن أجعل من توضيحي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفروا إليها من أجل المراتب التي لا تيسر لهم في سواها، أو من يريدون التسلل إليها ليقال إنهم أساتذة جامعيون وهم ليسوا بذاك!!

وهكذا تسلَّم الأستاذ الفقيه السباعي عمادة الكلية في

المرحلة العصبية، فسار بها مع اللجنة يشق لها الطريق في خضم الأمواج والأعاصير، بمهارة الربان الخبير، والقائد الشجاع المؤمن المخلص الذي يبتغي رضا الله قبل هواه، ويريد بناء منزلته عنده قبل مرتبته في الجامعة»^(٤٠).

ثم أقبل على كلية الشريعة يرفدها بعلمه وجهده وخبرته، ويتابع بناءها الثقافي بتفانٍ وعطاءٍ ثرَّ عُرف به.

«وهب الكلية في تلك المرحلة من روحه وحيويته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفد، يتوارثه من يتعاقبون عليها أساتذة وطلاباً، كما كان له في تأسيس مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي تفرع من كلية الشريعة أيام عمادته، وكان رئيس لجنة الموسوعة زمناً تجلّى فيه نشاطه وجهوده الكبرى»^(٤١).

ولم ينقطع عن الكلية حين أثقله المرض، وإنما كان يمنحها - مع معاناته الآلام - كل ما تفيض به نفسه من نشاط وعطاء:

«ولما أصيب بمرضه أسلم قيادها لخلفه، لكنه لم يسلم نفسه لغيرها، بل لم يرض أن يقبع على سرير مرضه دونها، فكان يدع هذا السرير أنى قدر، ويؤمها رافعاً (قيسارة) علمه، متحدثاً محاضراً مشوقاً للعلم، دافعاً إلى البحث، فياضاً بما عنده، مشرقاً، مبتسماً، ظاناً أنه ودع آلامه وهو قد ودعها إلى حين، حتى إذا عاد إلى بيته استلقى على سريريه متعباً منهكاً تبرح به الآلام ويأخذ منه المرض»^(٤٢).

ويمضي السباعي في طريق بذله وتضحيته لدعوته في مجالها العلمي والحركي، لا يأبه لمضاعفات المرض التي كانت تنخر في جسمه، فحسبه أن يبذل سائر أنفاسه في سبيل رضوان ربه.

«ولقد رأيته رحمه الله، وكأنه أمامي الآن، يمسك بزجاجة من الماء المثلج، ونحن في السيارة، في حمارة القيظ، في إحدى المناطق الحارة يحاول أن يطفئ بها أوار العطش لما يعانيه من (مرض السكر)، وهو غافل عن المرض ومضاعفاته، سادر عن السقم واختلاطاته، نلاحظ نحن الخطر ولا يلاحظ، ونشفق عليه ولا يشفق على نفسه، بل ولا يخطر ذلك منه على بال. فسبحان الله: يخشى السليم، وينسى المريض، وما أنساه مرضه إلا حبه لمولاه، وشغفه بتحقيق هدفه»^(٤٣).

ولعله كان يعلم - رحمه الله - بما يكلفه الإجهاد إيان مرضه من مضاعفات واختلاطات، ولكنه ما كان يبالي، ما دام العمل في سبيل الله وهذا شاهد عيان لموقفه الخالد هذا..

«... وإني لأذكر عندما كنت أتوسل إليه وأرجوه بإلحاح أن لا يحمل نفسه ما لا تطيق، وكنت أحاول أن أثنيه عن عزمه في كثير من الأحيان كي لا يذهب إلى الجامعة لإلقاء محاضرات قاعة البحث إشفاقاً عليه، لما أعلمه من شدة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مرضه الأخير ونظراً لما كانت هذه المحاضرات تكلفه من جهد وتعب وإرهاق، لا سيما في أيام الشتاء الباردة... ولكنه رحمه الله لم يكن يصغي لذلك وكان يقول: (خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله من أن أموت على فراشي،

فالآجال بيد الله، وإن ألمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلامي الجسدية وحسبي الله وعليه الاتكال)، وكنت حين أسمع منه هذا الكلام وأرى منه هذه العزيمة الماضية والهمة الخارقة وهو مريض يعاني الآلام لا أتمالك نفسي من البكاء والخشوع أمام هذا الدرس البليغ في التضحية والإيثار^(٤٤).

٦ - الصمود والثبات :

نشأ السباعي - بفضل شخصيته الإيمانية - على الصمود والثبات لنصرة الحق، فما كانت الجبال الرواسي تحول دون وصوله - بعون الله - إلى ما يريد من نصرته للحق ودعوة الحق. يورد ذلك من زامله في الدراسة فوجد عنده من ذلك عجباً، مما عرضنا لشهادته آنفاً..^(٤٥).

ولقد كان ثباته على الحق نادر المثال، تشهد بذلك مواقفه الكثيرة ومنجزاته الكبيرة التي كانت ثمرة من ثمار ثباته وتضحيته. ولقد رأى من شاطره العمل ورافقه في خطاه في الدعوة من صموده العاتي ما يذهل النفوس من طاقات قلماً تتوفر لإنسان..

«أما الإصرار والثبات فما رأيناه رحمه الله، يجول في ميدان، أو يصول في معركة، إلا ويتجلى في جولاته الثبات الخارق، والعزم النادر، فكأنما يريد أن يزيع بصدرة الجبال، أو يذيب بصبره الحديد.

ولقد جاوز في ثباته وصبره حدود ما كلف الله به عباده من صبر وثبات، وتعرض للأخطار، فرحمه الله وأكرمه وأجزل مثوبته..

وإذا كان علوُّ الهمة يقاس لدى الرجال بما يلاقونه من أهوال
وما يتصدون له من مخاطر، فأحسب أن رجلاً في هذا
العصر لا يحلُّق إلى ذلك المستوى الرفيع، ما لم يجرِ على
منوال الأستاذ رحمه الله حينما تصدى - دون مبالغة - لصراع
الشرق والغرب مجتمعين. إن المجاهد المسلم الذي يأبى
- في هذا العصر - إلا الإسلام شرعاً ومنهاجاً لا بد أن تقف
في وجهه دول الأرض مجتمعة، وهكذا كان الأستاذ
رحمه الله مثلاً للشباب في همة قعساء تصدت للأهوال
العظام، والخطوب الجسام»^(٤٦).

ويشهد الذين عاصروا تأسيسه لكلية الشريعة عام ١٩٥٥م كم صادف
من العقبات، وكم لاقى من المماطلات والمعوقات؛ فزلزل بصموده تلكم
العقبات كلها..

من ذلك أن إدارة الجامعة اعتذرت بأنه ليس لديها مكان في الجامعة
لكلية الشريعة، وأنها ستقام بعيداً عن حرم الجامعة. وفطن الدكتور
السباعي لما يُراد من تقويض مشروعه، وأنه لن تعدّ كلية الشريعة عندئذٍ من
الجامعة، فأصر على إقامتها في حرم الجامعة، وكان إصراره المؤمن
محققاً - بعون الله - لما أراد^(٤٧).

ولقد حقق إقامة كلية الشريعة في حرم الجامعة، بل في مدخلها،
تهليل وسرور أبناء الدعوة الإسلامية الذين رأوا فيها قلعة شامخة للإسلام
في الجامعة، ومركز إشعاع للحضارة الإسلامية، كان من وراء إرساء
قواعده وتثبيت أركانه السباعي.

لقد كان ثبات السباعي ثبات المؤمن الذي يزكو معدنه في النكبات،
ويتوهج ويصفو وسطها، ومن ثم يتألق ويشع على ما حوله. كان الثبات

جزءاً أصيلاً من شخصيته الإيمانية. يجلو أحد كبار الدعاة الذين شاطروه جهاده، طبيعة ثباته وعزمات صموده بقوله:

«أما جرأته في الحق وثباته عليه فأمر من الشهرة والذبيوع بحيث يكاد يكون طابعه المميز وخلقه الأصيل، وإن له في ذلك لمواقف ومواقف، مجاهداً في الساحات العامة، ومراقباً للإخوان المسلمين، ونائباً في المجلس النيابي، ومكافحاً للاستعمار، ومنافحاً عن الأمة وتشريعها وحقوقها وكرامتها.

وقد أدى به ذلك إلى النفي والسجن والإبعاد منذ كان طالباً في الأزهر الشريف بمصر إلى أن أصبح علماً من أعلام السياسة والجهاد في هذه البلاد، ولم يهن له عزم، ولا لانت له قناة، وما زاده عتوُّ الباطل وأهله إلا صلابة في الحق ونصره، ولا تغيرت طبيعة نفسه المرحلة المتفتحة، فما كان يلمس منه في المنفى والمعتقل تجهُّم نفس أو انقطاع أمل أو فتور عزيمة من عزماته. حتى إنك لتجد كثيراً من أصدقائه ومقدري فضله كانوا زملاء له في المعتقلات والمنافي، وأقاموا بعد ذلك على مودته وإكباره رغم اختلاف المشارب وتباين الساحات والاتجاهات»^(٤٨).

٧ - العفة والزهد:

وقد أثمرت السمات العالية التي كانت تميّز شخصيته الإيمانية خلة جليلة هي العفة والزهد، كان يتحلى بها فتوته وشبابه وكهولته. ما كان ينشد من متاع الدنيا ومناصبها - وهي متاحة له - فقيراً، فقد كان حسبه أن تنتشر دعوة الإسلام في كل مكان، وأن يعز الإسلام في دياره وأهله.

وقد بُدلت له المغريات الكثيرة ليشارك في الوزارات المتعاقبة، فكان يعتذر عن ذلك، ويدفع أحد إخوانه أو بعضهم لتولي هذه المناصب. وكانت مواقفه هذه - في رفعتها وسموقها - موضع تقدير معاصريه على اختلاف أفكارهم ومواقفهم.

يقول رفيق جهاده في حفل تأبينه:

«ولقد أعان الأستاذ الفقيه رحمه الله في قوة مواقفه وجعله في محل الكرامة والتقدير بحيث لا تناله السهام، خصلة لا يعرف حقيقتها فيه إلا من عاشه عن قرب مدة من الزمن، وهذه الخلقة هي زهده فيما يطمع فيه أكثر الناس ولا سيما من أصحاب المواهب من المال والمناصب، فكثيراً ما كان يبذل أكثر مما عنده ولو ركب في سبيل ذلك الدين الثقيل، وكثيراً ما رفض ما عرض عليه من رياسات ووزارات كما يعلم من رافقوه في تلك المجالات، وقد أتيج لي أن أشاهد ذلك بنفسي في فترات من عملنا المشترك»^(٤٩).

أما مدير الجامعة لعهد فيشهد بأنه نادر المثال في زهده وعفته إذ يقول:

«ما رأيت مثل هذا الرجل (السباعي). حين عيّن عميداً مؤسساً لكلية الشريعة، كانت لديه صلاحيات واسعة، فجعل من راتبه آخر ملاك الرواتب، وبوّأ الأساتذة الذين عينهم في الكلية ذروة الرواتب، وكان راتبه التقاعدي حين توفي (٢٥٥) ليرة سورية فقط»^(٥٠).

٨ - التجرد وصفاء النفس :

لقد بلغ مصطفى السباعي من نقاء القلب وصفاء السريرة ما يغبطه عليه أكثر من عرفه، فقد صادف في حياته الحافلة بالمهام والمنجزات مختلف العقول، وسمع في مضمار العمل أشد الأقوال وأعنفها، وكان يستقبل ذلك كله من إخوانه والعاملين في حقل الإسلام ببسمة الرضا والقبول ما دام ذلك في سبيل الله. لقد هاجمه من هاجمه على صفحات الصحف، ونال منه من نال، فما كان جوابه على ذلك سوى الصفح.

يروى هذا الأفق الرفيع من شخصيته الإيمانية من سبق له أن خاصمه وكتب عنه، ثم يشهد بموقفه النبيل . .

«وما رأيته مرة يحقد أو يتألم من إنسان ردّ عليه رأيه أو خاصمه في بحث من بحوثه، وقد كنتُ كتبتُ في الردّ على بعض آرائه، ولقد توقعتُ - بعد أن ضمّني إليه العمل في كلية الشريعة - أن أجد لديه بعض التأثير أو التألم من بعض ما قد كتبت . . ويبدو أنّه أدرك ما كنتُ أتصوّر وأتوقّع، فقال لي مرّة، وهو يتجرّع آلام مرضه غصّة وراء غصّة: «يبدو أنّك تظن أنني عاتب عليك، اسمع يا أخي: إنّ الإسلام لا مجاملة فيه. ونحن جميعاً جنود لهذا الدين وحده، فمن واجبك أن تكتب وتدعو إلى ما تراه الحق، وأنا أطالبك بالحق أن تظل على ما كنت عليه بنفس الطريقة والأسلوب ما دام أن القصد هو: وجه الله وحده» (٥١).

ثم يواصل الشاهد رواية هذا الأفق الرفيع من التجرد والصفاء عند السباعي حتى يفضي إلى موقف الذروة:

«وإنني لأذكر أنه استمر في حديثه في هذه الجلسة نفسها،

إلى أن وصل إلى كلمة دمعت عندها عيناه، حينما قال مشيراً إلى الكلية: «إنني سعيد أن أرى هذا الغراس وقد أبتلع... وهياً الله له حماة ودعاة أرجو أن يكون هدفهم الأول والأخير بذل كل ما يملكونه في سبيل هذا الدين وحده. من أجل هذا فإنني لا آسى على شيء في الحياة حينما أجدني أدنو رويداً رويداً إلى الموت!» (٥٢).

لقد ودّع السباعي الدنيا وليس في قلبه ترة أو حقد أو موجدة على أحد، يضرب لذلك المثل في كلمته الآتية لكل من يسلك طريق الدعوة بالتجرد والصفاء...

«وأعوذ بالله من أن يكون في قلبي حقد نحو أحد، أو عندي رغبة في التشهير بإنسان مهما اختلفت معه في اتجاهه وسلوكه... لقد هانت عليّ الدنيا بما فيها من اللذائذ، وما تحتويه من عوامل الحسد والحقد والكراهية، ولم يبق في نفسي - شهد الله - إلا رغبة في الخير أفعله وأدل عليه، وإعراض عن الشر أهجره وأحذر منه، أما الأشخاص فنحن كلنا زائلون، ولن يبقى إلا ما ابتغي به وجه الله، أو قصد منه نفع الناس، وسيجزى الله كل إنسان على ما قدم من عمل، ونحن جميعاً - من ظالمين ومظلومين، ومتخاصمين ومتحابين - أحوج ما نكون حينئذٍ إلى عفو الله ورحمته ورضوانه» (٥٣).

وهو القائل في شعره:

دعيني أعيش العمر في غربة الهوى
ففي الحق محرابي وفيه مناسكي
وفي النصيح لذاتي وفي الخير ثروتني
وفي العلم محراني وفيه سبائكتي (٥٤)

٩ - روحانيته وشفافية نفسه :

لقد بلغت شخصية السباعي ، بتجرّده لله وصفاء نفسه ، مرتقى تشف فيه نفس الإنسان عن منزع روحي عالٍ وذات رفيعة ، تقرب بتوقها العلوي من الله ، وتأنس به ، بل لا تجد أنسها في سواه .. يشف عن ذلك قوله :

«من أنست نفسه بالله ، لم يجد لذة في الأنس بغيره ، ومن أشرق قلبه بالنور ، لم يعد فيه متسع للظلام ، ومن سمت روحه بالتقوى لم يرض إلا سكنى السماء .. ومن أدرك أسرار الحياة ، لم ير جديراً بالحب حق الحب إلا الله تبارك وتعالى» (٥٥).

ولا يتجلى له هذا الأنس إلا في الصدق مع الله والحب فيه الذي لا ينقص منه تقلب الأحوال ..

«لا تكون المحبة في الله إلا بثلاث : أن يكون القلب في الهجر كحاله في الوصل ، وأن تكون المعاملة في الغضب كما هي في الرضا ، وأن لا تزداد في العطاء وتنقص في الحرمان» (٥٦).

وقد تشرق نفس الإنسان بهذه الومضات الوضيئة حين يكون في صحة وإقبال ، فإذا تجهمت الحياة وعراه المرض نضبت روحه وهزلت . فماذا كان من السباعي حين داهمه المرض العضال ؟

لقد وجد الأنس بالله الطريق إلى هدهة هذه الآلام . فماذا يقول ؟

«استمرار التفكير في آلام مرضك يزيدك آلاماً ، فحاول أن تنسى مرضك ولو فترات ، بقراءة ما تستلذ قراءته ، أو سماع ما تستحسن سماعه ، أو رؤية ما تحب رؤيته ، أو محادثة من

توَدُّ محادثته . وإذا رزقت الأنس بكلام الله ، وحلاوة مناجاته ،
كان ذلك من أكبر العوامل على نسيان آلامك ، حين تقرأ
كتاب الله ، أو تخضع بين يديه في صلاتك^(٥٧) .

ولعلَّ السباعي قد جرب شطر النصيحة الأول فلم يخفف عنه الآلام
التي كانت تقرض جسمه بمقارض رهيبة ، فأقبل على الله بالمناجاة ،
وتصاعدت من نفسه هذه الابتهالة الشفيفة ، وقد فجَّر الألم في ذاته ينابيع
من الروح العلوية :

رَبِّ قَدْ أَعْجَزَ الْأَطِبَاءُ دَائِي
مَا لِدَائِي سِوَاكَ رَبِّ يَزِيحُ
وَإِذَا شَاءَتِ الْعَمَلُ أَمْرًا
يَسَّرْتَهُ مِنْ بَعْدِ يَأْسٍ يَلُوحُ
فِي رَحَابِ الْكَرِيمِ أَلْقَيْتَ رَحْلِي
إِنَّ قَصْدَ الْكَرَامِ رَأْيِي نَجِيحُ
وَلَقَدْ يَقْبَلُ الْكَرَامُ جُنَاةً
قَدْ تَرَامُوا وَدَمَعُهُمْ مَسْفُوحُ
عَلِمَ اللَّهُ ذَّلَّتِي ، وَانْكَسَارِي
وَدَمُوعِي وَذُو الْهَوَى مَفْضُوحُ^(٥٨)

وَأَلَحَّتْ عَلَى جِسْمِهِ الْآلَامُ وَبَرَّحَتْ بِهِ الْأَسْقَامُ ، طَرِيحَ الْفَرَّاشِ ، يَثْنُ
لَيْلَ نَهَارٍ ، فَفَاضَتْ فِي نَفْسِهِ بِحُورٍ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَارْتَقَتْ ذَاتَهُ وَشَفَّتْ ،
وَعَرَجَتْ جَذَلَةً إِلَى الْآفَاقِ الْعُلْيَا . مُؤَذِّنَةٌ بِالرَّضَا - عِبْرَ الْآلَامِ - لِلْحَبِيبِ :

« - يَا حَبِيبِي ! وَحَقُّكَ لَوْلَا يَقِينِي بِحُبِّكَ لَعَتَبْتُ عَلَيْكَ ،
وَلَوْلَا عِلْمِي بِرَحْمَتِكَ لَشَكُوتُكَ إِلَيْكَ ، وَلَوْلَا ثِقَتِي
بِعَدْلِكَ لَاسْتَعْدَيْتُكَ عَلَيْكَ ، وَلَوْلَا رُؤْيِي نِعَمَكَ لَاسْتَبْطَأْتُ

كريم إحسانك؛ ولكني ألجمت الشك باليقين،
والتسخط بالرضا، والتبرم بالصبر؛ فلك مني يا حبيبي
رضا قلبي وإن شكا لساني، وهدوء نفسي وإن بكت عيوني،
وإشراقٌ روحي وإن تجهّم وجهي، وأملٌ يقيني وإن يئس
جسمي، فلا تؤاخذني بصنيع ما يفنى مني، ولك مما أعود به
إليك ما تحبّ» (٥٩).

بهذه الروح العليّة زار السباعي البيت الحرام وهو في ذروة المرض،
فكان يستيقظ قبيل الفجر، ويطوف في الكعبة، فتدركه نسائم رّوح ندية
تصله بالله. فلا يحس معها سقماً ولا ألماً، ويثني رجله المشلولة دونما
عناء، ولا يستشعر ألماً في رأسه (٦٠).

ويخاطبنا السباعي بهذه الروح الرفيعة المحلقة في مقاله الثمين:
«رحلة إلى الله ورسوله» قبيل رحيله، حيث يفيض في المرتقيات، وهي من
أجلّ ما تركه من آثار روحية:

«وجاءت أشهر الحج... وأنا أعاني من شدة المرض
ما يزداد يوماً بعد يوم، حتى إذا بدأ من لبّوا نداء الله بالسفر
إلى بيته الحرام خطر لي فجأة أن أشاركهم في عناء سفرهم
عسى أن أشاركهم في تنزل رحمت الله عليهم ورضوانه
عنهم عشية عرفات كما وردت بذلك الآثار الصحيحة،
وبدأت فوراً بإجراء معاملة جواز السفر.

وكان أن دهش أهلي وأصدقائي الأقربون لهذه الفكرة وجاؤوا
يحاولون أن يشنوني عن عزيمتي شفقة عليّ لما يرون من
ضعفي وعجزني عن السير وحدي حين اشتد بي المرض
أخيراً، ولما عجزوا عن إقناعي بالعدول عن السفر اقترحوا
عليّ أن يكون سفري أولاً إلى المدينة المنورة وأن أظل فيها

حتى ينتهي موسم الحج وازدحامه فأزور مكة معتمراً بعد أن يعود أكثر الحجاج إلى بلادهم.

فقلت: والله إنها الخسارة التي ما بعدها خسارة! أفلوت عليّ التعرض لرحمة الله التي ينزل بها على حبيجه عشية عرفات وأنا قريب منها ثم أسافر إليها بعد أن أفلت من يدي فرصة اكتساب الرحمة؟! لا بد من السفر إلى الحج وليكن من أمر الله ما يكون، فإن كتب لي العودة سالماً عدت غانماً، وإن قضى في أمره هناك فبا حبذا الموت في ديار الأُحبة، وأنعم به من لقاء اشتد الشوق إليه!.

وفيفض السباعي في مقاله عما أكرمه الله بإلهامه فكرة الحج مما زاده بهذه الكرامات أملاً ووثوقاً بعون الله ورحمته. فمما يقول:

«قضيت في فترة أيام الحج أياماً لم أعرف مثلها خلال مرضي سبع سنوات كاملات، فلأول مرة منذ سبع سنين يهدأ الألم في دماغي، وأقوى على الصلاة واقفاً على قدمي، وأجلس للتشهد فيها على الرخام القاسي كما يجلس الصحيح المعافى، ولقد قدمت مكة فطفت طواف العمرة محمولاً على المحفة، ثم غادرتها وطففت طواف الوداع ماشياً على قدمي وذلك ما شعر به كل من رأيي ولازمي في تلك الأيام.

أما آثار الحج الروحية وآثار زيارة الرسول ﷺ، والسلام عليه والصلاة في مسجده المبارك، فوالله لكأنما ولدت من جديد وخلقاً جديداً، وهذا ما سأحدث عنه في مقال تال عن الحج ذاته ومشاهداتي فيه إن شاء الله»^(١١).

ويأتي كتاب «هكذا علّمتني الحياة» للسباعي خلاصة لتجاربه وآرائه الرفيعة، ولا سيما مواجهه الروحية وعروجه الوجداني.

يطالعنا من أنس بهذا الكتاب وعرف قدره، وأدرك شأوه النفسي والروحي، بأثره الروحي الفريد في نفسه:

«هنيئاً لك يا سيدي نشوة هذا الحب. وليزدك الله سعادةً بنعيم هذا الرضا، لقد سعدتُ بقطراتٍ من الدَّمع وأنا أقولُ لك هذا الكلام، لقد شعرتُ بنعيم البكاء وأنا أقرأ ما تمرُّ عليه عيناى، فكم كان نعيمك يا تُرى وأنت تكتب ما ينبع به قلبك؟! .

أستطيع يا سيدي أن أتصوّر أنَّ سعادة احتراق القلب بحبِّ الله لا تعدلها سعادة، وأستطيع أن أعلم شيئاً من حكم هذه الحياة وأسرارها لن يتجلّى للقلب، ما لم ينعكس إليه وهج من نار ذلك الحبِّ، فادعُ الله للمسلمين أن يسعدوا بهذه اللوعة كما دعا لهم (إقبال) بذلك من قبل»^(٦٢).

(ب) شخصية السباعي القيادية

ترعرعت في نفس السباعي الروح القيادية مذ كان فتى يخطب جموع المصلين في مسجد والده، وأخذت هذه الروح القيادية تنمو عبر حياته الحافلة بالكفاح المتواصل الذي كان له فيه دائماً دور قيادي، لما حباه الله من مواهب فذة، أهّلته لأن يكون قائداً ناجحاً:

«قائد حنّكته الأرزاء وأنضجته التجارب والملمات، وأبرزته الدراسات العميقة والأفكار الراشدة»^(٦٣).

ولقد توفرت للسباعي مقومات الشخصية القيادية وشروطها العتية التي قلما تتوافر كلها في إنسان إلا من حظي بالمكونات الذاتية التي حظي بها السباعي والعوامل الموضوعية التي أثّرت شخصيته.

ونعرض فيما يأتي لهذه الشروط والمقومات:

١ - شمول الطاقات :

كان السباعي كتلة من القوى والطاقات تتوالب في نفسه وتمور، وتطلب ميداناً تحقق ذاتها فيه، لذا كانت نفسه لا تهدأ بلابلها ولا يقر جنانه حتى يحرك طاقاته كلها، ويضع كل طاقة في مكانها إنجازاً وبناء وإنماء.

يقول رفيق دراسته :

«لقد كان السباعي مجموعة من القوى والمواهب التي لا تكاد توجد في واحد، وهو أمر يختص به الله تعالى من يشاء من عباده» (٦٤).

ويأتي زميل الجامعة فيجلو لنا طبيعة هذه القوى والمواهب التي كانت تشع في نفس السباعي بقوله :

«قد كان - طيّب الله ثراه - رفيق الإهاب، متفتح الذهن، يتكلم فيشع عقله في معانيه، ويشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره الحي على ألفاظه وعباراته، ويحيي القضية التي يعمل لها بكل حواسه ومشاعره: بديهة حاضرة، وذهن متوقد نفاذ، وإطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ورجولة بعيدة الغور، سنية القصد. كان - نضر الله مثواه - ذكياً إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى درجة المغامرة، طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس، ولا يحد غايته مطلب، بعيد الهمة فلا يضلّه كغيره شارد الخيال، ولا يغره كغيره خادع الأمل» (٦٥).

ويعرض لنا أخو الدعوة الكبير صورة حيّة لهذه المواهب والطاقات التي لا تنهض بها إلا العصبية من الرجال الموهوبين الأقوياء فيقول :

«كان رحمه الله تعالى همّة متسعة متشعبة تسلك سبلاً كثيرة من ألوان الخير والعمل الصالح، وكان يذهل عن مرضه المقعد معها.. إذا زرته لقيته يؤلف ويدوّن، ويرسم الخطط لنشر العلم والمعرفة، ويدعو لنشر هذا الكتاب وطبع ذاك الكتاب، ويحض على القيام بهذا المشروع العلمي أو الثقافي أو الديني أو الاجتماعي، كما يحض على أداء ما يراه من الواجبات العامة والخاصة..»

وتراه يقدم نفسه للإسهام في كل ذلك على أوفر نصيب، عازماً حازماً غير متوانٍ ولا كسل، بحيث كنت أقول ويقول كثيرون غيري: ما أكبر هذه الهمة التي أوتيها؟ إنها لو قسمت عزماتها ومقاصدها على عشرين شاباً من ذوي الجد لضاقوا بأدائها والنهوض بها ذرعاً، وناؤوا بها ثقلاً، ولكنها نفس أبي حسان الكبيرة المؤمنة، وهمة القعساء التي جعلت في جسمه الفرد جسماً كثيرة فعالة مبدعة، لا يتسرب إليها الملل من الخير ونشره والدعوة إليه، بل كان رحمه الله تعالى يرى ذلك كله متعة وروحانية وأنس نفس وتعباً محبباً.

وما أصدق قول البحتري فيه:

قلب يطل على أفكاره، ويد

تمضي الأمور، ونفس لهوها التعب^(٦٦)

ولقد أثمرت هذه الطاقات الرحبية في عمر قصير منجزات رائعة، عرضنا بعضها بإجمال، وسنعرض لسائرها - إن شاء الله - بالتفصيل في موضعها من الكتاب؛ شرحاً لقيمتها، وبياناً لخطرها ومكانتها وضرورتها لحاجات أمتة المسلمة في عصره.

يروى تلميذه النابغة لنا طرفاً من طاقات السباعي وإنجازاته في تأسيسه كلية الشريعة، حيث يقول:

«والحق إن عملاً مثل هذا العمل، لو قامت به جماعة من أصحاب المواهب والإمكانات لكفاها فخراً ومأثرة ومجداً وخلوداً... ولكن السباعي رحمه الله كان طاقة جبارة لا تعرف الوقوف عند حد.. ولا تعرف القناعة والاكتفاء بالعمل في ميدان واحد.. والحق كذلك إن السباعي كان أمة حية دائبة النشاط والحركة والتوثب والتطلع إلى أكبر الأهداف وأسمى الغايات»^(١٧).

هذا وإن كان المجال هنا ليضيق عن استعراض شمول طاقات السباعي وإنجازاته الواسعة فإنّ جلّ صفحات الكتاب ستأتي ميداناً لعرضها..

٢ - الشجاعة والجرأة:

تاريخ السباعي كله يكاد يتجلى في هذه السجية التي تعوز كل قائد، وهي مقوم أساسي لنجاحه في قيادته.

لقد كانت جرأته - رحمه الله - وشجاعته تلازمان جلّ مواقف حياته، بدءاً من قيادته للطلبة ضد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي في مطلع حياته، وانطلاقاً من بدايته وجرأته في قيادة الدعوة الإسلامية التي خطت خطوات سريعة بفضل هذه الجرأة وهذه البداهة، تحدوها روح متوثبة شابة لا تعرف للتردد سبيلاً، وانتهاءً بعمله السياسي الذي ضرب المثل فيه بشجاعة مواقفه وجزيل إنجازاته، يشهد بذلك كبير الدعاة في سورية بقوله:

«لقد عرفت المغفور له من زمن يقرب من ثلاثين سنة وهو في ريعان شبابه، فكانت الشجاعة تلوح من بين عينيه، وتندفق فيه الحيوية والشهامة، والنبيل والذكاء»^(٦٨).

ويأتي في مقدمة مآثره البطولية قيادته لمجاهدي الإخوان المسلمين بسورية في حرب فلسطين؛ حيث ربض وإخوانه خلف أسوار القدس يذودون عن حمى المدينة المقدسة بمهجمهم وأرواحهم، مما سيأتي تفصيله. ونورد فيما يأتي نماذج من جرأته أو شجاعته، شهدها إخوانه وهي غيض من فيض:

« - من مآثره البطولية رحمه الله: ذلك الموقف العجيب الذي واجه به حكم الإعدام، الذي أصدر على شقيق له أيام رئاسة نور الدين الأتاسي على سورية.

لقد وزعت في المدن السورية منشورات تدعو إلى الإضراب إعلاناً لمعارضة التسلط، وخرج الناس يومئذ في حمص إلى الأسواق ليروا مدى استجابة الناس لهذه الدعوة. ووقف ذلك الفتى السباعي أمام حانوته بجوار الجامع الكبير منتظراً ماذا يجب أن يعمل، أيفتح الناس فيفتح، أم يضربون فيضرب معهم!

وصدرت الأوامر العسكرية بسحق المحاولة دون رحمة، وحُمل الفتى فيمن حُمل إلى السجن، ومن ثم حكم عليه مع آخرين بالموت. ولكن الله لم يقدر تنفيذ الحكم فحال بين المحكومين وإعدامهم.

وحدثني الأخ الفقيد، وكان المحكومون يتوقعون حبس المشتقة يومئذ، فقال: هذا الطاغية - نور الدين الأتاسي - يريد مني أن أزوره لأشفع لأخي... وهيئات له ذلك!

أجل.. لقد كان إعدام أخيه يومئذ أقرب إلى قبوله من التفريط بعزة الإسلام أمام الطغيان»^(٦٩).

ومما يؤثر عنه في جرأته وشجاعته ما يتناقله الإخوان له من مواقف، نذكر منها:

١ - حينما استشهد الإمام حسن البنا كان السباعي في مصر، وكان يجول كالأسد الهصور والأمن يطلبه بشدة، لأن شائعة راجت أنه سيكون خليفة للمرشد رحمه الله^(٧٠).

٢ - دعتة إحدى الهيئات ليتحدث إلى الحجاج، واشترطت عليه ألا يتطرق إلى السياسة، وحضر السباعي، وتحدث زهاء ساعتين إلى الحجاج بحضور ضيف كبير، وكان موضوع حديثه: «واجب العلماء في نصيح الحكام»، وأن على العلماء تذكير الحكام بطريق الحق وموالاته نصحهم، فأعجب الضيف بحديثه السياسي وعانقه قائلاً: «هذا كلام ينبغي على كل عالم أن يقوله، وعلى كل حاكم أن يسمعه»^(٧١)!

٣ - اشترى السباعي بمعرفته ذخيرة لمجاهدي الإخوان في فلسطين من إحدى قرى شمال سورية، تبين حين استخدامها في الجبهة أنها ترد إلى صاحبها؛ إذ كانت ذخيرة فاسدة، فما كان من السباعي - وكان المجاهدون أحوج ما يكونون إلى الذخيرة في فلسطين - إلا أن غادرها إلى شمالي سورية وطرق الباب على تاجر الذخيرة، وكان رجلاً شريراً مهتته القتل والسلاح، فبادره السباعي بقوة: هاتِ ذخيرة سليمة بدلاً من الذخيرة الفاسدة التي أعطيتنا إياها. وكان مرافق السباعي في خوف عليه من الرجل الشرير، ولكن شجاعة السباعي وجرأته أوهنت كيانه ذلك الرجل القاسي فاستسلم قائلاً: أنا تحت أمرك. وملاً السيارة بالذخيرة السليمة، وانصرف بها السباعي إلى إخوانه المجاهدين^(٧٢).

٤ - وبلغه مرة أن عدداً من الإخوان قد أوقفوا في سجن القلعة بدمشق، فمضى لتوه إلى الضابط وصرخ فيه: كيف توقفون هؤلاء الشباب الأطهار؟! أطلقوا سراحهم فوراً. فهلع الضابط من هيبتة وجراته، ونادى على الفور: تحت أمرك، سأطلقهم حالاً^(٧٣).

٥ - نمي إليه أن هناك من أقنع رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي بأن افتتاح كلية للشرعة سيجر عليه بعض المتاعب، فأخذ يماطل في الموافقة على تأسيسها. فما كان من السباعي إلا أن صعد إلى القصر الجمهوري مواجهاً هذه المماطلة بكلمة نارية أمام الرئيس جهر فيها بالحق والواجب الإسلامي الذي يقضي بتأسيس الكلية ومسؤولية الرئيس عن ذلك. فتقاطر موظفو القصر وحراسه الذين وفدوا مذهولين يستطلعون الخبر، فما كان من الرئيس إلا أن أصدر موافقته على تأسيس كلية الشرعة، مع عتبه^(٧٤).

ولعلّ الله قد آتاه هذه الهيبة إبان المواقف الدعوية الحاسمة. أما إذا ما جالستَه في شأن أو زرتَه، ألفت سِماحةً وتلطفاً، دون كلفة أو حجاب^(٧٥).

٣ - الذكاء والفطنة:

من مقومات شخصية القائد: الذكاء، والفطنة، وحضور البديهة.

ولقد ضرب السباعي منذ نعومة أظفاره من هذا بسهم وافر، مما عرضنا له في حياته؛ فقد اعتلى منبر والده بالجامع الكبير في مقتبل العمر، وأتم دراسته الابتدائية بتفوق ظاهر، وفي دراسته الثانوية كان موضع إعجاب أساتذته وأقرانه ومعارفه، كان يحضر خلالها مجالس العلماء في بلده، فتوسّم له كبار أساتذته مستقبلاً علمياً مرموقاً.

وفي دراسته العليا طاف يخالط كبار رجال العالم الإسلامي، ويكتب في جريدة «الفتح» مقالات جعلته في مقدمة كتّابها، ويطالعنا فيها بافتتاحيات تُعالجُ بنضجٍ فريدٍ مبكرٍ قضايا العالم الإسلامي بحسٍّ وإعٍ وإدراكٍ رهيفٍ.

وحين تولى قيادة جماعة الإخوان المسلمين غذاها بفكره الناضج، ورادها بفهمه العميق للإسلام.

وحين أسس كلية الشريعة وضع خططها ومناهجها على أسس تربوية جديدة تنشئ جيلاً نابهاً فطناً في دعوته إلى الإسلام والتعريف به. لقد كانت بديهته العلمية حاضرة دائماً..

يحدث أحد الإخوة وقد حضر ليتسلم منهج الجماعة الذي يكتبه السباعي، فوجده يكتب المنهج - الذي يتضمن حقائق ومعلومات تقتضي المراجع الكثيرة -، يكتبه من ذاكرته^(٧٦).

ويحدث أحد الإخوة أيضاً بأن السباعي كان يزود اللجنة المكلفة بوضع مناهج كلية الشريعة حين تأسيسها بالمصادر والمراجع من ذاكرته^(٧٧).

لقد سدد الله خطأ السباعي في قيادته بما منحه من ذكاء وحضور بديهة بفضل الإيمان الذي كان يعمر قلبه، وبفضل الإخلاص والتجرد لله والثبات على الحق.

من أمثلة حضور بديهته بسبب خلوص نيّته لله الواقعة الآتية:

«التقى السباعي في رحلته العلمية بأحد المستشرقين الكبار، وبعد أن حاوره سأل السباعي المستشرق: لماذا تكرهون محمداً؟ فأجاب المستشرق: لأنه تزوج عدة نساء.

قال السباعي: يا سبحان الله، إن سليمان تزوج أكثر مما تزوج محمد ﷺ. لقد تزوج محمد تسع نسوة، وتزوج سليمان ثلاثمائة امرأة حرة وثلاثمائة امرأة من الإماء، كما ذكرت التوراة. فهل تكرهون سليمان لفرط زواجه؟ فأسقط في يد المستشرق، وقال: لا لا، أنا غلطان، إننا نكره محمداً لأشياء أخرى..

ولكن بُهت الذي كفر! (٧٨).

وبعد، لا يغرب عن البال ما كانت تقتضيه متابعة قضايا الدعوة الإسلامية في سورية والعمل السياسي فيها من السباعي - كإدارة مراكز الجماعة، ومتابعة لخط سيرها وسياستها، وابتكار الحلول لها، ووضع الخطط، ومواجهة مشاكل السياسة والأحزاب، وجلسات المجلس النيابي - وكان هذا يقتضيه الذكاء العالي والفطنة الفريدة، والعقل اللّماح..

كما لا يغرب عن البال ما تطالعنا به مؤلفات السباعي الوافرة من أفكار طريفة متسمة بطابع فطنته، وحسن اختياره، وجديد تناوله لعصره.

٤ - روح الجهاد والكفاح:

درج السباعي على أرض بلده وهو فتى؛ فشاهد الاستعمار الفرنسي يحتل بلده، ويقوض حرية شعبه؛ يظلم وينهب، ويستذل كرام الرجال بسطوته وقهره؛ فولّد ذلك في نفس الفتى روح الكراهية للمستعمر، وأشرب حب الجهاد والكفاح لتحرير البلاد من نير طغيانه، حتى كان مطلع حياته ونشأته - كما مر معنا - حرباً على الاستعمار اتخذ أشكالاً شتى من الجهاد والكفاح، من إصدار للمنشورات المعادية للاستعمار، وحشد لأبناء الشعب، وتزويده بالتوعية لقضية الحرية، وقيادة للمظاهرات والمسيرات المنادية بسقوط المستعمر، المطالبة برحيله عن البلاد.

وعلى وقع هدير الشعب مطالباً بالحرية في سورية ومصر، اضطربت روح الجهاد والكفاح متنامية مُتَّقِدة في نفس السباعي. لقد أهْلته لأن يأخذ على عاتقه بعد رحيل المستعمر تبعة مكافحة الاستبداد والفساد والنزعات الأجنبية. ومن ثم كان رائداً لجماعة الإخوان المسلمين في سورية فقادها في طريق الكفاح الذي نذر نفسه له، كفاح الجهل والإلحاد والفساد.

روح الكفاح في السباعي جبلة فيه، هي جزء من روحه القيادية؛ إذا ما استوفى ميداناً في الكفاح طلب ميداناً آخر، وقد يعمل في ميادين كفاح متعددة..

كان يكافح الاستعمار الفرنسي والبريطاني، ويعمل في الوقت نفسه لقضية المسلمين الأولى، قضية فلسطين، وفي وقت مبكر. ولكن حين بلغت قضية فلسطين منعطفاً خطيراً في الأربعينات - والناس غافلون عنها - مضى السباعي يذرع البلاد طولاً وعرضاً ينقل روح الكفاح التي تملأ نفسه إلى أبناء سورية لكي يهبطوا لنجدة فلسطين، ثم انتهت حملة التوعية التي رادها إلى حملة الجهاد، فقاد كتيبة الإخوان المسلمين في سورية إلى فلسطين...

يحدثنا رفيق دراسته عن مدى عزمه وتصميمه على الجهاد بقوله:

«حينما أزمع السباعي الذهاب إلى فلسطين على رأس كتيبة الجهاد والدفاع عن القدس ذهبت إليه مودعاً، وحينما أخبرني أنه سيخرج مع الإخوان لفلسطين حزنت وقلت له: متّعنا بحياتك يا أخي مصطفى. إننا نستطيع أن نعدّ كثيراً من الناس ليجاهدوا في فلسطين، ولكن أن نُعدّ واحداً مثلك لقيادة الحركة الإسلامية يشبه أن يكون فوق طاقتنا. كيف نستطيع أن نوجد واحداً مثل السباعي؟

وحقاً قد مضى ولم نرَ له مثيلاً . ولكنه كان مشتاقاً
إلى الجهاد، وكان حماسه وانتقاد عزمه للجهاد في فلسطين
يفوق الوصف» (٧٩).

ويواصل السباعي كفاحه لقضية فلسطين وجهاده حتى آخر لحظة من
حياته . وعلى المسار نفسه ظل يكافح الاستبداد والديكتاتورية .

ثم انتقل كفاحه إلى تأسيس الصحافة الإسلامية، ومن ثم إلى تأسيس
كلية الشريعة، وإرساء قواعد المواد الإسلامية في الدستور السوري،
وكان ديدنه الذیاد عن الإسلام وأقطار الإسلام في كل مناسبة وفي
شتى الميادين .

ويتهاوى هذا الجسم الذي حمل أعباء نفس جياشة بحب الجهاد
والكفاح، ولم يتوان عن الجهاد في كل ميدان . . يتهاوى طريح الفراش،
لا يستطيع حركة إلا بألم، ولا يطيق النهوض إلا بمشقة . .

لقد حُكم على الفارس المجاهد أن يترجل . . أن يخلد إلى السكينة
بعد أن كانت المحافل تدوّي بصوته، والميادين تضطرب بنشاطه وحيويته،
فجاشت نفسه بهذه الأبيات :

طال سُقْمِي وطال فيه عنائي
ليت شعري متى يصحُّ الجريحُ؟
شِدَّةٌ إثرَ شِدَّةٍ تنوَالِي
ها أنا اليوم في الفراش طريحُ
لست آسى على لذائذ عيش
أو على الجاه والشباب أنوحُ
غيرَ أني انشُرْعْتُ من بين صحبي
فارساً مُعلَماً بجسمي جروحُ (٨٠)

٥ - الدأب والمواصلة :

في شخصية السباعي - بنعمة من الله - وقود لا ينفد، وطاقة لا تفنى أورثته الدأب المتواصل الذي لا يعرف التوقف، والنَّصَب الدائم الذي لا يدرك للراحة معنى . قد تراه بادي الإعياء والتعب، ولكنه لا يعتذر عن سؤال أو مراجعة، ولا يغادر العمل إلا بعد الإنجاز وهو في أشد حالات الإرهاق . ولعله لم يعرف للراحة طعماً إلا حين أُقْسِر على لزوم الفراش بالمرض العضال . .

لقد كان من يشهده يحسبه يقظان أبداً لا يعرف للراحة سبيلاً . .

«كان يجود - في سبيل هذا الإسلام - بكل شيء، ويندفع لأداء واجبه بكل قواه، بل كان يريد التهام الواجبات يقضيها في ليلٍ ويؤدي رسالته في أيام، فينطلق لا يلوي على شيء، وينهب الطريق الذي يريد، لا يعبأ براحة حتى أقعده المرض وأمّضه الألم، ولازمته العلة؛ فأذهلته الصدمة التي نزلت به، وأحنت عليه؛ فسكن لها واطمأن لقضاء الله، حتى إذا أفاق من ذهوله وثاب إلى نفسه عاد مرة أخرى إلى العمل الدائب؛ يسهر فيه الليالي الطوال؛ فعكف على الكتابة في مجلة الحضارة وغيرها . واعتزل يؤلف كتبه في العلم والتشريع والأدب، وأخرج منها طائفة ممتعة أضيفت إلى المكتبة الإسلامية إلى أن توفاه الله منكباً على إنجاز مؤلفه الجديد في السيرة بعد أن أعد العدة للسفر إلى مكة»^(٨١) .

إنه لنموذج فريد من القادة، إذ قد يرى البعض في القيادة فرصة

لاكتساب المغانم، أما هو فكان للقيادة كبش الفداء، دأبه العطاء ومواصلة
الفداء من جهده وعقله وماله . . يحلل شخصيته من عرفه عن قرب في روح
الدأب فيقول:

«وحسبك أن تعلم أنه لم يعتصر من عمله القيادي
شراباً ينتشي به في ظلال الطمأنينة والرخاء، وإنما
تَرَكَ القيادة نفسها هي التي تعتصر شبابه وحياته؛
تورده المخاطر، وتُهَوِّن عليه المصائب، وأن جرأته
أمام جيوش الباطل لم تكن حلماء يداعب خياله،
بل عزيمة تملأ حياته، ولذلك فما كان ليترجمها
يوماً إلى أقوالٍ رنانة يسعد بتكريرها في المجالس
أو على ذرى المنابر. وإنما كان يترجمها إلى عمل
بناءٍ يمخر به عباب المخاطر. وما كان ينتظر على
كل ذلك أجراً من المال أو الجاه في دنياه، وهو الذي
يقول في بعض كلماته: (لو عمل كل العاملين انتظاراً
للجزاء في الدنيا لماتوا همّاً وكمداً). ولو أنه مد يد القبول
للدنيا، وأغمض العين عن النظر إلى العقبي، لجمع
من المال قدراً غير يسير، ولما ترك من خلفه صبيةً وأولاداً
ليس لهم من نسب الدنيا ومتاعها إلا حسن الاتكال
على الله وحده» (٨٢).

ولعل السر فيما قدمه السباعي للدعوة الإسلامية من منجزات
يعود في شطر كبير منه إلى روح الدأب والمواصلة التي كانت
تلازم شخصيته، وتتابع خطا إنجازات الدعوة الإسلامية خطوة،
خطوة، دون كلال أو انقطاع، دون ارتقاب مغنم أو جزاء إلا من
الله وحده.

٦ - الجد والعمل :

كانت روحه الجادة في العمل الإسلامي غالبية على طبيعته ووجدانه، وكان ينظر إلى قضايا أمته بروح الجد. كان يتألم جداً كلما رأى أمته تلهو والعدو يخطط لاختراقها والعبث بها.

ولقد كان يحزّ في نفسه أن يُلفي الافتراق البين بين استعدادنا الهازل للمعركة مع العدو، والاستعداد الجاد من قِبَل العدو الصهيوني. كان ينظر بعين المؤمن إلى النتائج من خلال تلكم المقدمات.

وإن من بعض أقواله لنبوءات بما حاق بالأمة المسلمة بعد ذلك من هزائم وويلات؛ لأنها تخلفت عن روح الجد في تصور المعركة والاستعداد لها، واتبعت سبيل اللهو واللعب.

« - أليس من دواعي الأسى، أن تكون لإسرائيل صواريخها، ومعاملها النووية، وليس لها تلفزيون، ويكون لنا تلفزيون، وفرق للرقص والتمثيل، وليس لنا صواريخ، ولا أفران ذرية؟... وهل يخاف العدو إذا كنت تحسن الرقص. أم إذا كنت تحسن صناعة الموت؟ » (٨٣).

كانت روح الجد تعيش في ذاته، حيث يجد للعمل لذة وللجد نشوة، وكان يؤثر في أيام الأعياد التي كان يلهو فيها الناس أن يعقد المؤتمرات وينصب المخيمات لشباب الدعوة يعلمهم فيها الشطط وخشونة العيش ويؤهلهم لحياة الجهاد.

إن روح الجد التي كانت تستغرق نفسه جعلته يسمي الأسماء بمسمياتها، فإذا ما طلبَ لعمل إنجازاً؛ ما كان يقبل له التسويف... وإذا خُطط لمشروع؛ فينبغي أن يتابع بالجد والدأب. ما كانت الأحاديث

عن المشروعات والموضوعات لتزجية الوقت أو لمجرد الاستعراض والدعاية، وإنما كانت للبناء والتكوين.

بهذه الروح الجادة كان يقود الجماعة، وعلى هذه الروح كان يربي أعضائها، لا تواني ولا تسويف، بل جد ودأب وإنجاز؛ لذا كان على من يعمل معه أن يتقلد هذه الروح الجادة، وأن يتعب كما يتعب، ويشقى كما يشقى لينال الثواب صحبته من لدن العزيز الحكيم..

ودستوره في الجد:

«من تهذّم عليه البيت، فركن إلى الأنين، مات تحت الركام،
ومن أمسك جراحاته بيد، والمعوّل بيد، إن استطاع،
فإن سلمت له حياته عاش كريماً، وإن مات بعد ذلك
مات حميداً»^(٨٤).

٧- الإتقان:

من سمات القائد الناجح: الإتقان وحسن الأداء، ولقد عُرف السباعي بتعشقه للإتقان والحرص على أن يكون عمل الدعوة تاماً متقناً، وكان يوصي بالألا يرضى الداعية عن نفسه، وإنما عليه أن يتفوق على نفسه كل يوم، مصداق قوله تعالى لرسوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

كان يتقن عبارته في مقالِه فتجدها رحيقاً سلسلاً، ويتقن كلمته في خطبته فتخالها ناراً ملتهبة، وكان يتقن مشاريعه من صحيفة أو رحلة أو شركة فتجد ذلك كله منسقاً مبوراً.

وكان الرائد الذي يستطلع لجماعته كل ما يصدر في العالم من جديد؛ كان واسع الاطلاع على الثقافات والأخبار والمبتكرات، يقدم لجماعته كل طريف يلزمها يصادفه، وكل نافع يعثر عليه.

كان موسوعي القراءة، أخذ نفسه بالاطلاع من أوسع أبوابه، فكان بحق إنساناً مثقفاً.

يقول زميل الجامعة وقد اطلع منه هذا الأفق الحضاري الرفيع:

«وعلمه علمٌ كثير الألوان، ناصع البيان، غزير الأبواب، يستقي من كل نبع، ويتفتح لكل مصدر؛ لكنه علم الإسلام وأدب العرب: علم قوي موجز غزير. ولئن كان للثقافة الحديثة فيه أثر فهو أثر المجارة والاستفادة لا أثر التشرب والتمثل. وبحسبه أن يكون قد بلغ نبعها وانتهل من غيها»^(٨٥).

ويهيئ بإخوانه أن يحسنوا أعمالهم ويقدموها على أجود وجه؛ إنفاذاً لسنة النبي ﷺ فيقول:

«عمر ككك هو اللحظة التي أنت فيها، فأنتقن عملك ما استطعت، فقد لا تواتيك فرصة أخرى للعمل»^(٨٦).

٨- الإنصاف:

كان السباعي واسع الأفق لا يضيق بالرأي الآخر، وإنما يفيد من كل رأي. يتيح الفرصة لكل طاقة في الدعوة أن تعمل وتنتج؛ إذ يعد الدعوة مضماراً لسائر الدعاة، لا يحتكر دونهم المجالات والفرص، وإنما يفرح لكل إسهام بناء منتج. همُّه نجاح الدعوة دون النظر إلى من يقطف الثمرة.

وعلى الرغم مما أوتي من مواهب وسعة في التجارب ما كان يتعصب لرأيه. إن بدا له الحق عند سواه نزل عند من رأى لديه الحق باسطاً له يد المساعدة. نصرته الحق وحده وجهته وسيله.

«كان يدعو إلى الحق ويدافع عنه وينصره، وإذا صادف أن اجتهد في أمر فكان له فيه رأي ولسواه رأي ثم روجع في ذلك ونوقش بسط حجته، ودافع عن وجهة نظره بروح المنصف المتحري، الباحث عن الحق، حتى إذا تبينت له فيما كان يراه ويقولُهُ وجهةٌ جديدةٌ محصّ فيها الرأي، وكانت نتيجة ذلك التزامه بالحق الصراح والمعالجة به، لا يهمله في أي جانب كان، دون تعصب لرأيه أو حرص على انتصار وجهة نظره، بل إنه ليشد بقوة على الرأي الجديد الحق، مدافعاً عنه أشدّ من دفاعه عن رأيه الذي كان يراه، لأنه تبدت له معالم الحق فيه أكثر» (٨٧).

هذا العلامة الداعية الشيخ محمد الحامد، تجدّ له ملاحظات على كتاب السباعي «اشتراكية الإسلام»، فيبيّن في الكتاب رأيه، وحين علم السباعي بذلك ضرب المثل باستقباله انتقادات الشيخ الحامد بما يخالف رأيه، فرحّب بانتقاداته، وفتح له صدره في مجلته «حضارة الإسلام».

وفي ذلك يقول الشيخ الحامد:

«أما بعد فقد أصدر أخونا الفاضل العليم الدكتور مصطفى السباعي كتاباً سماه «اشتراكية الإسلام» نحا فيه نحواً علمياً يعرض فيه على الناس ما في الإسلام من رحمة عامة، وتكافل اجتماعي وإغاثة للضعفاء، وبر بالفقراء، ووقاية للبوّساء من غوائل الجوع والحرمان، والجهل والمرض... يعرض هذا كله في دعوة حارة إلى التزام تعاليم الإسلام فيه وقصر الأنظار عليها، دون أن تمتد ذات اليمين وذات الشمال، إلى نظم أخرى ظاهرة الفساد، واضحة البطلان،

وهي في أنفسها متباينة تبايناً فاحشاً، في بعضها الإفراط وفي الآخر التفريط، وإن لنا في شرعنا الإسلامي كفاية وغنى، وإنه تنزيل الله العزيز الرحيم بخلقه..

وقد علم - وفقه الله - بنقدي لبعض آرائه فكتب إلي يطلب مني أن ينشرها في مجلته (حضارة الإسلام)، وهذا إنصاف واضح ورحابة صدر ظاهرة، وإنه في كتابه (اشتراكية الإسلام) أشاد بالحرية العلمية وأفاض فيها إفاضة واسعة، إذن فليس هذا الموقف الشريف كثيراً عليه^(٨٨).

٩ - الفيض والعطاء :

إذا كان من سمات الإنسان الكبير العطاء، وهو جبلّة فيه، فأحرى بالقائد أن يعطي دون حدود بمقتضى مسؤوليته وريادته.

كان السباعي ذا عطاء في كل حال وفي كل آن وفي كل ميدان، لا تراه إلا باذلاً يجود بالمال، ويجود بالجهد، ويجود بالعلم، ويجود بالفضل.

لقد هدّب العطاء نفسه فارتقى بشخصيته القيادية صُعداً، وإنها لمزية قد لا تراها في سائر القادة، فلقد محّض نفسه ومواهبه وما يملك - من مادة ومعنى - للإسلام وأهله، ولدعوته ودعائه ولسائر قضاياها.

يحدّثنا من آنس هذه المزية من عطائه الشامل :

«كان رحمه الله أريحيّاً كريماً، يتحرّى النهوض بوجائب الأخوة والتكريم لكل وارد وصادر، حتى إنه ليتصدى لاستضافة فضلاء الرجال الذين يؤمنون البلاد، شاعراً بأن ذلك حق عليه، ما يسوغ له التخلي عنه ولو كان في ضيق من أوضاعه وأعماله وواجباته العامة والخاصة.

وكان رحمه الله تعالى يهتبل هذه المناسبات ليربط فيها بين ضيوفه وزوّاره وبين الدعوة الإسلامية ورجالها في إطار من المودة السمحة المطلقة، فكان منزله في مثل هذه المناسبات - وما أكثرها - مجتمعاً أدبياً وملتقى أخوياً.

هذا فضلاً عن إقبال نفسه وسخاء طبعه في نجدة إخوانه والإسهام في كل أعمال الخير الخاصة والعامة بأوفر نصيب يقدر عليه.

وأذكر أنه توفي بعض ذوي الفضل والعلم على حالٍ ضيقة اقتضت رفد أسرته، فذاكرته في ذلك فكانت يده أجود الأيادي وأكرمها.

وكان لا يبخل برأيه الناصح السديد على من استشاره واسترأه، يخلص له النصيحة، ويمحضه الود، ويعطيه من وقته أغلاه، أداء لحق هذا الإسلام الذي منحه الله فهمه والنهوض به والدعوة إليه» (٨٩).

وكان في عطائه العلمي لا يقل عن فيضه وعطائه في الميادين الأخرى، فهو يعكس جبلة العطاء التي فيه، وسمة البذل التي ما توقف دفعها إلا بعد أن وافته المنية.

يقول زميله في الجامعة:

«والعقل والعلم يأتيان عنده بعد الفيض، فهو يفيض بما عنده بكرم عجيب، فالقلم فياض واللسان أكثر فيضاً. إنه الأستاذ حقاً؛ أستاذ يعطي أكثر ما عنده ولا يبخل بما لديه. بل يبلغ به الفيض حداً يتجاوز فيه ما عنده من عقل وعلم، وإذا هو يعطي من نفسه وروحه. والفيض إنما هو فيض

الروح أكثر منه فيض العقل والعلم. فإذا اجتمعت الروح مع العقل والعلم كان فيضاً يهدّر كرمًا وغزارة.

هذا الفيض لم ينقطع عند السباعي يوماً، بل استمر يغدق ويهدر حتى آخر ساعة من يوم دعاه الداعي إلى لقاء ربه.

فاضت روحه في منتصف النهار تلبي دعوة بارئها، لكنها كانت قبل ذلك بساعة أو ساعتين تلبي رغبة الطلاب. كان جالساً آنذاك مع زميل له يكتبان فصلاً أخيراً من كتاب يجب أن يظهر بعد ذلك بقليل. كان الفيض آنذاك تأليفاً وعلماً، فلم تسكن تلك النفس عن فيضها حتى أتمها الدعوة إلى العالم الآخر»^(٩٠).

١٠ - النَّظَرُ البَعِيدُ :

لعل أبرز سمات القائد أن يكتشف لجنده ما لا يروونه من أسرار الطريق، ويروده لهم بعقله الكبير ونظره البعيد الذي يقرأ ما بين السطور، ويبصر ما خلف الزوايا. ولقد خلّف السباعي في هذه السمات تجربة فذة في القيادة الإسلامية، ينهل منها من وضعه القدر في سدة المسؤولية :

«ولئن سبق قدر الله فحالت وفاة الفقيد دون الوقوف على آرائه في مستقبل الجيل وواجب العلماء، إن في آثاره التي خلّفها لمستدركاً يمدنا بالمزيد من ذلك، فليس ثمة كتاب أو مقالة أو خاطرة أنتجها قلمه إلا وهي حافلة بما يؤكد أنها أماليّ مفكر درس تاريخ أمته، وأوضاع جيله، واستوعب الخطوط الكبرى لواقع العالم المعاصر، ورصد ذلك كله من خلال الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى الأشياء بنور الله... فهو طبيب من الطراز النادر، يشخص الداء كما هو، ثم يصف له الدواء»^(٩١).

ولعلّ فيما أصدره من مؤلفات وما كتبه من أبحاث ما يطلّعنا على بعض ثمار عقله الكبير وتجاربه الرائدة التي جادت له من خلال حياة قيادية حافلة. لقد خبّر الطباع المختلفة، وخبّر الطباع المتجانسة، وأدرك طبيعة العاملين وما يلزم للتنسيق في هذا كله. لذا تراه يقول:

«كيف يمكن أن نصطحب في الطريق إذا كنتُ أطيّر بُراقاً،
وتسير سلحفاة، فإما أن أسبقك، وإما أن تؤخرني، وكيف
يمكن أن نعيش معاً، وحرارتي كالنار وبرودتك كالثلج،
فإما أن أحرقك، وإما أن تجمّدي»^(٩٢).

ولقد هداه نظره البعيد إلى إزجاء النصيحة الآتية قفزاً على الواقع السيئ وتجاوزاً للإحباط:

«اتخذ من الفشل سلماً للنجاح، ومن الهزيمة طريقاً إلى
النصر، ومن الظلم حافزاً للتحرر، ومن القيد باعثاً على
الانطلاق»^(٩٣).

إن نظره البعيد ثمرة لمطالعاته الواسعة التي كان يمدّها عقل واسع
تجول مع كل ثقافة وسبر غورها، وظل يغرف من إيمانه، ويثري الإيمان
نظره ورؤيته..

إنه عقل الثقافة الإسلامية يجوب المعارف كلها ولا يخشى على
أصالته:

«ويأتي بعد الإيمان عنده العقل، وعقله يستمد قوته من
الإيمان أيضاً، وهو عقل مفتوح جوال طلعة، يحب المعرفة
ويسعى إليها.

إن عقله يمثل في نظري عقل الثقافة الإسلامية الذي جابه
المعارف كلها دون خشية منها، أفليست حكمة الله تتجلى في
كونه وتكمن في سنته وتتمثل في كل خلقه؟

فلا خوف عند السباعي إذن من الاطلاع على كتب الغرب وعلمه وثقافته، وإن كان قد شرع من الكتب الصفراء وأغرق فيها. ولا ضير عنده من أن يذهب إلى الغرب وأن يطلع على ما يتسم به من علم وجهل، من فضيلة ورذيلة، من عمل متتابع ولهو شديد، لم يخف من ذلك ولم يرهبه، وإن كان أزهرياً أصيلاً في أزهريته.

كان عقله جَوَّالاً، وخير ما يُنضج العقلَ التجوُّلُ والتنقل. كان عقله نهماً وخير ما يدفع العقلَ إلى الغذاء النهم.

لكنه عقل بقي عقلاً مسلماً بالرغم من تجوُّله وتنقله ونهمه وغذائه. لم يرد ذلك العقل أن يستسلم للغرب مع إقراره بفضل الغرب ومكانته في العلم والحضارة.

ذلك أن هذا العقل كان مؤمناً قبل أن يكون فكراً أو فهماً أو إدراكاً^(٩٤).

لقد كان السباعي لا يدخر وسعاً في اختبار سلائق الأمم والاطلاع على طبائع الشعوب من خلال آدابها وتاريخها، توسيعاً لاطلاعه وإثراء لوجهة نظره، واصطفاءً لطريق الدعوة الملائم لها. وإنها لمهام الرجال الكبار..

«لقد زرتَه مرَّةً فرأيت في مكتبته العامرة - التي كان يحرص عليها كثيراً - الكثير من كتب الأدب العالمي والفلسفة والحضارة والعلوم وتاريخ الأديان والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس... إلخ، فقلت له: وهل تقرأ فلسفة؟ قال رحمه الله: يا بني: على العالم أن يكون أكثر الناس اطلاعاً ليعرف نواحي تفكير الناس، وبالتالي ليختار الطريقة التي تلائمهم في الدعوة إلى الإسلام العظيم»^(٩٥).

إن فيما عرضنا له من سمات شخصية السباعي القيادية ما يطلعنا على المقومات الأساسية لقيادته ثراءً وتكاملاً ونضجاً، الأمر الذي أضفاه الثقة التامة، وكان سبباً أصيلاً لنجاحه في أداء مهامه الكبرى، وفي مقدمتها قيادة جماعة الإخوان المسلمين في سورية.

وهكذا، فإن قيادة السباعي ستظل معلماً لأجيال الدعوة الإسلامية..

يقول أحد مخلصي ذكره:

«ترك جيلاً كاملاً قد رباه على يديه، وما زال هذا الجيل يهتف له من الأعماق، وما زال يعاهده على مواكبة المسير»^(٩٦).

(ج) طبيعته الوجدانية

قد يحسب البعض أن شخصية السباعي القيادية بما فيها من جد وكفاح ودأب، تطبع نفسه بالصرامة والجفاف، بفعل شدة المواقف التي تعرض له وما قد تقتضيه من الحزم في الأوامر وطلب السرعة في الإنجاز وتقديم المهمات، وهذا ما يعرض للقادة في مهامهم الجسيمة.

ولكن شخصية السباعي تختلف عن ذلك، إذ قبست من شخصية النبي ﷺ الطبيعة الوجدانية التي لا تحجبها عن شمائلها الإنسانية المهام الجسام، فهي تظل تقطر برأً ورحمة وتواضعاً وسماحة ودمائة وتفاؤلاً.

لقد كانت نفس السباعي منجماً لا ينفد من الرقة والشفافية ومحاسن الخلال. أنى طلبتها في ميدان وجدتها تلبي الداعي، وتلائم الحال، وتكمل الموقف.

فمن شمائله الوجدانية التي كانت ترف بها نفسه وتظل من حوله:

١- التفاؤل:

يمنح التفاؤل الإنسان بهجة وإقبالاً على الحياة والبناء. وقد حث النبي ﷺ على هذه الخلقة في الإنسان فقال: «بشّروا ولا تنفّروا ويسّروا ولا تعسّروا». متفق عليه.

ولعلّ هذه الخلقة، إن كانت من أوليات سجايا القائد المسلم الذي يعلم أن دعوته لا تنحصر في زمن، وأنها دعوة للأجيال المتتابعة؛ فإنها من أوليات الإنسان المسلم أيضاً، إن تحلّى بها نثر البشر حوله، وحول الغم والقنوط إلى راحة وأمل وسكينة وغبطة.

لقد كان أستاذنا السباعي يتحلّى بهذه السجية الإنسانية، تراه متطلقاً مستبشراً في جلّ الأوقات، وقلماً تجده متكدّراً عابساً، إنه يواجه الأزمات ببسمة الأمل، وإشراقة الرجاء، اعتماداً على عون الله ونصره، بعد الأخذ بالأسباب.

وتأتي حكمه وأقواله مدعّمةً روح التفاؤل التي لم تكن تغادر نفسه. من ذلك أنه ما كان يستصغر عملاً أو جهداً في سبيل نصرة الدعوة الإسلامية، فكل صرخة عنده أو كلمة سيبين أثرها ولو بعد حين...

«ربّ صرخة تذهب اليوم هباءً، تكون في المستقبل القريب عاصفة وبناء»^(٩٧).

ويروق له جمال الحياة المبهتدية حين تشرق في النفس بسمة الرضا...

«جمال الحياة أن ترضى عما أنت فيه، ويرضى العقلاء عما أنت عليه»^(٩٨).

ثم ينزل به المرض العضال، وتفري الآلام هذا الجسم الذي طالما حمل الآمال الكبار وتدفق نشاطه في كل ميدان... فماذا كان رجع هذه الآلام المبرحة في نفسه؟ وما أثرها على روح تفاؤله؟

هذا ما يرويه لنا زميل الجامعة في الواقعة الآتية:

«ولقد زرتة مرة في مستشفى المواساة، فأردت أن أواسيه، فالتفت إليّ بوجه مصفرّ من ليلة قضاها في الآلام المضنية وقال:

«أشكرك على حسن مواساتك، لكنك لو كنت تعلم كم أنا راضٍ بحالي لما أشفقت عليّ شفتك التي تبدو عليك. إني بخير نعمة من الله».

قال ذلك وهو يتسم ابتسامة هادئة في سكينه، فبدت الدهشة على وجهي، فقال:

«قد تجد قولي غريباً لكني أقول الحق وسأفسّر ذلك:

إنني مريض أتألم ليس في ذلك ريب، وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي وفي حركتي، لكن انظر إلى حكمة الله فيّ: إن الله قدير على أن يشلّ حركتي، وقد شلّ بعض حركتي، فانظر ماذا شلّ؟ لقد شلّ طرفي الأيسر وأبقى لي الطرف الأيمن، فما أعظم النعمة التي أبقاها لي! أكنت أستطيع أن أخطّ بالقلم لو شلّ اليمين مني؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر، لكنه أبقاه لي، فهل أكثر من هذا لطفاً!! إن الله قدير على أن يخمد قريحتي، لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل، فما ألطفه بي. إن الله قدير على أن يشلّ لساني فيمنعني عن

الكلام، لكنه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام، أفليس ذلك منة منه وعفواً. لقد قضى الله عليّ بأن تُشَلَّ حركتي في السياسة، فشَلَّها، لكنه أبدلها بنعمة خير منها: إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم، أكنت تراني كتبت وألفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة؟! فما أكثر لطف الله وكرمه ومنته ونعمته. أفبحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمر؟! لا، يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه. «(٩٩).

حقاً لقد ضرب لنا المثل الأعلى في التفاؤل إبان مرضه، إذ كان - وهو يتلوى من الألم - يذكر ما استبقاه الله له من نعم فياضة، وكأنه لم ينزل به بأس أو شدة، بل إنه ليرى في مصابه الأليم ولادةً لجملة من النعم والفرص ما كانت تتاح له لولا نزوله به!.

ويحدثُ أخاً كبيراً في الدعوة عن استشعاره لطف الله فيما وقع له من شلل، فيذكر نعمة الله من وراء هذا المصاب ويتناسى المصاب...

ينقل لنا الأخ الكبير هذا الأفق الرفيع من تفاؤله بقوله:

«ولا أزال أذكر يوم وقعت عيني عليه بعد الإصابة فلم أستطع تمالك دمعي، فجعل يسليني بما يُذكرُني من حكمة الله، وجمال التسليم إليه.

وقصّ عليّ ظروف المصيبة وما لابسها من لطف الله؛ إذ كان في خُلوة بعيدة عن الناس في فندق من (ضهور الشوير) بלבnan، حيث قضى أياماً في راحة لم يحلم بمثلها من زمان، ولكنه فوجئ أخيراً بانقباض في صدره لم يستطع تفسيره، ما لبث أن استحال إلى قلق عنيف، فدعا بالنادل، وطلب إليه أن يؤمّن سفره عاجلاً إلى بيروت

ومن ثم إلى دمشق . وهناك سأل أهله عن والديه وتفقد أسرته ، فوجد كل شيء كما يحب ، إلا أنه ما كاد يستريح قليلاً حتى وقعت الفاجعة . . فإذا هو في قبضة الشلل ! . . وكان ذلك آية من رحمة الله الذي لم يأذن بوقوعها في غرفته المنعزلة في (ضهور الشوير) . . ولو حدث له ذلك هناك لكان متعذراً أن يعلم به أحد قبل ساعات ، لأنه موصل خدَم الفندق أن لا يدلوا عليه أحداً وألا يواجهوه إلا بطلب منه !

وقال لي أبو حسان وهو يمجد الله على عنايته : «لا أشك في أن هذه الإصابة كانت خيراً لي وأوفر أجراً . . ذلك لأن مشاغل الدعوة والسياسة كانت تستهلك وقتي جميعاً ، فلا أجد متسعاً للتأليف الذي أريد ، أما اليوم فقد أتاحت لي المصيبة فرصة ما كنت لأتصورها ، وها أنذا أكتب ما لم أستطع كتابته من قبل ، وكل ما أتمناه هو أن يعينني ربي على تسجيل كل ما لدي من أفكار في خدمة دينه ، ونصرة شريعته» .

وحقق الله لأبي حسان رجاءه ، فإذا هو يضم إلى التراث الإسلامي باقة من أنفس ذخائره ، التي أخرجها الفكر المؤمن خلال هذا القرن» (١٠٠) .

ويأتي هذا الأفق الرفيع من التفاؤل مصداق ما وجود به في أدبه من حكمة :

«مهما اشتدَّت آلامك ، لقوات ما تحب من صحة ، أو مال ، أو خير ، فإن ما بقي لك من نِعَمِ الله عليك ، رأسُ مال كبير لمسرَّات لا تنتهي» (١٠١) .

لقد كانت مناجاته لله من هذا المنطلق الذي يستشعر كرم العطاء من الله، إذ يرى النعم المقبلة أجلّ من النعم الراحلة... :

«يا إلهي :

أليس من عظيم إحسانك أنك تبتلينا بالألم وتمنحنا معه الأمل، وأن تقدر علينا المرض وتهبنا معه اليقين، وأن تحرمننا من المسرات وتعطينا الرضى، وأن تصرف عنا الناس وتؤنس قلوبنا بك، وأن تؤدبنا بالفقر إليك، وتكرمننا بالتراحم عليك، وأن تفتننا بالدنيا وتحبب إلينا طلب الجنة.

أليس من عظيم إحسانك أن تعطي أكثر مما تأخذ، وتمنح خيراً مما تسلب، وتسر بأكرم مما تؤلم، وترضى بأحسن مما تحرم.

وإنك لا تأخذ شيئاً ليس لك، ولا تعطي شيئاً هو لنا.

سبحانك إنك بالمؤمنين رؤوف رحيم...» (١٠٢).

ويطالعنا أحد أصحابه - قد عاده أخريات أيامه - بآلاء البشر والتفاؤل التي كانت تلوح على محيّا ومجلسه وهو في خضم الأمل...

«كان يتدفق في حديثه سهلاً مرسلًا كأنه الجدول... لا تمله ولا تشعر بالساعات الطوال تنقضي بين يديه... كان يذكر الله على كل حال ذكراً عظيماً، فتخشع نفسك وتسكن جوارحك وتطفر الدموع من عينيك على الرغم منك وكأنك في محراب للصلاة، وتعيش معه مشاعره الروحية وحماسه الوجدانية واعتماده المطلق على الله وتسليمه إليه ورضاه بما قدره وقضاه...»

وكان شديد الثقة بالله، عظيم الأمل بالشفاء» (١٠٣).

٢ - الصَّبر والجلد :

شهد من كتبَ عن السباعي أنه بلغ الذروة في الصبر والتجلد في ميادين العمل الدعوي . وفي المواقف الخاصة والأزمات . لقد كان - مع انفعالاته الحارة للدعوة - متجماً بالصبر في عمله لها . واسع النفس لاحتمال مشكلاتها وقضاياها . يسع ب صدره الرحب الطبائع المختلفة ، حريصاً على اكتساب الجميع برحابة أفقه وسعة صدره . كم من مخالف في الرأي ثاب إلى رأيه بفضل حسن احتماله وصبره . وكم من مخاصم في العمل آب إلى التعاون بفعل حسن احتوائه .

كان قائداً للدعوة الإسلامية في سورية في فترة عصيبة ، يتلقى أخبارها ، ويتابع أعمالها ، وينظر في قضاياها ، ينتصر لها على أعدائها ، ويحل معضلاتها - خلا التخطيط لها والإنجاز - وهذا وسواه كان يقتضي منه الصبر الطويل الجميل .

لقد آنس من عمل معه تحليه بروح الصَّبر الفائقة ؛ فوجد فيها انعكاساً لإيمانه ، ورضاء بقضاء الله وحكمه مع الأخذ بالأسباب :

«أما صبره ورضاه فقد كان آية من آيات إيمانه الكبرى ، ومظهراً متفرداً من مظاهر شخصيته العظيمة ، فقد كان - أكرمه الله - رائع الصبر والرضى بحكم الله جلّ وعلا ، يقبل أمر الله ولا يعترض ، مقرّاً بوجود حكمة الله ولو كانت خافية عليه ، وكم كان يرجع إلى التسليم والدعاء عن إيمان عميق غير تارك أي سبب من الأسباب يستطيع الأخذ به»^(١٠٤) .

إن تلامذته من جنود الدعوة رأوا من آلاء صبره وجلده في سائر مراحل عمله في الدعوة - غير عابئ برهق أو مرض - ما يرسم لنا نموذجاً فذاً للصبر والجلد .

يروى لنا من رافقه في العمل منهم قصة احتماله الأمراض شطراً طويلاً من حياته، وهو يتابع حمل الأعباء وجهاد الأعداء بهمة من له صبر الأنبياء. لم يقعه المرض عن بناء الصرح وقيادة الركب وتزويد مؤسسات الجماعة بالمذكرات...

«في عام ١٩٥٧م وببعد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفياتي هجم عليه المرض هجمة عنيفة، فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشل حركته وأثار فيه الآلام المضنية... فأقعه بعد طول مجالدة، ولكنه كره القعود وكره الراحة والكسل ولو كان بسبب المرض الشديد؛ فتمرد عليه، وجالد الآلام واستمر يتابع بنشاطه إلقاء دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية لطلاب كلية الشريعة في «قاعة البحث».

ولقد ألقى خلال مرضه هذا أهم محاضراته العلمية على مدرج جامعة دمشق، بالإضافة إلى عديد من المحاضرات العلمية الرائعة التي ألقاها في عدد من النوادي الثقافية والفكرية في دمشق... كما استمر يمد الفكر الإسلامي بكل جديد من فكره وعلمه، ويمد الشباب المسلم بالتوجيه والوعي، ويعالج أهم مشكلات العالم الإسلامي... كل ذلك على صفحات مجلته «حضارة الإسلام».

ولقد كانت فترة مرضه الطويل الذي استمر ثماني سنوات حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء» (١٠٥).

ويحدثنا من يشهده على سرير المرض، والآلام تجوب جسمه وكأنها لا تعنيه ولا تصادفه...

«... وكأنها إنما ترتسم على وجه آخر غير وجهه، وتحط على جسم آخر غير جسمه... كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها، أما هو - شهد الله - فلم يكن يجأ بالشكوى إلا بمقدار ما يعلمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه» (١٠٦).

ولكن هل أوقفه المرض وشدة الآلام عن عطائه؟ وهل أخمد فيه حيويته وصبره؟ وهل توقف بسببه نتاجه العلمي؟

«كانت حياته في المرحلة الأخيرة المريرة من عمره قدوة حسنة مثلى، وتعبيراً نموذجياً عن معنى الصبر في الإسلام، فإنه لم ينقطع خلال مرضه الطويل وعلاجه الدؤوب وآلامه الملحة عن ممارسة ذاته ورجولته والنهوض بواجباته، كإنسان صاحب دعوة حق وداعية مؤمن مسلم.

فقد كان دائم العمل لله، مكباً على البحث والتأليف والمطالعة، منتهزاً مناسبات أسفاره الطبية لتجميع الشباب المسلم في مختلف بلدان الغرب وأجوائها الصاخبة لتوعيتهم بدينهم، وشدّ أواصرهم إلى دعوتهم الحق، وتجنيدهم لله سبحانه، كما كان لا يفتر عن التحدث عن الإسلام ومحاسنه ومباحثته المستشرقين الذين ألفوا عن الإسلام أو تعرضوا له، يزيد من فهم هؤلاء ومعرفته بهم، ويتصدى لأولئك ويناقشهم، لا يشغله همه عن هموم المسلمين، ولا يقعد به مرضه عن جهاده المبين» (١٠٧).

ويحدثنا المؤرخون لحياته عن فترة مرضه الأخير بأنها كانت من أخصب فترات حياته نتاجاً ألف خلالها غرر كتبه: «هكذا علمتني الحياة»، و«القلائد من الفرائد»، و«السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» (١٠٨).

كان يعالج مرضه بالنتاج، وكان يعالجه حين يشتد بالمناجاة والتسبيح، وأكرم بهما من علاج!

«ما كنا نسمع إلا (الحمد لله) يجري على لسانه كلما سألناه عن آلامه، مهما اشتدت وازدادت، وكان كلما برحت به الآلام وأزقت ليله وحرّمته لذة النوم: أسرع إلى القلم والقرطاس ليسجل ما تفيض به نفسه من معانٍ روحية سامية يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل»^(١٠٩).

٣- الحلم والسماحة:

من سمات الرجل الكبير: الحلم والسماحة، يرطبان خلقه ويُبهِجان مُجالسه. ولقد كان أستاذنا السباعي - على انقاد حماسه وسرعة انفعاله - يتمتع بهاتين الخصلتين الرفيعتين.

تعجده كما يقول أحد عارفيه:

«... ذا شخصية مهيبة في العمل الدعوي، لا يكاد يرتقي إليه البصر لحدة عزمه، وعنقوان جده. حتى إذا ما جالسته عن كُثب أو زرتة في المنزل وجدته إنساناً متبسطاً؛ رحيب الأفق، مشرق النفس، لا تلفي بينك وبينه حجاباً.

هذه الروح السمحة أكسبته الثقة في النفوس والاحترام، تجد المتنازعين حين يحتكمون إليه يسلمون القياد، فإذا هو بمبأسطته وروحه السمحة يرضيهم جميعاً بحكمه، ويخرجون من عنده وهم يلهجون بالثناء عليه»^(١١٠).

وهذا أحد قادة الجماعة يحدثنا عن هذه السماحة الندية في طبيعة
أستاذنا السباعي التي كان لها الأثر الكبير في تأليف القلوب وإنجازات
الدعوة.

«وكنا يداً واحدة في العمل والنضال والتشاور في كل موقف
يُتخذ في قضايا المسلمين. وكان رحمه الله يفوقنا في
مؤانسته ومباسطته وأنسه ولطفه ورحابة صدره، ولكن وراء
هذه البسمات براكين مخبر تتفجر عند اللزوم ويمسك عنها
عندما يُريد. وما كان هدفه إلا خدمة الدين وإعلاء
كلمة الله»^(١١١).

ولكن حلم السباعي وسماحته لم يصدر عن فسولة وضعف، وإنما
كانا عن ملاءة وتمكن وحكمة، وفي سبيل الله، وهو القائل في الحلم:

«لا ينفع الحلم إلا بثلاث: أن يكون عن قدرة، وأن يقع على
كريم، وأن يؤدي إلى خير عظيم»^(١١٢).

وفي الواقعة الآتية التي يرويها أحد كبار الدعاة يضرب السباعي فيها
المثل بحلمه المشرق والمهيب معاً، يقول:

«إن أسوأ ما لقيه السباعي إنما جاءه عن طريق شباب كانوا
أحق الناس ببرّه وحبّه، وكان ذلك يوم عاد إلى سورية
ليستأنف نشاطه في خدمة الحق، فإذا هو يواجه سلسلة من
التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة! إنها محاولة
انقلاب بدأت خفية وراء الستور، ثم ما لبثت أن خرجت إلى
الملاّ تواكبها وتؤرّثها تحريشات الصحف المشبوهة، التي
لم يُعرف لها قط سابق اهتمام بقضايا الإسلام، إلا عند
مهاجمة دعائه، والدعوة إلى عدائه.

حدث ذلك في دمشق، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة، بينهم من مصر الأستاذين صالح أبو رقيق وحسن العشماوي، ومن سورية الأساتذة عصام العطار وعبد الكريم عثمان، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى).

وطرحت الأفكار بصراحة، وفسح مجال القول لمن شاء، ووجد الأخ (فلان) الفرصة مؤاتية لتفجير ما حمل من ألغام، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلفظها: «هناك أسئلة تطلق ولا نعرف بماذا نجيب عليها... أولاً: مصروف الأستاذ السباعي في أثناء وجوده في لبنان طوال زمن النفي... من أين أتى به؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين...) قبل سفره إلى فرنسا لنوال الدكتوراه... كيف تصرف به؟ وبأي حق؟».

ووجمت الألسن، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرة، إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة.

ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجراءة إلا إشراقاً وابتساماً، هو وجه السباعي، الذي ظل محتفظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث! وكان عليه أن يجيب، فقال:

«أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي، وهو أنني كنت أقترضها من ابن عمي عبد السلام السباعي في بيروت، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة.

ولقد كان في وسمي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت. . . لقد بعث إليّ بالسيد رفعت الأيتوني يقول: «إنك موقوف عن العمل، ولا مورد لك ولأسرتك، وإن أخاك هذا كلفني أن أقدم إليك راتباً شهرياً ريثما تنكشف محتتك». ولكنني رجوت من السيد الأيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك. فألحّ وطلب إليّ أن أعد ذلك من باب الاقتراض فقلت: إنني أقترض من ابن عمي، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره».

وهنا طلب الأستاذ عبد الكريم عثمان الإذن بالكلام والتفت إلى الأستاذ (فلان) يقول: أتذكر يوم كذا. . . وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي: حقاً إن الرجل مظلوم. . . وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين. . .) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على مصالح الجماعة، وقد فعلت. ثم قلت: ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتهتم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه!

وأطرق (فلان). . . وقد تذكر كل شيء، ولكنه لم ينطق بحرف. . . ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة، ففارقنا إلى غير رجعة! (١١٣).

٤ - المروءة والوفاء:

من سمات من يتحلى بخلال النبل والارتقاء حيازة سجيّتي المروءة والوفاء، ترهفان طبيعته، وتميزانه بإنسانيته المسؤولة. وقد كان السباعي منهما على شأو عظيم. . .

«كان يؤاخي الإنسان فيكون وفيًا لأخوته، محسنًا الظن به، يذود عنه قالة السوء، ويحتفظ له بمنزلة الصادقين، ويلتمس لهفواته الأعذار ما دام يجد إلى ذلك سبيلاً. بعيداً عن التملق والنفاق والمجاملة بالباطل»^(١١٤).

وفي الواقعة الآتية التي يرويها أحد أصدقائه تتجلى مروءته ووفاءه، يبذلها من ذات نفسه، وجسمه المهدود لا يكاد يطيق حمله...

«علم بحادث إصابتي في الأيام القريبة الماضية، فدلف إلى المستشفى في «بيروت»، ونظرت إلى باب غرفتي فإذا به يدخل متكئاً على عصاه في خلق المسلم ومروءته، فلم أتمالك نفسي على فراشي، وأعلنت له ألمي لما في ذلك من إرهاق له ومشقة، فأجابني بأن هذا أداء واجب.

وعادني مرة أخرى مودعاً قبيل عودته إلى الشام، وجلس يواسيني وأنا أقوى صحة منه، ولم تمض سوى أيام معدودة حتى حملت إلينا أمواج الأثير نعيه»^(١١٥).

٥ - الدِّمَاءُ والتواضع :

يستميل النفوس الإنسان المشرق الروح الدمث الطباع الخافض الجناح، الذي لا تشيم فيه تعالياً أو كبراً. ولقد كان السباعي من هذه الطبيعة الشفافة المحببة التي تتعشق حديثها، وتأنس بمجلسها، وتستزيد من حكمتها.

لقد كان من التواضع على جانب عظيم، فما عرف عنه أحد الازدهاء بمكانته ومواهبه الجمة، وإنما تلفيه حين الثناء عليه في حرج كبير. وقد كشف لنا أحد قادة الدعوة عن أصالة هذا التواضع في خلق السباعي وهو يؤبّنه بقوله :

«ما كان المرحوم يفكر أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدوّن، لأنه كان يستصغر عظام أعماله، لتوجّه همته إلى ما هو أعظم منها، ولا أعظم منها إلا غاياتها وثمراتها. وأما علمه وأخلاقه وشمائله فقد كانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في إظهارها للناس من المثل الكامل والأسوة الحسنة»^(١١٦).

ونعرض فيما يأتي لنموذج من تواضعه - وهو في شرح الشباب واتقاد جذوته - في المكاتبة الآتية له مع أحد العاملين للإسلام في مصر على صفحات الفتح ..

فقد كتب الداعية الإسلامي الشيخ محمد إسماعيل عبد النبي مقالاً يشيد فيه بكتابات الطالب الشاب مصطفى السباعي على صفحات «الفتح» يقول فيه :

«وقال صاحب القلم السيال، والعقيدة القوية السليمة، والأسلوب الممتع، والبيان الرائع، والتصوير الساحر، والبصيرة النافذة، والثقافة الإسلامية الواسعة... إلى أن يقول: ...»

وإني أعلن إعجابي بكلّ مقالٍ يُكتب من الموضوعات الشائقة والتحليل الشامل... وأرى الإخلاص يتفجر من قلمه، كما أراه متمكناً من فهم دينه على الوجه الأكمل؛ فجزاه الله عن إخلاصه وجهاده أفضل الجزاء»^(١١٧).

فيأتي جواب السباعي الشاب الجامعي على هذا التقريظ، ونرى المواهب مجتمعة في الجواب، يتصدرها التواضع واللباقة والذكاء... :

«تفضلت يا سيدي الأستاذ فوجهت إلى الفقير الضعيف كلمة ثناء على صفحات «الفتح» الأغر ملأتها بما فاضت به نفسك الطاهرة من أدب وفضل وحسن ظن. ويشاء الله أن تكون كلمتك هذه في الوقت الذي كنت عزمت فيه على التعبير عن إعجاب قراء الفتح بمواقفكم المشرفة في الدفاع عن الدين ورد السهام الموجهة إليه من أمثال طه حسين والحكيم والصعيدي، بينما نرى الغفلة قد عمّت أكثر علمائنا، وتيار الفتنة قد جرف كثيراً ممن يظن فيهم الغيرة على الدين والعمل لصالح المسلمين. فضربتم المثل لهؤلاء الغافلين والمفتونين كيف تنتفع الأمة بالعلماء وكيف يصمد العلماء في ميادين النضال بين الحق والباطل والهدى والفتنة.

أنا لا أريد يا سيدي أن أقارضك ثناء بثناء، فإني أخشى أن نكون موضع تهمة من حضرات القراء؛ وحسبي أن أقول: إنك ألبتني ثوباً أنت أخرى مني بلبسه، وأضيف عليّ ثناء إن يكن هو عليّ كثير وكثير؛ فلك في نفسي ونفوس القراء ما هو أكثر منه وأحق. فامض يا سيدي على جهادك في سبيل الله، ولك من الله عظيم المثوبة ومن الأمة حسن الأحدثة، ومن التاريخ طيب الذكر وتخليد الأثر.

أسأل الله أن يشبّتنا بالقول الثابت في خدمة دينه، ويوفّقنا للعمل بالعلم والإخلاص في العمل، ويجمعنا تحت لواء نبيّه الأعظم ﷺ في يوم تنجلي فيه الريب، وتزول الأوهام، ولا يبقى إلا الحق، ولا ينجو إلا الذين دافعوا عنه لوجه الله لا يبغيون جزاءً ولا شكوراً»^(١١٨).

ولقد جمع إلى هذا التواضع روح المرح والفكاهة المحببة، بما يشف
عن روح عذبة تُلطف المواقف بالطرافة والنكتة في لباقة رفيعة وذوق
رهيف ..

«كان طيّب الله ثراه عذب النفس، رقيق الحاشية،
مرهف الذوق والشعور، يستجيب للدعابة ويجيدها،
ولا يبذلها إلا في موطنها، وكم كان يستعين بذلك في
محاضراته ودروسه عندما يتوقع من مستمعيه أن وطأة
الجد كادت تثقل عليهم، فتكون شواهد الطريفة بما فيها
من ملاءمة للمناسبة درساً جديداً أبلغ من الدرس
والمحاضرة، وأنفذ في نفوس السامعين إلى مقاصده ومراميهِ
العالية التي يتحدث عنها، حتى إذا تابع درسه وإلقاءه بعد
ذلك عاد حفله إلى متابعة سماعه بهمة جديدة وذهن متفتح
ونشاط كبير.

وكانت له مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع
صديقه الصفي والأخ الكريم الأستاذ الشيخ محمد الحامد
رحمه الله تعالى، وكثيراً ما كان يحلّي بها مجالس خلّانه
وإخوانه» (١١٩).

إن هذه الخلال الوجدانية التي ترقرت بها شخصية مصطفى
السباعي كان لها أبلغ الأثر في حب إخوانه له وتعشقهم لمجالسه،
ويسري هذا الشعور لدى كل من يقبل عليه، ويباسطه عن
قرب ..

وبسط القول في صلاته الأخوية .. :

٦ - صَلَاتِهِ الْأُخْوِيَّةُ :

كان السباعي أخصاً لكل منتمٍ للدعوة الإسلامية، يحسّ كل أخ في الجماعة إخوانه ومشاعره الأخوية. وهو في مشاعر إخوانه قبله الأنظار ومهوى الأفئدة، يفتدونه بأرواحهم.

وكان ثلّة من الدعاة الكبار والأصدقاء يحسّون نحوه بأخوة متميزة تضمهم معه في ميادين المشورة والعمل، يحلونّه من أنفسهم مودة عميقة، وكان لديهم عنوان الدعوة وأملها.

وحان أجل السباعي وهو في التاسعة والأربعين فافتقده إخوانه الكبار افتقاداً أليماً. كانت لوعتهم لفراقه أشدّ وقعاً لما عرفوا من كريم سجايه ومكانته، فسالت نفوسهم لذلك جزعاً، وكانوا في تأبينهم له يلهجون بهذه الصلة الأخوية الكبرى التي كانت تجمعهم به.

* هذا رفيق عمله الدعوي الأستاذ محمد المبارك - وقد لاقى وجهه ربه بعده بسنوات - يعبر عن لوعته حين تأبينه، معتزّاً بالوشائج الوثقى التي كانت تضمه إلى السباعي :

«رحمك الله أخصاً عزيزاً، وصديقاً حبيباً، وأثابك الله وأعلى في الجنان مقامك إذ كنت علماً من أعلام الإسلام، ومجاهداً بكل معاني الجهاد في سبيل الذود عن الإسلام، ونشر دعوته، وتوطيد أركانه ورد كيد الكائدين عنه.

أما ما كان بيننا من صحبة ما انقطعت إلا بهذا الفراق حين سبقتني للقاء ربك، ومن أخوة وثقها الإيمان والحب في الله، والالتقاء على صعيد الدعوة الإسلامية، فسقى الله أيامها الحلوة التي لم يبق من لذتها إلا الذكرى، واحتسب عند الله أجرها رجاء أن يعوضنا في الحياة الأخرى بما هو خير منها

وأن يجمعنا على الحوض في ظله الظليل ورحمته الواسعة
تحت لواء إمام النبيين وسيد الخلق أجمعين صلوات الله عليه
وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين .

ولئن ذقت مرارة الفراق لفقد أخ عزيز حبيب بعد
صحبة صافية لم تشبها شائبة تكدير ولا جفاء، استمرت
زمناً أربى على العشرين عاماً انقضت بين اشتراك
في نضال أو مذاكرة في علم أو تشاور في موقف يُتخذ
في إحدى قضايا المسلمين والأمة الكبرى أو في مؤانسة
ومباينة .

لئن ذقت مرارة الخسران لمثل هذه الحياة الأخوية الخصبة
العزيزة، فلقد كان شعوري بخسارة بلدك وقومك والعالم
الإسلامي كله لك يا أبا حسان وخلو مكانك الذي كنت
تملؤه دون سواك أشد مرارة وألماً وحسرة» (١٢٠) .

* وأما الداعية الإسلامي الكبير عمر بهاء الدين الأميري - وقد لاقى
وجه ربه وشيكاً - فقد كانت تربطه بالسباعي أخوة وثيقة، وحين فجعه
النبا أسال دمع قلبه شعراً حاراً في تأبينه، مستهلاً قصيدته بوقع المصاب
في نفسه :

تَمَرَّدَ قَلْبِي وَالْجَنَانُ تَرَدَّدَا

فَقُلْتُ : اسْتَبِينَا الْأَمْرَا قَالُوا : تَأْكِدَا

فَحَشَرَجَتِ الْآهَاتُ ، وَالدَّمْعُ خَانَقُ

بَحَنَجَرْتِي ، أَوَّاهُ مِنْ فَجْأَةِ الرَّدَى

ثم يخاطبنا بعمق الصلات التي انغrust بينهما، فنلمح من خلالها
أبعاد الروح الأخوية التي كان يتمتع بها السباعي وامتدادها .

«وكان لي أخاً حبيباً
روحان تعارفاً فأتلفا...
كنا نختلف... ولا نفترق
نتجادل... ولا نتخاصم
حبل ودادنا موصول...
بيننا صحبة سفر وحَضْر...
وجدُّ ودعابة
وشعر ونثر...
أصفياء أوفياء...
تبادل النصح والنقد
والتفكير والتدبير...
ويكون منا تقصير وصفح...
والأخوة هي الأخوة...
أخوة في الله
غرُسها وتعهدها... (١٢١).

ثم يؤوب شعره ليلهج بوقع المصاب، فقد كان السباعي أخاً ودوداً،
نصوحاً شفوqاً... فقد الأمير ي برحيله رأيه وصوابه...:

تلمَّسْتُ نفسي أستبين وجودها
وقد بُزَّ منها مصطفاهَا وألجدا
أما تلموا بَيْنَ الحنايا حُشاشتي
أما غيَّبوا مني، وعني، به بدا
أما يتَّموا، في الرُّوع، رأيي وقد مَضَوْا
بمن مدَّ رأيي بالصواب، وأبدا

أما أوجلوا عزمي الجليد وكان في
تداعُمننا، أقوى وأمضى وأجلدا؟
أيّا مصطفى نفسي، أتصعدُ في السما
وتتركني في وَهْدَةِ الأرضِ مفردا
وأنتَ عليّمُ أنسي من أذى الدُّنَى
وأهل الدُّنَى أحيا غربياً مُنْكَدًا (١٢٢)؟

ومن أصدقائه الذين كانت تشدهم إليه روابط أخوية وثيقة: العلامة
الشيخ محمد الحامد. وقد اتسمت الأخوة بينهما بالحب والصفاء على
مقعد الطلبة في الأزهر بمصر، وازدادت وثوقاً بعد التخرج مما يضرب به
المثل في المودة والألفة وكانت تعمر هذه الصداقة مجالس علم وأنس
يتطارحان فيها الآراء والأفكار والنوادر والأشعار على مستوى سام من
التبسط والتنادر.

وكان أن أصدر السباعي كتابه «اشتراكية الإسلام»، وكان الشيخ
الحامد من منتقدي الكتاب - كما أسلفنا -، فكيف كان أسلوب الشيخ
الحامد في نقده كتاب صديقه؟

يقول الشيخ الحامد في مقدمة كتابه «نظرات في اشتراكية الإسلام»:

«كتب الدكتور ما كتب يقصد الخير ويتحرى الصواب، فيما
يرى، وقد طالعت كتابه فإذا فيه الكثير الطيب المعجب الذي
يملاً القلب سروراً، والصدر انشراحاً، بمبانيه البديعة،
ومعانيه الرفيعة، وجودة الأداء، ووفرة الاطلاع، وحسن
الإقناع. وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في
مطالعة بعض بحوثه، حتى لو أنه كان أمامي لقمّت إليه
وقبلت رأسه إعجاباً بهذا العلم، وإكباراً لهذا العرض،
والتذاذاً بهذا الينبوع الثر من البيان العذب» (١٢٣).

ثم يزيدنا تعريفاً بأخوته ومودته، في موضع المخالفة في الرأي
فيقول:

«وإني لَمُحْتَكِمٌ في هذا الذي كتبته إلى العلم الديني
الذي لم ينقطع حَمَلَتُهُ، ولم ينقرض أهله، فإن فيهم
محققين منصفين يضعون الأمور الشرعية حيث ينبغي أن
توضع، على ضوء الكتاب الكريم والسُّنَّة الشريفة والفقه
الصحيح. وإن الله سائلهم عن الحق إن هم أضاعوه بالكتمان
ولهم في القيامة موقف دقيق يحاسبون فيه عن الإسلام
ويسألون عن البيانات كما يسأل الأنبياء المرسلون عن
الرسالات.

وأعوذ بالله أن يكون الدافع لي أمراً آخر، أو عاملاً نفسانياً،
كأن أحرز شرف تخطيط الدكتور السباعي، فإنه أخي وصديقي
أحبه ويحبني، وكل منا لدى صاحبه مكين أمين، والناس
يعلمون هذا منا، وإني أعرف ما يتحلى به من خلق كريم،
وسجايا حميدة، هذا إلى ما في نفسه من نية صافية، وهمة
عالية، وعلم جم غزير، وأفق واسع في التفكير، فهو نابغة
من كبار النوابغ، وقد قاد جموع الشباب المسلمين وملاهم
حماسة لهذا الإسلام واقتناعاً بسموه وعلوه وأفاض عليهم
نشاطاً حاراً في العمل لتأييده.

وبعد، فأسأل الله تعالى أن يجعلني والدكتور السباعي من
المتقين الذين استثناهم بقوله الكريم: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ آمين» (١٢٤).

هذه شخصية السباعي المتكاملة في الصفات والعطاء - كما عرضنا

لها -.

كانت شخصية إيمانية في أصول منهجها وتعبدها لله، انبثقت عنها شخصيته القيادية الفذة التي أدت دورها - عن جدارة - في قيادتها للدعوة الإسلامية، وظاهرَتْها منه طبيعة وجدانية جلَّتْ لنا إنسانيَّته الخيرة ونموذجه الإنساني الرفيع.

ولن يقف الحديث عن طبيعته وشخصيته عند هذا الفصل، وإن تخصص به، وإنما سيكشف كل فصل من الكتاب عن شخصية السباعي وطبيعته من خلال تناول الموضوعات وتحليل الصفات والسمات والمؤهلات واستعراض الطاقات والمنجزات.



المراجع

- (١) حضارة الإسلام (عدد خاص)، مقال: «السباعي أعطى دنياء أكثر مما أخذ منها»، الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة، ص: ٣٦.
- (٢، ٣، ٤، ٥) حضارة الإسلام ع: ٦، ٧ جمادى الآخرة - رجب، سنة ١٣٨١هـ / كانون الأول - كانون الثاني، سنة ١٩٦١م. مقال: «رجل فقدناه - الشيخ حسني السباعي»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧.
- (٦، ٧) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «عقل السباعي يمثل الثقافة الإسلامية»، د. يوسف العش، ص: ٦٨، ٦٦.
- (٨) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٩، ١٠، ١١) «من الفكر والقلب»، محمد سعيد رمضان البوطي، الجزائر، ١٩٩٠م، ص: ٢٣٠، ٢٢٦، ٢٣١.
- (١٢) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «أخلاق الداعية الراحل»، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٥.
- (١٣) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «في ذكرى فقيد الإسلام مصطفى السباعي»، عبد القادر السبسي، ص: ٤١ - ٤٢.
- (١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٤٤، ٤٣، ١٧٩، ١٧٨، ١٩١.
- (٢٠) حضارة الإسلام (السنة الخامسة) ع: ٣، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، مقال: «رحلة إلى الله ورسوله»، د. مصطفى السباعي، ص: ٣٠ - ٣٢.
- (٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٧٠، ١٢٥، ٢٥٩، ٥٢، ٢٧٤، ١٠٦، ١٠٨، ١٧٠، ٢٢٨.

- (٣٠) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٣١، ٣٢، ٣٣) جريدة «الفتح»، العام: ١٢، عام ١٣٥٦هـ، ع: ٥٨٨، مقال: «غداً يكون العيد فاذكروا بكاء اليتامى»، مصطفى السباعي، ص: ٣، ٤.
- (٣٤) «الفتح»، العام: ١٢، عام ١٣٥٦هـ، ع: ٥٨١، مقال: «نكبة الإسلام في تعليم أبنائه»، مصطفى السباعي، الافتتاحية.
- (٣٥) حضارة الإسلام (السنة الخامسة)، ذو الحجة سنة ١٣٨٤هـ/ نيسان سنة ١٩٦٥هـ، ع: ١٠، مقال: «أثر الهجرة في التاريخ»، مصطفى السباعي، الافتتاحية.
- (٣٦) من الفكر والقلب، ص: ٢٢٨.
- (٣٧) هكذا علمتني الحياة، ١: ٢٠٩.
- (٣٨) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٣٩) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «وأفل نجم الحبيب»، د حسن هويدي، ص: ٧٧.
- (٤٠، ٤١) نفسه، مقال: «السباعي أول عميد لكلية الشريعة»، الشيخ مصطفى الزرقا، ص: ١٠، ١١.
- (٤٢) نفسه، د. يوسف العش، ص: ٦٩.
- (٤٣) مصطفى السباعي، عبد العزيز الحاج مصطفى، عمان - دار عمار ١٩٨٤م، ص: ١٠.
- (٤٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٣٠.
- (٤٥) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٤٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، د. حسن هويدي، ص: ٧٦.
- (٤٧) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٤٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٢.
- (٤٩) نفسه، مقال: «السباعي رائد فكر وقائد دعوة»، الأستاذ محمد المبارك، ص: ١٧.

(٥٠) روى الواقعة الدكتور أحمد فرحات عن مدير الجامعة الدكتور أحمد السَّمان.

(٥٢، ٥١) من الفكر والقلب، ص: ٢٢٧.

(٥٣) هكذا علَّمتني الحياة، ١: ٩.

(٥٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز) قصيدة «طريقي»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٧٠.

(٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩) هكذا علَّمتني الحياة، ١: ١٢٠، ٢٢٤، ١٩٣، ٢٥٢، ٢٠٢.

(٦٠) من مقابلة مع الأخ عدنان الطباع.

(٦١) حضارة الإسلام (السنة الخامسة)، ع: ٣، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، مقال: «رحلة إلى الله ورسوله»، د. مصطفى السباعي، ص: ٢٨.

(٦٢) من الفكر والقلب، ص: ٢٢٤.

(٦٣) حضارة الإسلام (عدد خاص)، الأستاذ محمد عبد الرحمن خليفة، ص: ٣٦.

(٦٤) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.

(٦٥) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «السباعي رائد الطليعة في الإصلاح»، د. محمد الفاضل، ص: ٦٠.

(٦٦) نفسه، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٥.

(٦٧) نفسه، الأسطواني، ص: ١٢٩.

(٦٨) نفسه، عبد القادر السبسي، ص: ٤٠.

(٦٩) علماء ومفكرون عرفتهم، الأستاذ محمد المجذوب، ١: ٤٠٢ - ٤٠٣.

(٧٠) روى الواقعة الدكتور أحمد فرحات عن الأستاذ أحمد الأحمد.

(٧١) روى الواقعة الدكتور أحمد فرحات.

(٧٢) روى الواقعة الأستاذ عبد الله طنطاوي عن الشيخ علي الكرج بعندان.

(٧٣) روى الواقعة الأخ عدنان الطباع.

(٧٤) روى الواقعة أحد الدعاة.

- (٧٥) من مقابلة مع الأستاذ محمد عيد بغا.
- (٧٦) روى الواقعة أحد الدعاة.
- (٧٧) روى الواقعة أحد أساتذة الكلية.
- (٧٨، ٧٩) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٨٠) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ٢٥١.
- (٨١) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «مصطفى السباعي قائد ترك مكانه شاغراً»، الأستاذ محمد خير الجَلّاد، ص: ٨١.
- (٨٢) من الفكر والقلب، ص: ٢٨٠.
- (٨٣، ٨٤) هكذا علّمتني الحياة، ص: ١٠٣، ١٩٦.
- (٨٥) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، د. يوسف العش، ص: ٦٨.
- (٨٦) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ١٩٦.
- (٨٧) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٢.
- (٨٨) نظرات في اشتراكية الإسلام، الشيخ محمد الحامد، المقدمة.
- (٨٩) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧١، ١٧٥.
- (٩٠) نفسه، د. يوسف العش، ص: ٦٨.
- (٩١) علماء ومفكّرون عرّفتهم، المجذوب ١ : ٤٠٦ - ٤٠٧.
- (٩٢، ٩٣) هكذا علّمتني الحياة، ص: ٥٠، ١٨٧.
- (٩٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، د. يوسف العش، ص: ٦٨.
- (٩٥) نفسه، مقال: «فلسفة السباعي»، عدنان حلبي، ص: ٢٤.
- (٩٦) مجلة الإذاعة الليبية، محمود الناكوع، عن كتاب: «مصطفى السباعي»، عبد العزيز الحاج مصطفى.
- (٩٧، ٩٨) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ١٠٢، ٢٠١.
- (٩٩) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، د. يوسف العش، ص: ٦٦.
- (١٠٠) علماء ومفكّرون عرفتهم، المجذوب، ١ : ٣٧٩.
- (١٠١) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ١٩٩.

- (١٠٢) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقال: «مناجاة»، د. مصطفى السباعي، ص: ٣٤.
- (١٠٣) نفسه، مقال: «دمعة على الرائد العظيم»، الأستاذ عبد الله الشيرازي الصباغ، ص: ٢٢٢.
- (١٠٤) نفسه، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٣.
- (١٠٥) نفسه، الأسطواني، ص: ١٦٠.
- (١٠٦) عظماءنا في التاريخ: د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، المقدمة، د. عدنان زرزور.
- (١٠٧) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٣.
- (١٠٨، ١٠٩) نفسه، الأسطواني، ص: ١٦٢.
- (١١٠) من مقابلة مع الأستاذ محمد عيد بغا.
- (١١١) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد القادر السبسي، ص: ٤٠.
- (١١٢) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٢٢٥.
- (١١٣) علماء ومفكرون عرفتهم، المجذوب، جدة - ١٩٨٣م، ١: ٣٨١.
- (يضاف إلى ما ذكر أن المجموعة المنشقة المذكورة، كانت تسيّرهما المخابرات المصرية دون أن تدري، وكان المكلف بشق الجماعة رجل المخابرات المصرية نجيب جويفل من قبل عبد الناصر. وقد افترض ذلك كله، فهجّر أكثر المجموعة المنشقة فيما بعد الجماعة وخط سيرها).
- (١١٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة، ص: ١٧٤.
- (١١٥) نفسه، مقال: «الرزء يعظم بقدر الرجال»، الشيخ مناع القطان، ص: ٢٣٦.
- (١١٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد القادر السبسي، ص: ٣٩.
- (١١٧، ١١٨) «الفتح»، العام: ١١، ع: ٥٤٨، عام ١٣٥٦هـ، الشيخ محمد إسماعيل عبد النبي ومصطفى السباعي، ص: ٨.

(١١٩) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد الفتاح أبو غدة،
ص: ١٧٢.

(١٢٠) نفسه، «السباعي رائد فكر وقائد دعوة»، محمد المبارك، ص: ١٢.

(١٢١) نفسه، قصيدة «رجل أمة»، عمر بهاء الدين الأميري، ص: ٣٧٨.

(١٢٢) نفسه.

(١٢٣) نظرات في اشتراكية الإسلام، المقدمة.

(١٢٤) نفسه.



الباب الثاني مواهبه الشّاملة

تمهيد.

الفصل الأول: الداعية المجاهد.

الفصل الثاني: السياسي المسلم.

الفصل الثالث: الاجتماعي المربّي.

الفصل الرابع: الحكيم الناقد.

1000

1000 1000 1000 1000

1000 1000 1000 1000

1000 1000 1000 1000

1000 1000 1000 1000

إن الحديث عن مواهب السباعي الشاملة حديث مسهب طويل،
إذ كيف يُختزل عمرٌ من القدرات الفذة في باب أو كتاب؟ ولا سيما إذا
كان هذا العمر حافلاً بجلال الأعمال، واجتمعت هذه القدرات
والمواهب كلها في إنسان..

إنسان ملاً جيلاً، بل أجيالاً من العطاء، مما وهبه البارئ من إمكانيات
وحباه به من مواهب، كما وصفه أحد رواد الدعوة المعاصرين..:

«إنه ثبات واستقامة، وجهادٌ طويل متواصل في مجالات
مختلفة: من معركة فلسطين، إلى البرلمان السوري، إلى
مكتب المراقب العام، إلى محيط التأليف والكتابة
والصحافة، إلى منصّة الخطابة والدعوة، إلى كرسي تدريس
الفقه الإسلامي في جامعة دمشق، إلى فكرة تأسيس كلية
الشريعة في الجامعة السورية، إلى معركة الانتخابات، إلى
مناقشة المستشرقين الملحدين، إلى تربية الشباب
وتوجيههم... جهادٌ لم ينقطع يوماً، واستمرَّ إلى آخر يوم
من أيام حياته»^(١).

ويضيف الداعية المعاصر:

«وكان في كل ذلك مؤمناً صاحب دعوة ومبدأ وغاية، مخلصاً
محاسباً، موضع ثقة وتقدير في بلده وفي غير بلده، وقليل من

معاصريه من يجمع بين هذه الفضائل والمواقف المتنوعة في خدمة الإسلام والمسلمين، ثم لم يمنعه مرضه المضني المرهق من أن يواصل جهاده ويستمر في كفاحه، من تدريس وكتابة ودعوة، فكان أكبر دليل على قوة إيمانه وإخلاصه، وعلى أن الدعوة قد ملكته وتغلغلت في أحشائه»^(٢).

إنّ رجلاً غزير المواهب كالسباعي يحار الباحث في رصد الآلاء التي أنعم الله بها عليه وإيفائها حقّها...

يعرب عن ذلك أحد كبار الدعاة في سورية حينما أراد أن يكتب عن رائد الدعوة وزميل الجهاد فيقول:

«وشرعت أكتب فأقعدني اليراع، لأنني كلّما فكّرتُ أن أصف زاوية من زوايا مزاياه شعرت بالعجز... فإن أردت أن أكتب عن خطبته؛ فهو خطيب الشرق الذي رن في الخافقين صدى خطابه، وإمامه الذي انبثقت أنوار اليقين من سماء محرابه. وإن كتبت عن علمه؛ فهو عالم جليل ما فتئت الحكمة تتدفق بين فؤاده ولسانه، وتطلع شمس البلاغة من بين خاطره وبيانه، وتجري مناهل العرفان بين أقلامه وبنانه»^(٣).

لقد كان مصطفى السباعي أمة في رجل بما حازه من المواهب وأنجزه من المهام...

«حتى كان بها وحده في قوة جيش من العاملين من مختلف الكفايات والمزايا العلمية والفكرية والأدبية والنفسية والسياسية، قلماً، ولساناً، ونشاطاً، وعملاً، وإيماناً، وإخلاصاً لرسالة الإسلام العظمى الخالدة. ومعرفة بالزمن الذي نعيش فيه وبخصائصه ومقتضياته

في أساليب العمل، وبصيرة بالمقدمات والنتائج، والبدايات والعواقب»^(٤).

من هذا المنطلق المتشعب الخصب نعرض لمواهب السباعي في أربعة فصول، بما أمكننا رصد من قدرات الرجل الذي راد عصره، وبني دعوة، وأدى رسالة، وشاد أجيالاً...

«يُعرف الرجل في الأمة أنه كاتب أديب، أو شاعر أريب، أو خطيب مصقع، أو فقيه محقق، أو قائد مجاهد، فما بالك برجل كان هذه الفضائل مجتمعة، وقل أن تجتمع لرجل، وما كان في واحدة منها إلا ذروة السنام، وقبله النظر»^(٥).



من أساليب
السباعي



١ - السباعي في معارك فلسطين



٢ - السباعي مع إخوانه في القدس

الفصل الأول الداعية المجاهد

القسم الأول: السباعي الداعية:

- ١ - تعريفه بالدعوة والدعاة.
- ٢ - إنجازاته الدعوية ومواقفه في سورية.
- ٣ - دوره الدعوي.
- ٤ - مشاعره نحو جنود الدعوة.
- ٥ - أمله الدعوي.

القسم الثاني: السباعي المجاهد:

- ١ - تأصيله معنى الجهاد في النفوس.
- ٢ - مواقع جهاده.
- ٣ - جهاده إبان مرضه.
- ٤ - جهاده في قضايا العالم الإسلامي.
- ٥ - نمودجه الجهادي.

1875

1875

1875

1875

1875

جمع السباعي بين الدعوة والجهاد لأنهما وجهان لحقيقة واحدة هي نشر دين الله الواحد في الأرض ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

إن نشر دين الله في الأرض يتضمن عرض منهج الإسلام في الحياة وما ينبثق عنه من شرائع وأحكام ونظم في ظل العقيدة في الله، وهذا ما تقوم به الدعوة إلى الله، فإذا وقف الطواغيت عقبة دون نشر مبادئ الله في الأرض أو صدّوا عن دين الله فقد وجب الجهاد.

ولقد زاول السباعي المهمة الأولى: الدعوة، والمهمة الثانية: الجهاد، ودعا إلى إنفاذهما وجهد في تطبيقهما، نهوضاً منه بالأمانة العظمى التي وكلها الله إليه، لتلي أمة الإسلام أقدس مهمة في الحياة الدنيا وهي الشهادة والقوامة:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

القسم الأول: السباعي الداعية

كانت الدعوة الإسلامية تنبثق في نفس السباعي في فترة مبكرة من عمره، فلقد طفق يدعو الناس إلى الإسلام من فوق منبر والده في الجامع الكبير بحمص في سني صباه، ثم ارتقت الدعوة في نفسه صُعداً - مع نمو

سنّه وثقافته - من الحماس والعاطفة الجياشة، إلى العلم والفكر وإدراك الحكم والأسرار، إلى تأسيس الجمعيات والمنظمات وعقد المؤتمرات . ثم كان له ما فوق ذلك من وضع المناهج والدستور للبلاد، وتأليف الكتب والأبحاث التي تجلو عظمة الإسلام وطبيعته الربانية وسر تفوقه على سائر المناهج والنظم .

ولكن هل كانت الدعوة - في هذه المراحل كلها، لدى السباعي - موهبة لدنيّة وإبداعاً ذاتيّاً، أو كانت عنده ممارسة واكتساباً؟

لعلنا لا نغادر الصواب إن قلنا: إنّ الدعوة كانت لدى السباعي - وهو فتى - موهبة ذاتيّة تتفجّر من نفسه منطلقة وثابة، ومن جنانٍ متّقد . وعاشت هذه الموهبة الدعوية مع السباعي سحابة حياته .

ولكن - مع حيازته هذه الموهبة التي أسست جماعة وصنعت رجالاً -، لم ينقطع عن دراسته فقه الدعوة واستحضار تجارب رجالها - في القديم والحديث - بما يفصح عن استكمال منهجٍ راقٍ له في الدعوة، وتجارب فريدة، نشيم بريقاً منها في الحقائق الآتية :

(أ) تعريفه بالدعوة والدعاة

إن السباعي وهو يؤصل لدعوة الإسلام يؤكد أن حقيقة الإنسان المؤمن، إنما تتمثل في أوضح خصائصها بالدعوة إلى الله . . . :
«ثلاث هُنَّ من عيشة المؤمن: عبادة الله، ونصح الناس، وبذل المعروف»^(٦) .

ثم يعرض لصفات الداعية فيجد من أبرزها الصدق والمعرفة، وإنما يصغي الناس لمن أفعم الإيمان نفسه، وكان خبيراً بالطبائع والقلوب :

«لا يفيد الوعظ إلا بثلاث: حرارة القلب، وطلاقة اللسان، ومعرفة طبائع الإنسان»^(٧).

والناس لا يصغون إلا لمن أصفى الدعوة نفسه وروحه:
«لكلّ إنسان دنياه الواسعة التي تجول فيها أحلامه ومطامعه
وتصل، والمؤمنون لهم دنيا واحدة، محدودة بالحق الذي
آمنوا به.

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متقدم عنه ولا متأخر»^(٨).

ولا يحسن الناس الاستماع إلا لمن كان مدنفاً في حبه للدعوة، مُعَنِّياً
بها، محترقاً في سبيلها:

«من علامة صدق المؤمن في إيمانه: بذله لله من أمواله. ومن
علامة نُجَحِّه في دعوته: تخلّيه عن راحته، ولهفته في أداء
رسالته»^(٩).

ثم يجلو السباعي نموذج الدعاة الذين زرعهم الله في كل بقعة يهدون
الناس سبيل الإيمان ويرودونهم إلى الحق والخير، فيوافينا بطبائعهم
وسجاياهم:

«فئة من شباب هذه الأمة زرعها الله بيده وغرسها في كل بقعة
من بقاع العالم الإسلامي ثم ربّاه على عينه، فهي تزداد قوة
برغم ما ينزل بها من محن، وعدداً برغم ما يراد لها من
إفناء؛ قد فهمت الإسلام كُلاً لا يتجزأ؛ فعملت به كله من
غير إهمال لناحية من نواحيه.

إنهم في النهار عاملون، وفي الليل عابدون، ولأعداء
الإسلام متربصون.. بأحكام شريعته متفقهون، وعلى

هدي رسولهم سائرون: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ .. عاهدوا الله فصدقوه العهد، واشتروا من الله جنة عرضها السماوات والأرض بجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وحریاتهم وكراماتهم، رضوا من الدنيا بكفافها، ورضوا عن الله في قضائه، ورضي عنهم صدق بلائهم، فمضى منهم من مضى وبقي من بقي: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾، أولئك جند الله ولو كره الجاحدون، وأمناءه على شريعته ولو كره الجامدون» (١٠).

حتى إذا استقام للدعاة هذه السمات فلا بد لهم من الصمود والثبات، فكم من العقبات تكمن في الطريق .. وكم من المعوقين والمستغلين والشائنين سيحاولون وقف طريق الدعوة ..

إنَّ السباعي يمنح الدعاة من تجربته نسائم الثقة والأمل، فلا يُعَرِّن الدعاة بما يلقاه أعداء الدعوة والمدجّلون من نجاح موقوت، فهم وجهودهم الخبيثة إلى هباء، والدعوة خالدة باقية إلى يوم القيامة:

«يا رجال الدعوة! إنكم تتألمون اليوم لاستغلال بعض الناس دعوة الإسلام والأخلاق، إلى جرّ المغانم لأنفسهم من جاء أو مال أو جرّهما معاً، مما آذى سمعة الإسلام، وأضرّ بالدعوة إلى الأخلاق الإسلامية الصحيحة، لا تتألموا من ذلك يا إخواني؛ فإن استغلال الدين واستغلال ذوي السلطان والقوة للمتظاهرين بالدعوة إلى الله، لم ينقطع في كل عصور التاريخ، وبخاصة في تاريخ الإسلام، ولقد قرأتم في تاريخ المصلحين كيف كانوا في كل عصر يُقاومون في دعوتهم من قِبَلِ المستغلين للدين أكثر من أعدائه.

وإنكم لتعلمون أن أولئك الذين كانوا يقاومون المصلحين كانوا أكثر قوةً ونفوذاً في الجماهير ممن يقاومون دعوتكم اليوم أو يستغلونها، حتى إنكم لتجدونهم أقزاماً بجانب أعداء الإصلاح في الماضي، ومع ذلك لقد ذهب أولئك الدجالون جميعاً إلى الجحيم، وبقي المصلحون وحدهم هم الخالدون»^(١١).

لا بدّ لكل دعوة من نموذج أو مثل حيّ يجسّد مبادئها، ويشرح طريقها، ويضرب المثل بنفسه في تحقيق أهدافها.

والمثل الحيّ لدعوة الإسلام: محمد عليه الصلاة والسلام؛ لذا كانت سيرته ﷺ المرجع الأساسي للدعاة إلى الله.

إنّ هذه السيرة العطرة هي المنهج العملي الذي كان يوجّه إليه السباعي في أحاديثه ومحاضراته، ومقالاته وكتبه وبحوثه، بوصفها الصلة الكبرى التي تربط الداعية بقائده العظيم محمد عليه الصلاة والسلام، حيث يقول:

«حياة رسول الله ﷺ وسيرته هي المثل الأعلى الذي يحتذيه كل مسلم، وهي على تقادم العهد بها، جديدة في كل عصر، توحى لكل فئة من فئات الأمة بما يبعثها نحو الخير، ويدفع بها إلى ميادين الخلود.

وإذا كانت ذكرى المولد النبوي الكريم حبيبة إلى قلب كل مسلم، فإن هذه الذكرى أحب ما تكون إلى قلب الداعية المسلم؛ إذ يجدد فيها صلته بقائده الأعظم، ويراجع فيها حسابه معه، ويزيد فيها من إمعانه النظر بخطط الدعوة في مراحلها الأولى حين كان رسول الله ﷺ يضع أصولها،

ويوجه دفتها بما يتنزل عليه من وحي، وما يلهمه من
توفيق، وما تهدي إليه عبقريته من وجوه الحق ومسالك
النصر» (١٢).

كما يوجّه السباعي إلى احتذاء القدوة العملية في صحابة رسول الله ﷺ
رضوان الله عليهم، إذ كانوا جنود الدعوة والمنهج العملي لدوامها
واستمرارها على مدى الأزمان والعصور؛ فيقول:

«سرُّ عظمة النبوة في محمد ﷺ أنه ترك من بعده خلفاء عنه
في قيادة الدعوة، يفهمون شريعته كما يفهمها، ويتخلّقون
بأخلاقه كما أدّبهم ربه، فاستمرت الدعوة من بعده، وأدّت
رسالتها في التاريخ» (١٣).

ولقد ضرب السباعي المثل بنفسه حين تقلد مسؤولية الدعوة، ونهض
بمبادئها، وأعطى في شخصه، النموذج الحي لها..

لنستمع إلى شهادة أحد معاصريه:

«سأتحدث عن السباعي الداعية في زمن قلّ فيه الدعوة
وعزّ فيه من يحملون رسالة الإسلام بإخلاص إلى الله.

سأتحدث عن السباعي الداعية الذي آمن بالله ربّاً، وبمحمد
نبياً، وبالقرآن دستوراً، وبالجهاد سبيلاً.

الداعية الذي وقف نفسه وروحه وقلمه وعقله وحياته
وعمره في سبيل دعوة الإسلام، وفي سبيل نصرته الإسلام،
سار على الطريق، طريق الأنبياء، طريق المرسلين، طريق
محمد بن عبد الله ﷺ» (١٤).

ويحدثنا من شاطره السجن السياسي كيف كان نموذجاً حياً لما يدعو إليه؛ لقد جعل من نزلاء السجن على اختلاف مشاربهم أسرة إسلامية ومجتمعاً إسلامياً...

«لقد نهض بالسجن عندما دخل إلى السجن؛ لقد كنا نضيّع أوقاتنا فجاء رحمه الله وأشاع فينا التقوى...

فبعد أن كنا نلهو بلعب النرد أو نلعب الورق أو بالكلام الفارغ، جاء رحمه الله، ونهض بنا من هذه التفاهة إلى النباهة، من هذا الكلام الفارغ إلى الكلام المفيد؛ فأصبحنا نتذاكر، وأصبح يلقي علينا دروساً في السجن، وأصبح رائدنا وإمامنا وشيخنا وخطيبنا ومرجعنا في كل أزمة كانت تنتابنا في ذلك السجن، فهو إذن المرشد الذي نهض بنا في تلك الآونة العصيبة، التي اجتزناها يوم زج بنا في السجن لا لشيء إلا أننا مسلمون أحرار نريد أن نخدم بلادنا كما يخدمها غيرنا في هذا الوطن.

وعبثاً حاولوا بالمغريات أن يغيروا عقيدة الشيخ مصطفى، ولكن المسلم ذا العقيدة يتغير كل شيء في الدنيا ولا تتغير عقيدته، لقد ظل صامداً وقضى ما كتب عليه من سجن بصبر عجيب.

وكان من حظنا أن يطول به السجن حتى نستفيد منه. حتى نُفيد من علمه، ونفيد من فهمه للأمور، وحتى يسمو بنا من هذه الدنيا الفانية إلى العالم الآخر بما كان يرويه علينا من علم وأدب، وما كان يبثه من أخلاق عالية سامية أصبحنا نشعر وكأننا عائلة واحدة في ذلك السجن»^(١٥).

(ب) إنجازاته الدعوية ومواقفه في سورية

عاش السباعي للدعوة الإسلامية، وبذل في سبيلها عمره وجهده وصحته. ولقد كانت الدعوة حياته كلها، وليست جزءاً منها، فلا غرو أن تكثر إنجازاته الكبيرة في سبيلها وأن تعظم مواقفه الجليلة لتوطيد كيانه.

يشهد من شاركه العمل للدعوة كيف استغرقت الدعوة عمره كله وكيانه، يقول:

«إن الأستاذ المغفور له بعد أن أكمل تحصيله، لم ينصرف إلى تأليف الكتب كغيره من العلماء، بل انصرف إلى تأليف القلوب بين الناس، وانصرف إلى الجهاد في سبيل الدعوة ليثبت عقيدة الإيمان في قلوب الشباب ويغرسها في أفئدتهم؛ ليكون بينهم رابطة روحية، حتى إذا ما تمكنت من القلوب كانت حصناً حصيناً يلجأ إليها الخائفون عند الدفاع عن أوطانهم والذب عن حياضهم.

فبقي المرحوم الأستاذ السباعي عشرين سنة يسعى لتوحيد الكلمة في صفوف الشباب المؤمن، فأذهب زهرة شبابه في هذا السبيل. وقد ألقى من الخطب ما لو أنها جمعت لكونت مكتبة تضم عشرات المجلدات، هذا عدا عن محاضراته ودروسه التي كان يلقيها في الرحلات والمخيمات ومناظراته مع المستشرقين وبعض رجالات الدين في بعض المجلات التي كادت لا تحصى. ولذلك لم ينصرف إلى التأليف إلا عندما أقعده المرض عن النضال فحينئذ شرع قلمه وانصرف إلى التأليف»^(١٦).

ومن هذه المواقف الدعوية التي تشهد بإنجازاته الواسعة في فترة قصيرة:

(أ) بث الوعي في نفوس الجماهير:

كان السباعي يدرك رسالته نحو الجماهير المسلمة التي عانت من مؤامرات الاستعمار والصهيونية والغزو الفكري؛ لذا كان دائم الاتصال بها ليغسل عن أذهان الشعب ما أراد الاستعمار أن يبثه من سموم عن طريق وسائله المختلفة التي يرمي منها إلى توهين الدين في النفوس وإضعاف العقيدة الإسلامية في القلوب بدعوى التقدم والتحضر ليسهل عليه تطويع جماهيرنا لمؤامراته وخططه الهدامة..

إزاء هذا؛ قام السباعي بدور كبير في محاضراته ومقالاته بتوعية الشعب لمؤامرات الاستعمار وتأهيله لأداء دوره الأصيل.

يقول زميله في الدعوة:

«إن من أبرز ما يتميز به الأخ الأستاذ السباعي رحمه الله من بين دعاة الإسلام هو أنه استطاع أن يبث الوعي الإسلامي في الجماهير الشعبية: الوعي لمبادئ الإسلام وتعاليمه، والوعي لمآسي الإسلام في العصر الحديث ونكباته مع الاستعمار والإلحاد والصهيونية، بعد أن كانت هذه الجماهير موزعة بين فئة المتدينين تديناً تقليدياً لا تعرف إلا إقامة بعض شعائر الدين الفردية الظاهرة دون المشاركة في قضايا البلاد العامة والكفاح في سبيل تحرير البلاد الإسلامية مما لحق بها من استعمار وظلم وجهل، وفئات أخرى ساذجة غافلة أو منحرفة عن أهداف أمتها استهوتها المبادئ الضالة لأنواع من الشعوبيات الحديثة التي جاءت

تتصيد هذه الجماهير مستغلة ما كان يحيط بها من أجواء
الجهل أو الظلم أو الفقر.

استطاع فقيدنا رحمه الله أن ينقل الإسلام - الحي النابض
الفعال، الإسلام المحرر في مثاليته ونضاليته -
إلى هذه الجماهير، وأن ينقل هذه الجماهير إلى جو
الإسلام^(١٧).

كانت مقالاته - في جريدة «المنار»، ومن ثم في جريدة «الشهاب» -
رسائل شفوية متواصلة بينه وبين الجماهير في سورية بخاصة وفي العالم
الإسلامي بعامه، تحمل آراء الدعوة اليومية في سائر القضايا.

وكانت مقالاته - في «المسلمون»، و«حضارة الإسلام»، وقبلهما
«الفتح» - رسائل رفيعة إلى الجماهير المثقفة في العالم الإسلامي
والأقليات الإسلامية في أقطار العالم، تمثل سِفراً خالداً من التواصل
الثقافي والحوار الدعوي البناء، وسنعرض لها في مكانها إن شاء الله.

(ب) العمل الدعوي المنظم:

انفتحت عينا السباعي منذ نعومة أظفاره على أوضاع البلاد المتردية،
راسفة تحت قيود الاستعمار وبرامجه، والجهل ومُضلاته؛ فألفى أمامه تركة
باهظة من التخلف...

«لم يكن في البلاد الشامية حتى مطلع القرن العشرين تيار
إسلامي واضح المعالم، كما أنه لم يكن للإسلام دعاة
وجنود من المثقفين الذين جمعوا إلى جانب الثقافة العصرية
الحديثة ثقافة إسلامية ناضجة، وإنما كانت هناك دعوات
دينية وطرق صوفية وجمعيات تقتصر في دعوتها على بعض
جوانب الإسلام، مكتفية بالدعوة إلى مكارم الأخلاق

والتمسك بالعبادات دون اهتمام بالجوانب الأخرى، مع
الابتعاد عن معالجة مشكلات الجماهير والتحسس بها..

ولم تكن تخلو بعض هذه الدعوات والطرق من بدع
وخرافات وضلالات مدخولة ومدسوسة على الدين، وهذا
ما جعل الإسلام ومن كان يحمل بعض رسالته، في عزلة عن
الفئات المثقفة وعن جماهير الشعب ومشكلاته..

وإذا أضفنا إلى ذلك جهود الاستعمار التي بذلها - وقد كان
مهيمناً على مقدرات الأمور في بلادنا في ذلك الحين -
لإخماد الروح الإسلامية التي كانت تحرك القوى الشعبية
ضده وتدفعا للثورة عليه.. وما بذله أيضاً من جهود استخدم
فيها سائر إمكانياته - مدفوعاً بالحقن الصليبي الموروث -
لتشويه حقائق الإسلام بالبدس والافتراء، وتضليل الأفهام
والعقول عن طريق تهوين شأنه وتراثه وأمجاده في نظر الناشئة
المثقفة، وتزيين الثقافة الغربية والأخلاق والعادات
الأوروبية، وإيهامهم أن الدين جمود ورجعية وأنه لا سبيل
للنهوض والانطلاق إلا بترك الدين واتباع الغرب وتقليده في
مختلف شؤون الحياة!!^(١٨).

كان السباعي المؤمن الطموح الذي فُطِرَ على الدعوة إلى الله
منذ الصغر، ينظر إلى أوضاع البلاد السيئة هذه وما تردت إليه من
تمزق وذلة وتكبييل بالأنظمة الأوروبية التي تكاد تخرج أبناء
الامة عن أصالتها وإسلامها المجيد، سرّ عزتها في الماضي وقوتها،
فكان أن أخذ يبحث عن أنجع السبل الكفيلة بإنقاذ البلاد مما ترسّف فيه
من ضعف وتفكك، ومما يتهدها من أخطار بإبعادها عن دينها ومسح
شخصيتها.

وكان لا يملك آنذاك إلا اعتلاء المنابر، وتوعية الناس إلى ما يحق بهم من أخطار، وتذكيرهم بمجدهم الإسلامي وتاريخه المجيد.

ولكن هذه الوسيلة - على أهميتها - لم تكن لتشبع طموحه، أو توصله إلى هدفه؛ فالجماهير - بمفردها - ذات قدرة محدودة على التغيير، والأخطار أكبر من الانتظار، ولا بد من الانطلاق في العمل للإسلام من قاعدة ترسم الطريق، وتعد العدة، وتوجه الجماهير إلى الطريق الأصيل الذي يحفظ لها دينها وعقيدتها، ويجعل منها كتلة إسلامية تقف ضد الاستعمار العسكري والثقافي على السواء.

ولقد خطا في ذلك خطوتين رائدتين:

الأولى: ريادته شباب محمد ﷺ:

إن بناء القاعدة الصلبة في الدعوة الإسلامية أبرز ما يطمح إليه القائد الإسلامي؛ لذا كان السباعي يرنو ببصره إلى اليوم الذي تتوحد فيه الأفهام، وتتكتل فيه الجهود لبناء المؤسسة الإسلامية التي تضم العاملين للدعوة الإسلامية.

ولم يكن الحلم بعيداً عن الشباب السباعي، فلقد أفرز الوعي الإسلامي في سورية جمعيات إسلامية، تحتل في كل بلد منها موقعاً من النشاط ودوراً ملحوظاً، فلقد أنشأ الشباب المسلم في حلب «دار الأرقم»، وأنشأ في دمشق «جمعية الشبان المسلمين»، وفي حمص «جمعية الرابطة الدينية»، وكذلك في المدن الأخرى..

ولقد ربا وعي هذه الجمعيات الإسلامية فخرجت عن نطاقها المحلي في بلدها، لتتوحد كلها تحت راية جمعية واحدة وقيادة واحدة باسم «شباب محمد ﷺ» في سورية.

يطالعنا الشاب السباعي على صفحات «الفتح» في حديثه التاريخي الآتي عن بشائر حلمه بنشاط هذه الجمعيات وتوحيدها في «شباب محمد ﷺ»، وعن دورها في النهوض بمستوى الدعوة الإسلامية، وكيف جاءت ملبية حاجة الجماهير إلى رائد ومنقذ وبان، يقول:

«روحي الفداء لمشرق النور ومبعث الهدى وصفوة خلق الله محمد بن عبد الله ﷺ. وبنفسي أفدي أولئك الشباب الذين كان لهم من خُلُق رسول الله نصيب، ومن هدايته حظ، ومن نوره قسط، ومن النسبة إليه شرف كبير، فكانوا بحق شباب محمد ﷺ لا انتحالاً ولا ادعاءً...»

وإذا تحدثت اليوم عن هذه الفئة العاملة من شباب المسلمين؛ فإنما أتحدث عن أول هيئة مسلمة فنية فيما أعلم، تعمل لدين الله بقلوب لا تعرف الرياء، وبأفئدة لا تحب الفخر، وبنفوس قوية لا يداخلها وهن ولا يأس ولا فتور.

كانوا سبعة أو ثمانية تنتظمهم حلقات الدروس في الجامعة السورية، وقد أَلَفَ بينهم طبيب السريرة واستقامة الخلق وطهارة الذيل، ثم رأوا أن ينتظموا في حلقة أوسع دائرة من حلقة الدروس وأشد منها صلة وأحكم ربطاً، فكانت حلقة في غرفة من بيوت الله كل يوم يقرؤون فيها كتاباً إسلامياً، ويتفقّدون عيوبهم ما ظهر منها وما خفي، وقد عاهدوا الله على أن تكون أخوتهم في الله وفي سبيله قائمة على نهج الشريعة وأدب الإسلام. حتى إذا صفت نفوسهم وسمت أرواحهم أخذوا يجيلون الطرف فيما حولهم فرأوا منكراً لا يليق السكوت عنه، وشرّاً لا ينبغي الاطمئنان إليه، وديناً

يُهاجِمُ من كل ناحية، وخلقاً تنحلّ عراه عروة عروة، ثم رأوا صفوفاً مبعثرة لا تجمعها قيادة، وأمة لا تعرف لها غاية، وبلاداً بائسة تعاني الأمرين من ظلم أعدائها وتفرق أبنائها!!

فمدوا الأيدي متعاهدين على أن ينزلوا إلى الميدان لينافحوا عن دين الله الذي تكاثرت عليه السهام، وعن خُلق الإسلام الذي شوّهته صروف الحداث، وليبشوا في الأمة روح البقطة والحمية والعزة التي شهدتها الدنيا في رجال السلف الصالح يوم انتشروا في أنحائها يحملون إليها عزّ الحياة وسعادة الأبد!

وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت «دارُ الأرقم» في حلب، و«جمعية الشبان المسلمين» في دمشق، و«جمعية الرابطة الدينية» في حمص، و«جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية» في بيروت، وجمعيات عديدة في القدس ولندن وباريس، كلها تنضوي تحت «رابطة شباب محمد ﷺ».

ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يشعرون بجهود هذه الكتلة المنظمة في سبيل الدين والأخلاق، مما أحلها في نفوسهم مقاماً سامياً وبوّاً رجالها في بعض البلدان مقام الزعامة الدينية رغم حداثة سنهم^(١٩)..

وبعد أن يحدثنا عن طبيعة هذه المجموعة ودورها الإسلامي الرائد في سورية، يعرفنا بمؤتمرها السنوي الذي حضره، ومقرراتها الرفيعة التي أثلجت صدره، وكانت منطلقاً خيراً في مسيرة الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي...

«أما المؤتمر الذي عقده شباب محمد ﷺ، فأقسم أنني ما شعرت في حياتي بلذة روحية كنتك التي شعرت بها في

جلسات المؤتمر التاريخية؛ فقد كان الإخلاص رائد الجميع، والأخوة الإسلامية تربط بين قلوبهم، ونور محمد ﷺ يتلأأ على وجوههم، وما كان يرى أحد لنفسه على آخر فضلاً أو رفعة.

وكان مبدؤهم الذي أقروه: أن العمل هو الذي ينبغي أن يعرف الناس بهم؛ فلم يقوموا بدعاية، ولم ينشروا عن مؤتمراتهم شيئاً إلا ما مسّت إليه الضرورة، وحسب القارئ أن يعلم أن المؤتمر انفض دون أن يعرف الناس من هو رئيس المؤتمر ومن أعضاء لجانه، ليعلم بذلك مبلغ الإخلاص الذي تمكن في نفوس هؤلاء الشباب الأطهار.

وأما الأمور التي بحثها المؤتمر فقد كانت على جانب عظيم من الأهمية، منها: تنظيم الشباب المسلم تنظيماً ثقافياً، وتوحيد جهود المراكز المتعددة لشباب محمد ﷺ، واتخاذ مركز رئيس لها، وقد انعقد الإجماع على أن تكون «دار الأرقم» هي المركز الرئيس. ومنها: تنظيم وسائل الدعاية لفكرة الشباب بين الطبقات كافة، وتنظيم بعثات سنوية من الشباب إلى الحج، والتمهيد لإصدار صحيفة إسلامية يومية، والسعي لإلغاء احتكار نقل الحججاج السوريين بباخرات بعض الشركات الأجنبية، والعمل على إسعاف فلسطين بطرق أقرها المؤتمر، وتأييد مؤتمر العلماء في مسائل الأوقاف والتعليم والقضاء الشرعي والسكة الحجازية، وغير ذلك من المسائل المهمة» (٢٠).

وفي عدد آخر من «الفتح» وقد صَلَّبَ عَوْدُ شباب محمد ﷺ، واستحكم آنذاك الخلاف بين قادة البلاد العربية من السياسيين، سببه استحكام الأهواء والزعامات، يطرح السباعي وسيطاً صادقاً مخلصاً، إنه شباب محمد ﷺ الذين تطهّرت أرواحهم، وسمت نفوسهم، وخلصت للعمل في سبيل الله قلوبهم. يجد السباعي في هذه الثلة الطاهرة أمله القريب في إنقاذ الأمة من تخبط زعمائها، وحملهم على الوحدة:

«والآن وقد استحكم الخلاف بين القادة، واستيقظت أنانية بعضهم، وتعدّر جمعهم تحت راية الوطن، فإننا نضع الرجاء في رجال المستقبل من شباب محمد ﷺ، وشباب الجامعة والمعاهد، وشباب الجيل الحاضر؛ ممن سمت أرواحهم وقويت عقائدهم وحسنت أخلاقهم.

بهؤلاء نضع الثقة في أن يحملوا الزعماء والكبراء حملاً على الاتحاد وأطراح الشخصيات والعمل للمصلحة العامة؛ لعلهم يقلعون عما هم فيه؛ خشية أن تفلت من أيديهم مقاليد الزعامة التي شغفوا بها حباً. وإن لم يفعلوا فسيبقى هذا الشعب المسكين ضحية الأهواء والشهوات حتى يقبض الله له الرجل الذي يقوده إلى موطن النصر والمجد»^(٢١)!

وهكذا أصبحت مجموعة شباب محمد ﷺ في سورية كياناً إسلامياً ينبض بالحياة، ويؤدي مختلف الأدوار التي تملّيها حاجة البلاد، تنهض بها جماعة مؤمنة بتأاة مخلصه.

وكان هذه المجموعة كانت تنتظر قائداً، وكان قائدها الذي جمع شملها ورادها بقوة وحكمة: مصطفى السباعي.

ظلَّ مصطفى الشاب رائداً لجماعة شباب محمد ﷺ، وكان لحيويته وحركته الأثر الأكبر في تطوير نشاطها، وتوسيع أهدافها لتلي مهامها في قيادة الأمة إلى طريق الإسلام فهماً وتطبيقاً، حتى كانت الخطوة الجريئة التالية :

الخطوة الثانية: تأسيس جماعة الإخوان المسلمين:

ظل مصطفى السباعي يعمل قائداً لشباب محمد ﷺ في سورية، ويثري الجماعة بطموحه وشبابه إلى أن سافر لمتابعة دراسته العليا .

«سافر إلى مصر سنة ١٩٣٣م لمتابعة دراسته العليا هناك، وما أن استقر به المقام في القاهرة حتى بادر للاتصال بداعية الإسلام العظيم حسن البنا - الإمام الشهيد -، وكان قد سمع به من قبل، وعرف جهاده في سبيل الإسلام. وكان الإمام البنا عليه رضوان الله قد فرغ من بناء جماعته التي استطاعت بقيادته الفذة أن توجد في مصر - رغم كل العقبات - التيار الإسلامي الذي أثبت وجوده وأعاد لها وجهها الحقيقي المشرق، بعد أن مسح ما علق به من ضلالات وبدع الفرعونية والتغريب»^(٢٢).

فماذا كان من أثر البنا ودعوته في مصطفى السباعي؟

«لقد أعجب السباعي بعمل الإمام الشهيد حسن البنا ورأى فيه بغيته وطريقته، كما رأى أن ما كان ينشده ويفكر به من تنظيم جماعة تنهض بعبء رسالة الإسلام قد تحقق على يدي الإمام البنا، فساهم خلال وجوده في مصر بدفع هذه الحركة وتوسيع نشاطها وتدعيم أسسها، فاستفاد من تجربتها وأفادها من خبرته ونشاطه»^(٢٣).

ولقد كان لاتصال السباعي التاريخي بالإمام حسن البنا أثره الكبير في تطوير الدعوة الإسلامية؛ فقد كانت جماعة شباب محمد ﷺ قد بلغت من النضج والتنظيم درجة تؤهلها لأن تؤدي دورها المستقبلي المطلوب. عندئذٍ قررت قيادتها وعلى رأسها السباعي الخروج من نطاق العمل الإقليمي إلى مجالي العمل الإسلامي العالمي..

« (فأعلن) (السباعي) قيام «جماعة الإخوان المسلمون» وذلك في عام ١٩٤٥ م، وقد انتخبته الهيئة التأسيسية للجماعة فيما بعد مراقباً عاماً مدى الحياة وبايعته الجماعة على ذلك، وقاد الجماعة قيادة الحكيم المقدام، متجاوزاً بها أحلك الأيام وأشد العقبات حتى استطاع أن يجعل لدعوته صوتاً مسموعاً مهاباً، وحتى استطاع أن يوجد في سورية التيار الإسلامي الواعي الذي استقطب خيرة الشباب المثقف المؤمن..

واستمرَّ السباعي القائد يمنح دعوته وجماعته من شبابه المتوقد وحيويته النادرة وعقله الجبار وعبقريته الفذة وروحه القوية وكل ذرة من جهده ووقته» (٢٤).

ووضع السباعي - بالتعاون مع إخوانه - أهداف الجماعة ومبادئها بما ينسجم مع طبيعة بلده سورية، فأخذت الجماعة موقعاً رائداً في البلاد، وأثبتت وجودها الإسلامي، بخدمتها للإسلام وأهله، فضلاً عن إسهامها في خدمة البلد السوري. وكان لها الأيادي البيضاء على الشعب والبلد.

ولكن رائدها السباعي لم ينحصر نشاطه في سورية، بل كان يفيض على البلاد العربية والإسلامية.

٣- دوره الدعوي في العالم العربي والإسلامي :

كان السباعي منسجماً مع مبادئ الإسلام حينما لم يقصر نشاطه على بلده، وإنما كان كل قطر من أقطار العرب والإسلام بلده وأهله..

لقد زار من الأقطار الإسلامية كراتشي عام ١٩٥١م مهنتاً بقيام دولة باكستان الإسلامية، وقد حدث عن زيارته هذه بتفاؤل كبير بالدولة الإسلامية الجديدة.

وزار لبنان عام ١٩٥٢م وأقام بها عدة شهور، وكان لهذه الزيارة أثر كبير ومبكر في انتشار الدعوة الإسلامية فيها..

«لقد عاش أيامه تلك في خدمة للإسلام.. فمن محاضرة، إلى حديث، إلى تأليف.

ولقد حدثني عدد من المثقفين من مختلف الطوائف أن للسباعي الفضل الأكبر في تعريفهم حقائق الإسلام، التي ما كانوا ليعلموا عنها من قبل شيئاً»^(٢٥).

وزار المملكة العربية السعودية عام ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م ويحدثنا داعية كبير عن هذه الزيارة:

«وتولى عمادة كلية الشريعة بدمشق، ورسم منهجها المتكامل الحي، وزار مع بعثة علمية من الطلاب والأساتذة المملكة العربية السعودية عام ١٣٧٥هـ، وحظيت الأحساء بزيارته، وكنت آنذاك مدرساً بمعهد الأحساء العلمي، فما كاد يصل إلى الإمارة وينزل في ضيافتها حتى أرسل في طلبي، ودعاه فضيلة الأستاذ عبد الله بن خميس مدير المعهد يومئذ، فتلقيناه مع رفاقه بما هو أهل له. وتحديث إلى الطلاب في المعهد وفي المدرسة الثانوية وأجاب عن أسئلتهم، ففتح للنشء

الجديد أبواب المستقبل المشرق لإعادة مجد الإسلام،
 وإقامة دولته، وتحكيم شريعته»^(٢٦).

أما مصر فكانت ميدانه الثاني بعد سورية، فقد سافر إليها طالباً،
قاد مظاهرات الأزهر ضد الاستعمار البريطاني فيها - كما أسلفنا -،
وكانت نقطة التحول الكبرى في حياته هناك حين التقى بالإمام حسن البنا،
وأفاد من قيادته الراشدة، وتم على أثر ذلك قيام جماعة الإخوان
المسلمين في سورية.

وتجاوز دوره الدعوي ذلك إلى مجالات كبرى بعد اغتيال
الإمام البنا.

«انطلق يقود التظاهرات الهائلة تملأ شوارع دمشق لنصرة
إخوان مصر، كلما نزلت بهم نكبة، أو تحرك الطغيان لينزل
بهم ضربة»^(٢٧).

ولقد سبق أن عرضنا إلى زيارته لأوروبا عام ١٩٥٦م وما قام به من
دور دعوي كبير في جامعاتها ومؤسساتها الثقافية^(٢٨).

٤ - مشاعره نحو جنود الدعوة:

ولا نغادر مواقفه الدعوية حتى نخص بالذكر شعوره نحو جنود
الدعوة، وكما كان لهم من موقع في نفسه..

كانوا يحتلون سويداء فؤاده وكبير اهتمامه، ويؤثرهم بالحب
والتقدير، وينشد من الله نصرهم وتوفيقيهم بصالح أعمالهم في مهمتهم
المقدسة، ويلتمس تذليل عقباتهم وخذلان أعدائهم..

ها هو يخصصهم في نجواه لربه وابتهاله إليه في دعاء شفيف، يدل على
أنهم يسكنون ذاته ويمحضونه أمله ورجاءه.. :

«يا رب! إنك تعلم أن لدعوتك جنوداً كالملائكة طهراً
وكالصديقين إيماناً، وكالأسود شجاعة، وكالماء عذوبة،
وكالشمس ضياءً، وكالهواء صفاءً.

قد جمعتهم يدك على الهدى، ولملمتهم دعوتك على بُعد
المدى؛ يحاربون من هم أكثر منهم عدداً، وأقوى سلطاناً،
وأعزّ جنداً، وأقوى فتنة، وأشدّ إغراءً؛ ولكنهم لا يستكثرون
بالعدد، ولا يتقوون بالسلطان، ولا يعتزّون بالجند،
ولا يعبّون بالفتنة، ولا يتأثرون بالإغراء.

قوّتهم بعبادتك، وعزّتهم بجبروتك، وسلاحهم من شريعتك،
وفتنتهم بجنتك، وغرامهم بوصالك، وهيامهم بجمالك؛
هجروا في سبيلك المضاجع، وفارقوا من أجلك الأوطان،
وتحمّلوا لمرضاتك العذاب والآلام، وحُرموا للجهاد
فيك قرب الأهل والولد، ولذيق العيش وطيب المقام..
فصّْنهم يا رب من بطش الظالمين، وأبعد عنهم خبث
المستغلّين، ودسائس المفسدين.. واجعلهم السنة الشعب
الناطقة بالصدق، المطالبة بحقوقه، المدافعة عن قضاياها،
بروح الهداة المرشدين والأطباء الناصحين، حتى يرى فيهم
الشعب أكرم من حمل لواء الإصلاح، وأصدق من خدم
قضايا الجماهير، وأوعى من عالج مشكلات
المجتمعات» (٢٩).

٥ - أمله الدعوي الذي تحقق :

لقد نذر السباعي نفسه لخدمة الأمة الإسلامية وحبها دعوة الإسلام،
لم تهدأ له نفس ولم يقرّ له جنان حتى أرسى قواعد الجماعة الإسلامية.

ولعلَّ أحد معاصريه يصور لنا تلكم المشاعر التي ودَّع بها السباعي
إخوانه إلى الرفيق الأعلى ..

«كنتَ وحدك على الطريق .. ومعك إخوان قليل يسرون
على الدرب الطويل تلقون العنت وتحملون وحدكم
المشاق .. فدعوت ربك ألا يميّتك حتى ترى جيلاً مؤمناً
يملاً السمع والبصر ويحمل الرسالة ويؤدي الأمانة بوحي
وبسالة ..

فلبّى الله دعوتك، وأجاب سؤالك .. فكنت مدرسة فكرية
وروحية جامعة تخرّج فيها آلاف الشباب المؤمنين الذين تعج
بهم المدن والأرياف .. والذين يقتفون خطاك: خطا جهادك
وثباتك ورباطة جأشك، وصلابة إيمانك ..» (٣٠)

القسم الثاني: السباعي المجاهد

إنَّ الإسلام دين الله في الأرض، يدعو المسلم سائر البشر إليه بالحكمة
والموعظة الحسنة، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور. وفي عنق كل
مسلم أمانةٌ عرض الإسلام على الناس جميعاً لكي يستضيئوا بنوره ويدركوا
آفاقه وهديه دون إكراه. ولكن إذا وقف الطغاة والمتجبرون عقبة في طريق
إبلاغ دين الله وجب الجهاد ..

إنَّ الحق الذي يحمله المسلم في إعلان الجهاد إنما هو بمقتضى
«إن الدين عند الله الإسلام» كتب له القوامة على البشر، فإذا حال
أحدٌ دون إبلاغه الناس عُدَّ عائقاً عن إبلاغ الأمانة إلى البشر، وينبغي
أن يزال هذا العائق عن طريق الدعوة بأمر الله، إلا إذا ثاب المعوقون
إلى الرشاد.

وإنَّ الجهاد لواجب على المسلمين حين تُوطأ أرضهم أو يُعتدى عليهم، لأن الله قد كتب للمؤمنين العزة والمنعة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾. كما فرض الله على المسلمين الإعداد الدائم للجهاد ليؤدوا أمانة الله في الأرض بنشر دين الله وليدفعوا العدو الظاهر والخفي.

كان السباعي يعيش هذه المعاني كلها ويدعو إليها، وكان يضرب المثل بنفسه في تطبيقها على سائر المستويات من خلال أقواله وأعماله.

يرسم لنا الداعية الكبير أبو الأعلى المودودي - في تأيينه له - صورة السباعي المجاهد بقوله:

«إن العالم الإسلامي قد فقد - بمضائه إلى رحمة ربه - مجاهداً شجاعاً، في صفوفه الأولى، كانت له مواقف حاسمة لا تعد في مقارعة الباطل من أين رفع رأسه. وما جاهد الباطل وأهله بلسانه فقط، ولا بقلمه فقط، ولكن بقوة ساعده أيضاً حيث خرج مجاهداً في سبيل الله وأبلى فيها بلاءً حسناً. وكان، عليه سحائب الرحمة، يجمع إلى عاطفة جهاده القوية علماً غزيراً، وأدباً جمّاً، وكان قد أعطاه الله قلباً جريئاً، وقلماً سيالاً، ولساناً مُخْرِساً لكل من ناصب الإسلام والمسلمين عداً»^(٣١).

١ - تأصيله معاني الجهاد في النفوس

إذا امتلأت نفس الإنسان الكبير بالمثل والمعاني فاظت على الناس، وروّتها من صورها وظلالها كما يروي النهر الجياش ما حوله وينثر فيه الخصب والرواء. ولقد كانت نفس السباعي تجيش بمعاني الجهاد وعزة الإسلام في سائر مواقف حياته، فضلاً عن مواقف الجهاد العملي الذي سنعرض له.

فلنلق نظرة إلى بعض هذه الأقوال التي يؤصل فيها للحق والجهاد في سبيله :

« - من عرف الحق لذت عنده التضحيات »^(٣٢).

« - عزة الحق نظام من كبرياء الباطل »^(٣٣).

وكما يؤصل للحق في النفوس ابتغاء عزة المؤمن ومنعته، يشحد النفوس بمواقف الثبات لتبني الحق في كل ميدان ..

« - ليس عليك أن يقتنع الناس برأيك الحق . ولكن عليك أن تقول للناس ما تعتقد أنه حق »^(٣٤).

« - ثلاثة يضيعون الحق في ثلاثة مواطن : مخلص يسكت عند قوم مبطلين ، وعالم يسكت بين قوم جاهلين ، ومنافق يتقرب إلى قوم ظالمين »^(٣٥).

وتثور في نفسه عزائم الجهاد فيهيّب بالنفوس أن تتحلى بالجرأة والثبات والثقة بالله فيرسل هذه الكلمات اللاحقة ..

«لولا جرأة المصلحين واستهزاؤهم بهزء الساخرين، لما تخلص المجتمع من قيوده وأوزاره»^(٣٦).

« - اتخذ من الفشل سلماً للنجاح ، ومن الهزيمة طريقاً إلى النصر ، ومن الظلم حافزاً للتحرر ، ومن القيد باعثاً على الانطلاق »^(٣٧).

ويعلن باسم الأمة المسلمة من على منبر المجلس النيابي السوري موقف الكرامة والشهامة الذي يملي عليها الجهاد ضد العدو ، وعدم الركون إلى خبث الماكرين الخاذلين في مجلس الأمن ، فيسجل موقف الأمة الأصيل على مدى التاريخ ..

«إننا شعب مصمم على أن يموت، أو أن ينال حقه بيده، فهو قد كفر بكل عدالة تأتيه من الخارج، لقد كفر بكل عدالة تأتي من أولئك الذين يتوسدون أرائك مجلس الأمن وهيئة الأمم والذين لا يستوحون ضمائرهم وإنما يستوحون أنانياتهم.

وقد وُطِّئَ النفس على أن نرد العدوان مهما كان شأنه، فلا يطمع بنا الطامعون من الدول الكبرى، ولتعلموا أنهم في إثارتهم لإسرائيل في هذه الظروف علينا، لا يستطيعون أن يحملونا على الصلح، وإنني أعتقد أنني أعبر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد ولا في أي قطر عربي آخر رجلاً واحداً ترضى له كرامته وترضى له وطنيته أن يرى الصلح مع إسرائيل أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزارين الأشرار.

إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية، فلا يفكرن أحد بأن يحملنا عليها» (٣٨).

ويجلو أبعاد الجهاد الحقيقية لتتضح في النفوس معانيه الخالدة وقيمه التي لا تقبل زيف المزيفين وادعاء المضللين.

ومن أوفى كلماته في جلاء أبعاد الجهاد في سبيل الله قوله:

« - لا يكون الجهاد في سبيل الله إلا بثلاث: أن تكون الشهادة فيه أحلى من السلامة، وأن يكون خمول الذكر فيه أحب من الشهرة، وأن يكون الثَّيْلُ من جسم العدو أحب من الثَّيْلِ من أرضه وماله، إلا أن تُرجى هدايته أو منفعته» (٣٩).

٢ - مواقع جهاده

وَنُفلي السباعي مع تلكم المعاني الشامخة التي عرضنا لها، يحقق بها ذاته المجاهدة، ويضرب المثل لأقواله بكذّه وتضحياته وجهاده.

نعم ظَلَّ السباعي مجاهداً منذ نعومة أظفاره. لم تهدأ سورة جهاده حتى لاقى وجه ربه.

يقول زميل دراسته:

«كان الشيخ مصطفى دوامة من العمل في تلك المرحلة قد ملأ سورية حيوية ونشاطاً.

ومن مظاهر النشاط أنه لم يكن يمر بنا أسبوع إلا وهناك مظاهرة كبيرة مخيفة تعبر عن رأي الشعب، تجوب شوارع دمشق، وتنشغل بتغطية أنبائها أعمدة الجرائد في ذلك الحين»^(٤٠).

وقد كان في جهاده الدعوي ذا طبيعة فريدة، لم يكن جهاده يحتمل التأويل أو التأجيل. إنه اشتعال دائم في سبيل الإسلام، يكاد يكون على غير نظير من الدعاة.

يضيف زميله:

«لقد كان السباعي يتناول قضايا الإسلام، وكان غيره يتناولها، ولكن الفرق بين السباعي وغير السباعي أنه كان يتناول قضايا الإسلام، من حشاشة قلبه وسويداء فؤاده. كان يتفتت قلبه على الإسلام. وإذا خطب كان كاللهب، وإذا كتب كالبركان.

كان الكثيرون يكتبون عن الإسلام بالقلم، والكثيرون يتكلمون عن الإسلام ولكن باللسان.

أما السباعي، فما كان يتكلم باللسان فقط، وما كان يكتب بقلمه فقط، وإنما كان يتكلم ويكتب بقلبه، وكان قلمه ترجماناً للبراكين التي تتأجج في هذا القلب»^(٤١).

أما مواقع جهاده وميادينها فهي أكبر من أن ترصد، حتى لتكاد تكون حياته كلها جهاداً، قد انطبعت بطابع الجهاد..

«إذا أردنا أن نلتمس عنواناً لحياة السباعي الخصبة العميقة فإننا نجده في كلمة واحدة، هي: «الجهاد». وهذا معنى القول بأن حياته كانت تحمل طابع الموت والشهادة..

كانت حياته جهاداً متواصلاً في مقدمة الصفوف وفي جميع الميادين... ميدان الجهاد بالنفس، وميدان الجهاد بالمال، وميدان الجهاد باللسان، وميدان الجهاد بالقلم.

لم يدع الجهاد في الموقف الذي يستطيعه والوجه الذي يقدر عليه، منذ اليوم الأول من حياة الفتیان، إلى آخر يوم من حياة الفرسان»^(٤٢).

ونشرع - قبيل عرضنا لمواقع جهاده في مرحلة فتوته، بالتساؤل عن بواعث جهاد السباعي وهو فتى غض الإهاب؟ وهل كانت هذه البواعث الحافز له على جهاده المبكر أو إن الجهاد كان فطرة في نفس الفتى؟

«إن ظروفًا قاسية كانت تمر بالبلاد رافقت نشأة فقيدنا، من استعمار وفساد وتخلف وجهل وبؤس ومظالم اجتماعية وسياسية، فأثرت الظروف على الفتى الصغير وعملت على تفتيح عينيه على الواقع السيئ الذي تعيشه البلاد.

وبالرغم من صغر سنه فقد كان متحسباً هذه المآسي والمظالم وهذا الواقع، مستشعراً مسؤوليته كمسلم يريد أن يرى بلاده حرة مستقلة قوية، تنعم بالحرية والرخاء والعدالة. . فهبّ متمرداً على هذا الواقع السيئ، وقام يجمع أصدقاءه للقيام بعمل لإيقاظ المشاعر العامة وتعبئة القوى ضد أعداء البلاد وضد الانحراف المتفشي بكل ألوانه.

فكان تمرده مبكراً وسابقاً لسنه، كما كانت أعماله أكبر من عمره، ولكنها لم تكن أكبر من مواهبه وإمكاناته وتفكيره وهمته. . وقد ساعده على ذلك وعي مبكر للأمور وبقظة وفطنة وإباء ومروءة ورثها عن آبائه وأجداده»^(٤٣).

ونعرض فيما يأتي لمواقع جهاده، مما تيسر لنا رصده، وقد يكون مقتضباً، ومع ذلك نجد سجلاً حافلاً:

(أ) جهاده الاستعماريين الفرنسي والبريطاني:

قضى السباعي الأيام الأولى من فتوته في جهاد هذين الاستعماريين، فطبع حياته في كفاحهما بطابع الجهاد. .

ولندع لمؤرخ حياته أن يحدثنا عن مراحل هذا الجهاد:

١ - المرحلة الأولى:

«كان أول عمل قام به: تأليف جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية السلطات الاستعمارية الفرنسية أيام الانتداب، هذه المدارس التي كانت تنفث سموها الاستعمارية الخبيثة في أبناء (الطبقة الراقية). . وتحبب إلى طلابها الثقافة الغربية والأخلاق

والعادات الإفرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم وثقافتهم الدينية والعربية.

فعمل على محاربتها، وأخذ يكتب المنشورات ويعمل على طبعها سرّاً ويتولى مع رفاقه توزيعها على الناس، داعياً فيها إلى محاربة الاستعمار ومدارسه ومظالمه وجرائمه.

٢ - المرحلة الثانية:

«ولكن العمل السري لم يكن ليشفي غليله، وهو الجريء الذي لا يعرف الخوف إلى قلبه المؤمن سبيلاً..

فقام يعلن الحرب على الاستعمار وجرائمه من فوق المنابر بخطب مثيرة قوية، ويدعو المصلين في كثير من الأحيان إلى التظاهر والمقاومة، وكان يسير على رأس هذه المظاهرات الصاخبة التي كان يقودها غير عابئ بالأحكام العرفية والإرهاب المفروض على البلاد، مما أزعج السلطات الاستعمارية والحاكمة التي ضاقت به ذرعاً ولم ترّ سبيلاً للخلاص منه إلا باعتقاله وزجه بالسجن؛ فألقت عليه القبض لأول مرة عام ١٩٣١م بتهمة توزيع نشرات نارية ضد سياسة فرنسا في المغرب.

ومن هذه المنشورات يتبين لنا أن السباعي رحمه الله لم يكن يقصر اهتمامه على محاربة المستعمرين في بلاده وحدها، وإنما كان يحاربهم في كل مكان، وفي كل جزء من أجزاء الوطن العربي والإسلامي، ذلك أنه بعقيدته الإسلامية لم يكن يفرق بين جزء وجزء من أرض الإسلام وإنما كان يرى العالم الإسلامي أمة واحدة يتتبع مشكلاتها في كل مكان، ولم يكن ليقبل ما فرضه الاستعمار

على أمتنا الإسلامية من حدود وانقسام..

وقد اضطر الإفرنسيون للإفراج عنه تخفيفاً للهياج الشعبي الذي أعقب اعتقاله وهو ابن ستة عشر عاماً، ولكنه رحمه الله ما إن خرج من السجن حتى عاد أشد مما كان حرباً على الاستعمار وبغيه وعدوانه، فعاد لاعتلاء المنابر وإلقاء الخطب الحماسية المثيرة؛ مما ألجأ السلطات الإفرنسية لإعادة اعتقاله عام ١٩٣٢م وإلقائه في السجن، وذلك عقب خطاب مثير ألقاه في خطبة الجمعة بالجامع الكبير في حمص ألهب فيه الشعور وأسأل العبرات وهيج الجماهير، واستمر سجنه عدة شهور.

٣ - المرحلة الثالثة :

«وعندما أفرج عنه رأى أن يتابع دراسته وتحصيله العالي، فسافر إلى مصر عام ١٩٣٣م والتحق بالأزهر..

ولم يكن السفر من بلده راحة له من أعباء الكفاح والعمل الوطني، ولكنه انتقال من ميدان إلى ميدان، ولئن ترك في بلاده الاستعمار الفرنسي فقد وجد في مصر الاستعمار البريطاني الجاثم فوق صدر المصريين.

ولما كان العالم الإسلامي في عقيدته وحدة لا تتجزأ؛ فقد تزعم طلاب الأزهر الذين سرعان ما التفوا حوله مع إخوانهم من طلاب المعاهد الأخرى؛ فقاد مظاهراتهم ضد الاحتلال البريطاني ومظالمه؛ مما دعا السلطات الاستعمارية الإنكليزية في مصر إلى إلقاء القبض عليه وإيداعه السجن، وذلك عام (١٩٣٤م)».

٤ - المرحلة الرابعة :

«وفي عام ١٩٤٠م اتهمته القيادة البريطانية في مصر بتأليف جمعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني ودعوة الشعب المصري إلى الثورة على الإنكليز، فأمرت بالقبض عليه ثانية .

وبعد أن سجن شهرين سلم إلى السلطات الإنكليزية بفلسطين، ولم تفرج عنه إلا بعد أن قضى أربعة أشهر في السجن» .

٥ - المرحلة الخامسة :

«عاد بعدها إلى وطنه سورية، فما كاد يصل إليها في بداية عام ١٩٤١م حتى قبض عليه الفرنسيون خوفاً من أن يشير عليهم الجماهير من جديد، فزجوه في سجون حمص وبيروت، ثم في معتقل «المية ومية» وقلعة راشيا بלבнан مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من العذاب الوحشي والتجويع والأشغال انتقاماً لما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان...» (٤٤).

(ب) توعيته للقضية الفلسطينية :

سبق أن عرضنا لاهتمام السباعي بقضية فلسطين في فترة مبكرة من حياته، وظل هذا الاهتمام يحدوه للجهاد في سبيلها إلى أن فارق الدنيا...

«إنَّ قضية فلسطين كانت بالنسبة للسباعي قضية وجود، وحياة أمة؛ يشعر بالخطر محدقاً بها وقادتها لاهون فتثور ثائرتة، وينطلق يزأر في الآذان ليوقظها... ويقذف بالنار واللهب

كلمات على لسانه يحرق بها المتخاذلين والمتأمرين والعملاء
المأجورين... ولم يكن ليكتفي بالقول دون العمل؛ فلقد
شهدنا وشهدت الدنيا مصداق تحرقه للقضية الفلسطينية وبذله
من أجلها وتضحيتها في سبيلها... فهو الزعيم القائد الذي قرن
القول بالعمل...

أما القول: فكان في الخطب الحماسية النارية المثيرة التي
طاف أنحاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها يثير بها الجماهير
المؤمنة في كل مكان... ويفتح لها أبواب الجنة فيلهب حينها
للاستشهاد في سبيل الله... ويأخذ عليها العهود والمواثيق
بأن تبذل لفلسطين الإسلامية كل غالٍ ورخيص... وقد كان
ذلك عقب الإفراج عنه سنة ١٩٤٣م بعد اعتقال دام أكثر من
سنتين ونصف السنة في سجون «المية ومية» و«قلعة راشيا»
في لبنان.

ولقد ضاعفت قسوة التنكيل الذي عاناه من اندفاعه وحماسه
وعزمه وتصميمه لمتابعة الجهاد والكفاح من أجل الإسلام
وقضايا الحرية والكرامة ونصرة قضايا الأمة التي رأت فيه
زعيمها المخلص وقائدها الأمين...» (٤٥).

وقد كان لكلماته الحارة الصادقة - ونعرض نموذجاً منها فيما يأتي -
الأثر الكبير في النفوس الأبية، فظلت القضية على مدى العقود التالية حية
في النفوس، وأفرزت مقاومة وانتفاضة... يقول:

«وجراح فلسطين الدامية التي لم تندمل بعد في جسم أمتكم،
إن حملت بعض القادة والزعماء على إلقاء السلاح، فإنها
يجب أن تحملكم على متابعة النضال والكفاح!...

هذه فلسطينكم! .. أضععتها الأطماع الجائعة، والشهوات
الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصليبية الكامنة،
ولن تكون فلسطين بعد كل هذه المؤامرات إلا لنا... نحن
العرب... نحن المسلمين... فلسطين لنا...

يوم تُجند في سبيلها العزائم والسواعد..

ويوم نحشد لها الإمكانات والمواهب..

ويوم نحرسها بالسلح الشاكي والإيمان اللاهب..

فلسطين لنا...

يا شباب!!

اذكروا فلسطين... يقطتكم ومنامكم.

واذكروها... مغداكم ومراحكم.

واذكروها... في عبادتكم ورياضتكم.

واذكروها... لأطفالكم وأمهاكم.

اذكروها...

اذكروها! فهي قلب وطنكم الكبير الواحد...

اذكروها! فهي طريق الإسلام إلى عاصمته «مكة».

اذكروها! فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها «محمد» ﷺ.

يا شباب!..

اجعلوا لفلسطين ما تملكون من مال، وما ترزقون من

مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض

وعقيدة»^(٤٦).

(ج) قيادته المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين المستعمرين :

لم يقتصر جهاد السباعي الاستعمار الفرنسي على الخطب والمظاهرات والمنشورات، ولكنه حمل السلاح وتصدر المقاومة ضد هذا الاستعمار البغيض...

«وكان العام ١٩٤٥ م موعد الحسم التاريخي للقضية السورية مع فرنسة بعد أن نقضت هذه عهداً، ومنزقت معاهدة الاستقلال التي عقدتها مع ممثلي الشعب السوري في باريس عام ١٩٣٦ م، فتحركت البلاد تطالب بجلاء المحتل، ورد هذا على ذلك بوحشية تجاوزت كل جرائمه السابقة.

ومن هنا كان لا بد من اللجوء إلى السلاح مرة أخرى، فانطلقت القوى الشعبية لقتاله في كل بلد»^(٤٧).

«فهبَّ السباعي يقود المقاومة المسلحة ضد القوى الفرنسية في حمص، وأطلق الرصاص الأولى بادئاً هذه المقاومة، وأظهر هو ورجاله بسالة نادرة وشجاعة أذهلت الأعداء الفرنسيين وأدخلت الهلع على قلوبهم، وكبدتهم الخسائر الفادحة في الأرواح والعتاد، وردتهم خائبين...»^(٤٨).

وكان حصاد جهاد الأبطال في بلاد الشام: طرد المستعمر الفرنسي من سورية وجلائه عنها عام ١٩٤٦ م.

(د) قيادته المجاهدين في معارك فلسطين :

سبق أن عرضنا لاهتمام السباعي بقضية فلسطين، هذا الاهتمام الذي شرع منذ فتوته، وظل يربو في نفسه حتى وفاته...

ولا غرو؛ فقضية فلسطين قضية العرب والمسلمين؛ تحتل في نفوسهم المكانة الكبرى، فلقد أسري بالرسول ﷺ إليها، ومعراجه كان

منها، عرج إلى السماء من باب فلسطين، ورجع إلى القدس وباب السماء فلسطين، ثم رجع إلى البيت الحرام، وباب المسجد الحرام فلسطين.

ولعل الله جعل الإسراء إليها ليربط المسجد الأقصى بالمسجد الحرام، وليربط فلسطين بالحجاز وسائر ديار الإسلام، وفي هذا من الإيحاء للمسلمين أنهم لن يُكبروا المسجد الحرام والكعبة المشرفة ما لم يبجلوا المسجد الأقصى موطن الإسراء والمعراج ورحاب القدس التي بارك الله حولها. لذا كان المسلمون الأولون منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، من أشد الناس تمسكاً بفلسطين، والجهاد دونها. ومنذ الفتح الأول لبيت المقدس حتى يومنا هذا، وأمواج المجاهدين في كل عصر تتدفق على فلسطين، وتسيل دماؤهم في الحروب الصليبية حتى تصل إلى الرُكْب؛ جهاداً دون المسجد الأقصى حتى يحررها البطل صلاح الدين الأيوبي.

ولسنا مخطئين إذا قلنا إن كل ذرة من تراب فلسطين تنطق بشهيد، جُبِلَ دمه بتربتها..

وإن أرواح الشهداء من صحابة الرسول ﷺ ومن أتى بعدهم لتحوم فوق هذه البقعة المقدسة..

وستظل هذه الأرض الطاهرة، مهما بلغ من عتو اليهود واستلابهم لها، مهذاً للجهاد والمجاهدين.

وفيما يأتي قصة دخول السباعي قائداً مجاهداً لتحرير فلسطين ولحماية المسجد الأقصى والذود عن حياضه..:

ارتكبت منظمة الأمم المتحدة - بفعل تأمر الدول الأوروبية الكبرى - أكبر جريمة في هذا القرن حين أعلنت عن قرارها بتقسيم فلسطين المسلمة إلى دولتين عربية ويهودية ..

وكان السباعي قد حذر طويلاً من هذا المصير في توعيته لقضية فلسطين، لم تلق من القادة السياسيين أذناً صاغية .. عندئذ انتقل السباعي من دور التوعية إلى دور الجهاد بالنفس والمال :

«عندما حمي وطيس الحرب في فلسطين لم يبق خطيباً من وراء المنابر يوجه الناس ويلهب قلوبهم ويستثير عزيماتهم .. ولكنه وهو المؤمن بقضية فلسطين إيماناً صميمياً صحيحاً أن فلسطين لن تعود إلا برجال الإسلام وإلا بشباب عاهدوا الله على الجهاد في سبيله ..

فنزّل من على منبره، وترك قلمه، ثم قاد الشباب المسلم، قادمهم كأنه قائد عسكري، وهو يقتدي بسيد الأنبياء والمرسلين يوم كان إمام محراب وكان قائد حرب في نفس الوقت .

نعم، قاد شباب الإسلام في حرب ضروس»^(٤٩).

وهنا ندع صاحب القضية المجاهد مصطفى السباعي يحدثنا عن معركة فلسطين، وتفاصيل قيادته المجاهدين إلى خط النار، نقطف منها ما يأتي :

١ - فلما كانت كارثة التقسيم عام ١٩٤٨م، وهبّ الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع في القتال لمنع التقسيم، أخذ الإخوان في الاجتماعات العامة يبينون خطر الكارثة، ووضعوا لذلك ميثاقاً أخذوه على الجماهير: بتأليف جيش لتحرير فلسطين يتطوع فيه كل قادر على القتال،

وبرفض التقسيم، والدفاع عن فلسطين. وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد. وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب.

٢ - طلبنا أن تكون لشبابنا كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ، وأخيراً عدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصة بهم، فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة فنحن لا نقدم لكم سلاحاً بل يجب أن يكون سلاحكم منكم! هذا، مع أن الجامعة العربية أرصدت لجيش الإنقاذ مبالغ طائلة، وكل المتطوعين عندهم يقدمون لهم أسلحتهم وذخيرتهم وألبستهم.. فليس امتناع المسؤولين عن إعطائنا السلاح إلا لتحمّلنا ما لا نقدر.

٣ - كان فرحنا عظيماً إذ أتيح لنا أن ندافع عن المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين، وأن نستشهد في هذه البقعة المباركة، وقد وجدنا في المقدس فوجاً من العراقيين المتطوعين يرأسهم المجاهد السيد فاضل رشيد عبد الله، عدا من كان فيها من مجاهدي القدس ممن تضمهم منظمة «الجهاد المقدس».

ثم توزّع الإخوان على مناطق القدس العربية التالية: الشيخ الجراح، المصراة، سعد وسعيد، القطمون.

٤ - كان من واجبنا أن نضيق الخناق على يهود القدس الحديثة والقديمة.

وكان فريق من مجاهدي الإخوان المصريين بإشراف الأخ

محمود عبده، وقيادة البطل الشهيد أحمد عبد العزيز يرابطون في «صور باهر»، القرية العربية الواقعة جنوبي القدس.

كما كان فريق من إخواننا الأردنيين بقيادة الأخ الحاج عبد اللطيف أبو قورة يرابطون في «عين كارم» الواقعة غربي القدس.

وقد استطاع المجاهدون الفلسطينيون قطع الطريق الموصل من تل أبيب إلى القدس بعد معارك طويلة عند «باب الواد»، اشتركت فيها مدفعية جيش الإنقاذ وحضرنا جزءاً منها. وبذلك أصبح يهود القدس ومستعمراتها القريبة منها مطوقين تطويقاً تاماً، إذ كان العرب أيضاً يسيطرون على طريق القدس؛ لأنه طريق «أريحا» و«عمان». كما كانوا يسيطرون على طريق القدس الشمالي؛ إذ كان طريق «نابلس» العربية يسيطر على مدخله حي الشيخ جراح العربي.

كانت المعارك بيننا وبين اليهود في أطراف القدس وداخلها مستمرة لا ينقطع فيها أزيز الرصاص والرشاشات والقنابل ساعة واحدة في ليل أو نهار، من خلال نوافذ البيوت أو منعطفات الطرق أو الهجمات المباغطة على مراكزهم أو هجماتهم على مراكزنا، وكثيراً ما كانت ترسل النجذات المتعددة في يوم واحد إلى مراكزنا من المجاهدين الاحتياطيين الموجودين في مقر القيادة.

٥ - ولما جلا الإنجليز عن فلسطين في ١٥ أيار (مايو) عام ١٩٤٨م أضافوا إلى سلسلة مؤامراتهم على العرب مؤامرة جديدة، إذ أخبروا اليهود سرّاً بواسطة بناتهم اللاتي كن يعاشرن الضباط الإنجليز عن موعد جلائهم عن المراكز

العسكرية التي كانوا يحتلونها في منطقة القدس . وكانت كحاجز بين الجماهير العرب وجماهير اليهود المدنيين مما كان يمكنهم من مزاوله أعمالهم والبقاء في بيوتهم .

فلما تم احتلال اليهود لتلك المراكز يوم ١٥ أيار أصبح وضع العرب في القدس محرجاً ؛ لقلة المقاتلين والذخيرة عندهم مما يستحيل معه احتفاظهم بأكثر أحيائهم العربية في القدس الحديثة .

وأذكر أننا خرجنا في صباح ذلك اليوم إلى مستعمرات «كفار عصيون» الواقعة جنوب القدس على طريق الخليل إثر معركة نشبت بين اليهود في هذه المستعمرات وبين كتية من الجيش العربي بقيادة الكولونيل عبد الله التل ، وانتهت بتدمير المستعمرة الرئيسة تدميراً تاماً واستسلام سكان المستعمرات المجاورة لها . وقد كان طريقنا إليها من باب الخليل في القدس مارين بحي متوفيري اليهودي الذي كان المجاهدون الفلسطينيون بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني قد دمروا أكثر أبنيته الضخمة .

خرجنا في الصباح وكان الإنجليز يتأهبون لمغادرة القدس ، وقد اصطفت قوافل سياراتهم العسكرية في رتل طويل جنوب القدس ، ولما انتهينا من الإشراف على استلام الأسرى اليهود الذين أبوا أن يستسلموا إلا للجيش العربي دون المجاهدين العرب ، ونقلوا في سيارات الجيش العربي إلى عمان ، وقد قيل يومئذٍ إنَّ من بين الأسرى بنت الزعيم اليهودي (وايزمن) ، ولم نتأكد نحن من ذلك ؛ لأن البنات الأسيرات اللواتي كن يقاتلن مع الرجال أبين أن يخبرن عن أسمائهن .

٦ - ولعل معركة احتلال الحي اليهودي من أبرز المعارك التي خاضها السباعي وإخوانه المجاهدون، يحدثنا عنها بقوله:

«ابتدأت قبل جلاء الإنجليز عن القدس بخمسة أيام، فقد كان اليهود في هذا الحي محاصرين منذ ستة أشهر يأتيهم طعامهم وحاجتهم بواسطة الإنجليز.

وأخيراً صمّم المجاهدون على اقتحام الحي والتخلص منه. وكانت معركة من أشد المعارك التي خضناها في القدس، أظهر فيها المجاهدون من البطولات ما يعجز عنه الوصف، فقد كانوا يتقدمون لنسف الحي اليهودي بيتاً بيتاً، بأيديهم الرشاشات والقنابل تحت وابل من الرصاص والقنابل الذي كان يقذفه اليهود عليهم من نوافذ البيوت، وكلما انتهى المجاهدون من نسف بيت ابتدؤوا بنسف بيت آخر وهكذا.

كان الحي ضيق الطرقات جداً كما هو شأن الأحياء اليهودية القديمة في كل مكان. وكانت فيه ممرات تحت الأرض متصل بعضها ببعض بحيث يستطيعون العودة في الليل إلى ما فقدوه في النهار، وكثيراً ما كان يفاجأ المجاهدون وهم واقفون فوق أطلال البيوت بقنابل تلقى عليهم من قرب كما حدث لي ذات مرة، ولولا لطف الله لأصبنا إصابات بالغة.

ولمّا غادر الإنجليز القدس اشتدت هجمات المجاهدين العرب على الحي، كما اشتدت هجمات مقاومة اليهود، ثم اضطروا للتسليم لنفاد ذخيرتهم بعد وقوع معركة القدس الكبرى التي سأحدث عنها فيما بعد...

وكان المجاهدون يصرون على أن يأسروا جميع من في الحي
انتقاماً من حوادث دير ياسين، ولكن قائد الجيش العربي
كان يتصل دائماً بقادته في عمان، إلى أن جاء إليه الإيعاز
بأن يتسلم أسلحتهم ويأسر القادرين منهم على القتال ويترك
رجال الدين والنساء والفتيات - ولو كن مقاتلات - ويسلم
العجزة والأطفال إلى الصليب الأحمر، وأن يسمح لهم بأخذ
كل ما يستطيعون حمله من حلي ومال وثياب!..

أما سكان القدس من العرب فقد تجمعوا في الشوارع
ليشهدوا الأسرى، وكانوا يريدون التقاط صور لهم، ولكن
قيادة الجيش العربي أبت ذلك، وأخرجتهم من القدس قبل
الفجر لثلاث يراهم أحد.

وهكذا انتهت معركة الحي اليهودي وغادرناه والدمار قد
حاق بأكثره، والحرائق التي أشعلها اليهود قبل مغادرتهم قد
أنت على الباقي..

٧ - أما الكنيس اليهودي القائم في الحي، وهو معقل حصين يشرف
على المسجد الأقصى، كان قد اتخذته اليهود مركزاً حربياً. فقد نسفه
المجاهدون مما كان له وقع أليم في نفوس اليهود.

يحدثنا السباعي عن قيمة هذا الكنيس الذي تم تدميره لليهود فيقول:

«تميزت معركة الحي اليهودي في القدس بحادث كان له وقع
أليم جداً في نفوس اليهود، ذلك أنه يوجد لهم فيه أقدم كنيس
في فلسطين وربما كان في العالم كله، وهو بناء ضخيم مستدير
له قبة عالية، وهو يشرف على صحن المسجد الأقصى وقبة
الصخرة، ولهم فيه أقدم نسخ التوراة المتوارثة عندهم منذ
مئات السنين مكتوبة بخط عبري واضح على جلد سميك.

وقد اتخذ اليهود هذا الكنيس مركزاً حربياً يطلقون منه نيران بنادقهم ورشاشاتهم على المسلمين المتجولين في حرم المسجد الأقصى، ولما تمادوا في هذا العمل أنذرناهم بواسطة مكبرات الصوت أننا سنتقم منهم وسنهدم الكنيس إذا استمروا في استغلال أماكن العبادة للأعمال العدوانية، ولكنهم ازدادوا في العناد، فوضعوا أكياس الرمل على سطح الكنيس، حول قبته واستمروا يطلقون من ورائها النيران على الحرم القدسي وعلى مقر قيادتنا في الروضة، حتى إذا بدأت معركة الحي اليهودي وتمكن المجاهدون من نسف قسم كبير من بيوته وأصبحوا على مقربة منه قرروا نسف الكنيس.

وفي ساعة من ساعات النضال في هذه المعركة وضعت المتفجرات في أنحاء متعددة من أسسه بما يزن أكثر من نصف طن من الديناميت ثم أشعلت النيران في أسلاك الديناميت، فما أتت دقائق حتى كان هذا الكنيس الضخم تنهار جدرانه السميكة وينقض جزء من قبته ويملاً الركاب أرجاءه. وهكذا تخلص المجاهدون من مركز قوي من مراكز العدوان اليهودي في ذلك الحي.

ولما استسلم اليهود ووقفنا في ساحة الحي نشرف على تنفيذ شروط الاستسلام قال لي أحد أعضاء وفد الاستسلام اليهودي والمرارة تأكل قلبه: لقد أخطأتم بنسف الكنيس وستندمون. فقلت له: لقد أنذرناكم أكثر من مرة بعدم اتخاذ مركزاً للعدوان فلم تستجيبوا، أما أن نندم، فهذه معركة قائمة بيننا وبينكم، ولم يمنعكم إجرامكم من قبلها أن تعتدوا على قبة الصخرة وتنسفوا المساجد في يافا وحيفا ودير ياسين وغيرها.

٨ - ثم يحدثنا عن معركة القدس الكبرى، وما تخللها من بطولات المجاهدين على الرغم من قلة الذخيرة وتهاون الحكّام العرب في تسليح جيش الإنقاذ...

«لَمَّا تَمَّ جلاء الإنجليز عن القدس وكان الحي اليهودي لم يستسلم بعد، أدركنا حرج موقف حامياتنا في القدس الحديثة، وأن اليهود سيذلون قصارى جهدهم لإنقاذ إخوانهم المحاصرين في الحي اليهودي، وكانت الذخيرة عندنا قليلة، بل إن فوج اليرموك وكان فيه إخواننا وعدده أكثر من خمسمائة مجاهد كانت بنادقه ورشاشاته كلها من النموذج الألماني ولم يبق لديهم من الذخيرة إلا نزر قليل جداً، مما حملني على أن أغادر القدس إلى دمشق طالباً من قيادة جيش الإنقاذ تزويدنا بما نحتاج إليه من الذخيرة استعداداً للمعركة المرتقبة، وقابلت قائد الإنقاذ وعرضت عليه ما جئت من أجله، ففاجأني بقوله: إن فوج اليرموك قد سحب من القدس إلى مقر قيادة القawقجي، فلماذا تطلب الذخيرة الألمانية؟

وهنا أدركت مصير معركتنا التي وضعت بأيدي مثل هذا الرجل، فقلت له: ومتى سحب فوج اليرموك؟ قال: منذ أسبوع، فقلت: إنك أرسلت برقية إلى قائد فوج اليرموك تطلب إليه أن يلتحق شخصياً بفوزي القawقجي، أما فوج اليرموك فلا يزال في القدس، وإخواننا فيه، وأنا الآن قادم من القدس وبنادقنا خاوية من الذخيرة، فأجابني بكل صلف: «ملكوا عندنا ذخيرة ألمانية» أي: لا يوجد.

وخرجت من عنده مغضباً إلى وزير الدفاع فعرضت عليه الأمر فاعتذر بأنه ليس عندهم ذخيرة ألمانية، وفي نهاية الحديث قال: إنه سيتصل بالقيادة العربية العليا للجيش العربية في عمان ويطلب منها إجابتي إلى طلبي. وقبل مغادرتي دمشق اتصلت به هاتفياً فأكد أنه اتصل بعمان ووعدوه بإجابة طلبي، وعدت إلى عمان في نفس اليوم واتصلت بالقيادة العامة فكانوا مدهوشين من دعوى وزير الدفاع اتصاله بهم، وقالوا: إنه يعلم أن ذخيرتنا كلها إنجليزية، فمن أين تأتيك بالذخيرة الألمانية؟

ولمّا يئست منهم اتصلت بأعضاء لجنة الدفاع عن فلسطين في عمان وكلهم من خيرة التجار السوريين والأردنيين في العاصمة، وعرضت عليهم الأمر وطلبت منهم النجدة، فأسرعوا يشترون كل ما وجدوه في السوق من ذلك وزادوا عليه عديداً من القنابل وبعض الأسلحة. فعدت إلى القدس وقد حملت من عمان آلاف الطلقات التي تمكّنتنا من الاستمرار في المعركة ساعات، وكان وصولي قبيل الغروب بدقائق، ووجدت معركة الحي اليهودي مشتدة في ذلك اليوم، وقد جرح فيها الملازم الملوحي وما يزيد عن أربعين من إخواننا، واستشهد فيها ما يزيد على سبعة من شهداء الإخوان، ووجدت القائد فاضل عبد الله مستلقياً على فراشه مستغرقاً في نوم عميق من شدة الإعياء والسهر في الليالي الخمس الماضية، حتى إذا كان الوقت الساعة العاشرة ليلاً جاءتنا أنباء من جميع حامياتنا على أبواب مدينة القدس بأن اليهود قد شنوا هجوماً

عاماً على مختلف الأبواب، وركزوا هجومهم على باب الخليل الملاصق للحي اليهودي، عندئذ بدأت أوزع الرصاص على المجاهدين.

ولمّا اشتد الهجوم الذي شنه اليهود على باب الخليل بما يقرب من عشرة مصفحات وآلاف المقاتلين، لم أجد بداً من الاستنجد بإحدى العواصم العربية، فطلبت كبار المسؤولين باسم قائد حامية القدس، ثم أيقظت القائد فاضل عبد الله وأخطرته بخطورة الوضع وأني قد طلبت كبار المسؤولين في العاصمة العربية باسمه، وتم الاتصال بينه وبين كبير منهم وأعلمه بخطورة الوضع في القدس وطلب منه إرسال نجدة عسكرية على وجه السرعة، فاعتذر عن ذلك وقال له وأنا أسمع: إذا وجدتم أنفسكم في موقف حرج فانسحبوا من القدس.

فأجابه القائد: إن في القدس عدا أهلها ما يزيد على عشرين ألفاً من اللاجئين إليها بعد معجزة دير ياسين، فإذا احتلها اليهود فستكون معجزة لم يسمع بها التاريخ.

فأجابه المسؤول الكبير وهو يظن أن حامية القدس كلها من بلده: أنا أمرك بالانسحاب وأنتم عندنا أغلى!..

وهنا لم أتمالك من أن أقول له: إن الحامية تقسم أن لا يدخل اليهود القدس إلا على أشلائها، فإما أن تنجدونا وإما أن نقاتل حتى نستشهد جميعاً.

وهنا جاء من يقول لنا: إن اليهود قد اقتحموا باب الخليل! فتركنا الحديث مع تلك العاصمة العربية! وأسرعنا إلى إخراج كل من كان في القيادة من الجنود حتى الجرحى، ووزعنا

عليهم كل ما كنت استحضرت من الرصاص والذخيرة من عمان، وأسرعنا إلى باب الخليل.

وشاع في البلدة أن اليهود قد اقتحموا باب الخليل فخرج النساء والأطفال من بيوتهم، وكان الكهرباء منقطعاً، وسمعنا منادياً يقول: يا أهل القدس كل من عنده سلاح فليذهب إلى باب الخليل. وهرع الشباب والمقاتلون إلى هناك حيث تبين لنا أن اليهود لم يستطيعوا اقتحام باب الخليل؛ للدفاع البطولي الذي قامت به الحامية هناك.

وتحصَّن المجاهدون ومن هرع من أهل القدس وراء المتاريس عند باب الخليل وفوق أسواره، وابتدأت المعركة الكبرى منذ الساعة الحادية عشرة ليلاً حتى الخامسة صباحاً، كان فيها صوت الرصاص والقنابل والديناميت يَصُمُّ الآذان بلا انقطاع..

فلَمَّا انبلج الصباح انسحب اليهود وردَّهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً، وخلفوا وراءهم مصفحة قد دمرت وبعض القتلى الذين لم يستطيعوا سحبهم معهم.

وعاد المجاهدون إلى أماكنهم والمناضلون المقداسة إلى بيوتهم، وعدنا إلى مقر القيادة فوجدنا ذلك المسؤول العربي الكبير يتصل بنا هاتفياً ليسألنا عن أبناء المعركة، فأجابه قائد حامية القدس بأن الله قد نصرنا وأعاننا على صد هجوم اليهود ولكن ذخيرتنا قد نفذت؛ فإذا لم تصلنا نجدة عسكرية في هذا اليوم فإننا في خطر شديد إذا عاود اليهود الهجوم.

وفي عصر ذلك اليوم وصلت قوة من المدفعية الصغيرة معها بعض الجنود، وبدأت تضرب الحي اليهودي من مشارف القدس، فارتفعت معنويات سكان القدس ودب الهلع في قلوب اليهود المحاصرين، وبعد ثلاثة أيام استسلم الحي اليهودي كما أسلفنا من قبل.

٩ - ويورد بعد ذلك المفارقات المضحكة الآتية وسط المعركة :

«اتفق عدد من شباب القدس بعد انتهاء معركة الحي اليهودي على أن يتوجهوا إلى بعض العواصم العربية للإلحاح في إرسال بعض القوى العسكرية التي كانت قد وزعتها القيادة العربية العامة في أنحاء فلسطين إلى القدس حتى لا يتكرر الهجوم عليها.

وجئت إلى دمشق وقابلت كبار المسؤولين، وحكيت لهم قصة القدس، فتعجبوا وقالوا: إن الأخبار التي تذاق من إحدى العواصم العربية وتنشرها الصحف تفيد بأن القدس الحديثة قد استسلمت للعرب!.. فكيف تقول إنكم محاصرون في القدس؟ فأجبت بأني أحكي لكم القصة على حقيقتها، فاتصلوا بأمين الجامعة العربية الذي كان موجوداً في تلك العاصمة العربية فأكد لهم صدق حديثي وأن الحالة سيئة. وهنا قال أحدهم: لقد دخلنا معركة فلسطين ونحن لا نعلم حقيقة قوة الأعداء! فقال الآخر مستدركاً: لقد كنا نعلم حقيقتهم تماماً وهذا تقرير صفوت باشا قد بين لنا انطباقه على الواقع.

وهنا قلت له: إذا كنتم تعلمون حقيقة استعداد اليهود فكيف أعددتكم جيش الإنقاذ لينقذ فلسطين وهو لا يزيد على أربعة آلاف مدربين تدريباً ليس كافياً، وليست له قوة جوية ولا مدفعية إلا مدفعية بسيطة جداً مع أن في القدس الحديثة وحدها عشرة آلاف مقاتل يهودي! فأجابني: إننا لم نرسل جيش الإنقاذ ليحارب بل ليقوم بمهام مؤقتة!...

فقلت له: ولهذا كان أكثر جيش الإنقاذ يتنزه في مناطق عربية بحثة كنابلس، بينما كانت حيفا ويافا وغيرها تسقط بأيدي اليهود وكانت مجازر دير ياسين تقع على سمع هذا الجيش وبصره!...

فسكتوا جميعاً...

وبعد أيام قليلة وقعت الهدنة المشؤومة وجاءتنا الأوامر من قيادة جيش الإنقاذ بدمشق بالانسحاب من القدس وتسليمها للجيش العربي بحجة أننا سنرسل إلى الجبهة السورية».

١٠ - ويزيح السباعي الستار عن المناورات التي كانت سبباً في ضياع فلسطين، ويتحدث من قلب المعركة... وكيف كان الإخوان يتسللون في خفية من الحكومات إلى فلسطين لاستنقاذها.

«كنا نشعر ونحن في قلب معارك القدس أن هناك مناورات تجري في الصعيد الدولي وفي أوساط السياسات العربية الرسمية العليا لجعل التقسيم أمراً مفروضاً منه، ولجعل القدس تخرج من أيدي العرب والمسلمين، فتشاورنا في كتيبة الإخوان فيما يجب علينا فعله بعد صدور الأوامر إلينا بالانسحاب من القدس كما أسلفت، فقرر رأينا على أننا

لا نستطيع مخالفة الأوامر الصادرة إلينا بمغادرة القدس
لاعتبارات متعددة، وأنا بعد وصولنا إلى دمشق سنرسل
بعض الإخوان خفية إلى القدس مرة ثانية لدراسة ما إذا
كان بالإمكان عودتنا بصورة إفرادية لنتابع نضالنا في
الدفاع عن فلسطين. وعدنا إلى دمشق مع سائر أفراد
الحامية وقيادتها التابعة لجيش الإنقاذ، حيث تسلمت
قيادة جيش الإنقاذ أسلحتنا، ووعدت باستدعائنا مرة ثانية
عند الحاجة . .

ووجدت من واجبي أن أكشف الحقائق التي تبينتها بنفسني في
هذه المعارك لما وجدته من انخداع الجمهور بما يذاع
ويكتب بإيحاء من مصادر عربية رسمية معينة، وألقيت في
ذلك محاضرات في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب
واللاذقية ودير الزور وغيرها من المدن السورية . .

وذهل الجمهور لما أبديته من حقائق لم تكن معروفة لديهم
تماماً، حتى شك بعضهم فيها، ثم اكتشف الأمر وتبين صدق
ما أدعي عن العوامل الخفية والظاهرة التي كانت تسير معركة
فلسطين .

هذا، بينما كان فريق من إخواننا المجاهدين قد عادوا إلى
فلسطين خفية لتنفيذ ما اتفقنا عليه، ومن بين العائدين
الإخوان: زهير شاويش، المرحوم كامل حتاحت، والشهيد
ضيف الله مراد، وهنالك انضموا إلى فرقة التدمير في القدس
حيث قاموا بأعمال بطولية رائعة من نسف الجسور
والمستعمرات والسكك الحديدية التي كان يسيطر عليها
اليهود .

وحسبنا أن نعلم أن سكة حديد (القدس - اللد) لم يستطع اليهود إصلاحها واستعمالها إلا بعد مرور سنة ونصف على تدميرها .

وظلّ إخواننا هؤلاء على تعاون مع فرقة الإخوان المسلمين المصريين بقيادة الشهيد أحمد عبد العزيز، وهنالك استشهد الأخ ضيف الله مراد في عمل فدائي من أروع آيات الإيمان والفداء» (٥٠).

هذه لمحات من جهاد السباعي في فلسطين، كتبها بقلمه، يريد بذلك وجه الله، قد خلت من الحماسة والبهرج القتالي، وحملت حقائق للتاريخ. ولكن لفيماً ممن شهدوا مواقف جهاد السباعي في فلسطين قدموا لنا أكثر من ذلك . .

يحدّثنا الأخ المجاهد عدنان الدبس عن دور السباعي في تلك المعارك :

«كان السباعي قائداً في جهادنا، وكان مقرّه في الروضة (مركز القيادة في القدس)، وكان يزورنا باستمرار في مواقعنا التي نُدافع عنها في أحياء القدس، ويشجعنا على الجهاد والثبات، ويمدنا بالذخيرة والسلاح. وكان يشترك معنا في كثير من المعارك، وكان في مقدمة المهاجمين الذين احتلوا الحي اليهودي» (٥١).

كما يطالعنا إميل الغوري بمواقف السباعي الصادقة في الجهاد، فلقد كان القائد الحق للمجاهدين، ولم يكن قائداً استعراضياً، يقول :

«وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً «للاحتيال» على الشيخ مصطفى وإقناعه بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة مهمة... ولكنه أبى ورفض وأصرَّ على خوض غمار المعركة، مهما كلفه الأمر، وقال: إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله.

ولمَّا لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في الطليعة. فكان له ما أراد، فخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر للعرب.

وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، فعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي إنني لا أقاتل من خلف أسوار.

وانتقل الشيخ مصطفى ورفاقه، بعد معركة المستعمرات في لواء القدس، وانضم إلى قوات (الجهاد المقدس) في المنطقة الوسطى، متعاوناً فيها مع القائد المرحوم الشيخ حسن سلامة. وظل السباعي يجاهد في فلسطين حتى وقعت كارثة ١٥ أيار ١٩٤٨م، فاضطر ورفاقه إلى الانسحاب من فلسطين تنفيذاً لأوامر «القيادات» العسكرية العربية النظامية وتعليماتها»^(٥٢).

ويزيدنا رفيق دراسته الشيخ محمد نمر الخطيب، أحد وجهاء فلسطين
عن جهاد السباعي بقوله:

«إن حماس السباعي لم يكن يقل عن حماس أهل فلسطين
في الذود عنها. كان مرتبطاً بالشيخ أمين الحسيني يشاوره في
كل أمر، يمدّ كل منهما الآخر بما عنده من خير، ومن هذا
المنطلق ألّف الشيخ مصطفى الجماعات والأفواج والكتائب
للجهاد في فلسطين. والشيخ مصطفى من كبار الشخصيات
التي أثارت قضية فلسطين إثارة عملية.

وقد كانت مجموعته المجاهدة جماعة مخلصّة مؤمنة، لا تريد
بجهادها زعامة ولا منصباً ولا مالاً؛ كانت تريد الله ورسوله،
وهذا ما كان يميّزها عن الآخرين الذين قصدوا فلسطين» (٥٣).

ويحدثنا الداعية الأستاذ محمد المجذوب بموقف متفرد عن جهاد
السباعي من قلب معركة فلسطين لا ينساه:

«أذكر موقفاً له لا تستطيع الأحداث أن تزيله من مخيلتي،
وكان ذلك عقيب الهدنة الأولى، وقد عاد من ساحة
المعركة، ليتحدث إلى الشعب عن مصيرها وملابساتها
وما وراءها من المؤامرات، وانتصب السباعي يومئذ في ندوة
(السجقدار) وسط الآلاف المؤلفة من المستمعين المتلهفين
لأنبيائه، وانتشروا في الشوارع، وفي المنازل والفنادق
المطلّة، يرهفون أسماعهم إلى الرجل الذي وثقوا بصدقه،
لأنهم لم يجربوا عليه الكذب.. الرجل الذي يقود صفوة من
أبنائهم، الذين هجروا مدارسهم وجامعاتهم ومتاجرهم
ووظائفهم للذياد عن وطن الإسلام، الذي زرعه صحابة
نبيهم ﷺ بجماعهم وأشلائهم ودمائهم..

ورأيت الفارس المحارب يقف كالنمر الهائج في ثياب الميدان مسربلاً بغبار المعارك، ثم يتدفق بالزئير المخيف.. يصف ويعنف، ويكشف، وينذر الناس بالخطر الذي تهيه الخيانات وراء خطوط النار، ويهيب بالشعوب العربية أن يكونوا حذرين وأن ينهضوا بكل قواهم لإكراه حكوماتهم على تصحيح موقفها بإزاء المعركة.

قائد باشر نار المعركة بنفسه وإخوانه، وكشف لنا ستور المستقبل الرهيب الذي سنصير إليه، وإذا لم نسرع إلى الضغط على الحاكمين لتغيير خططهم المعدة بأيدي العدو.. المستقبل الرهيب الذي أصبح اليوم حاضراً نعيشه، بعد أن كان أحاديث نسمعها ولا نكاد نصدقها.

وبلغ البطل يومئذ رسالته، ثم عاد إلى الجبهة ليواصل حماية الثغرة التي عهد بها إلى كتيبته، وليسقي الأرض المقدسة بمزيد من الدم الطاهر، الذي تسابق إخوانه لبذله في سبيل الله ليسجلوا للعالم المتآمر، من وراء وأمام ويمين وشمال، أن أرض الإسلام لن تعدم الأحرار، الذين يقدمون أجسادهم في سبيلها طعاماً للحديد والنار»^(٥٤).

ولقد فاض إخلاص السباعي لقضية فلسطين حتى ملأ نفوس أكثر الناس:

«هذا فتى نصراني (فلسطيني) كان يعمل طباً في دار المعلمين بدرعا يطلب إذنًا حتى يسافر إلى دمشق يدعو أقاربه فيها إلى انتخاب مصطفى السباعي في الانتخابات التكميلية عام ١٩٥٧م. وحين سئل عن سر اندفاعه لتأييده قال: لقد شهدت هذا الرجل (السباعي) في فلسطين عام ١٩٤٧م ينتقل

بين المسجد والكنيسة وهو يخطب في جموع الشعب داعياً إلى النفرة لتحرير فلسطين! إنه رجل مخلص للقضية»^(٥٥).

ولقد عاد السباعي بعد المعركة التي أجهضتها المؤامرات من فلسطين، يضمد جراح قلبه، ويواصل الحديث في محاضراته وأحاديثه عن قضية فلسطين..

«وعلى مر الأيام والسنين لم ينسَ السباعي - الذي اكتوى بنار المعركة ونار المؤامرات التي سببت فشلها - القضية الفلسطينية التي أعطاها من اهتمامه الشيء الكثير، فاستمر يذكرها ويذكر بها في كل مناسبة، وأراد أن يجعلها قضية حية في ضمير الجماهير حتى لا تفتر روح المقاومة والرغبة في الثأر والشعور بالمسؤولية الكبيرة، فدعا إلى تخصيص أسبوع من كل عام باسم «أسبوع الخطر الصهيوني» تقام فيه المهرجانات الشعبية، كما طالب وإخوانه في المجلس النيابي تدريس القضية الفلسطينية كمادة أساسية في مناهج التعليم. وقد أقر هذا الاقتراح ونُفذ بالفعل.

وفي عام ١٩٥٥م نفسه ألقى خطبة من مسجد جامعة دمشق بمناسبة أسبوع التسليح، ونقلت الإذاعة هذه الخطبة على جميع محطاتها، وقد علقت الصحف الدمشقية وغيرها في ذلك الوقت على ما كان لهذه الخطبة المثيرة الرائعة من أثر بليغ جعل الناس يقدمون التبرعات السخية التي بلغت بضعة ملايين من الليرات.

واستمر كذلك يكتب المقالات في مجلته (حضارة الإسلام) يذكر بالقضية الفلسطينية ويدعو للاستعداد، وأحدث لذلك باباً خاصاً في المجلة لمتابعة تطورات القضية ومراحلها هو «الدرة المغتصبة»^(٥٦).

(هـ) جهاده ضد الديكتاتورية والاستبداد:

واصل السباعي جهاده في مختلف الميادين وفي سائر العهود، ولا سيما العهود التي ابتليت فيها سورية بالانقلابات العسكرية التي كانت تعقبها الأحكام العرفية وتقييد الحريات.

«وكان له موقف واحد منها، فقد كان يرفض الديكتاتورية، ويرفض كذلك أن يسير في ركب الطغاة.. ففي عام ١٩٤٩م وبعد انقلاب حسني الزعيم وتعطيل الدستور وحل البرلمان.. بادر السباعي إلى معارضته، فاضطهده وعطل صحيفته اليومية (المنار) التي كان يصدرها»^(٥٧).

ولم يختلف موقفه من انقلاب أديب الشيشكلي وديكتاتوريته، فوقف منه الموقف نفسه فنال من مضايقته الكثير، وفرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته. ولكن السباعي لم يعبأ بذلك فواصل جهاده.

وكانت فترة حساسة تمر في تاريخ مصر ضد الاستعمار البريطاني وفدائيو الإخوان يحاربون في القنال، فأعلن مناصرته لهم ورفدهم بالمتطوعين، فافتتح خطوة جهاد جديدة..

«في عام ١٩٥٢م قامت معارك دامية في منطقة قناة السويس في مصر حيث كانت القاعدة البريطانية الكبرى قد فرضت سيطرتها على الشعب المصري وعلى حكاه، مما جعل فئة من الشباب المؤمن في مصر تنثور ضد الاحتلال البريطاني وطغيانه فنظموا العصابات المسلحة من الشباب الجامعي المؤمن وقاموا بالإغارة على المعسكرات البريطانية وعملوا على نسف مراكزها العسكرية وجسورها وقطارات المؤونة

التابعة لها . . فهب السباعي يدعو الأمة لمؤازرة الشعب العربي المؤمن في مصر وقدم إلى وزير مصر المفوض كتاباً يعرض فيه تطوع آلاف من شباب الإخوان المسلمين للذهاب إلى القنال والمساهمة في معركتها . . ولكن الشيشكلي ألقي القبض عليه وزجّه في سجن المزة قرابة أربعة أشهر . .» (٥٨)

كانت مواقفه من الديكتاتورية تتسم بالجرأة والصدع بالحق والمعالنة
بجهاد الاستبداد . .

يحدّثنا من اطلع على الواقعة الآتية بموقفه الجريء
الشامخ . . :

«يوم قام أديب الشيشكلي بانقلابه على الحكومة القانونية بسورية تقدم للتوسط بينه وبين رئيسها السجين الدكتور معروف الدواليبي، وجهد لإقناع الشيشكلي بتصحيح موقفه، حتى إذا استيأس من ذلك عالنه بالعداء؛ فضمه إلى صديقه الدواليبي في سجن المزة. ثم بعد مدة أفرج عنه واستدعاه، وجعل يحاوره معتذراً إليه عما أسلفه نحوه، محاولاً إقناعه بالتعاون معه على اعتبار أنه مسلم لا يريد بالإسلام إلا خيراً. ولكن الفقيد كان أكبر من محاولة الشيشكلي، فأفهمه أن الإسلام يقتضيه أن ينسحب من الحكم ويتركه للهيئات الدستورية، ولا مكان للتعاون بينهما إلا على هذا الأساس، فسُقِط في يد العسكري، وأبلغه تصميمه على البقاء، وعلى إلزامه بيته. ثم رأى أن سورية لا تتسع للاثنين فأمر بإخراجه منفياً إلى لبنان» (٥٩).

٣ - جهاده إبان مرضه

مضى السباعي في جهاده أيام عمره كله، في نشاط لا يعرف الكلل، واندفاع يزري بالتوقف. وكانت طلائع المرض تدهمه - عبر جهاده - بين الحين والآخر فلا يكثرث لذلك، حتى تظاهرت عليه الأمراض واحداً بعد واحد، دون أن يصغي لنصح الأطباء بالتوقف عن النشاط.

فما زال المرض يثقل كاهله حتى أصابه بشلل نصفي بقيت آثاره ملازمة له وسببت له آلاماً مبرحة لا تفارقه خلال سبع سنين^(٦٠).

لقد كان لسان حاله، وقد هوى جسمه بعد طول الحركة ما يردده في آياته الآتية:

إيه يا نفسُ قد مضى لك عهد
للشباب النضير فيه طموحُ
قد أمنتِ البلاء وهو قريب
ورفضتِ الهدوء وهو مُريحُ
صرفتِ الأعباء في الحقِّ عن أن
تسمي للطبيب وهو نصوحُ
وهجرتِ الصُّحاب والأهل حتى
كان منهم جو^(٦١) ومنهم مشيحُ
رغبة في مشوبة الله لما
كان للشر ضجةٌ وفحيحُ
فمضى الحق ظافراً بجنودِ
لهم قوة وعزم جموحُ
وهوى الجسم بعد طول عناءِ
جسدٌ ناحل وقلبٌ صحيحُ

حسبي الله لا أريد سواه

هو أنسي وفي حماه أريح^(٦٢)

ولكنه - برغم ذلك - كره القعود ولم يأنس بالراحة حتى عاوده المرض الشديد، فتمرد عليه، وجالد الآلام. واستمر يتابع بنشاط روحه - والجسم سقيم - إلقاء دروسه الجامعية ومحاضراته التوجيهية في قاعة البحث^(٦٣).

يرسم لنا صورته الفذة مَنْ شاهدته في حالة المرض الشديد المقعد، وهو يجاهد ويجالد...

«صورة المجاهد المحارب الذي يذود عن دينه بما يستطيع، لأنه كان على حالة من المرض والألم بحيث لو عاف منها القلم والكتاب واللسان كذلك لما لامه أحد... بل كان محبوبه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمة به وإشفاقاً عليه!!

ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتى اللحظة الأخيرة... ورسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها ولو بكلمة يخطها أو قول يقوله.

ولطالما رأيت - رحمه الله - يمسك بيمينه القلم ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة، والروح العميقة... والعقل القوي، غير عابئ بما يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادة... وكأنها إنما ترسم على وجه آخر غير وجهه، وتحط على جسم آخر غير جسمه...

كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها، أما هو - شهد الله - فلم يكن يجار بالشكوى إلا بمقدار ما يعلمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه» (٦٤).

ويزيدنا من تابع مرحلة مرضه بأن آلامه المبرحة وأوصابه إن حدثت من نشاط جسمه؛ فقد ظلت روحه حيّة جمّة النشاط، ثرة الفاعلية والعطاء...

«كان قبل مرضه كثير الحركة، واضطر بعد مرضه أن يكون قليل الحركة، لكنه بقي جمّ النشاط.

كان كثير التنقل قبل مرضه ومنع عن التنقل بعده، لكنه لم يمتنع عن بذل نفسه للناس، في أي ساعة وفي أي زمان.

كان كثير العمل قبل مرضه، لا يكل ولا يمل، وبقي كذلك بعد مرضه؛ فكأنه لم يُصَب بما يقعد الإنسان ويشل عمله...

ولم يخلد إلى الراحة أو ينشدها أو يرضى بحلوها دون مرها، أو يسرها دون عسرها، أو يسهلها دون صعبتها، فلم يضجر، ولم تثبط همته وتثلم عزيمته، بل ازداد فاعلية ونشاطاً تعمّر قلبه التقوى، ويشد عزيمته الإيمان؛ فيصبح - وكما أمسى - وهو أشد فرحاً بقاء الله وأملاً بالبقاء ليقدم للدعوة ما بوسعه أن يقدمه، ليذكرهم بقضية أو ليلفت انتباههم إلى مآثرة، حرصاً منه على هذا الدين، ورغبة منه في أن يلقي ربه وهو راضٍ عنه» (٦٥).

٤ - جهاده في قضايا العالم الإسلامي

وهكذا مضى السباعي في عداد الخالدين مجاهداً في سبيل الله، لم يقصر جهاده على ميدان، ولم يخصصه بقطر واحد، وإنما كان مجاهداً للإسلام، ومجاهداً لكل بلد إسلامي ..

جاهد المستعمر الفرنسي لاستقلال سورية واستعادة أصالتها، وجاهد المستعمر البريطاني لتحرير مصر من قيودها ولتأخذ دورها الإسلامي، وجاهد لتحرير المغرب من ربة المستعمر الفرنسي لتتضم إلى ركب العرب والمسلمين، وجاهد في سبيل تحرير البلاد العُمانية كما يحدثنا أحد أبنائها حين تأبينه :

«لقد خسرت الثورة العُمانية نصيراً من أصدق أنصارها، وليست الخسارة في السباعي قاصرة على القضية العمانية وحدها، بل إنها لخسارة كبيرة لكل قضية عربية وإسلامية .. ولم تكن كثرة الأعباء والمشاكل والمهمات الملقاة على عاتقه - الذي حمل من الأثقال ما تنوء بها الجبال الراسيات - لتشغله عن إخوانه العرب والمسلمين مهما نأت بهم الديار وباعدت بينهم الأوطان؛ لأنه رحمه الله لم يكن يشعر بهذه الأبعاد المادية بعد أن قاربت روح العقيدة بينه وبين إخوة العقيدة في كل مكان؛ فتعانقت الأرواح وتلاقت القلوب وتضافحت المشاعر في ظلال الإسلام الخالد؛ وهذا ما جعله رحمه الله يتحسس بآلام إخوانه في كل مكان ..

وعندما قامت الثورة العُمانية - أيدها الله - هبَّ لمساعدتها بما يقدر عليه، فكان أول ما عمله فتح باب مستقل للقضية العُمانية في مجلته التي تكتب هذه السطور فيها .. لقد فتح لنا صدره وصدر مجلته، وقال لنا: «إنكم أيها الإخوة العُmaniون

إخوة لنا والمجلة مجلتكم، كما هي مجلة كل مسلم في كل مكان. وإنها قد سخرت كل إمكاناتها لخدمة قضايا الإسلام والحرية في كل مكان.. فاكتبوا ما شئتم من أجل بث الوعي واستثارة الحماس لقضيتنا العمانية.. إننا نشعر بأن القضية العمانية هي قضيتنا.. وإننا كما وصفنا رسول الله ﷺ كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»^(٦٦).

٥ - نموذج الجهادي

لقد خلّد السباعي جهاده في نفوس إخوانه ومحبيه حتى غدا نموذجاً لهم في الجهاد ونبراساً، فلا غرو أن يؤبنه أخ كبير بهذه الكلمات.. :

«رحمك الله يا أبا حسان لقد كانت رحلة طويلة وشاقة تلك الرحلة التي سلكت سبيلها إلى الله.

كانت أياماً صعبة تلك الأيام التي صبرت لها وصابرت. وكانت ليالي سوداء تلك الليالي التي قارعت فيها أعداء الحق والإسلام، فلا والله ما ألقى السيف حتى استلّه منك المرض، ولا خلعت درع النضال حتى مزقه جفافُ الشرايين، ولكنك - والله يشهد - لم تتخذ عن الجهاد بديلاً..

ففي القلب المؤمن العامر بالأمل والإيمان متسع للإلقاء بذور الجهاد في كل أرض طيبة، وفي القلم الحر الكريم الذي يرسم مدادُه الأسود خطوطَ النور ومعالم الطريق سلاحٌ وأي سلاح.

ولقد كان ذلك وكان أكثر منه وأوفر، حتى وافتك المنية
صابراً محتسباً مجاهداً وأنت تحرر كتاب السنة لتقدمه للطبع
من جديد.

وأخيراً، إذا كان العلماء المجاهدون معالم في طريق هذه
الامة تهتدي بهم في ظلمات الحياة وتستنير بإرشادهم في
مناهاات الزمن؛ فإن فقيدنا العظيم يعتبر بحق واحداً من
أولئك الذين أدوا حق الله في علمهم وقدموا لأمتهم أثمن
ما يمكن أن يقدم؛ فنعم التقديم، وأعطاها على دروب
المعرفة والكفاح أعز ما يعطى؛ فنعم العطاء...» (٦٧).



المراجع

- (١) شخصيات وكتب: علي الحسني الندوي، دار القلم دمشق، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م (مصطفى السباعي).
- (٢) نفسه.
- (٣) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، «في ذكرى فقيه الإسلام»، الأستاذ عبد القادر السبسي، ص: ٣٩.
- (٤) نفسه، «الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي أول عميد لكلية الشريعة...»، الشيخ مصطفى الزرقا، ص: ٣٦٦.
- (٥) نفسه: «وأفل النجم الحبيب»، د. حسن هويدي، ص: ٧٥.
- (٩-٦) هكذا علّمتني الحياة، د. مصطفى السباعي ١: ٣٦، ٢٢٢، ١٩٦، ١٦٦.
- (١٠) حضارة الإسلام (السنة الخامسة) العدد: ٢، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م «تجزئة الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ٥.
- (١١) هكذا علّمتني الحياة ١: ٢٨٢.
- (١٢) حضارة الإسلام (السنة السادسة) العدد: ١، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م «نبوة وقيادة»، د. مصطفى السباعي، ص: ١١.
- (١٣) هكذا علّمتني الحياة ١: ١٨٥.
- (١٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، «السباعي الداعية»، الأستاذ فتحي يكن، ص: ١٧٦.
- (١٥) نفسه: «ذكرياتي عن السباعي»، الأستاذ عبد الله مشنوق، ص: ١٨٣.
- (١٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأستاذ عبد القادر السبسي، ص: ٤٢.

- (١٧) نفسه: «السباعي رائد فكرة وقائد دعوة»، محمد المبارك، ص: ١٤.
- (١٨) نفسه: «تاريخ دعوة في حياة رجل»، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٣٥.
- (١٩) جريدة الفتح (المصرية)، العام ١٣، العدد ٦٣٩، ١٣ من ذي الحجة ١٣٥٧هـ «شباب محمد ﷺ جمعياتهم ومؤتمرهم الأول»، مصطفى السباعي، ص: ٤.
- (٢٠) نفسه: ص: ٥ - ٦.
- (٢١) نفسه: العام ١٤، العدد ٦٥٥، ٦ من ربيع الآخر ١٣٥٨هـ، «الجهاد الضائع»، مصطفى السباعي، ص: ٥.
- (٢٢-٢٤) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.
- (٢٥) علماء ومفكرون عرفتهم: الدكتور مصطفى حسني السباعي، محمد المجذوب، ١: ٤٠٢ - ٤٠٣.
- (٢٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، مقتطفات من الصحف والمجلات: الشيخ مناع القطان، ص: ٢٣٦.
- (٢٧) علماء ومفكرون عرفتهم: المجذوب ١: ٣٩٩.
- (٢٨) انظر: الفصل الأول من الباب الأول في الكتاب (نشأته ومراحل حياته)، وانظر للتفصيل: كتاب (المستشرقون ما لهم وما عليهم)، د. مصطفى السباعي.
- (٢٩) هكذا علمتني الحياة ١: ٢٨٤.
- (٣٠) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، عبد الله الشيرازي الصباغ، ص: ٢٢٥.
- (٣١) نفسه: «صدى الفاجعة.. في برقيات التعزية»، رسالة الأستاذ أبي الأعلى المودودي، ص: ٢٥٠.
- (٣٢-٣٧) هكذا علمتني الحياة ١: ٢٠٥، ٢: ٣٤، ٢: ٢٢، ٢: ٢٥، ٢: ٢٣، ٢: ٥٠.

- (٣٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، من كلمة ألقاها د. مصطفى السباعي في المجلس النيابي بتاريخ ١٩٥١/٨/٢م بمناسبة حوادث الحدود، ص: ١٩٢.
- (٣٩) هكذا علّمتني الحياة ١: ٢٢٤.
- (٤٠) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٤١) نفسه.
- (٤٢) عظماءنا في التاريخ، المقدمة، للدكتور عدنان زرزور.
- (٤٣-٤٥) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٣١، ١٣٢ - ١٣٤، ١٣٤ - ١٣٥.
- (٤٦) نفسه: «الدرة المغتصبة»: «لن ننساها»، د. مصطفى السباعي، ص: ٢٠٧.
- (٤٧) علماء ومفكرّون عرفتهم: المجذوب ١: ٤٠١.
- (٤٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٣٥.
- (٤٩) نفسه: الأستاذ فتحي يكن، ص: ١٧٨.
- (٥٠) الإخوان المسلمون في حرب فلسطين - الجبهة السورية، د. مصطفى السباعي، ص: ٣٢٦ - ٣٤٧.
- (٥١) شهادة الأخ المجاهد عدنان الدبس.
- (٥٢) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، «ذكريات من جهاد السباعي»، إميل الغوري، ص: ١٠٣.
- (٥٣) من مقابلة مع الشيخ محمد نمر الخطيب.
- (٥٤) علماء ومفكرّون عرفتهم: المجذوب ١: ٤٠٦ - ٤٠٧.
- (٥٥) حدّث بالواقعة الأخ محمد أبا زيد، من درعا.
- (٥٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٤٤.
- (٥٧) القيادة في العمل الإسلامي، مصطفى الطحّان، الكويت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص: ٦٦.
- (٥٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، محمد بسام الأسطواني، ص: ١٤٨.
- (٥٩) علماء ومفكرّون عرفتهم: المجذوب ١: ٤٠٢ - ٤٠٣.
- (٦٠) نفسه.

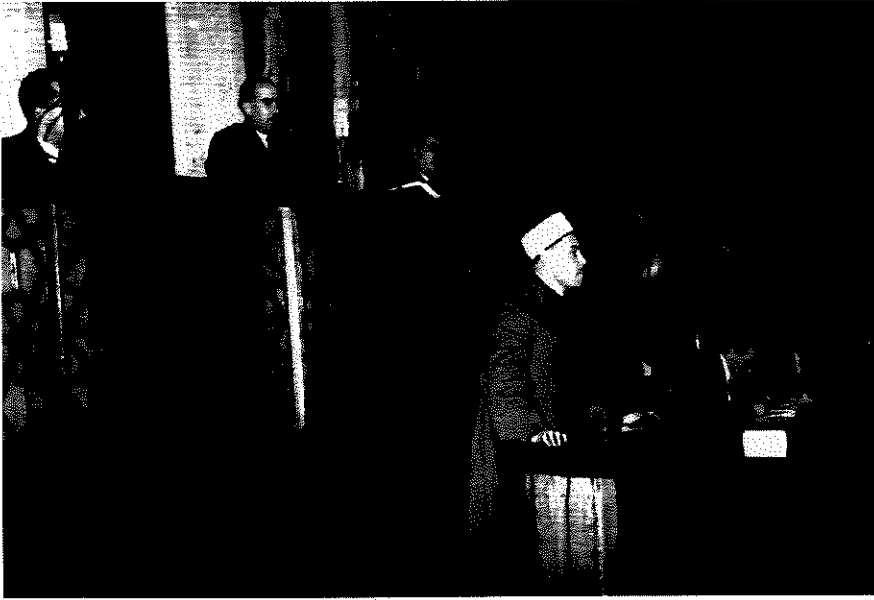
- (٦١) جو: مقيم على الود.
- (٦٢) هكذا علمتني الحياة ١: ٢٥٣.
- (٦٣) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، الأسطواني، ص: ١٦١.
- (٦٤) عظماءنا في التاريخ، المقدمة، للدكتور عدنان زرزور.
- (٦٥) مصطفى السباعي، عبد العزيز الحاج مصطفى، ص: ١٣٠.
- (٦٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز)، «ثائر في ذمة الخلود»، ابن عثمان، ص: ٢١٢.
- (٦٧) نفسه: «على طريق المعرفة والحق»، د: أديب الصالح، ص: ١٠٧.



الفصل الثاني

السياسي المسلم

- ١ - نظيره السياسي .
- ٢ - مبادئه السياسية .
- ٣ - نصرة قضايا العالم العربي والإسلامي .
- ٤ - مواقف رفيعة في حياة السباعي .



السباعي في أحد مواقفه الإسلامية في المجلس النيابي السوري

هل كان السباعي الداعية المجاهد - كما عرفناه - يحمل صفة الرجل السياسي؟ وهل كانت أعباؤه الجلّى تتيح له فرصة الاشتراك في حلبة السياسة لصالح قطره سورية والأقطار العربية والإسلامية؟

وإن أتاحت له هذه الفرصة - وقد مارسها كما سنرى - هل يستطيع أن يجاري المناخ السياسي المعاصر بما فيه من دخائل؟

إن هذا يتقاضانا العرض لمفهوم السياسة ذاته. فما المفهوم الذي كان يعتمد السباعي للعمل السياسي؟ هل هو المفهوم الذائع للسياسة، أم إن له نظريته السياسية الخاصة النابعة من مفهومه المتميز للسياسة.

ولعل الإجابة على ذلك يفصح عنها محتوى هذا الفصل ماثلاً في تنظيره السياسي، ومبادئه السياسية، ومواقفه الرفيعة.

١ - تنظيره السياسي

لعل من البدائء أن يحسن التنظير السياسي من امتلاك ثقافة سياسية وخبرة وممارسة، وكان ذا ضلع فيها. فهل كان السباعي يحوز على هذا المخزون السياسي للتنظير؟ وهل كانت تؤهله لذلك ثقافته وممارساته؟

إن ثقافة السباعي ثقافة موسوعية - كما سبق أن ذكرنا - يستغرقها

إن ثقافة السباعي ثقافة موسوعية - كما سبق أن ذكرنا - يستغرقها الاهتمام بعلوم الشريعة الإسلامية وتحليل خصائصها، وتتوقف بخاصة أمام العلوم السياسية، يعزز ذلك ممارساته السياسية الواسعة منذ نعومة أظفاره، وآراؤه السياسية التي تنبثق عن مخزون سياسي واضح ورؤية مستقبلية، كان سيضمّنه - كما علمت - كتاباً ضخماً حول العمل السياسي قدم له بكتابه، «هكذا علمتني الحياة» - القسم السياسي، بوصفه باكورة العمل الذي يتتوي بإنشاءه، لولا أن عاجله الأجل قبل أن يتمه^(١).

من هنا يطالعنا الأمل أن نستخلص من نتاجه الفائض نظراته السياسية، بما يعوضنا - بعض التعويض - عن الكتاب الموعود. ونشرع من آرائه السياسية بما يأتي:

(أ) ما السياسة؟

يقتادنا السباعي في فهم السياسة ومزاولتها إلى مبادئ في التجارب السياسية، فيورد من مخزونه الثقافي ما يأتي:

«قال الوليد لعبد الملك: يا أبت! ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع»^(٢).

ثم يطالعنا بالمبدأ الآتي:

«البصر بالسياسة موهبة لا يكفي فيها الإخلاص ولا الاستقامة»^(٣).

وهكذا، لا يكفي - عند السباعي، ومن خلال معاناته لفنون السياسة لعصره - الإخلاص ولا الاستقامة إذا لم تدعّمهما الموهبة. والأمثلة على ذلك كثيرة من تاريخنا القديم والحديث.

ولعل السباعي يشير بخلاصة تجربته هذه إلى شواهد طالما عرض لها
في خطبه وأحاديثه:

هذا أبو ذر رضي الله عنه يطلب ولاية من النبي ﷺ، فلا يجيبه
إلى طلبه؛ على الرغم مما عرف عن أبي ذر من ورع وتقوى،
فيقول:

«يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة
خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه
فيها»^(٤).

ويشكو عمر رضي الله عنه من اضطراب أمر العراق على
أبي موسى الأشعري، وهو من هو في تقواه، فيقول عمر:
«ما تقولون في تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوي
مشدد؟»

فيقول له المغيرة بن شعبة: «أما الضعيف المسلم؛ فإن
إسلامه لنفسه وضعفه عليك. وأما القوي المشدد؛ فإن شداده
لنفسه وقوته للمسلمين. فيعمد عمر إلى تولية المغيرة بوصفه
رجل الموقف، ويقول له: «يا مغيرة لبأمنك الأبرار وليخفك
الفجار»^(٥).

ويقفي على ذلك السباعي، وضمن القاعدة نفسها، بأن حسن الطاعة
من الأنصار دعامة لنجاح القائد.

«لا يستفيد الزعيم من كثرة أنصاره إلا بحسن طاعتهم له،
واعتبر في ذلك بعلي ومعاوية»^(٦).

ثم يجمل نظرتة؛ بأن مقومات السياسي الناجح هي التي تجمع إلى خلال التقوى خلال القدرة متمثلة في :

«سلامة القلب، ونظافة البدن، وصحة العقيدة، واستقامة الأخلاق، لا تكفي وحدها للنجاح في معترك السياسة، ما لم يُضَف إليها، ألمعيةُ الذهن، ومرونة العمل، وحرارة الروح، وتفهُمُ مشكلات المجتمع وطبائع الناس»^(٧).

ثم يفضي من نجاح السياسة إلى فضيلة السياسة، فنجاح السياسة وحده لا يكفي إن لم تُقْضِ السياسة على الشعب خيراً وِبراً.

ومن هنا، تخرج السياسة النفعية التي ترفع صاحبها على حساب أمان الشعب ورفاه عيشه وفضائله. فالحكم عند السباعي :

« - هو الذي تصان فيه فضائل الأمة من الذوبان. وتحفظ أخلاقها من التدهور والانحطاط. وتُمنع عقيدتها من التحلل والتلوث بالخرافات. وتُنمى عقولها بالعلوم والآداب والثقافات.

حتى لتكون الأمة إيماناً يبعث على السمو، وكمالاً يدعو إلى الاحترام، وروحاً وحركة متقدمة بروية واتزان، وشخصية متميزة بين الأمم بحبها للخير ومحاربتها للفساد.

* * *

- وهو الذي يدخل السعادة إلى كل بيت! والطمأنينة إلى كل قلب، والكساء إلى كل جسم، والغذاء إلى كل بطن. فلا تعرى أمة ليكتسي أفراد، ولا تجوع آلاف ليشبع رجال، ولا تفقر جماهير لتغنى فئات.

* * *

- هو الحكم الذي يقول فيه التاريخ لرجاله: عفتكم فعفّ
ولأنكم ولو سرقتم لسرقوا»^(٨).

إنه يلخص بذلك مبادئ الإسلام في ممارسة السياسة والحكم بعيداً
عن فلسفات السياسة المعاصرة وغاياتها التائهة.

ويخلص مما عرض له إلى أن السياسة التي تعتمد مبادئ
الأخلاق تنتج ازدهاراً ورخاء، فإذا ما فارقتها الأخلاق كان الفصام
والأزمات..

«في كل عصر تلتزم السياسة فيه بمبادئ الأخلاق،
يكون عصر ازدهار ورخاء وسلام، وكل عصر تنفصل
فيه السياسة عن الأخلاق، تشيع فيها الفتن وتقع
الأزمات»^(٩).

ولكن الممارسات السياسية النفعية استطاعت عن طريق بذل المنافع
وإسداء المصالح الذاتية أن تقلب الحقائق، وأن تستغل المُثل لمآربها.
فهل هذه نهاية المُثل؟ وهل سيُطمَر الحق، ويتلاشى صوته بفعل
الممارسات المنحرفة؟ يجيب السباعي:

«سمعت الحق والحريّة يتناجيان سرّاً وكان مما قالاه:
ما أسيء إلينا في عصر كهذا العصر! لقد اتخذنا ستاراً
وشباكاً، واضطهدنا ممن يتحبّب إلينا أكثر ممن يناصبنا
العداء.

وكان التاريخ قريباً منهما، فهذا رُوعهما وقال: سأفصح
لكما زيف الخداعين والمتاجرين»^(١٠).

(ب) الفطنة السياسية :

خاض السباعي حلبة السياسة العامة للبلاد مُذْ هَبَّ للمشاركة في تحرير البلاد من ربة المستعمر، وتنامى وعيه السياسي مبكراً مع ارتقائه في السن من الفتوة إلى الشباب، وغشيانه المجالات العامة، ومع صعوده مراتب الدعوة الإسلامية إلى أن أضحى قائداً لجماعة ومنظراً لدعوة، لذا كانت جعبته السياسية حافلة بالتجارب والممارسات، وكانت نظراته البعيدة صائبة في مضمار الرؤية السياسية، تتم عن فطنة ودراية، ووعي مبكر للأحداث...

من مظاهر وعيه السياسي: سبقه إلى تجاوز مظاهر الأحداث إلى حقائقها الكامنة، مما لم يكن يفتن إليه إلا أولو الخبرة في العمل السياسي.

ومن ذلك ما كان يروم من الشعب الوعي للحقائق الآتية:

١ - أولى هذه الحقائق: وعي الشعب في اختيار ساسته:

فهناك من السياسيين من ضلّل جماهير الشعب حين قدموا إليهم أنفسهم بالشعارات البراقة، التي يكمن خلفها الفساد والاستغلال والانحراف! يقول في ذلك:

«من أكبر الخرافات التي تروّج في عصرنا الحاضر أن تسمى ديكتاتورية الحكم بالديمقراطية، وإفقار الشعب بالاشتراكية، وانحلال الأخلاق بالتقدمية».

ثم يثني على ذلك:

«ليس الدهاء أن تخدع شعبك، فتلك خيانة ونذالة؛ ولكن أن تحبط مكر أعدائك فتلك وطنية ورجولة»^(١١).

وينادي جماهير الشعب إلى الوعي والبصر بهذه الحقائق السياسية كيلا يذهبوا ضحية الاستغلال، وألا ينخدعوا بالطبول والضجيج وصخب المواكب، فهي تخفي وراءها ما أعده الماكرون من أحابيل للإيقاع بالشعب ..

«في ضجيج الطبول تختنق أصوات الحرية، وفي صخب المواكب تطمس معالم الحقيقة»^(١٢).

ثم يحلل مواكب التضليل ليكشف عما وراءها من مظالم تُنصب للشعب بأسماء التحرير والإنقاذ المغرية:

«من طبيعة الظالمين أن ينادوا بالحرية ليئدوها، ويتحدثوا باسم الشعب ليستعبده، ويدافعوا عن الفقير لئلا يصبح غنياً، ويقاوموا الطغيان ليفرضوا طغياناً أشد وأقسى»^(١٣).

ويخلص من هذا إلى تحصين الشعب من أحابيل مكر السياسة الراهنة وأهلها لينجو من الاستغلال ..

«لم يكتمل وعي شعب يصفق لكل حاكم، ويُخدع بكل متكلم»^(١٤).

٢ - وثاني الحقائق التي يرود الشعب لها، هو: حسن اختياره لممثليه في المجلس النيابي:

فهو صاحب الرأي الأول، وينبغي ألا يتنازل عن حقه ..

«إن الشعب هو المسؤول؛ لأنه هو الذي يجب أن يختار نوابه. فإذا شكك اليوم وتآلم؛ فليظهر غداً إرادته الواضحة في إقصاء من يتآلم منهم وإبقاء من رضي عنهم. أما الشكوى في الأندية والأسواق والشوارع، ثم السكوت وقت

الانتخابات، أو المجاملة والرضوخ لإرادة المتنفذين؛ فتلك علامة الموت.

الطريقة الوحيدة لاستقامة الأمور أن يُترك الشعب حراً في اختيار نوابه مباشرة، وسيقول بعض الناس: أليس الشعب الآن حراً في اختيار نوابه؟ ونحن نحيلهم إلى الخزائن التي تُفتح، والولائم التي تقام، والوعود التي تعطى، والمؤامرات التي تحاك! ^(١٥).

٣ - ومن مظاهر وعيه السياسي: نظراته المبكرة في فضح ادعاءات الغرب ومطامعه:

إن مؤامرات الدول الأوروبية الكبرى كانت تحاك على أقطار العالم العربي والإسلامي منذ قرن، ثم انتهت باستعمار تلك الأقطار وسرقة خيراتها وتمزيق كيانها وتهجين شخصيتها، وإن قلة من المثقفين على عهد شباب السباعي كانت تدرك خفايا هذه المؤامرات وأحاييلها ملفعة بأثواب التحرير والنهضة، وقلة أيضاً هي التي كانت تفضح ادعاءات الدول الأوروبية الكبرى وتواطؤها على العالم العربي والإسلامي.

ولقد كان للسباعي في ذلك نظرات سابقة تكشف تأمر تلك الدول المستعمرة ومطامعها قبيل الحرب العالمية الثانية عن طريق المواجهة بين الطامعين واتهام بعضهم بعضاً، وفضح فريق منهم الآخر حين اختلفوا على الأسلوب والغنائم، مما يصلح اعتماده اليوم صورة متكررة لاتفاق الدول الكبرى على الأمم الضعيفة، وإن تغيرت الأساليب وموَّهت المطامع...

يصور السباعي صراع الأقوياء على اقتسام الدول الضعيفة آنذاك في هذه التوطئة:

«الدنيا في هذه الأيام قائمة قاعدة، والدول مضطربة جزعة، والاستعدادات الحربية بالغة أشدّها في كل أمة، وكلمة «الحرب» ترددها الألسنة صباح مساء، حتى ليمسي الرجل وأكبر ظنه أن سيصبح على طلقات المدافع ودوي الطائرات، وينطلق من بيته وهو لا يدري إن كان يعود إليه سالماً أو مصاباً بغاز محرق أو مدمر أو مهيج، أو يلقيه قاعاً صفيصفاً قد دمرته القنابل المدمرة المخربة، ويمر في الميادين فيرى الخنادق تحفر والمخابئ تجهز وما هي إلا قبور يحشر إليها للناس هرباً من الغارات، فمن قُدّر له أن يسلم من الموت محترقاً فقد حكم عليه أن يموت في هذه المخابئ مختنقاً، وهكذا يعيش الناس اليوم:

كريشة في مهب الريح طائفة

لا تستقر على حال من القلق

وبدهي أن جماهير الشعوب لا يد لها في خلق هذا الاضطراب والجزع، وإنما اليد الطولى لرجال السياسة وقادة الأمم، ولا أعني بذلك ساسة الشرق الإسلامي وقادته؛ فهم، والحمد لله الذي لا يحمد على المكروه سواه، لا ناقة لهم ولا جمل - بل ولا شاة ولا قطرة - في هذا الصراع الدولي القائم الآن، وإن كانت شعوبهم هي المقصودة به أولاً وآخرأ؛ بل هم في شغل فاكهون على الأرائك متكئون، وفي اللهو منغمسون، وفي السعي لزعامتهم المهدمة البالية منهمكون، بينما النيران من حولهم تكاد تلتهمهم وتلتهم أقوامهم، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

لم يبق مسؤولاً عن ذلك إلا قادة الغرب وزعماؤه، ففيم الصراع والنزاع؟

المسألة بسيطة والسر معلوم؛ فالإنكليز والفرنسيون وحلفاؤهم خرجوا من الحرب الكبرى وبأيديهم أكبر نصيب من الأسلاب والغنائم، فاققسموها فيما بينهم قسمة عادلة كما يقسم قطاع الطرق أسلاب المارة حين يسودهم اللوثام والصفاء.

وهناك دولتان خرجتا من الحرب إحداهما مهیضة الجناح وأخرهما مسلوبة الأرباح، فعز عليهما أن يفوز غيرهما بخيرات الدنيا ونعيمها وهما محرومتان، فما زالت الأولى تسعى وتدأب حتى نبت ريشها واستقام عودها، وما زالت الثانية تجتهد حتى قوي نابها واشتد ساعدها، فقالتا للآخرين: تعالوا نقسم الأسلاب ونصفي الحساب!

ولكن كيف يستقيم الظل والعود أعوج؟ هذا شيء لم ينالوه إلا بإراقة الدماء، وما أراقوا الدماء إلا لينالوه؛ أفقدومونه غنيمة باردة وهم أقوياء أشداء؟ هذا شيء بعيد عن منطق الحق والعدل والإنصاف!

قالت الأوليان: إذاً تربصوا.

وما هي إلا غمضة عين حتى ابتلعت إحداهما الحبشة، ومدت الأخرى يدها فاختلست النمسا. وحركت الأولى قدمها فإذا هي في ألبانيا، وتحركت الثانية فإذا هي تجر إليها تشيكوسلوفاكيا. ثم قالتا وهما تزمجران: تلك هي أيها المترفون الممثلة بطونهم صولات الجائع إذا ثار، والعطشان إذا منع غلة الماء، وما خفي أكثر مما ظهر، وما يأتي أكبر مما غبر، ولن نكف عن العدوان حتى لا ندع لكم شيئاً ولا نذراً.

ويتساءل السباعي عما صنعتته الدول الكبرى الغائمة بعد أن تحدثها
الدول المغلوبة؟

«وكانت الضربة أليمة والمفاجأة عظيمة؛ فاشتد الجزع وثار
الطمع، وقال الأصدقاء بعضهم لبعض: ويلكم! أندع هاتين
العصابتين تسلبان الغنائم، وتهاجمان الحمى، ونحن
مجتمعون متساندون؟ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً
لخاسرون!.. لَنَذْفَعَنَّ عن الممتلكات والمستعمرات حتى
ترتدّا على أعقابهما ونريهما عاقبة تطاول الضعفاء على
الأقوياء والفقراء على الأغنياء!

ولكن أنى ذلك وقد أخذنا على غرة، فلا بد من الاستعداد
والتسلح، ولا بد من التزود لحرب طاحنة حالقة، فلنُشغِلِ
المعتدين بالكلام، ولنملأ الدنيا بالتهيج والانهايم، حتى
يكمل التهيؤ ويتم الاستعداد!».

ثم يعرض للشعارات الكاذبة التي برزت على ألسنة الدول الممثلة
بالغنائم تقطع بها الوقت لكي تشغل بها العالم ريثما تستكمل الاستعداد
فتستأنف الانقضاض على الأسلاب في هذه الغابة التي لبست فيها الذئاب
مسوح الرهبان..

«قالت فرنسا: إن المدينة المسيحية أصبحت معرضة للخطر
إزاء همجية الدول الديكتاتورية، وإن أسوأ شيء تتصف به
هذه الدول الغدر ونقض العهود!

وقالت أمريكا: إن مأساة اليهود في ألمانيا وهجوم
الديكتاتوريين على الأمم الضعيفة أمر ينظر إليه العالم بعين

الجزء، فعلى الذين يقدرّون حرية الشعوب أن يتكاتفوا لرد هذا العدوان.

وقالت إنكلترا: إن سلب حريات الأمم وتمزيق دولهم والتضييق على اليهود أمر يثير الشعور الإنساني والرحمة البشرية، ويضطرنا للاعتقاد بأننا نعيش في عصر الأدغال.

وقالت ألمانيا وإيطاليا: إن الدول الديمقراطية تتباكى على الحرية والإنسانية والعدالة، فهل نسيت إنكلترا مذابح البوير، ومآسي فلسطين، وفظائع الهند وعدن؟ وهل نسيت فرنسا فظائع سوريا وتونس والمغرب الأقصى؟ وهل حرق الزوج في أمريكا ما يشرف تاريخ الإنسانية، ويتفق مع دعوى الحرية في تلك البلاد؟».

وبعد أن يستوفي السباعي مقابلة اتهامات الدول الأوروبية المستعمرة بعضها لبعض، فيستعرض جرائمهم جميعاً وتواطؤهم جميعاً، يوافقنا بموقف العرب والمسلمين من هذا الدجل المكشوف:

«ووقف العرب والمسلمون من بعيد يقولون لهؤلاء وأولئك: لقد صدقتم والله جميعاً فيما يتهم به بعضكم بعضاً من فظائع وفضائح. ولستم جميعاً بصادقين في تمسحكم بالإنسانية والعدالة وحقوق الشعوب، وما نرى بعضكم يمتاز عن بعض في سياسة الأدغال.

وهل سميت إحداكن بالنسر الألماني، وثانيتهن بالدب الروسي، وثالثتهن بالأسد أو الحوت البريطاني؛ إلا لأنكم تنفذون قانون الأدغال؟

هل نسيتم أيها السادة المتألمون لنقض العهود أنكم أعطيتُمونا عهداً صريحة بضمان حقوقنا واستقلالنا، وأعطى أجدادكم مثل ذلك لأجدادنا في الأندلس، فما رأيناكم قديماً وحديثاً تحفظون وداً أو تقيمون عهداً أو تنفذون اتفاقاً إلا إذا كانت لكم فيه مصلحة، وما وجدنا منكم إلا نكثاً للعهود وإخلالاً بالوعود وتلاعباً بالمواثيق كما تشاء أهواؤكم ومصالحكم!..

هل نسيتم أيها المتباكون على نكبة اليهود في ألمانيا وإيطاليا أن نكبة عرب فلسطين باليهود أشد مما نكب به يهود ألمانيا وإيطاليا بما لا يصح معه القياس والمقارنة، وما سمعنا من أحد منكم إنكاراً أو احتجاجاً أو اشمئزازاً، فهل هؤلاء من طينة غير طينة البشر، أم أنتم قوم كالنادبات من النساء لا يبيكين إلا حين تلوح لأبصارهن المصلحة والمنفعة!

هل نسيتم أيها المتشدقون بالدفاع عن الحريات من الفريقين المتناحرين أن أربعمئة مليون من البشر تحكمونهم بالحديد والنار وتعاملونهم بسلب الحريات وانتهاك الحرمات، دون أن تتألم ضمائرهم أو تهتز مشاعرهم أو يأخذكم بهم الرفق كما رفقتم بحيواناتكم اللاتي أسست لهن جمعيات، وشيدتم لهن مستشفيات، وعرّستم لهن حدائق ومتنزهات؟

أفلا يستحق هؤلاء معاملة كهذه التي تعاملون بها حيواناتكم، أم أنتم قوم فيكم طبيعة الوحوش لا تحنو إلا على أطفالها وذرائعها؟

قال الراوي: ولكن أسمع هؤلاء المتمدنين في القرن العشرين مملوءة بأزيز الطائرات وقعقة السلاح، فلم يصل

إليها قول العرب والمسلمين، واستمروا على تجاهلهم حتى الآن، يدفعهم الرياء إلى التحجب إليهم بالدعايات وزعم التقرب إلى قلوبهم بالألفاظ المعسولة التي تكشف عما وراءها من خبث ومكر، كما يكشف بريق العملة الزائفة عما فيها من غش وتزييف!

وبعد، فقد أذكرنا موقف دول الغرب اليوم بعضها من بعض بما ذكروا في كتب الأدب، من أن واعظاً وعظ الناس في بعض المساجد، فلما ظن أنه بلغ من وعظه ما أراد مدّ يده لياخذ مصحفه ويمشي، فلم يجده، فالتفت إلى القوم ليسألهم عنه، فإذا هم خشع يبيكون، فتولته الدهشة وقال لهم: كلكم يبيكي، فمن ذا الذي سرق المصحف؟!؟

ونحن نسأل هؤلاء الذين يرفعون عقيرتهم بنصرة الشعوب المظلومة: من الذي خرّب مدن فلسطين، وجعل عاليها سافلها، وترك أعزة أهلها أذلة، ولطخ جدرانها بالدماء، وملأ بيوتها بالأرامل، وشرّد أطفالها في الأزقة، وزج رجالها في السجون، ولوث أيديه بدماء شهدائها وأبطالها؟!؟

من هم الذين صوّبوا نيران المدافع الرشاشة إلى قبة المسجد الأقصى ولوثوا صحنه الطاهر بنعال جنودهم القذرة، ونسفوا بيوت الله بالديناميت ولم يراعوا لرجالها حرمة ولا ذمة؟!؟

من ذا الذي سلب أهل المغرب الأقصى وتونس والجزائر أموالهم وعقارهم وعقائدهم وحرّياتهم وكراماتهم وأذاقهم العذاب أنواعاً وألواناً؟!؟

من ذا الذي أجرى الدماء أنهاراً في شوارع سورية وجعل من أمتها الواحدة أمماً مختلفة ودولاً متفرقة، وحاول أن ينسف

قواعد شريعتها بقانون ذميم لم يتراجع عنه إلا بعد أن رأى
بعينه نتائج سياسته الحمقاء!!؟

وأيّن كنتم يوم اعتدى الظالمون على أهل طرابلس الغرب في
أعراضهم وأموالهم وشريعتهم وقذفوا بمجاهديهم من
الطائرات إلى الأرض، وانتهكوا حرمة البطولة والشيخوخة
بسفك دم الإنسان الكامل عمر المختار. ثم يوم أعلنوا ضم
طرابلس الغرب إلى مستعمراتهم وفرضوا على أهلها التخلي
عن قوميتهم وملتهم، كل ذلك على مسمع منكم ومرأى،
فما حركتم ساكناً ولا أظهرتم تألماً!!؟

ثم يعرض لاشتمزاز الدول المستعمرة من غزو إيطاليا لألبانيا، وكيف
حاولوا استغلال عواطف العالم الإسلامي ليشيروه على إيطاليا، وأيديهم
ملوثة بدماء المسلمين في كل مكان - وكأن التاريخ يكرر نفسه، بعد وفاة
السباعي - في نصرة الدول الأوروبية المصطنعة للمسلمين حين اعتداء
الصرب السلاف على البوسنة والهرسك ثم كوسوفا.

ويختتم مقاله بكلمة معبرة يوجهها إلى الدول المستعمرة:

«أشفقوا أيها المتمدنون على أنفسكم، فأنتم إنما تغالطون
أنفسكم بمحاولتكم إفهامنا أنكم تحترمون أديان الناس
وتقاليدها، ونحن الذين بلوناكم جميعاً فما رأينا لدولة منكم
فضلاً على أخرى إلا في المكر والدهاء.

لا يا هؤلاء، لا تتعبوا أنفسكم بعد اليوم؛ فوالله إن كنا
وما زلنا نضحك بملء أفواهنا حين نسمع دعاياتكم
وإذاعاتكم، وما نرى فيها إلا دليلاً على جزع المبطل وتزعزع
مركز الظالم وشعوره بالإساءة إلى الإنسانية والحق؛

فأنتم الآن تسعون لتلطيف الجو واكتساب مودتنا لنسعفكم
عند النوازل!! ولكن هيهات؛ فنحن من قوم خاطب الله نبيهم
بقوله: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَائِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْفَاسِقِينَ﴾، ومن أمة قال شاعرها:

لا أذود الطير عن شجر

قد بلوت المُر من ثمره^(١٦)

٤ - ومن مظاهر وعيه السياسي وفطنته: ما كان ينبه إليه ويحذر من
خطر تصديق دعوة الدول الكبرى إلى السلام، والاستكانة إلى عواقب
تخدير هذه الدعوة المضللة في ديار المسلمين، من وضع السلم موضع
الجهاد وزهد المسلمين في معاناته وتواكلهم، بحيث أضحوا لقمة سائغة
لكل طامع.. وينادي بأن الدول الكبرى لا تؤمن إلا بالقوة ولا تحترم
إلا الأقوياء. إن الضعف لديها باسم السلم خَوْزٌ وذلة، ومحط للازدراء
والاستخفاف. وأما القوة والمنعة فهي مناط الاحترام والاعتراف. ويضرب
لك المثل بأحداث العالم لعهد، وكيف تتعامل الدول الكبرى في ذلك
العهد؟!

«كونوا عمليين لا قوالين، وإياكم أن تؤملوا من الأمم
إنصافكم وتقدير دينكم ما دتم على ضعة وتخاذل وتواكل،
وإن لكم في تاريخ الأمم المعاصرة شاهد صدق على
ما أقول..»

إن ألمانيا خرجت من الحرب العالمية (الأولى) مهزولة
مهشمة فتألمت عليها الأمم الغالبة تحدّ من حريتها،
وتحول بينها وبين قوتها حتى جعلوا لسلحها حداً لا يجوز
لها أن تتجاوزه، فماذا فعل الغيورون من أبنائها؟ إنهم
لم يحتجوا لأن القوة الغاشمة صماء عمياء لا تسمع

ولا تبصر، ولكنهم رأوا أن يعملوا وأن يحتكموا إلى القوة وهي الحكم الفصل. فأخذوا في العمل بخفاء وحذر حتى برزوا للميدان أقوياء، وكشفوا القناع عن وجوه تتحفز للانتقام، فإذا وجوم وسكون واحترام!.. احتلوا الرين والألزاس؛ فسكتت فرنسا على مضض. ونقضوا معاهدة فرساي؛ فأصبحت الدول الموقعة عليها بالخرس. وطالبوا بمستعمراتهم؛ فقبلوا بالتسكين والاسترضاء، وما قد سمعتم زعيمهم بالأمس يقول لهم: «إن مستعمراتنا ستعود إلينا بعد ست سنوات!..» لا تعجبوا.. فإنها القوة تفعل الأعاجيب!..

وإيطاليا! أما سمعتم خبرها يوم صممت على افتتاح الحبشة؟ والأقوياء في وجهها يضجون ويصخبون، ثم أجمعوا على أنها معتدية، ثم أعلنوا عليها حرباً اقتصادية، فما التفتت إليهم بل مشت في طريقها لا تعتمد إلا على القوة، حتى تم لها فتح الحبشة وتحطيم سيادتها، وسرعان ما اعترفت بعض الدول بقانونية ذلك الفتح الاستعماري، ولا يزال البعض الآخر يؤمل ثمناً لتصريحه بالاعتراف!..

واليابان! رأت من تضعضع الصين واتساع رقعتها ما يغريها باستعمارها؛ فجردت عليها الجيوش والأساطيل، وشتت عليها غارة لا تعرف الشفقة ولا الرحمة، وما زالت تكتسح البلدان وتفتك بالأطفال والنساء والشيخوخ حتى اليوم.

أما الدول القوية فإنها تؤلف اللجان وتعقد المؤتمرات لترى هل اليابان معتدية أم لا؟

أفرايتم مثل هذه البرودة القاتلة؟ أفرايتم كيف تنهزم الحجة أمام القوة، وينتصر الباطل المسلح على الحق الأعزل؟! أفذكرون كيف اعتدى اليابانيون على سفير الإنكليز وحاولوا قتله فلم يكن من الإنكليز إلا الاحتجاج والاستنكار!! وكيف اعتدى مجهولون على أحد الحكام الإنكليز في فلسطين فأبعدوا وعُذِّبوا ونُكِّلوا.

فَلِمَ سَكَتَ الإنكليز في الأولى وغضبوا في الثانية؟! إنها القوة التي أسكتت، والضعف الذي أنطق... فالويل للضعيف، والموت لمن يُغلب! (١٧)

ثم ينبّه من قبل ستين عاماً إلى ما نعانيه اليوم من أثر الدعوة إلى السلم مكان الجهاد في تصريحات رجالنا من كبار ومسؤولين، والعدو الصهيوني يتحدانا كل يوم ويعاجلنا بمختلف ألوان الاعتداء، لا يرقى مبادئ ولا نظماً ولا تشريعات دولية ولا يحترم إلا القوة، ولا زلنا نطمع في السلام!

لذا تأتي دعوة السباعي إلى إحياء روح الجهاد والإعداد في حينها عملية مبكرة، تقرأ أبعاد المستقبل الذي نحياه، وتصم دعاة السلم منذ ذلك الوقت بالخيانة أو الغفلة، وتلقي بالإنذار الذي تغشانا ويلاؤه اليوم في فلسطين.

«إن الإسلام لم يكن ظالماً يوم شرع الجهاد، ولا معتدياً يوم أمر بأخذ الحذر وإعداد القوة، وما نرى هؤلاء الذين كانوا يشتمون على الإسلام تحذيره وإيقاظه إلا أنهم قد أقيموا حجراً بما يرون اليوم وما يسمعون!..»

إن فيكم نفراً يسمون أنفسهم «أنصار السلم» وقد أخذوا على عاتقهم تنفيركم من الحرب وتسميم أفكاركم بالسلم رغماً

عَمَّا أَنْتَم فِيهِ مِنْ ضَعْفٍ وَهَوَانٍ، فَقُولُوا لَهُؤُلَاءِ: إِمَّا أَنْ
تَكُونُوا مَغْفَلِينَ، أَوْ مَدْسُوسِينَ، وَلَا ثَالِثَ لَهَمَا..

القوة! العمل! اليقظة! قبل أن تنفجر القنبلة الكبرى
فتكونوا أول ضحاياها^(١٨)!.

ولعلَّ هذه النماذج التي عرضنا لها من فطنة السباعي السياسية وريادته
أبناء الأمة المسلمة إلى الوعي المبكر. تجعلنا نحمد الله على توفيقه وإنعامه
على الدعوة الإسلامية برجل يمتلك هذه الآفاق البعيدة التي جعلت من أبناء
الدعوة الإسلامية سابقين في الوعي والفطنة، ورائدين في النظر البعيد.

(ج) الدِّين والدَّولة في الإسلام:

جمع السباعي آراءه السياسية في هذا الموضوع الحيوي في كتاب
مستقل تحت عنوان: «الدِّين والدولة في الإسلام»^(١٩)، ناقش فيه الموضوع
نقاشاً هادئاً، وقدم لنا فيه خلاصة أفكاره، من منظور تصوره الإسلامي
للدولة. وذلك حسبما يلي:

أولاً: رأي من يريدون فصل الدِّين عن الدولة:

وتصورهم النظري للدولة:

١ - أن تكون الدولة تقدمية متطورة تسير تطور الفكر الإنساني
والاكتشافات العلمية.

٢ - أن تستمد سلطانها من الشعب على أساس الديمقراطية أي
«حكم الشعب للشعب وبواسطة الشعب».

٣ - أن تكون الدولة لجميع المواطنين على قدم المساواة دون تمييز
في الواجبات والحقوق والكرامة والمنزلة الاجتماعية.

أما تصورهم النظري للدين فيختلف تمام الاختلاف إذ يرون :

١ - الدِّين - في رأيهم - مبادئ ثابتة لا تتطور ولا تتغير، قد مضى عليها آلاف السنين، فكيف تتفق مع حضارة القرن العشرين؟

٢ - أما الدَّولة فلا تستمد - في ظل الدين - سلطاتها من الشعب، وإنما من رجال الدين وحدهم الذين يستبدون بأمر الأمة ويجعلون «مفاتيح الجنة والنار بأيديهم»، فيكونون - بالدين - أعلى منزلة من الشعب فينالون من سيادته.

٣ - الدِّين - في رأيهم - لا يحقق المساواة بين المواطنين، لأنه يجعل أتباعه المؤمنين في وضع أعلى من غير المؤمنين، بل يكاد لا يعترف بوجود غير المؤمنين، إذ ينال هؤلاء الحروب والتشريد في الدنيا والعذاب في الآخرة. فكيف تقوم دولة في العصر الحديث على هذا التمييز بين أبناء الشعب الواحد لاختلاف أديانه وعقائده؟!

ثانياً: مناقشة آراء العلمانيين الذين يرون فصل الدين عن الدولة، في موضوعية تعتمد حقائق التاريخ ومبادئ الأديان حسبما يأتي:

١ - تعريف الدين والدولة:

الدِّين: في أحدث تعريف علمي له: نظام من عقائد وعبادات تربط الناس بعضهم ببعض، وتؤلف من معتنقيها أمة ذات وحدة معنوية. (الدِّين والوحي في الإسلام، مصطفى عبد الرازق: ص ١٨).

والدولة: هي قيام جماعة من الشعب بتأمين الحق والعدل بين المواطنين، وتسهيل سبل العيش لهم في سعادة وسلام.

٢ - العلاقة بينهما إيجابية :

من خلال المقارنة بين التعريفين تبدو العلاقة - في الأصل - بين الدين والدولة إيجابية، من حيث التعاون بين الناس، وتنظيم العلاقات فيما بينهم. وإذا كان الدين كما يقرر علماء الاجتماع من أكبر المؤثرات في قيام المجتمعات وبناء الحضارات، فإنه عنصر أساسي في قيام الدولة ونجاحها.

٣ - متى وقعت السلبية بينهما؟

لم يشهد تاريخنا الإسلامي تعارضاً بين الدين والدولة، بل لم يكن هناك ثمة تصور لانفصال الدولة عن الدين منذ ظهور الإسلام. فالنبي ﷺ كان الإمام في الصلاة والقائد في المعركة ورئيساً للدولة معاً. وكذا كان خلفاؤه. ولم يستشعر أحد إمكان الفصل بين هذه المهام؛ فهي في الإسلام متلازمة متلاحمة متكاملة.

إذن من أين نشأ هذا التصور؟

نشأ بعيداً عن ديار الإسلام، وذلك من خلال الصراع بين الكنيسة والأباطرة والملوك في أوروبا، ومن خلال الطبيعة النصرانية التي تحتم ابتعاد رجال الدين عن الدنيا حسب تعاليم المسيح، ولكن رجال الكنيسة تجاوزوا ذلك وطمعوا على سلطة الملوك، فابتدأ الانتقاض في القرن السادس عشر ضد طغيان الكنيسة ورجالها، وانتهى بعد صراع طويل في القرن الثامن عشر إلى إعادة رجال الدين في أوروبا إلى معابدهم، وإعلان فصل الدين عن الدولة فيها، وإقصاء رجال الدين عن السياسة العامة، وهي النتيجة الطبيعية لخروج الكنيسة عن حدودها ووظيفتها الدينية، وطمغيان رجال الدين النصارى على حقوق الدولة وسيادتها فيما لا شأن لهم به.

٤ - في الإسلام:

جاء محمد ﷺ برسالة متممة لرسالات السابقين في الدعوة إلى وحدانية الله والإيمان برسله والحث على مكارم الأخلاق، ولكنه كان يختلف عما سبقه بشموله وواقعيته وتنظيمه..

ثم يعرض السباعي لمزايا الإسلام بوصفه نظاماً كاملاً للحياة..

«الإسلام في أقسامه الرئيسة الأربعة:

عقيدة تحرر العقل وتدعو إلى العلم.

وعبادة تسمو بالروح وتؤدي إلى القوة.

وخلق يُنمي الشخصية ويحمل على التعاون.

وقانون يحقق المصالح ويضمن العدالة.

وهذا الإسلام بأقسامه الأربعة كما رأيتم، يجمع بين هذه

المزايا كلها:

نظام معقول يقوم على حرية الفكر ونشر العلم.

ونظام اجتماعي يتوخى مصالح الناس وينظم التعاون بينهم.

ونظام مرن متطور لا يجمد عن مسايرة الحياة وتطور الحضارة.

ونظام شوري يقوم على مبدأ المساواة ويرفض مبدأ

الامتيازات والطبقات.

ونظام مدني في قسميه الأخيرين - الآداب والقوانين - لا أثر

فيه لرجال الدين وجمودهم، بل لا يعترف بطبقة تسمى

«رجال الدين»، فهو أحرى أن يعني المجتمع من تحكمهم

في مصائره وشؤونه وسياسته. كما حصل في تاريخ رجال

الدين في القرون الوسطى».

ثم يوازن السباعي بين نظام الإسلام المتكامل وبين مطالب الدولة الحديثة، ويستنتج في موضوعية وأناة أن لا تصادم بينهما:

«والدين بهذا، لا يمكن أن يصطدم مع الدولة، ولا أن ينفصل عنها.

أما إنه لا يصطدم مع الدولة؛ فلأن الدولة الحديثة لا تسعى إلى أكثر مما يسعى إليه الإسلام، بل هي لا تدانيه في عظمتها وسعة آفاقه، وعمله على إسعاد المجتمع ورفع شأن الأمة. وليست الدولة في الإسلام إلا المثل الأعلى الكامل للدولة في عصرنا الحديث وفي أرقى عصور الحضارات.

إن الدولة في الإسلام تقوم على:

١ - رئيس يختاره الشعب بمحض إرادته: «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»، «من بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعه له ولا الذي بايعه». (رواه الإمام أحمد).

٢ - جهاز حكومي ينتقى فيه الأكفاء، من غير نظر إلى اعتبار آخر: «من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمرهم عليه أحداً محاباة فعليه لعنة الله»، «من استعمل رجلاً من عصابة (جماعة) وفيهم من هو أَرْضَى الله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»، (رواهما الحاكم).

٣ - قوانين مدنية، وضع الإسلام قواعدها ومبادئها العامة، وترك للمشرعين الاجتهاد في تفاصيلها بما يحقق المصلحة العامة.

٤ - قضاء مستقل عن أية سلطة في الدولة، يساوي بين رئيس الدولة وسائر أبناء الشعب: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ».

وتاريخ القضاء في الإسلام من أروع ما سجل في استقلال
القضاء، ونفاذ سلطانه على الأمراء والأغنياء وعامة الشعب،
بلا تحيز ولا محاباة.

٥ - جيش قوي يُرهب الأعداء ويصدّهم عن العدوان:
﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ
بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، ويحرس الأمن، ويصون السيادة
ويحمي الحرية الفكرية والدينية في الداخل والخارج:
﴿وَقَدِّمُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ لِلدِّينِ كُلِّهِ اللَّهُ﴾.
ويحرر الضعفاء والمستعبدين من أسر الطغيان والظلم:
﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ
لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

٦ - جماعة من أبناء الشعب يسهرون على تطبيق
القوانين وتحقيق مصالح الشعب، ودفع الأذى عنه
أو أذى بعض أفرادها على بعض: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ
يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هذا هو جهاز الدولة الرئيسي الذي يحقق للشعب الرخاء
والتقدم والأمن والكرامة، وهو كما ترون يتفق مع صميم
الإسلام ومع أهداف القوانين الإسلامية.

فمن أين يأتي التصادم بين الدين والدولة في الإسلام بعد
ذلك؟^{(٢٠)٩}.

ويخلص السباعي من استعراضه السابق إلى عدد من الحقائق التي توضح الفوارق في موضوع (الدين والدولة) بين المسيحية في أوروبا وبين حقيقة الإسلام، في نظامه ومبادئه وواقعه التاريخي، منها:

١ - أن موقف المسيحية - في أصلها وفي حياة المسيح وتلاميذه من بعده حتى القرون الثلاثة التالية - موقف المسالم للدولة لا تصطدم معها في تشريع، ولا تفرض عليها رجال دين يتحكمون في شؤونها.

٢ - أن المناداة بفصل الدين عن الدولة في تاريخ المسيحية، عودٌ بها إلى وضعها الأول الصحيح، وأن انحرافها عن هذا المبدأ، جرَّ عليها وعلى شعوبها البلاء والشقاء.

وأما في الإسلام، فإن المناداة بفصل الدين عن الدولة انحراف به عن وضعه الصحيح، وأن وقوع هذا الفصل في بعض مراحل التاريخ - الطور الثالث - جرَّ على الإسلام وعلى المسلمين البلاء والشقاء.

٣ - أن فصل الدين عن الدولة في تاريخ أوروبا، كان في عصر نهضتها الكبرى، ولقد سارت من بعده حرة طليقة، تسيطر على شؤون العالم وتحكم في مصائره.

أما في الإسلام، فإن أزهى عصور حضارته، وأحفلها بالقوة والمجد، وأجداها على الإنسانية، هي العصور التي قامت فيها دولته على مبادئ شريعته، وما حدث الجفاء بين الدين والدولة إلا في عصور الضعف والجمود والفوضى.

٤ - أن ربط الدولة بالدين في أوروبا، أدى إلى اضطهاد الفكر، وخنق الحريات، وقيام الحروب الدينية المفجعة، وخضوع الناس لكابوس الخرافة والجهالة والبؤس.

أما ربط الدولة بالدين في عصور الإسلام الزاهرة، فقد أدت إلى انطلاق الفكرة، وحماية الحريات الدينية، وإشاعة الرغد والسلام بين أبناء الديانات، وتحرير الناس من أوهام الخرافات والشعوذة، وتحقيق الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية بين أبناء الشعوب.

٥ - أن علاقة الدين بالدولة في تاريخ المسيحية في القرون الوسطى، جعل من رجال الدين طبقة تمثل السيطرة والاستلاء والاضطهاد والتعصب.

ولكن علاقة الدين بالدولة في عصور الإسلام الزاهرة، لم تخلق مثل هذه الطبقة، إذ الإسلام نفسه - كما رأيت - لا يعترف بوجودها، فكيف يعترف بحقها في السيطرة والاستلاء.

ثم يخص السباعي بالذكر حقيقة بارزة في الإسلام، ربما تخفى على الكثيرين حتى من بعض المسلمين، ولعل في بيانها فصل الخطاب في الموضوع...

«إن الميزة البارزة في الإسلام وتاريخه، أنه خلا من طبقة رجال الدين، وبذلك خلا تاريخه من مآسي رجال الدين، وتحكمهم وجمودهم وسيطرتهم على أفكار الناس وعقائدهم، وما هذه الألقاب التي تطلق على بعض العلماء من «شيخ الإسلام» و«المفتي الأكبر»

و«نقيب الأشراف» وأمثالها، إلا ألقاب مبتدعة لا يتعرف عليها الإسلام في مبادئه، ولم يتعرف عليها في عصوره المشرقة.

فلم يكن في عهد رسول الله ﷺ، ولا في عهد خلفائه الراشدين، ولا في عهود الأمويين والعباسيين من بعدهم، «شيخ الإسلام» ولا «مفت أكبر»، وإنما كان هنالك فقهاء ووعاظ، يبينون للناس أحكام الله، دون أن يحلوا حراماً أو يحرموا حلالاً.

ولم يكن للفقهاء في عهد الرسول حتى عهد عصر هارون الرشيد، لباس يمتازون به عن الناس، ولا وصف يختصون به، كوصف «صاحب الفضيلة» أو «صاحب السماحة»، وإنما كان يخاطب الفقيه باسمه، ويمتاز بعلمه، ويشار إليه بخلقه وسيرته لا بعمامته وجبته..

وأول ما بدأ تميز العلماء عن الناس بلباس خاص، كان في عهد هارون الرشيد، حين رأى قاضي القضاة أبو يوسف، أن يلبس الفقهاء على رؤوسهم لباساً خاصاً يفرقهم عن العامة، ومع أن لهذا العمل ما يبرره، فإنه لا يعتبر حجة على الإسلام، ولا دليلاً على وجوب تميز الفقهاء بلباس أو شارة..

إن في الإسلام فقهاء لا رجال دين، وهؤلاء الفقهاء اختصاصيون في علم الشريعة وتعاليمها.. واختصاصهم هذا لا يعطيهم حقاً ليس للشعب، ولا سيطرة على ضمائر الناس وعقولهم.

ويختتم السباعي بحثه بالعرض لآراء الأوروبيين المنصفة في إعلاء

قيمة الشريعة الإسلامية التي تقوم الدولة الإسلامية على قواعدها، ثم يثني
بندائه إلى كل مسلم فيقول:

«وبعد:

فلقد قال مؤتمر القانون المقارن في لاهاي: «الشريعة
الإسلامية حية صالحة للتطور وهي من مصادر التشريع
العام». فقطع بذلك الطريق على دعاة فصل الدين عن الدولة
عندنا، حيث زعموا أن الدين جامد لا يتفق مع تطور الدولة
في العصر الحديث.

وقال الدستور السوري: «الفقه الإسلامي هو المصدر
الرئيسي للتشريع»، فأراحنا من الدخول مع الداعين إلى فصل
الدين عن الدولة، في معركة جاء هذا النص أول دلائل
هزيمتهم فيها.

وقال المؤرخ الشهير المعاصر ج. هـ. ولز: «لا يزال للإسلام
حتى يومنا هذا فقهاء ومعلمون ووعاظ، ولكن ليس له كهنة
ولا قساوسة» (كتاب معالم تاريخ الإنسانية، ص: ٦٤٢).

فكان هذا أبلغ جواب لمن يدعو بيننا إلى إقصاء «رجال
الدين» عن الحياة السياسية؛ بأن هذه المشكلة ليست - في
الإسلام - بذات موضوع، كما يقال في لغة السياسة.

ومن قبل ذلك كله، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي
مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ
وَصَحَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فكان هذا نداء لكل مسلم،
بأن لا ينساق في ضلالة فصل الدين عن الدولة،
فيخسر دينه، ويضل طريقه، ويهدم من حيث يظن البناء:
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ۝﴾ (٢١).

٢ - مبادئه السياسية

إن مبادئ السباعي السياسية - من خلال مواقفه وأقواله - مستمدة من النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية ومثل الإسلام، مارسها في حياته نظيراً وتحقيقاً؛ يمكننا أن نجعلها في المبادئ السياسية الآتية:

(أ) عقيدة الأمة أساس نهوضها وعزتها:

لقد كان من دأب السباعي: أن يبسط القول في تنوير رجال الإسلام ودعائه إلى أن خصوم الإسلام أتوا إليه في العصور المتأخرة من داخله؛ ليوهنوا من شأنه، ويخفضوا من قيمة عقيدته في نفوس أتباعه؛ لكي يسهل عليهم ابتلاع أراضي المسلمين واستعمار شعوبهم وانتهاك ثرواتهم وخيراتهم عرفاناً منهم بأن عقيدة الإسلام هي سرّ قوة المسلمين وصمودهم ونصرهم، فإذا وهنت هانوا وذُلُّوا..

لذا كان السباعي دائم التوجيه في مقالاته ومؤلفاته وخطبه إلى قيمة العقيدة في حياة المسلمين بوصفها عنوان شخصية الإنسان المسلم وقاعدة وجوده وسر انتصاره في معارك الحياة..

«إن أول سلاح تحتاج إليه أمة كآمتنا هو سلاح العقيدة، أي سلاح الإيمان الذي مكن لعشرات الألوف من أبناء الجزيرة العربية أن يتغلبوا على أكبر دول العالم وأن يحكموا شعوباً تعدّ بعشرات الملايين»^(٢٢)..».

وطالما ضرب السباعي الأمثال عن أسرار النصر الكامنة في عقيدة الإسلام، متمثلاً بفتوحات الإسلام ومعاركه الظافرة. ولكنه هنا يضرب المثل من تاريخنا المعاصر؛ من الثورة الجزائرية على الاستعمار الفرنسي الغاصب، فيقول:

«ولكن الثورة الجزائرية التي انطلقت في ١ من تشرين الثاني ١٩٥٤م ما تزال بعد ست سنوات كاملة، شديدة الأوار، صلبة الإرادة، منسجمة القيادة، تلفّ الشعب كله، وتنتقل من نصر عسكري إلى نصر أدبي، حتى دخلت الآن عامها السابع وقد جعلت من جيش فرنسا المستعمرة أضحوكة بين الجيوش.

وقضية الجزائر العادلة حديث الشعوب قاطبة، تنتزع منهم الإعجاب والتأييد، بل تجعل من شعب فرنسا نفسه - وهو الذي ظل ست سنوات يؤيد حكوماتها في أعمال الإجرام والتقتيل والإفناء الجماعي - يهتّب اليوم بمختلف فئاته المفكرة، وطلابه المتحمسين، وعماله الكادحين، ورجال دينه على اختلاف مللهم، ليطالب بإنهاء الحرب الجزائرية، وتخليص الفرنسيين أنفسهم من فظائعها وأهوالها، وأكلها لشبابهم واقتصادهم وكرامتهم وأمجادهم.

فما هو سرّ هذا النجاح الرائع للجزائريين، والإخفاق المشين للفرنسيين؟

أما إخواننا الجزائريون فهم من أمة سجلت أسفاراً من البطولات الخالدة منذ انبثق فجر الإسلام حتى عصرنا الحاضر، وما داموا عرباً مسلمين يدافعون عن حقهم في الكرامة والسيادة، ولا سلطان على ضمائرهم ولا موجه لأفكارهم وإرادتهم إلا الإسلام، فلن ينتظر منهم العالم إلا هذه البطولات التي تكاد تلحق ببطولات الصدر الأول من أبناء الإسلام، والتي استطاعوا بها أن يغيّروا وجه التاريخ» (٢٣).

ولو كان السباعي حيًّا - وهو من أوائل المجاهدين في فلسطين - ،
لأثلج صدره - على مستوى آخر - نموذج الإيمان الصامد الجديد، متمثلاً
في صمود الصدور العارية العزلاء من شباب فلسطين الانتفاضة يقرعون
رؤوس الصهاينة بالحجارة، ويرهبون الترسانة اليهودية التي أرعدها الصمود
الباسل، وأفزَعها زحف الإيمان العاصف صباح مساء، من فتيان في عمر
الزهور يهدون في كل يوم عربون جهادهم جرحى وشهداء، لا ينون،
ولا يفترون، فالهبة من الموت قد زایلتهُم، بل إنهم إليه يركضون ليمهروه
أعراس الجنة والنصر.

(ب) الإخلاص في الممارسة والجرأة في الحق:

لعلَّ هذا المبدأ أجدر المبادئ السياسية - بعد العقيدة - بالتناول،
لأنه بيت القصيد في خدمة الرجل أمته أو تسخيرها لخدمته!

فكم خُذعت الجماهير - في عصرنا الحاضر - بكلام الساسة
المعسول، فوجدته فيما بعد كلَّه سراياً، لا رصيد له من الجهد أو أداء
الواجب بله التضحية.

كان السباعي يستلهم في مبدئه هذا سيرة النبي ﷺ وسير السلف
الصالح، والنماذج الرائعة التي سطروها لنا في خدمة الأمة وأداء الأمانة.
وطالما رقي المنابر، وأمسك بالقلم مذكراً بِسِيرِهِم العطرة، ونماذجهم
الفريدة في سياسة الرعية، يرسم لنا ذاك النموذج فيما يأتي:

«هو الحُكْم الذي يقول فيه رجل الدولة: القوي عندهم

ضعيف عندي حتى أخذ منه الحق، والضعيف فيكم قوي

عندي حتى أخذ له الحق. أطيعوني ما أطعت الله فيكم،

فإذا عصيته فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

هذا هو الحُكْم الذي يكون عرش رجاله في قلوب الأمة،
والثقة به من رضاها وثنائها، واستمراره وبقاؤه رهين بتأييد
الجماهير الواعية العاملة المؤمنة، لا بنفر محدود يرهبهم
الوعيد، وتغريهم الوعود»..

ثم يجلو للجماهير مقياس الإخلاص في القيادة السياسية المعاصرة
بقوله :

«وإذا أحببت أن تعرف مبلغ إخلاص القائد فابحث عن نظرة
أعداء الأمة إليه ومعاملتهم له، فإذا ألفتهم ينعتونه بالعدو
الشريف، ويعاملونه معاملة الخصم العنيد الشديد، فذلك
الذي أخلص للأمة جهاده، وصدقها ودّه، وبذل لها روحه
وجسده» (٢٤).

هذا هو النموذج الذي كان يدعو إليه في حُكم الشعب، وتترقبه الأمة
في صعودها بعد الاستقلال..

ولكن الغزو الفكري الأوروبي لم يدعِ المسلمين ليختاروا منهجهم
السياسي، وإنما وكل أرباب الغزو إلى من صنعوهم على أعينهم أن
يترسموا النموذج المقابل للنموذج الإسلامي، وهو الارتواء في أحضان
الأوروبيين ومحاكاتهم في عاداتهم وطرز حياتهم وتهتكهم بوصفهم الأقوياء
وأساطين الحضارة المعاصرة. وغاب عن هؤلاء - الذين يسمون تقليدهم
للأوروبيين تجديداً - أنهم يحققون للأجنبي خطته في توهين قوى أمتهم
وتفريغها من طاقاتها.

ولقد عانى السباعي - وعزمات الإخلاص تعصف في نفسه - وهو يرى
هؤلاء السادرين اللاهين يتصدرون الأمة ويوجهونها إلى ما يريد لها
المستعمر من ضعف ومهانة، فيهدر بالقول:

«فكل من يعمل بعد اليوم على أن يدخل في عقولنا أن حياتنا في مجارة الغرب بأزيائه وتهتكه؛ فهو غشاش.

ومن كان يُدخل في عقولنا أن حياتنا في طرح رداء الشهامة والرجولة؛ فهو غشاش.

ومن كان يدخل في عقولنا أن حياتنا بالانسلاخ عن آدابنا وشريعتنا - التي هي أس القوة ومبعث الحياة -؛ فهو غشاش.

ومن كان يدخل في عقولنا أن حياتنا في أن تكون نساؤنا رجالاً ورجالنا نساء؛ فهو غشاش دجال مدسوس على الأمة ولو كان منها.

وإذاً، فآدابنا الذين يفهمون التجديد على هذا النحو، وصحفهم التي تنشر لهم تجديدهم هذا المخزي الفاضح، وزعمائهم الذين يشدون أزهرهم في حركتهم.. كل أولئك غشاشون مدسوسون على الأمة، يلقون إليها السم في كؤوس الشراب، ويهدمون مواطن العفة والكرامة والقوة في نفوسها لتؤول إلى الدمار والخراب..

لا تعجب أيها القارئ، ولا تعجل بالحكم عليّ بالمغالة.. وإني أحيلك إلى آثار أولئك المجددين؛ فانظر، علّ تجد فيها دعوة لعفة أو نداء لفضيلة؟ وهل تجد فيها إلا الدعوة إلى الأدب المكشوف والتحرر الأخلاقي والإباحية المتناهية؟

ثم أحيلك إلى صحفهم، فهل تجد فيها إلا صور المتهتكات من بنات الغرب وممثلاته والمُتَّجرات بجمالهن ولحومهن وهن في حالة تنافى مع الأدب والخلق والطهر والحياء؟ وها هي إحدى الصحف السيارة تنشر في أحد أعدادها صورة

لفتيات مستحلمات على شواطئ البحر ليس على أجسادهن
إلا ما يستر أغلظ عوراتهن!! وأخرى تنشر صورة لأجمل
ساق!! وأخرى لأجمل فتاة؛ يتقربون بذلك إلى الشباب
الطائش الهائج، غير مباليين بما يجره عملهم على هذا
الوطن المنكوب وعلى هذه الأمة.. المحتاجة إلى من
يؤجج في أفئدتها نيران القوة والشهامة لا نيران الشهوة
والمتعة.

ثم أحيلك إلى سجلات زعمائهم، فهل تجد في صفحة منها
أن واحداً منهم أهاب بأولئك الدعاة الإباحيين أن يكفوا عن
هدم بناء الأمة؟! وهو لو قال لاستمع الناس قوله، ولو نادى
لأجيب نداؤه؟

وأغرب ما في الأمر أن هؤلاء الذين يهدمون حصون الأمة
بهدم عقافها، ويمهدون السبل لاستعمارها بالقضاء على
آدابها، لا يخجلون من الله ولا من الناس أن ينشئوا
المقالات الطنانة الرنانة في القذف بالاستعمار والتشنيع على
أهله.. ووالله لتفكير ساعة تفكيراً جدياً في توجيه الأمة نحو
العفة والدين وصلابة الأخلاق، أشد على المستعمرين من
ألف مقالة تصليهم ناراً حامية في أمة انتشرت بينها
الموبقات.

ويضرب السباعي مثلاً لعواقب هذه الحملات الخطائية الجوفاء من
أحداث عصره..

«ذلك أحد حكام السودان الإنكليز، وقد قيل له: إن فلاناً
يشتكم كثيراً في كل مجلس، فقال لهم: هل عنده طيارة؟
قالوا: لا، قال: فهل عنده مدفع؟ قالوا: لا، قال: فهل

عنده بندقية؟ قالوا: لا، قال: فهل عنده رصاصة واحدة؟
قالوا: لا، قال: وأزيدكم، إنه فوق ذلك ليس عنده إيمان
بما يقول، فأنا لا أخاف من شتيمة، وفي استطاعتي أن
أزيلها بقرشين لو كانت إزالتها تساوي القرشين..

وفي نظرة مبكرة إلى الأحداث، يهيب السباعي - قبل ضياع فلسطين
وأقطار عربية - بأبناء الأمة أن يعودوا إلى أصالتهم، وأن يستعينوا بإيمانهم
وجهادهم؛ وإلا فالعواقب وخيمة والهزيمة قادمة.. ويعالّن أصحاب
الأهواء من السياسة الذين يحاربون المستعمر بالكلام أن يحرروا أنفسهم
أولاً ليكونوا مؤهلين لعملية التحرير..

«الحق، أننا سائرون في طريق تربية أخط الأمم عقولاً عن
سلوك مثلها. وكلما فكرت في استعدادات الدول للحرب
وزيادتها في أساطيلها ومدافعها وطياراتها وجنودها، وقارنت
بينها وبين انقسامنا على أنفسنا وانصرافنا عما يجدد لنا الحياة
والقوة، أكاد أجزم بأننا في الحرب القادمة مقضي علينا
لا محالة إلا أن يتداركنا الله بلطفه.

أيها المسلمون؛ أنتم مقبلون على حرب سيصطلي بنارها
الشرقي قبل الغربي، فإن لم تعدّوا لذلك اليوم عدته كنتم
وقوداً لتلك النار وطعاماً لها، وعند ذلك تبوءون بخزي
الدهر وعار التاريخ!

أيها المسلمون، من اتكل على زاد غيره طال جوعه؛ ومن
نام في موطن الخطر طال هجوعه؛ ومن شغلته شهوته عن
كرامته كثرت حسرته؛ ومن صرفته أحلامه عن تحقيق آماله
ازدادت ندامته؛ ومن لم ينظر إلى الأمام قليلاً تردّى في
الحفر كثيراً.

وأنتم أيها المجددون لبنان الهوى، حاربوا أهواءكم قبل أن تحاربوا أعداءكم، وتخلصوا من استعمار الشهوة لقلوبكم قبل أن تتخلصوا من استعمار الغرب لبلادكم. وعجيب والله أن تحاولوا إطفاء النار بسائل «البنزين»^(٢٥)...

ويضع السباعي يده على الداء حين يضرب بضياح فلسطين مثلاً لفساد الأداء السياسي في البلاد بفعل المطامع الشخصية التي تحكم مآرب وأهداف السياسة لعهد...

«وليست قضية فلسطين إلا مثلاً للمطامع التي أدت إلى تلك الكارثة، لقد كان كل جيش حذراً من الآخر، كان كل ملك أو رئيس يخشى أن يستغل سواه هذه الحرب لو نجحت.

ولا أنسى - ومن واجبي أن أذكر هذه الحقيقة ليذكرها أحفادنا من بعد - أننا حين كنا في القدس، وأحسنا بخطر سقوطها في أيدي الأعداء، وبدأنا نرسل صرخات الاستغاثة، كان مما قاله لنا بعض الرؤساء الكبار في الجامعة: لا تهتموا بسقوطها؛ فسنستردها نحن وإخواننا...

ولمّا أوشكت القدس أن تسقط في أيدي الأعداء في إحدى المعارك الضارية، وأخذنا نستنجد برؤساء الجامعة في الليل... كان الجواب من أحد رؤسائها الكبار: إذا كنتم تشعرون بالخطر فانسحبوا منها! قلنا: ولكنها القدس! وفيها أربعون ألف لاجئ، ولو انسحبنا منها لثمت أفطع مجزرة في التاريخ؟! فكان الجواب: ولكنكم عندنا أغلى!...

وأقسم لكم أننا لو أصفينا يومئذٍ إلى تلك النصائح الغالية! لرأى العالم اليوم أعمدة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى وكنيسة القيامة^(٢٦)!

ثم يُتبع ذلك بسبب خطير كان وراء ضياع فلسطين: إنه تضليل
الساسة الجماهير، والسير وراء مؤامرات الدول الكبرى..

«لقد كانوا - في معركة فلسطين - يعطوننا النصر في بيان،
ويلحقون بنا الهزيمة في ميدان! . وكان كل شيء يسير وفق
ما تبيّت الدول الكبرى، ورؤساؤنا يحققون لهم أهدافهم
ثم يأبى فريق منهم إلا أن يصموا آذاننا بالعزم على مواصلة
الكفاح في البر والبحر والجو، كما كان يقول تشرشل تماماً
في أيام الحرب! . ولكن غيرنا كان يقول هذا والدموع تنحدر
من عينيه، أما بعضهم فقد كان يقول لنا هذا وأموال فلسطين
تملاً يديه، والضحك من جماهيرنا يكاد يمزق زئثيه»^(٢٧)!

بعد هذه التحذيرات التي يطلقها السباعي يخطّ لدعاة الإسلام
من مبدأ الإخلاص ومنزعه، منهج المشاركة الوجدانية لأقطار العالم
الإسلامي..

ففي ليلة العيد التي يتأهب فيها الناس لمباهج اليوم القادم يذكّر
المسلمين بأحزان الأقطار الإسلامية التي لم تعرف العيد لأنها تجالد
أعداء الله المستعمرين، وفي مقدمتها فلسطين المجاهدة^(٢٨).

ومن منطلق الإخلاص أيضاً يعرض لموضوع غاية في الأهمية
والخطورة هو: قيادة الأمة الفكرية، ولا يرى سوى العلماء المسلمين أهلاً
لهذه القيادة، ما استمسكوا بالحق، وأدركوا خطورة دورهم القيادي إذا
أخلصوا..

ولقد كان السباعي في خطبه ومحاضراته كلفاً بالعرض لسير العلماء
المخلصين ونماذجهم الرائعة في تاريخنا الزاهر، مبرزاً دورهم في قيادة
الأمة وحكامها إلى الحق.

فمما نعرض له من مواقفهم المخلصة في النصيحة للحكام، وإرشاد الأمة، ومقارعة الفساد، والصدع بالحق الموقفين الآتين:

«أولهما: موقف الإمام العظيم مالك رضي الله عنه من فتنة البيعة للمنصور..»

فقد كان المنصور أرسل للمدينة ابن عمه جعفرأ لياخذ البيعة من أهلها، فاشتد هذا في أخذ البيعة منهم كرهاً وقهراً، فأعلن الإمام مالك أن البيعة لا تصح إلا أن تكون عن طوع واختيار، فمن أكره عليها فيمينه غير منعقدة. فأذاه جعفر بالضرب لأنه اعتبر أقواله تحريضاً على الدولة.

فلما بلغ المنصور ما فعل جعفر أنكر عليه أي إنكار وعزله وأهانته وأرسل إلى مالك يستقدمه ليسترضيه، فاعتذر إليه مالك، فكتب إليه أن يوافيه في الحج القابل، فوافاه بمنى، فلما التقيا قال المنصور للإمام: «والله الذي لا إله إلا هو يا أبا عبد الله ما أمرت بالذي كان؛ ولا علمته قبل أن يكون، ولا رضيته إذ بلغني، وقد أمرت أن يؤتى بجعفر من المدينة مع المبالغة في امتهانه ولا بد أن أنزل به من العقوبة أضعاف ما نالك منه».

أفرايت، كيف كان موقف هذا الإمام الكبير من فتنة البيعة؟ وكيف لم يرض لنفسه أن يكون بمعزل عن هذه الفتنة السياسية؟ بل جهر برأيه فيها حتى ناله من الأذى ما تبرأ منه أمير المؤمنين واعتذر إليه اعتذاراً بالغاً في التذلل والاستعطاف؟

ثانيهما: رأى عمرو بن عبيد الزاهد العالم الورع أن الولاة في كثير من الأمصار قد أخذوا في العسف والجور؛ فدخل على المنصور..

وكان مما قال له: «يا أمير المؤمنين إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يُحكم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ». فبكى المنصور. فقال سليمان بن مجالد وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو قد شققت على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين من هذا؟ قال أخوك سليمان بن مجالد.

قال عمرو: «ويلك يا سليمان إن أمير المؤمنين يموت، وإن كل ما تراه يفقد، وإنك جيفة غداً بالفناء لا ينفعك إلا عمل صالح قدمته، ولقُرْبُ هذا الجدار أنفع لأمر المؤمنين من قربك؛ إذ كنت تطوي عنه النصيحة وتنتهي من ينصحه!». يا أمير المؤمنين إن هؤلاء اتخذوك مسلماً إلى شهواتهم.

قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادع لي أصحابك أولهم.

قال: أدعهم أنت بعمل صالح تحدثه، ومُرْ بهذا الخناق فليُرفع عن أعناق الناس، واستعمل في اليوم الواحد عمالاً كلما رابك منهم ريب أو أنكرت على رجل عزلته ووليت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلا العدل ليتقربنَّ به إليك من لا نية له فيه.

تلك هي والله قوة العلم وسلطانة، وأولئك هم الذين أعزوا دين الله وأعلوا كلمته!

إن العالم إذا شعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه وتجرد من حظوظ نفسه وشهواتها ولم يذكر إلا الله تعالى كان قوة إلهية تتخاذل بجانبه قوى البشر جميعاً!.

ثم يوجه لمواقف جهاد العلماء، حينما كانوا يتقدمون الأمة في معامع القتال ذوداً عن دين الله وحماه..

«أما جهادهم بالسيف في سبيل الله ونصرة دينه، فحديث طويل، يكفي أن أذكر لك منه:

أن عبد الله بن المبارك الإمام العالم التقى كان يحج سنة ويغزو سنة، حتى مات وهو منصرف من الغزو.

وأن الإمام الشافعي، رضي الله عنه، سافر إلى الإسكندرية ورابط بشغرها سبعة أيام، ووجهه إلى البحر في مراقبة الخطر.

وأن الإمام البخاري أمير المؤمنين في الحديث كان يرابط في شغل حربي اسمه (فرير)، فإذا جن الليل أخذ في جمع الحديث وعبادة ربه.

وأن الشيخ الإمام ابن تيمية ركب من دمشق إلى مصر يستصرخها على التتار ثم عاد بعد أن جيش الجيوش وتقدم صفوف القتال.

ومثل هؤلاء الأئمة كثيرون لم يشغلهم الجهاد في العلم عن الجهاد في إعلان كلمة الله ورد الغارات عن بلاد الإسلام.. فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أسمى عظمتها وما أكبر شعورها بواجبها! (٢٩)».

ويهيئ السباعي بعلماء اليوم أن يدركوا موقعهم الفكري وألا يتخلوا عن دورهم القيادي، فالأمة ترتقب نزولهم إلى الميادين العامة كأسلافهم الميامين..

«فمن الواجب أن يشعر علماؤنا جميعاً بالمسؤولية الكبرى، وأن يتقدموا الصفوف بإخلاص وحزم حتى تمتلئ بهم قاعة البرلمان، وتغص بهم دواوين الحكومة، وتجتمع بأيديهم مقاليد الأمور، وتكون لهم تلك المنزلة التي تخلّوا عنها من قبل...»

ألا إن هذا أمل من آمال الشباب لست أراه إلا قريب المنال لو صدقنا الله في طلبه، فليبرز علماؤنا إلى البلدان كما برز من قبل العز بن عبد السلام والفضيل ومالك وابن عبيد وأمثالهم، وليتجرّدوا من الهوى كتجرّدهم، وسيجدون من تأييد الله وتعزيب الشعب - المسلم بفطرته - ما يعقد على جباههم أكاليل النصر والظفر إن شاء الله تعالى»^(٣٠).

(ج) الاستقلالية:

نشأ السباعي منذ نعومة أظفاره على الإباء والاستقلالية والحرية، ومنحته نشأته الإسلامية اعتزازاً بإيمانه واستقلاليته، فما كان يطيق الاستبداد والاستعباد والهوان.

ولقد شهدنا في حياته كيف كان يقاوم الاستعمار في كل بلد يحلّ فيه، ويبذل لذلك ثمناً من نفسه معاناة ولأواء. وكيف كان يقاوم الاستبداد وكبت الحريات في كل عهد شهده، فيلاقي من ذلك السجن والنفي.

إنه خُلِقَ فُطِرَ عليه، ومبدأ عزة إيمانية اعتنقه في حياته؛ فلا عجب أن تصطبغ مواقفه السياسية بسيما الإباء والاستقلالية وعنفوان الحرية...

بهذه النظرة كان يؤلم السباعي ما يجده لعهد - وهو في تفتح الصبا - من خنوع شيوخ السياسة في مطلع استقلال البلاد، وقناعتهم من حقوق الشعب بالفتات أمام ضغط الدول الطامعة... وتتسع أمام نظره الفجوة بين

عزمات الشباب التائق إلى التحرر والاستقلال وبين واقعية هؤلاء الشيوخ
الهامة المريضة فيقول :

«ما أعتقد أن جيلين اصطدما في عصر واحد كما يصطدم
الشباب العربي مع شيوخ السياسة العربية في عصرنا
الحاضر: فشيوخ السياسة عندنا نشؤوا في عصر الضغط
والإرهاق، وفي عهد التملق والحذر والمداراة. فلما خاضوا
معركة السياسة ألفوا أنفسهم أمام دول طامعة قوية تُدِلُّ بقوتها
وتتبه بكبريائها، ولم يحاولوا أن يكونوا خياليين في مطالبهم
من هذه الدول فقصروا حركتهم على ما يمكن تحقيقه
من مطالب الأمة، ولم يشاؤوا أن يصطدموا مع
المستعمرين إلا مكرهين! فإذا أصابهم نفي أو سجن أو عنت
أو عذاب، كان ذلك نتيجة تسعف المستعمر أكثر من
أن يكون نتيجة عملوا لها بأنفسهم وعرفوا خاتمتها وهم في
أول خطواتها.

ومن حسن حظ هؤلاء الزعماء أن كان في الأمة بقية من
إيمان! حفزها للعمل والتضحية، ونفخ فيها روح الأنفة
والكرامة، ثم ألقاها في أتون الثورات والمعارك
والاصطدامات. فقوافل الضحايا والشهداء والجرحى
والمشوهين، وآثار الخراب والكل واليتم والفقر، إنما كان
نتيجة لازمة لثورة الأمة النفسية التي أوجع الإيمان أوارها
ولم يكن نتيجة روح أثارها زعمائنا الشيوخ، ولا خطط
أحكموا وضعها!

ولما حاول المستعمرون أن يفاوضوا الأمة الثائرة لم يجدوا
أمامهم إلا هؤلاء الشيوخ، وهم على وطنيتهم وإخلاص كثير

منهم ورغبتهم في إنقاذ أمتهم لم يكونوا على قدر كبير من متانة الأعصاب؛ لأنهم في الواقع كانوا يجهلون حيوية الأمة، وطبيعة الاستعمار، ومن ثم كانوا يعتقدون بضعف أمتهم، وقوة أعدائهم، فكان أقل ما يلوح لهم به المستعمر كافياً لأن يعدوه كسباً عظيماً ونصراً مبيناً.

كذلك فعلوا عام ١٩٣٦م في سوريا وفي مصر، إذ كانوا ينعثون ما حصلوا عليه من معاهدات يومئذ بينهم وبين المستعمرين بأنها وثائق الشرف والاستقلال! هذا بينما لم يتورعوا عن إضافة ذبول سرية للمعاهدة، تفقد كل ما بقي للأمة فيها من مظاهر الاستقلال».

بعد هذا التحليل السياسي الهادئ لا نلبث أن تطالعنا عاصفة الإخلاص لهذه الأمة ولقضاياها، تنفجر في نفس السباعي - في عهد شبابه - كلمات حارة تروِّي آمال الشباب الحر ومطامحه في الاستقلال، وتصحح المفاهيم . . .

«إننا نمسك اليوم بالعصا نقرع بها ظهور الخوالف، ونهدد بها سلطان الباغيين ولكن شيوختنا الكبار، يريدون أن يحملوا الزهور والرياحين ليشهد لهم المستعمر أنهم أهل للحكم ومحل للثقة، ومهما حاولوا أن يقتنعونا بسداد آرائهم، وصدق حكمتهم فنحن مع اقتناعنا بذلك نريد أن نسير!

نريد أن نسير! فلا يبقى في الأمة ضعيف ولا خوَّار ولا جبان.

نريد أن نسير! فلا يبقى في البلاد غش ولا كذب ولا استهتار.

نريد أن نسير! فلا يبقى في الدولة اختلاس ولا رشوة
ولا استئثار.

نريد أن نسير! فلا يبقى في الوطن أجنبي يمسك بخناقنا باسم
«التحالف» بعد أن يش من ذلك باسم «الاستعمار».

نريد أن نسير ورؤوسنا مرفوعة، وكرامتنا مصونة، وراثتنا
محفوظة، وقلوبنا مؤمنة، وأيدينا طاهرة، ورسالتنا تشق
طريقها إلى القلوب لتنقذ الدنيا مرة أخرى!

«أيها الساسة الشيوخ إننا نريد أن نسير، فأفسحوا لنا
الطريق»^(٣١).

وفي نطاق المعركة الدبلوماسية مع المستعمر التي تلت معارك
الشعب الجهادية التي تُوِّجت بالتحريض؛ ينادي السباعي الشعب أن يدلي
برأيه فهو صاحب القضية وريبب الكفاح، ولا يجوز لمن تصدروا الأمة
باسمه أن يغفلوا دوره، ويكتبوا رأيه أو يمارسوا الوصاية عليه..

«نحن في كفاح مع المستعمر لا ينتهي حتى تنتهي كل آثاره
في بلادنا العربية.. وإذا فتحت لنا اليوم في حياتنا الجديدة
آفاق العمل الدبلوماسي، وميادين المؤتمرات الدولية
والعلاقات السياسية، فإن من الضرر البالغ بحقنا أن نقف عند
هذا الحد فحسب، وأن نغفل الناحية الشعبية التي ما برحت
قوام الحركات السياسية والاجتماعية في مختلف أنحاء
العالم.

إن أقطاب العالم والمتحكمين في مصائره اليوم يحسبون
حساباً لثورة الجماهير ونقمتهم، فإذا وقفت وفودنا تناضل
عن حقها بالطرق القانونية والدولية، ثم كتب لها أن تخفق

في الوصول إلى بغيتها . فإن الواجب الوطني أن تثبت شعوبنا
تأييدها لها ، واهتياجها لإخفاقها ، وتصميمها على الوصول
إلى حقوقها ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، إن سلماً وإن حرباً ، حتى
يكتب لها الله الفوز ولأعدائها الخذلان ، ويوم تقف الشعوب
هذا الموقف المهتاج ، يومئذ يبطأ طئ الظالمون رؤوسهم
ويخففون من غلوائهم ، ويحسبون حساباً لمنافسيهم في
الاستعمار ، ولمصالحهم في البلاد .

هذه حقيقة نؤمن بها نحن الشباب الصغار في أعمارنا
المندفعين في ثورتنا ، المؤمنين بحق أمتنا ، السائرين إلى
المجد بأعصاب لم تهن ، وبعزائم لم تفتر ، وبظهور لم تنحن
حتى الآن .

وقد كان من حق الكبار في أعمارهم ، المحنكين في
تجاربهم الذين يمنون دائماً على الأمة بأنهم قادوها
إلى مواطن الظفر ، أن يفهموا هذه الحقيقة قبل أن نعمل لها
نحن الصغار ، وأن يسلكوها قبل أن نسلكها نحن
الناشئين ! . . ويومئذ لا تجيز لهم الوطنية أن يخدموا حركات
الشباب . ولا أن يهتاجوا لصراحة الأمة ، ولا أن يرسلوا
«بطاقات» التهديد ! ولا أن يقولوا نحن حكام الأمة لا يحق
للشعب أن يتكلم إلا إذا تكلمنا ، ولا أن يرفع صوته إلا إذا
شئنا ، ولا أن يعلن عزمه على الاستبسال بحقه (الاحتفاظ به)
إلا أن نأذن له بذلك» . . .

ثم يدركهم بأن الاستعمار كان ينهج هذا المنهج من الاستبداد ، وكان
يلقى المقاومة منهم لذلك ، فلماذا يستعيرون أسلوبه في إخماد صوت
الشعب؟! .

«فيم تكبتون الشعور، وفيم تهددون العاملين، وفيم تفضبون من الذين يبضون وجوه وفودكم أمام الغاصبين والظالمين؟ لقد كان الاستعمار يسلك مثل هذه السبل، فكانت تنصب عليه اللعنات وتثار من حوله الدنيا، ويكون أول الناقمين عليه هم الذين يرضون اليوم أن يقفوا مثل هذا الموقف! فهل نسي هؤلاء تاريخهم؟ وهل نسوا خطبهم ومقالاتهم؟ وهل نسوا اجتماعاتهم ومظاهراتهم؟ وهل يكون كبت شعور الأمة حراماً على المستعمرين، وحلالاً لفريق من أبناء الأمة حاكمين أو منفذين؟!» (٣٢).

الاستقلالية تلد الحرية، والحرية - في ظل الهدي الرباني - تلد الكرامة والعزة، فإذا أصيب قطر عربي أو مسلم في حريته أحس السباعي بوخز الكرامة في جنب الأحرار..

إنه يوجه الكلمة الآتية إلى لجنة نصرة «الجزائر» بسيلان في مؤتمرها الكبير عام ١٩٥٦م الذي عقد انتصاراً لجهاد شعب الجزائر ضد المستعمر الفرنسي الغاشم.

وفي خطبته هذه نموذج لمواقفه الاستقلالية والحرية:

«أيها الإخوة المؤتمرون!

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد، فإن اجتماعكم هذا لنصرة قضية الجزائر. دليل جديد على أن الإنسانية لم تعد ترى في اضطهاد الشعوب، وتخريب البيوت، وقتل الجماهير؛ ومقاومة أمانى الحرية والاستقلال، جرائم داخلية ينحصر الاهتمام بها في أمة دون أمة، بل هي جرائم دولية ترتكب في حق الإنسانية قاطبة، ومن واجب كل إنسان كريم

أن يرفع صوته باستنكارها، ويتنضم إلى الأحرار في كل بلد لتقديم العون للمضطهدين والمعذبين.

وإذا كانت فرنسا هي التي تلتطخ أيديها بدماء الأحرار من رجال الجزائر وأبطالها، وهي التي تسود صفحاتها بما تنشره في الجزائر من رعب وتخريب؛ فإن بقية الدول الكبرى وشعوب العالم قاطبة مسؤولون عن استمرار هذه الجرائم، فالجزائريون لا يطالبون إلا بحرية تقرير المصير، وهو المبدأ الذي وافقت عليه ثمان وسبعون دولة من دول العالم الممثلة في هيئة الأمم، فكيف يكون حق الشعوب في تقرير مصائرهم، إذا كانت ستقابل بالنار والحديد والإذلال والتشريد كما يقابل شعب الجزائر اليوم؟!».

ووفاء لمبدئه في الحرية والاستقلالية، لا يفوته أن يعقد، في خطبته هذه المرسلة إلى المؤتمر، رابطة للأحرار في العالم يذودون عن كل شعب مضطهد، إنفاذاً لأمر الله بنصرة الحق والذود عن المستضعفين في الأرض، والتماساً لرضاء الله وعونه...

«إننا لا نجزع من مصير معركة الحرية في الجزائر! فهي متجهة إلى مثل ما تنتهي إليه كل معركة بين الحرية والظلم، إن الجزائر متحررة - يوماً ما - بإذن الله، وسيأخذ رجالها أماكنهم في المجالس الدولية ليمثلوا بلادهم بجانب ممثلي الدول الكبرى... نحن لا نشك في هذه النتيجة؛ ولا نفقد الثقة بهذا المصير...»

ولكننا نجزع على أنفسنا... نجزع على مبادئنا وشرائعنا... نجزع على المثل الإنسانية التي تدوسها فرنسا وحلفاؤها في معركة الجزائر... نجزع أن نكون محلاً لغضب الله ونقمته

إذ نسكت عن أبشع مجزرة عرفها التاريخ، والساكت عن الحق شيطان أخرس، والمقصر في نصره المظلوم وهو يملك نصرته، شريك للظالم في طغيانه وعدوانه، فلترفع الشعوب أصواتها باستنكار هذا الظلم، ولتقدم كل ما تستطيع من عون لأولئك المجاهدين الأحرار.

فلنمسك بيد الجزائر قبل أن يجهز على ضحيته! ولننضم إلى مواكب الأحرار ما دام الجزائريون قد أبوا إلا أن يسيروا في موكب واحد، يكشفون الأقنعة البيضاء عن وجوههم السوداء! ويحملون رؤوس المناضلين على أسنة حرايبهم وهم يرفعون عقائرهم بأهازيج السلام.

لنكن مع الجزائر... كي نكون مع الله أو يكون الله معنا» (٣٣).

(د) توحيد الوجهة والهدف:

ولعله من أهم المبادئ السياسية التي انتهجها السباعي في حياته، فلقد وجد السباعي أن جل كوارث العرب والمسلمين إنما تنبع من تفرقهم وعدم اجتماعهم على كلمة سواء، مع أن الأعداء ينفخون في نار فرقتهم، ويعملون بدأب على زحزحتهم عن طريقهم الواحد وهدفهم المشترك.

ولقد دأب السباعي منذ شبابه يعمل على جمع الكلمة وحرص الصفوف، وكان لا يبدأ في ذلك من القمة وإنما يشرع من القاعدة، كان يسعى إلى تجميع الشباب حول إنجاز معين توطئة لتجميع الأمة حول هدف واحد وتوثيق وحدتها.

فمن أمثلة دعوته إلى الاجتماع ووحدة الهدف كلمته الآتية المبكرة التي نادى بها جماهير الشباب من مختلف الأقطار العربية، وكان مما ورد في كلمته:

«ومما لا ريب في أن الاجتماع من أوكد أسباب الألفة والمحبة، وأننا معشر الشباب تستقبلنا مهمات كبيرة، وتعلق علينا البلاد آمالاً عظيمة، وتنتظرنا الأمة بفارغ صبر لنقودها إلى ميادين الجهاد وننقذها من بين مخالب الذئاب، وننهض بها من كبوة الذلة ووهدة الجهالة. ومحال أن ترجو الأمة على يدنا ذلك الخير ما لم نُحكم بيننا وأواصر الإخاء ونوطد دعائم الثقة والمحبة، حتى إذا أُلقي على عواتقنا عبء القيادة سرنا بقلب واحد وعزيمة واحدة يحدونا أمل واحد وغاية واحدة»^(٣٤).

ثم يتدرّج من ضرورة وحدة المجتمع الصغير إلى وحدة المجتمع الكبير؛ فينادي بضرورة اجتماع كلمة المسلمين وتكتلهم على أساس من شرع الله المتين؛ ليكون لهم وزنهم الدولي ودورهم في أمان العالم واستقراره:

«إننا نشهد اليوم الاتحاد الأوروبي والشيوعي، واتحادات أخرى تقوم على اتحاد فكري، والإسلام أولى بأن تجتمع عليه الشعوب من الرأسمالية والشيوعية وغيرها؛ الإسلام دين تنتظم فلسفته شؤون الحياة ويزيد على تلك المذاهب الفكرية أنه متصل بأعماق النفس، تملؤه روح كريمة، وليس الإسلام فكرة عدوانية أو عنصرية ولكنه فكرة إنسانية. ليس التكتل الإسلامي الذي دعت إليه حاجة المسلمين في هذا العصر تكتلاً دينياً بالمعنى الذي يفهمه الغربيون أو بعض المتعصبين من الشرقيين. ماذا ينشأ عن تكتلنا نحن المسلمين؟

إننا إذا تكتلنا لن نوقع في الدنيا مأساة كمأساة فلسطين، فنخرج شعباً من أرضه لنحل محله شعباً آخر، إننا إذا تكتلنا

لن نوقع في الدنيا مأساة كمأساة المغرب العربي المسلم،
إننا إذا تكتلنا سنعلن ما أعلنه عمر بن الخطاب قبل أن تعلنه
هبيشة الأمم حين قال لأمير مصر الفاتح: (متى استعبدتم
الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟). إننا إذا تكتلنا سنقول
لأعدائنا ما قاله نبينا ﷺ لأهل مكة المغلوبين: «اذهبوا فأنتم
الطلاء».

إن من خير الإنسانية أن نتكتل نحن المسلمين، فنحن اليوم
خمس مئة مليون على وجه الأرض ومن الخير للإنسانية أن
نكون أقوياء أصحاب كرماء أعزاء، وما شقيت الإنسانية
إلا يوم انحططنا نحن المسلمين، إن الضعف يغري
بالعدوان، فلو كنا أقوياء لما اثتلّت الدول الكبرى على
ثرواتنا ومصالحنا وأراضينا؛ يجب أن نصير أقوياء اليوم
لنمنع الحروب بين الدول المتحاربة التي تتطاحن علينا وعلى
خيرات بلادنا» (٣٥).

ويؤكد على ضرورة وحدة الهدف والوجهة في كل مناسبة وعبر كل
حدث، فيوجه إلى مؤتمر القمة للأقطار العربية المنعقد في أحلك
الظروف، حيث تتحدى دولة اليهود العرب جميعاً، وتحول نهر الأردن
إليها - (كلمة يضمنها مقومات الفوز في المعركة)، إنها:

أولاً: الاجتماع على تقوى الله وتحكيم شريعته، فيقول:

«إن النصر بين قوتين غير متكافئتين لا يتم إلا بعون من الله
وتوفيقه، وعون الله لا يُعطى إلا لمن اتقاه وأتاب إليه ولزم
حدود شريعته فيما أمر ونهى، فإن لم يفعل المحاربون ذلك
خذلهم وتركهم إلى أنفسهم وأمضى فيهم سُنَّته في الحياة:
الأقوى يغلب الأضعف، والأكثر يغلب الأقل، والمستعد

يهزم المتواني، والأمضى سلاحاً يفوز على الأضعف سلاحاً وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَضْرَكُمْ وَيُنِيتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ولقد وعى المسلمون الأولون هذه الحقيقة تماماً، فكانت نصب أعينهم في جميع معاركهم التي انتصروا فيها، (بوضع ذلك كتاب عمر إلى سعد بن أبي وقاص حين وجهه لحرب فارس، وهو من أئمن ذخائر الفكر الإسلامي المحارب) (٣٦).

ثم يعرض لثاني مقومات الفوز، وهو: الاجتماع على أخلاق الإسلام:

«إن للحرب أخلاقاً لا يُنال النصر إلا بها، ومن أهمها وأقواها: شدة البأس، ورجولة الأخلاق، والصبر عند اللقاء؛ فإن انصرفت الأمة إلى حياة اللهو والعبث والمجون، واندفعت وراء غرائزها وشهواتها، وتركت لسفهاها أن يفسدوا أخلاقها، ولمجانها أن يثيروا غرائزها، ولعابثيها أن يصرفوها عن حياة الجد والعمل والاستعداد؛ كان نصيبها الهزيمة المؤكدة مهما تبجحت بالأقوال، وقرعت الطبول، وملأت الدنيا صراخاً وغروراً وهياجاً: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدْمَرْنَهَا تَدْمِيرًا﴾» (٣٧).

وبعد هذا الكشف عن أسرار النصر المتمثلة في الاجتماع على شرع الله وأخلاق الإسلام يرسل - بعد هذه التعبئة - نداءً حاراً إلى جمع الكلمة والاعتصام بالتقوى ورص الصفوف، ثقة منه بأن القلوب المؤمنة إذا ما تجمعت حول كتاب الله، وصدقت ما عاهدت عليه فسيكون لها النصر بإذن الله...

«لو كَبُرَتْ قلوب المسلمين - كما تكبّر ألسنتهم بالعيد - ،
 لغيّروا وجه التاريخ، ولو اجتمعوا دائماً كما يجتمعون لصلاة
 العيد، لهزموا جحافل الأعداء، ولو تصافحت نفوسهم،
 كما تصافح أيديهم، لقضوا على عوامل الفرقة، ولو تبسمت
 أرواحهم، كما تبسم شفاههم، لكانوا مع أهل السماء،
 ولو ضحّوا بأنانياتهم كما يضحّون بأنعامهم، لكانت كل
 أيامهم أعياداً» (٣٨).

ثم يوضح السباعي بعد هذا عواقب الفرقة والتناؤ الذي حدّر منه
 البارئ في كتابه: ﴿وَلَا تَتَزَعُّوْا فَنَفْسُكُمُورٌ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وتتضح مظاهر هذه الفرقة في النظر والفكر، ثم في السياسة والتطبيق
 لعصره. أما الأولى: فقد عمل عليها الغزو الفكري الأوروبي في غفلة من
 العرب والمسلمين ووهنهم، فما شعروا إلا وهم مشتتون ممزقون في
 أفكارهم ونظراتهم وأهدافهم، متناؤون في اتجاهاتهم وخط سيرهم.

ومصدر ذلك، كما يرى السباعي: الثقافة الأوروبية التي غزت أبناءنا
 في تعليمهم فصرفتهم عن الفكر الموحد، وجعلتهم أشتاتاً، فمما يقوله:

«وبعد، فإن نكبة الإسلام في تعليم أبنائه في هذا العصر نكبة
 لم تصب بها أية أمة على وجه الأرض، فبينما تجد أمة
 كالفرنسيين أو الألمان أو الإنكليز مثلاً تحرص على أن
 تجعل ثقافة أبنائها ثقافة واحدة مشتركة مرتكزة على الاعتزاز
 بمفاخر قوميتهم، وبينما تجد الكاثوليك أو البروتستانت
 يحرصون على أن يفرسوا في قلوب ناشئتهم حب دينهم
 ووجوب الدفاع عنه، إذا بك تجد المسلمين مهملين
 تثقيف عقول أبنائهم بثقافة الملة، غافلين عن ملء قلوبهم
 بحب السلف وحضارتهم، حتى ليذهب بك بعض المساكين

إلى أن ذلك عمل رجعي لا يليق بأهل هذا القرن
العشرين!...

ومن هنا تقاسمتنا الأمم الأخرى: فالأمريكان والإنكليز
يعلمون بعض أبنائنا، والفرنسيون والإيطاليون يعلمون بعضاً
آخر، وهكذا دواليك، فإذا أُلقيت نظرة على المثقفين من
أبناء المسلمين فلن ترى هنالك كتلة واحدة تشترك في ثقافة
واحدة وغاية واحدة يعتمد عليها المستقبل في إقامة بنائه
كما هو شأن الأمم الأخرى، وإنما ترى مجموعة متخاذلة
القوى، منحلة العزائم متضاربة الميول والأهواء؛
فهذا فرنسي في ثقافته، وذاك بريطاني في تربيته، وآخر إيطالي
في عقليته، وآخر شيوعي في آرائه؛ فليس بغريب أن ينكر
الأول دينه، ويجحد الثاني قوميته، ويكفر الثالث بحضارته،
ويثور الرابع على نظم الإسلام وتقاليده!!

وما هذا الذي نراه من بعض المتصرفين في شؤون الأمة: من
جحود للدين، وتباعد عن خدمته، وعمل على إضعافه،
أو إيماءته في نفوس أبنائه؛ إلا أثر من تلك الشقافات
أو السخافات الأجنبية التي اختزنوها في أدمغتهم يوم كانوا
طلاباً في معاهد التبشير!...

فقل لي بربك! أمة هذا حال شبابها؛ كيف ترجو منهم العمل
على رد العدوان عنها متكاتفين مجتمعين؟! (٣٩).

ويرى بأن الفرقة في النظر والفكر أفضت إلى الفرقة في الواقع
المشاهد...

ويضرب لهذا مثلاً من عهده بما يجري من نزاع في الأقطار
الإسلامية التي انفرط عقد وحدتها بإلغاء أتااتورك الخلافة العثمانية عام

١٩٢٤م، ومنها الحرب الأهلية في اليمن عام ١٩٦٢م التي يقتل فيها المسلم أخاه، ويسود الدمار الجميع ﴿يُخْرِوْنَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ﴾ ويحطمون ثرواتهم، لا شيء إلا لمآرب الساسة والاختلاف على الحكم، مما كان يمكن أن تحل قضاياها عن طريق الحوار والتفاهم ..

«في اليمن حروب ومعارك تخرب فيها البيوت، ويقتل فيها الرجال، ويشرد فيها الأطفال، ويؤيم فيها النساء، والأرض التي تجري في جبالها وسهولها هذه المعارك، أرض عربية من أعزّ ديار العربية والإسلام، فقيم هذا كله؟ أهى حرب دفاعية يدافع فيها الشعب اليمني عن استقلاله وكيانه وحرية؟ لو كان كذلك لكان من واجب كل عربي ومسلم أن يمد الشعب اليمني بكل ما يملك من رجال ومال وسلاح ..

إنه - بكل أسى - ليس شيئاً من ذلك كله .. وإنما هو صراع بين أبناء وطن واحد، ويزيد هذا الصراع ضرماً ما ترسله بعض الدول العربية إلى اليمن من رجال وأسلحة وذخائر وطائرات، بحجة حماية الثورة وإنقاذ شعب اليمن، وما كنا نعهد قبل اليوم أن إنقاذ شعب يعني تقتيله وتخريب دياره، وتشريد أطفاله ..

ومهما يكن من أمر الصراع بين الثورة وبين النظام القديم، فإن الشعب اليمني وحده هو الذي يختار الحكم الذي يريده، والحياة التي يحب أن يحياها، وإن من واجب الأخوة الإسلامية والعربية، أن تتوسط بين الطرفين المتنازعين لحقن الدماء وإرساء قواعد السلام والأمن والازدهار في تلك البلاد الشقيقة»^(٤٠).

ثم يتساءل: أين الأخوة العربية والإسلامية ترأب الصدع، وتوقف اقتتال الأشقاء وتوفر الجيوش والأسلحة للمعركة الكبرى مع اليهود؟!.

وأخيراً يعرض السباعي لثمرة الوحدة واجتماع الكلمة ممثلة في ثورة الجزائر على فرنسا، تلك الثورة التي ضربت المثل الأروع في انتصار الشعب المؤمن الأعزل على أقوى الدول الأوروبية العسكرية آنذاك. وكان سبب النصر التحام الشعب وتراص صفوفه؛ لقد نهض بها كل فرد وكل بيت جنباً إلى جانب فخاضها الشعب كتلة مؤمنة متراسة، ومَهَر حريته مليوناً ونصفاً من الشهداء.. يقدم لذلك بقوله:

«لم يشهد جيلنا المعاصر حدثاً أروع، ولا أفرح، ولا أبلغ في الدلالة ولا أبعد في الأثر، من النصر الذي أحرزه شعب الجزائر بعد ثورته الدامية التي استمرت سبع سنوات وبضعة شهور».

ثم يتحدث عن سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر، وكيف مارست من الأساليب الوحشية ما جاوز الحدود في قمع الشعب الجزائري ومحاولة إبادته.. لكن بطولة الشعب الجزائري المسلم الصامد أقوى من ذلك كله...

ثم ينقل إلينا أسباب النصر من اعترافات الأعداء الذين أرغمهم الشعب المؤمن المتحد الصامد على النطق بالحقيقة والاعتراف بمعجزة الإيمان..

«لقد اعترف كبار رجال فرنسا العسكريين والسياسيين أن أكبر حائل وقف بينهم وبين ما يحاولون - من فَرَسَةِ الشعب الجزائري وتنصيره وتهجييره وإفناؤه - هو القرآن كما عبر بعضهم، والإسلام كما عبر بعضهم الآخر، ومحمد ﷺ

كما عبر آخرون . والشعب الجزائري وهو وريث التخلف والانحطاط منذ مئات السنين قبل الاحتلال الفرنسي، وضحية التآمر على دينه ولغته بعد ذلك، لا يعرف الإسلام معرفة الأجيال الأولى في تاريخ الإسلام، ولكنه يعرف الإسلام كدين يحكم بالكفر على كل من رضي بولاية غير المسلمين عليه، ويعرف القرآن ككتاب يثير في المؤمن أقوى ما يهيج فيه حب الاستشهاد في سبيل الله شوقاً إلى الجنة ونعيمها ومن فيها من الأنبياء والشهداء والصالحين، ويعرف محمداً صلوات الله وسلامه عليه كنبي يُحَبَّب، ورائد لا يخطئ الطريق أبداً».

ثم يجلي أسرار اجتماع الكلمة على الإيمان في الشعب الجزائري، وكم تستطيع الشعوب العربية والإسلامية أن تحتل من منزلة في العالم لو اجتمعت على القرآن والإسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام..

«الإسلام والقرآن ومحمد ﷺ - في ذلك المفهوم المحدود الذي فهمه الشعب الجزائري المسلم - كانوا سبباً في تحطيم جميع المؤامرات الفرنسية الجهنمية ضد كيان ذلك الشعب المسلم طيلة عهد الاحتلال، فكيف لو عرف الشعب الجزائري الإسلام كأكمل نظام، والقرآن كأقوم دستور، ومحمداً كأجبح رسول. أكان يظل في الأسر والعبودية مائة واثنين وثلاثين سنة؟

ولو أن كل شعوب العرب والمسلمين عرفت الإسلام والقرآن ومحمداً كذلك، أكانت ترضى أن تكون في ذيل ركب الحضارة وهي التي أعدها الله لتكون رائدتها وحاملة لوائها»^(٤١)!.

٣ - نصررة قضايا العالم العربي والإسلامي

لعلّ من المألوف لدى الساسة في أقطار العالم أن يكرس السياسي جهوده وخدماته لقطره ودولته، فيكون محل اهتمامه وميدان ممارساته ونجاحه السياسي، إلا صاحب الدعوة؛ فإنه يصب جهوده السياسية ومشاريعه حيث تقتضي ذلك دعوته وفكرته أنى كان القطر أو الدولة.

لقد كان السباعي وهو رائد الدعوة الإسلامية في بلده، لا يقصر جهده ومشروعه السياسي على قطره، وإنما كان يوجهه إلى كل بلد عربي وإسلامي يحتاج إلى مؤازرة وعون.

ونعرض فيما يأتي لطرف من نشاطه في نصررة العالم العربي والإسلام ودعم قضاياهما:

(أ) رعاية المؤتمر الإسلامي الشعبي:

رعى السباعي بوصفه المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين المؤتمر الإسلامي الشعبي المنعقد في دمشق عام ١٩٥٦م.

وكان قد انعقد المؤتمر في القدس عام ١٩٥٣م تحت شعار حماية المسجد الأقصى، وهو مؤتمر مثل العالم الإسلامي فيه قادة الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، من جاكارتا في أندونيسيا شرقاً إلى الدار البيضاء بالمغرب غرباً. وكان من أبرز الأعلام الذين حضروه: أبو الأعلى المودودي (باكستان)، علي أبو الحسن الندوي (الهند)، محمد ناصر (أندونيسيا)، البشير الإبراهيمي (الجزائر)، أمجد الزهاوي (العراق)، مصطفى السباعي (سورية)، سعيد رمضان (مصر)، وسواهم.

وقد ضمّ المؤتمر جُلة علماء سورية والعاملين للإسلام فيها، وبحث المؤتمر سبل نصررة أبناء فلسطين ضد العدو الصهيوني والحفاظ على

المسجد الأقصى ، كما بحث سبيل نصره الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي ، واتخاذ كافة الإجراءات المادية والمعنوية لنصرة هذين القطرين .

وقد زار أعضاء المؤتمر المجاهدين على خط النار في بيت المقدس ، وطاف ببلدان وقرى الضفة الغربية^(٤٢) .

وكان يتوقع لهذا المؤتمر أن يؤدي أدواراً شعبية ضخمة في توحيد رؤى أبناء العالم الإسلامي ونصرة قضاياها . ولكن الساسة آنذاك عملوا على تقويضه ، واستبدلوا به واجهات رسمية .

(ب) دعم باكستان الإسلامية الناشئة :

كان للسباعي دور بارز في الخمسينات في دعم شعب باكستان حين استقلاله بدولته عن الهند ، معلناً نشوء دولة إسلامية كبيرة ، فقد أرسل البعوث إليها ، وزارها ، وجال في أقاليمها وبلدانها ، وعاد إلى سورية معرفاً بالدولة الإسلامية الجديدة في محاضراته وكتاباته ، ودعا إلى عونها ورفدها بالخبرات في طور نشوئها .

ولبت طويلاً يتحدث عن باكستان وقضيتها الأولى «كشمير» في مجلته «حضارة الإسلام» ، فضلاً عن اتصالاته الفكرية والدعوية بعلمائها ، ومن أبرزهم العلامة أبو الأعلى المودودي .

(ج) مناصرة الأقطار العربية والإسلامية :

لقد كان السباعي مع كل قضية في العالم العربي والإسلامي . . . وقف مناصراً طرابلس الغرب (ليبيا) ضد وحشية الاستعمار في فترة مبكرة من حياته ، واستعدى على الاستعمار الطلياني سائر الفعاليات الإسلامية^(٤٣) .

كما كَثَّفَ جهوده لمناصرة مصر في كل مناسبة، ابتداء من شروعه في الدراسة بالأزهر حيث قاد المظاهرات ضد الاستعمار البريطاني وألَّب عليه الجموع الشعبية إلى أن انتهى ذلك باعتقاله وترحيله. وقد واصل حملاته على الاستعمار البريطاني لتحرير مصر من ربقة ووحشيتها، فأهاب عام ١٩٥٢م بمناصرة الفدائيين المصريين في القنال، وأعلن تطويعه مئات الفدائيين السوريين لنصرة إخوانهم في مصر، الأمر الذي أدَّى إلى اعتقاله من قِبَل الشيشكلي^(٤٤).

كما كان مع كل بادرة تحرير لقطر عربي أو مسلم؛ فقد ناصر جهاد الشمال الإفريقي في تونس والجزائر والمغرب ضد الاستعمار الفرنسي، كما أيد وثبة العراق ضد الإنكليز، وثورة عمان ضد الاستعمار.

(د) رعايته قضية فلسطين :

لقد كانت قضية فلسطين وتبنيَّه الحار لها عمله السياسي الأكبر، وسبق أن عرضنا لممارساته الحثيثة لأجلها؛ إذ حمل عبء التعريف بالقضية، ثم بتعبئة الرجال للجهاد ذوداً عنها، ثم خاض المعركة مع كوكبة من إخوانه على أسوار القدس ضد الصهاينة^(٤٥).

ونرصده فيما يأتي أطرافاً من الجهود السياسية التي بذلها في سبيل قضية فلسطين :

١ - لعلَّ السباعي سبق جل رجال سورية في المسارعة إلى الاهتمام بقضية فلسطين. وربما لم يطلع الكثير من الناس - في فترة مبكرة - على قضيتها إلا حينما أشرع قلمه ولسانه في كل مجال للتعريف بها، وكشف ما يُكاد لها، ونشر ذلك على الملأ . . .

في عام ١٣٥٧هـ الموافق عام ١٩٣٦م أعلن أبناء فلسطين الثورة على الاستعمار البريطاني الذي كان يرسخ للصهيونية في فلسطين بوعد بلفور المشؤوم الذي يعد اليهود بالوطن القومي في فلسطين، ويوطئ لليهود سبيل الهجرة إلى فلسطين ويذل لهم سبيل الاستيطان. وكان قد هبّ أبناء فلسطين ومن ورائهم أبناء سورية والبلاد العربية يذودون عن حياض الأرض المقدسة بكل ما يمتلكون من وسائل بسيطة، إيماناً منهم بحق قضيتهم ضد العدوان البريطاني الصهيوني...

يعرّفنا السباعي بهذه الثورة المبكرة بقوله:

«فلسطين البلد العربي المسلم الذي يكافح أبناؤه في سبيل الذود عن حياضه كفاحاً سينوء التاريخ بتسجيل جميع مفاخره وآياته!

فلسطين القطعة الغالية من جسم الكيان العربي التي تريد أقوى دولة وأمكر أمة أن يجعلها بؤرة يأوي إليها حثالة متشردي الأرض، بعد أن كانت مبعثاً للنور قروناً عديدة، لا يذكر فيها إلا اسم الله، ولا يرتفع في أرجائها إلا لواء الحق والعدل والسلام!

إي والله! في القرن العشرين، في عصر الحرية والمساواة، يسام شعب آمن أفضع وأشنع ما عرف التاريخ من أنواع التعذيب والنكال!..»

- ٢ - وهنا يشرح أسباب ظفر شعب فلسطين في ثورته المبكرة هذه، بالرغم من قلة عتاده: إنه الإيمان أولاً، ومن ثم انتصار الأتقاء - لا سيما - من شعب سورية لإخوانهم في فلسطين، وخوضهم غمار المعركة معهم على كافة الأصعدة، وذلك بعد طلب النصر من الله...

«فليس غريباً أن تدوم ثورة فلسطين ثلاثة أعوام إلا أمداً قليلاً، وأن تعجز إنكلترا - على قوتها وسطوتها - عن إخماد نار تلك الثورة اللاهبة أو التخفيف من وطأتها، ما دام الحق هو الأمر الوحيد الذي يدفع عرب فلسطين إلى الثورة، وما دام في الله جل شأنه الأمل الوحيد الذي يعتمدون عليه دون سواه، ومن كان الحق غايته فلن تهن عزيمته، ومن كان في الله أمله وهو ناصره فلن تخضد شوكته ولن تنكس رايته.

ذلك هو السر الحقيقي في انتصار عرب فلسطين انتصاراً بهر عقول الطغاة وحبّير البابهم، حتى لجؤوا أخيراً إلى المخاتلة..

وهذا لا يمنعنا من القول بأن هنالك عوامل أخرى أدت إلى نجاح ثورتهم، وأكبر هذه العوامل موقف السوريين منهم، وبعبارة أدقّ موقف شمال سورية من جنوبها، فليس هذان البلدان إلا أرضاً واحدة فرقتها مطامع الاستعمار وجشع أهله. ويطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتكلم عن موقف سورية من جميع جهاته..

ولما تجددت الثورة في فلسطين ونهض أبناؤها الأبطال البواسل بأعبائها، واتسع نطاقها حتى شملت فلسطين كلها، هرع السوريون لنصرة شقيقتهم، فما بقيت صحيفة ولا مسجد ولا مجتمع إلا وفيه ذكر فلسطين، والحث على نصرة أبنائها، فدبت الحمية في الصدور، وسارع الشباب إلى تلبية الواجب، فظن الإنجليز للأمر وحصنوا الحدود بين فلسطين ولبنان من جهة، وراقبوها بجنودهم بين فلسطين وسورية من جهة أخرى، ورغماً عن هذا فقد استطاع فريق كبير من

الشباب الوصول إلى مقر الثورة. ولما تواترت الأنباء عن تدمير القرى ونسف البيوت وتعذيب الأبرياء بأساليب وحشية يتفقت لها القلب، ازدادت الحمية للعرب والنقمة على أعدائهم، وأعلن العلماء في المساجد أن جهاد فلسطين ديني، وأن الواجب على كل من استطاع المساهمة فيه أن يبادر إلى ذلك».

إن السباعي الذي رعى هذه القضية المقدسة - وشارك فيما عرضنا له من جهود حيثة لنصرة قضية فلسطين - يروي صدق هذه النصرة من سائر أبناء الشعب.

«وقصارى القول: إن السوريين وقفوا من فلسطين موقفاً مشرفاً، وهم يعطفون على جهادها عطفاً قوياً عملياً، ويتتبعون أخبار الفظائع فيها بألم عميق. والفضل الأكبر في هذا الاهتمام يعود إلى العلماء والخطباء أولاً، وإلى الصحافة ثانياً؛ فلا تخلو صحيفة من ذكر فلسطين والحث على تأييدها بحرارة وإخلاص، كما لا تخلو خطبة ولا درس في مسجد من إلهاب الشعور الديني في نفوس العامة، حتى صار ذكر فلسطين على لسان الخطيب أو المدرّس كافياً لاستدرار العبرات وإثارة الشعور. . هذه أشياء رأيتها بعيني صيف هذا العام، فمن حق الأمة ومن حق التاريخ عليّ أن أسجلها في هذه الصحيفة المحبوبة، سجلّ الإسلام في العصر الحديث»^(٤٦).

٣ - لقد نجحت الثورة الشعبية في خضد شوكة الاستعمار البريطاني عام ١٩٣٦م إلى حين، ولكن بعد أن سكن الجهاد عاد الاستعمار إلى سياسته الرامية إلى توطين اليهود في فلسطين، ناشراً عواهر اليهود بين

شباب العرب ليفتت رجولتهم وشهامتهم؛ لذا يدعو السباعي إلى كلمة سواء في إحباط كيد اليهود والإنكليز بالصف الواحد، والكلمة الواحدة، والنهج الواحد على قدم رسول الله ﷺ. . . وكأنه يتحدث من وراء السنين - قبل ستين عاماً - عما يخبأ لفلسطين من مؤامرات ستلتهمها كلها، إذا لم نسارع إلى الثبات على المنهج الحق الذي انتصر به أجدادنا، وفتحوا به نصف أقطار المعمورة. .

«بضعة عشر عاماً كنا فيها نصرخ ونبرق إلى المراجع العليا وإلى المندوب السامي البريطاني، فأى شيء أجدت علينا هذه السياسة؟

بضعة عشر عاماً نقوم فيها بالمظاهرات العنيفة معرضين صدورنا لرصاص الجيش المحتل ونحن عزل من كل سلاح، فأى شيء أجدت علينا هذه السياسة؟

بضعة عشر عاماً ونحن نرى بأعيننا كل يوم آلاف المهاجرين اليهود يطأون أرض فلسطين المقدسة ثم لا نجد سبيلاً لمقاومة هذه الهجرة سوى أن نطلب بل نسترحم من المندوب السامي البريطاني وقف الهجرة الصهيونية، فماذا أجدت علينا هذه السياسة؟

إنها لم تفدنا شيئاً! . ولن تفيدنا شيئاً ما دمنا نقابل الرصاص بالحجارة، والعمل بالقول، والجد بالهزل، والقوة بالضعف، والاجتماع بالتفرق، وقلوبنا مشتتة شيعاً وأحزاباً.

أنا لا أستحسن السكوت عن أعمال الصهيونية في فلسطين، وعن مساعدة بريطانيا لها، حاشا وكلا. . . ولكني أريد أن نعلم أن الثروة وسياسة الكلام التي مشينا عليها أعواماً عديدة إنما هي سياسة خرقاء عطلت الأمة عن الاستعداد الإيجابي

وأثخنت البلاد بالجراح الأليمة. وخير منها سياسة عملية
حازمة تفيد الوطن في عام واحد ما لم تفده السياسة الثرثرة
في بضعة عشر عاماً.

ثم يوجّه خطابه إلى أبناء فلسطين؛ يرسم لهم النهج الرجولي الذي
عليهم أن يسلكوه في ذوات نفوسهم وأبنائهم لكي يستنبتوا البطولات
للمعارك المنتظرة..

«يا مسلمي فلسطين! علموا أغنياءكم كيف يستعملون نقودهم
المكنوزة في تأسيس شركات إسلامية عالمية لشراء الأراضي
واستصلاحها، علموا أبناءكم متانة الأخلاق والتَّعَدُّدُ والضَّنَّ
بالقرش الواحد عن أن يتسرّب إلى غير أبناء الملة..

أمينوا عناصر الأنوثة في شبابكم، واغرسوا فيهم روح
الشهامة والرجولة، ووجّهوهم إلى العمل الصالح، وباعدوا
بينهم وبين حانات اليهود ومراقصهم وفتياتهم، ولقنوهم ثبات
أبي بكر وشهامة عمر وإخلاص خالد وأمانة أبي عبيدة وحزم
طارق وشجاعة صلاح الدين، ثم ادعوهم بعد ذلك إلى
تأليف الحاميات والكفاح في سبيل البلاد؛ تجدوهم الأبطال
الجحاجح والغرّ الميامين»^(٤٧).

٤ - وبعد أن يعرض لساحة العمل لفلسطين في نطاق العالم العربي
ينبه مبكراً إلى رصيد كبير يحمله العرب لم يفيدوا منه وهو العالم
الإسلامي؛ فإن شعوب العالم الإسلامي التي ترى في المسجد الأقصى
أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ستجعلها هذه القدسية ترغم دولها
على تبني قضية فلسطين والمصارعة إلى نصرتها.. ففيما يوجهه إلى
مؤتمرات قمة العرب ضرورة إدراك قيمة هذا الرصيد الذي أغفلوه من
حساباتهم..

«إن مشكلة كمشكلة فلسطين هي مشكلة العرب الأولى لم يلتفت فيها إلى العناية بالأصدقاء الحقيقيين للعرب في كل مشكلاتهم، ونعني بهم شعوب العالم الإسلامي الذين إن جادل بعض الناس في اعتبار هذه الشعوب أنها هي مشكلتهم أيضاً، فإن أحداً لا يجادل في أنها وقفت بجانب العرب ضد أعدائهم وقفة كان لها أثرها الكبير في تضيق دائرة المشكلة وتخفيف المصاب بها.

وإذا كنا مضطرين للتفريق دائماً بين شعوب هذه المنطقة وبين أكثر حكوماتها، فإن الواقع أن أكثر هذه الحكومات أعلنت موقفها معنا بصراحة في مشكلة فلسطين، فهي لم تعترف حتى الآن بإسرائيل، ولا تزال تعلن أنها لن تعترف بها، ونحن نؤكد أن هذا الموقف ليس مجاملة من تلك الحكومات للحكومات العربية، بل تمثيلاً منها مع رغبات شعوبها، وخوفاً من غضبها إن هي سلكت غير ذلك الاتجاه.

والذي نؤكد أيضاً أن بعض الحكومات الإسلامية التي اعترفت بإسرائيل - وهي لا تعدو اثنتين - قد أغضبت شعوبها في هذا الموقف وهي لا تتمتع حقيقة بثقة شعوبها ولا بحبها واحترامها.

وبذلك يكون للعرب رصيد كبير قد أهملوه، ويكادون يخسرونه في معركتهم مع إسرائيل؛ إن كل مسلم على وجه الأرض يكره إسرائيل ويراهم دولة معتدية باغية أقامها الاستعمار في قلب الوطن العربي الكبير كركيزة لمطامعه وأهدافه الاستعمارية، وإذا كان عدد المسلمين في الوقت الحاضر لا يقلون - على أقل تقدير - عن خمسمائة مليون،

فكيف يجوز أن تهمل هذه القوى الهائلة التي تحرص أكبر دولة في الأرض وأقواها على اكتساب رضاها وانحيازها إلى جانبها في صراعها الدولي القائم اليوم؟ وما الباعث على هذا الإهمال؟ ولمصلحة من يكون؟ إنه قطعاً ليس لمصلحة العرب، فكيف يتصور العقل أن يكون هذا الإهمال متفقاً مع مصلحة عدوتهم غفلة منا أو صدفة أو قصر نظر؟».

ويشير بعد هذا إلى الخطة المثلى لكسب شعوب العالم الإسلامي المعبأة روحياً ومعنوياً لخوض المعركة بجانب العرب...

«إن هذا العصر عصر الشعوب، وليست الحكومات إلا مثلة لإرادتها وناطقة باسمها، ولذلك تخصص كل الحكومات القوة أو الضعيفة جزءاً من ميزانيتها للدعاية بين الشعوب لما فيه مصالحها المادية أو المعنوية، فلا يجوز أن نقصي الشعوب الإسلامية عن الإسهام في معركة فلسطين وهي معبأة روحياً ومعنوياً لخوض المعركة بجانبنا»^(٤٨).

٥ - ومضى السباعي حتى آخر لحظة من حياته يناضل عن قضية فلسطين، بعد أن قاد زهرة شباب سورية للجهاد في سبيل تحريرها، وظل ينتصر لقضيتها في كل ميدان... من ذلك اقتراحه حين كان عضواً في المجلس النيابي أن يخصص أسبوع باسم فلسطين كل عام للتوعية والتذكير والتبرع والحفز للتحرير.

كما اقترح دراسة القضية الفلسطينية بوصفها مادة أساسية في الشهادات الدراسية في سورية، واستصدر الموافقة على اقتراحه، وقامت وزارة التربية بتنفيذه. وأفرد في مجلته الشهرية «حضارة الإسلام» باباً متميزاً بعنوان «الدرة المغتصبة»، وكان هذا الباب الشيق يحيي في النفوس

قضيتها، ويذكر ويهيب بتحرير أراضيها المغتصبة في كل عدد.. كما أخرج لقضية فلسطين عدداً ممتازاً في «حضارة الإسلام» يعد مرجعاً للقضية.

وهكذا عاش السباعي قضية فلسطين بروحه ودمه، وكان يجسّد هذا الشعور بقلمه ولسانه وتاريخ جهاده. وكانت قضيته السياسية التي لا تحتمل المماثلة، يحتمل مسؤوليتها كل فرد في الأمة بمقتضى مسؤوليته الإسلامية..

والرسالة التالية تحمل نموذجاً من تلكم الخطب التي كان يطلقها كل حين مهيباً بتحرير أراضيها السليبية، ويحذر من العاقبة التي وصلت إليها فلسطين بعد ثلاث سنين من وفاته حين التهمها العدو الصهيوني مع أراضٍ عربية - (٤٩) ..

«لقد بلغكم من نأ إخوانكم في فلسطين ما يثير الألم واللوعة في كل ذي ضمير حي، فهم اليوم يعانون آلام النفي والإرهاق، ويتحملون أنواع الأذى والعذاب.

إنهم اليوم يضطهدون ويذبحون، إنهم تُتِمُّ أطفالهم، وترمل نساؤهم، ويُهَان علماءهم وقضائهم، ويشرد زعمائهم وعظماؤهم، وتجعل أوقافهم ومساجدهم تحت رحمة الإنكليز وتصرفهم، فماذا قدمتم لنصرتهم وإعانتهم؟ وماذا فعلتم لتخفيف النكبات المنصبة فوق رؤوسهم؟

اللهم لا شيء سوى صيحات قليلة لم تفد شيئاً.

فأي حال هذا؟ أية أخوة هذه؟ أية قلوب هذه القلوب؟ ألا تغضبون وتآلمون؟ ألا تهتزون وتحركون؟ ألا تُشعرون المعتدي بأنكم موجودون على قيد الحياة؟ إنها والله سبة الأجيال وفضيحة التاريخ!!!

أيها المسلمون،

إن فلسطين أمانة في أعناقكم فأنقذوها قبل أن تبيد!...

٦ - هذا وكأن التاريخ يعيد نفسه؛ فينظر من وراء سحف التاريخ إلى اليوم الذي يعتدي فيه اليهود على أبناء فلسطين وحرماتها ومقدساتها، ويمعن الصهاينة في اجتياح الأراضي والحصار والتجويع، وتخريب مزروعات الفلسطينيين وبيوتهم، واغتيال الأطفال والرضع؛ فلا يجد أبناء فلسطين من ناصر لهم في معركة الحياة أو الموت دفاعاً عن أرضهم ووجودهم سوى الكلام من العرب وفئات الأموال..

«إن هذه الفظائع التي تجري في فلسطين إنما يراد بها اختبار قوتكم ومبلغ تيقظكم؛ فالإهانة التي توجه إلى إخوانكم هناك موجهة إلى كل فرد منكم على وجه الأرض، فإن تمت هذه التجربة المؤلمة دون أن تتحركوا أو دون أن تثبتوا لأعدائكم تيقظكم واتحادكم، كانت بداية لنكبات تتوالى على أقطاركم قطراً بعد قطر، ويومئذٍ تحل النكبة الكبرى وتكون الخاتمة المحزنة!

إنكم الآن على مفترق الطرق: فإما أن تقفوا موقف الرجولة من أعدائكم فترسلوها صرخة مدوية تزلزل أركان الظلم، وتعلنوها كلمة حازمة لا رجعة فيها، بالعزم على مقاطعة بضائعهم، وتجاراتهم، فيكون لكم عز الأبد وكرامة الأبد، وإما أن تغضوا على الذل وتتجرعوا كأس الضيم، وتسلموا إخوانكم للذبح، فيكون لكم خزي الأبد وعار الأبد.

أيها المسلمون،

إن كارثة فلسطين هي كارثة الأندلس الثانية، ومصيبة الإسلام في عصره الحاضر...

إنها مشهد من مشاهد الصراع بين الغرب والشرق . . بين
الباطل والحق .

إنها صولة الباطل يريد أن يتحداكم ليخضعكم لسطوته : فالموت
لمن يرضى ، والحياة لمن يأبى ، والسؤدد لمن يتمرد .

ووالله ما بعد خذلان الحق إلا موت أهله ، ولا بعد التخلي
عن الذمار إلا وصمة العار . فأنتم في تخاذلكم بين أمرين
أحلاهما مرٌّ^(٥٠) .

إن المنجزات السياسية التي حققها السباعي - حسبما عرضنا له - في
سني حياته القصيرة لتعجز عنها العصابة أولو القوة . .

فقد أنقذ أبناء سورية من الانجرار وراء أفكار التغريب المسلطة على
العالم العربي والإسلامي آنذاك جنباً إلى جنب مع الاستعمار الأجنبي ،
كما صان عقولهم من تضليل الأفكار الهدامة بإشهار الفكر الإسلامي
الناصح بثوب العصر .

وأرسى ، ولأول مرة ، في تاريخ سورية المعاصر - وعلى مستوى
الدولة - فكر الإسلام السياسي ، بعد أن تعهّد قواعده التشريعية بالدعوة
والتوجيه والتقنين ، فعادت لأحكام الإسلام عزتها في النفوس ، وتألقت
حية في المواقف السياسية ودخلت البرلمان .

وسبق السباعي ذلك بالمواقف العملية ؛ بجهاذه وإخوانه في فلسطين ،
والعمل - من منطلق سياسة الدعوة الإسلامية - على مناصرة قضيتها في كل
ميدان ، والوقوف موقف النصرة من كل قضية من قضايا العالم العربي
الإسلامي مما جرى تفصيله آنفاً .

وتتوج هذه المنجزات السياسية العظيمة بمواقفه الرفيعة في حلباتها . .

٤ - مواقف رفيعة في حياة السباعي

لعل من غير المستطاع رصد سائر المواقف في حياة حافلة بالعمل والكد والجهد كحياة السباعي . فكل يوم يقضيه الرجل العظيم يسجل فيه موقفاً بارزاً وإنجازاً رائعاً ، فالمواقف قد تنافس أيام الأعمار في وزنها وتسجيلها وتغييراتها .

وما نعرضه فيما يأتي إنما هي نماذج نوعية لهذه المواقف السياسية :

(١) المواقف اليومية :

وتقف على رأسها المواقف غير المسجلة والتي لا تكاد تغادر يوماً من حياة السباعي ، إنها مواقف العمل الدائب في سبيل الدعوة الإسلامية بما يلازمها من عمل ومتابعة ، وألم وأمل ، وصبر ومجاهدة . ولم يتخلَّ عن هذه المواقف اليومية حتى في أيام مرضه الأخير ، فقد كان يلقي في أيام رمضان - وهو في غاية العناية من المرض - محاضرة في كلية الشريعة كلَّ أمسية لم يتخلف عنها حتى لاقى وجه ربه .

(٢) مواقف النضال ضد المستعمر :

كانت مواقفه الجهادية ضد الاستعمار الفرنسي والإنكليزي متعددة الميادين ، بالنشرات والمقالات والمحاضرات والمظاهرات إلى الكفاح المسلح ، الأمر الذي أدى في بعض الأحوال إلى اعتقاله وسجنه سنوات ، مما أوردنا طرفاً منه في تاريخ حياته .

(٣) مواقف نصرته لفلسطين :

لقد كانت مواقف نصرته لفلسطين متصلة حتى آخر حياته ، وذلك :

(أ) بالنشرات والمقالات والمظاهرات، وتحمل «الفتح» و«المنار» و«الشهاب» سفيراً ضخماً من نصرة القضية في سائر مراحلها، وأما مجلة «حضارة الإسلام» فأفرد فيها باباً خاصاً لفلسطين بعنوان «الدرة المغتصبة»، وهي بمجموعها سجل حافل للقضية، ووثيقة نادرة.

(ب) قيادته ركب المجاهدين إلى فلسطين عام ١٩٤٧م، وإطلاقه رصاص الجهاد وإخوانه ضد الصهاينة دفاعاً عن القدس الشريف والمسجد الأقصى. وقد جرى تفصيل ذلك في مكانه من الكتاب.

(ج) إعلانه خيانة من يصالح الصهاينة في فلسطين، في كلمة بمجلس النواب السوري إبان حوادث الحدود بتاريخ ١٩٥١م يقول فيها:

«وإنني أعتقد أنني أعبر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد ولا في أي قطر عربي آخر رجلاً واحداً ترضى له كرامته وترضى له وطنيته أن يرى الصلح مع إسرائيل أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزارين الأشرار. إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية، فلا يفكرن أحد بأن يحملنا عليها»^(٥١).

(د) إعلان النكير على المستكئين والمتخاذلين في كثير من كتاباته وبياناته، منها قوله:

«إسرائيل لا تعد لغزونا فرقاً من الراقصات والمغنيات والرسامين، ولكنها تعد فرقاً من الفدائيين، وأساطيل في الجو والبحر، وقذائف للهلاك والتدمير، فهل يفهم «المنحلون» و«البغاوات» و«المتآمرون» و«الكسالى» و«الوجوديون» و«المستغربون» و«المفتوتون»؟ خذ مائة وأعطني واحداً»^(٥٢).

(٤) مواقف الجراءة أمام الحكام :

وهي مواقف كثيرة نقتطف منها ما يأتي :

(أ) ثار شعب مصر يتقدمهم شباب الإخوان المسلمين في الجامعات عام ١٩٥٢م على الاستعمار الإنكليزي الذي كان جائماً على صدور أبناء القطر المصري منذ سبعين عاماً، فهاجموا معاقله، ونسفوا بعض المراكز العسكرية في قناة السويس، وربضوا له في مقاومة مسلحة عبر عمليات فدائية كبده خسائر فادحة، فما كان من الاستعمار الوحشي إلا أن قدم جرحى الشعب المصري ممن وقعوا في قبضته وشهداءه إلى الكلاب المتوحشة، الأمر الذي أثار المشاعر في الأقطار العربية.

وعلى الرغم أن سورية كانت آنذاك تحت قبضة الحاكم العسكري أديب الشيشكلي فقد أعلن السباعي مناصرته للمجاهدين في القنال شعبياً، وأبلغ وزير مصر المفوض في دمشق تطويع آلاف الإخوان المسلمين في سورية ليشاركوا إخوانهم الجهاد في القنال المصري، ونشرت الصحف السورية النبأ، فداهم الحاكم العسكري الشيشكلي السباعي وأخاه محمد المبارك وأودعهما السجن لعدة شهور^(٥٣).

وعند خروج السباعي من الاعتقال حاول الشيشكلي أن يراوغه في المقابلة الآتية؛ فكيف كانت النتيجة؟

«قال الشيشكلي: يوسفني أيها الأستاذ أن تصدر عني إساءة نحوك، وأنا الذي أقدر جهادك، وأثق بإخلاصك ومن معك... وقد كان الأحرى بنا أن نألف بدلاً من أن نختصم ونختلف. ومع ذلك فإن المجال لا يزال أمامنا متسعاً لذلك فلننس الماضي ولنتعاون.

قال السباعي: ولكن الذي وجدته منك أكد لي ألا سبيل إلى التلاقي.

قال الشيشكلي: ولم لا... إنك تدعو إلى الإسلام، وأنا والله مسلم يملأ قلبي الإيمان بالله ورسوله وكتابه، فكيف لا يتم تلاقينا؟

قال السباعي: لعلك تفهم الإسلام عبادة وعقيدة وحسب، أما نحن فالإسلام في مفهومنا نظام يشمل الحياة ويقدر لكل شيء حسابه، لأن الله يقول لنا: ﴿مَا قَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ومعنى ذلك أننا لا نستطيع القبول بالواقع الذي تفرضه القوة، ولا بد لنا من النضال بكل الوسائل المشروعة حتى نعيد إلى هذه الديار نظامها الإسلامي الذي به دخلت أممتنا التاريخ، وبه تسنمت مركز القيادة العالمية من أوروبة إلى أقصى الصين.

وهنا لم يبق متسع لاستمرار المحاورة، فأعلن صاحب الانقلاب أسفه لإصرار السباعي على معارضته، ونهض ليودعه، وهو يقول: إذن فنحن معذرون في اتخاذ كل ما نراه ضرورياً لحماية أهدافنا. ولكنني أمل ألا نياس من إمكان التلاقي في وقت آخر.. عندما تتضح لكم حقيقة أغراضنا يا دكتور!

وكان طبعياً أن يفرض الحصار على تنقلات الفقيده، وعلى داره، التي أخذت تزدهم بالزائرين من مختلف أنحاء دمشق وغيرها. ثم رأى الشيشكلي أن دمشق لا تتسع له وللفقيده فأخرجه إلى لبنان، حيث بقي في منفاه هذا إلى نهاية ذلك العهد^(٥٤).

(ب) وكانت كلماته البرلمانية صواعق على الفساد، لا يخشى في الله لومة لائم. منها الكلمة الآتية التي ألقاها عقب اعتداء الصهاينة على الحدود السورية، مطالباً الحكومة بإعداد الشعب دون توان لمجابهة العدوان، مندداً بالحكومات التي أضاعت فلسطين عام ١٩٤٨م، نتيجة تفريطها في الإعداد للمعركة مع العدو..

«إن من واجب الحكومة أن تهَيِّئ الشعب للنضال، وأن تعبئ قواه الروحية والمادية، وأن تقوي أخلاقه، وتحارب الميوعة والانحلال في معيشتة وسلوكه، حتى يكون وراء جيشه المحارب على الحدود، متأهباً لمدّه بالرجال والعون حين تحتدم المعارك دفاعاً عن شرف البلاد وسلامتها.

إن من واجب الحكومة أن تبدأ فوراً بكل ما من شأنه أن يجعل بلادنا وشعبنا على استعداد لكل خطر عالمي أو موضعي ومواجهة كل عدوان برباطة جأش وتمام استعداد، فهل تنوي الحكومة أن تقوم بذلك؟.. وهل يرى دولة رئيس الوزراء أن الوقت قد حان لمواجهة الأخطار بحزم وجرأة ومثابرة وعزيمة لا تعرف اليأس ولا الملل؟

لقد رأينا بأعيننا كيف كانت حكومات هذه الأمة مشغولة عن الاستعداد للأخطار، بتوظيف المحاسيب والأنصار، والتلاعب بالذساتير والقوانين، والانشغال بجمع المال وتوطيد الجاه والخلود في الحكم، حتى إذا فوجئت بالخطر الذي كان يتهيأ له عدوُّنا منذ سنوات.. لم يكن من أولئك الحكام إلا أن يخدعوا الشعب ببليغ تصريحاتهم، لقد دخلوا الحرب وهم يخدعوننا، ويخفون النتيجة أن هزموا..

وَصُدْمَنَا . . هُزِمُوا وحلت الكارثة بنا . . تواروا عن الأنظار
وبعضهم لا يزال باقياً على أرائك الحكم في البلاد العربية،
لم تنلهم يد بعقاب ولا محكمة بحساب، ولكنما نالهم
شيء واحد، هو لعنة الله ولعنة هذه الأمة ولعنة الأجيال
الآتية من بعد» (٥٥) . .

(ج) وسعى السباعي إلى تأسيس كلية للشريعة في جامعة دمشق،
ضمن خطته لملء الفراغ الشرعي الذي تطلّبه الدستور الذي جاهد في
إرساء مواده الإسلامية. ولكن جهات لا دينية كان يؤذيها قيام مثل هذا
المشروع فسعوا لدى رئيس الجمهورية هاشم الأتاسي آنذاك لطيه. فتباطأ
المشروع، فطلب السباعي مقابلة رئيس الجمهورية، ولما أحس شيئاً من
التلكؤ بسبب تثييط تلك الجهات، بادر بإيضاح أهمية المشروع وقداسته،
وأخذ يرتفع صوته رويداً رويداً حتى عصف القصر الجمهوري بكلماته
اللاهبة، أسرع على أثرها موظفو القصر يستجلون الخبر، فأسقط
بيد الرئيس وأخرج، وأصدر موافقته على المشروع بعد أن عاتبه على
ارتفاع صوته (٥٦).

٥) عدم الاكتراث للتهديدات :

لجأ بعض خصوم الدعوة إلى إرسال خطابات تهديد للسباعي بقتله إن
استمر في الدعوة ومهاجمة الانحرافات. وكان لا يعبأ بها، ويواصل
جهاده وكفاحه.

وكانت بعض التهديدات تصدر عن جهات أجنبية، ومنها محاولة
اغتياله مطلع عام ١٩٥٦م، وقد عزت الصحف السورية إبان ذلك محاولة
الاغتيال إلى تلك الجهات الأجنبية.

٦) عدم الاستجابة للمغريات :

إن نشاط السباعي الواسع والهالة الدعوية التي تحيط به جعلت كثيراً من الأطراف السياسية تخطب وده - والرسمية منها بخاصة -، ولكن السباعي كان يؤثر أن يظل نائباً عن الأمة يعيش مشاكلها ويحل قضاياها، ساهراً على خط سيرها، مطالباً بحقوقها، ويخدم الدعوة من خلال نيابته؛ فكان يعتذر عن المناصب ويعفّ عن المغانم، لم يتولّ وزارة قط، على الرغم من العروض المغربية في الوزارات المتعاقبة لعهدده.

٧) مقاومة الشلل بالعمل :

وحين أصيب في سنواته السبع الأخيرة بالشلل، كان يهب على عكازه من ميدان إلى آخر لم يعجزه المرض ولم يحدّ من نشاطه الدعوي، فكان يحيي ليالي رمضان بمحاضراته الشيقة وأحاديثه الجذابة الطريفة في كلية الشريعة وسواها، ويضرب المثل بدأب المسلم وصبره، بل إن فترة المرض كانت الفترة الخصيبة لديه في البحث والتأليف كما أسلفنا.

٨) مواقف الحق :

لعلّه يلخص المواقف السابقة كلها التي ملأ بها مجتمعه بالبيتين التاليين اللذين كانا لسان حاله ودستور حياته :

«دعيني أعيش العمر في غربّة الهوى

ففي الحق محرابي وفيه مناسكي

وفي النصح لذّاتي وفي الخير ثروتني

وفي العلم محرابي وفيه سبائككي» (٥٧)

(٩) إرساء المبادئ الإسلامية في دستور سورية عام ١٩٤٩م:
ولعله من أعم المواقف خيراً على سورية، إذ أبرز وجهها الإسلامي
بما استطاع إثباته من مبادئ إسلامية دستورية ملزمة.
وقد بذل السباعي في ذلك جهوداً مضيئة في البرلمان وخارجه حتى
فاز بهذه المبادئ التي سيظل يُذكر له فضل إرسائها أبد الدهر.
وسيأتي تفصيل ذلك في موضعه من الكتاب^(٥٨).



المراجع

- (١) من مقابلة مع الأستاذ حسان السباعي نجل الدكتور مصطفى السباعي .
القسم السياسي هو الجزء الثاني من كتاب «هكذا علّمتني الحياة»
للسباعي .
- (٢) هكذا علّمتني الحياة، ٢ : ١٢١، عن ابن قتيبة في «عيون الأخبار»
كتاب السلطان .
- (٣) نفسه، ٢ : ١٠ .
- (٤) رواه مسلم في باب كراهة الإمارة، ٣ : ١٤٥٧، الحديث رقم (١٨٢٥) .
- (٥) تاريخ الطبري، ٤ : ١٦٥ .
- (٦) هكذا علّمتني الحياة، ٢ : ٥٢ .
- (٧) نفسه، ٢ : ٤٤ .
- (٨) نفسه ٢ : ٥٤ ، ٥٥ .
- (٩) نفسه، ٢ : ٣٠ .
- (١٠) نفسه، ٢ : ٢٢ .
- (١١) نفسه، ٢ : ٨ .
- (١٢) نفسه، ٢ : ٥ .
- (١٣) نفسه، ٢ : ٦ .
- (١٤) نفسه، ٢ : ١٠ .
- (١٥) جريدة المنار الدمشقية، السنة الأولى، العدد : ١١٢ .
- (١٦) الفتح، العام : ١٣، ع : ٦٥٠، ربيع الأول سنة ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م،
ص : ١٢٠٩ - ١٢١١ . «كلهم صادقون» .

- (١٧) الفتح، العام: ١٢، العدد: ٥٧٨، العام: ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م: «رمضان يحاضر» مصطفى السباعي، ص: ٦٨٥. والمقال قبل الحرب العالمية الثانية بعدة سنوات.
- (١٨) الفتح، نفسه.
- (١٩) هذا هو الإسلام، د. مصطفى السباعي، المجموعة الأولى - المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق.
- (٢٠) نفسه ص: ٥٦ - ٥٩.
- (٢١) نفسه: ٧٠ - ٧٣، ٨٨ - ٨٩.
- (٢٢) المنار، السنة الأولى، ع: ١٧٤: «بأي سلاح نحارب»، مصطفى السباعي.
- (٢٣) حضارة الإسلام، السنة الأولى، العدد: ٥، ٦، جمادى الأولى والآخرة سنة ١٣٨٠هـ / تشرين الثاني، كانون الأول سنة ١٩٦٠م: «الثورة التي ستغير مجرى التاريخ»، مصطفى السباعي، ص: ٢٨٠ - ٢٨١.
- (٢٤) المنار الدمشقية، السنة الأولى، ١٩٤٧م، ع: ١٧٦. وأحكام الصيام وفلسفته، د. مصطفى السباعي، ص: ٢٨٠ - ٢٨١.
- (٢٥) الفتح، السنة العاشرة، ع: ٤٥٦، العام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م: «قوة الحق وحق القوة»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٣٥.
- (٢٦) «لماذا أخفقت الجامعة العربية وكيف تصبح أداة نافعة للعرب»، د. مصطفى السباعي، كلمة في احتفال الهيئة الوطنية في لبنان، ٥ رجب سنة ١٣٧٢هـ / ٢١/٣/١٩٥٣م. وهكذا حافظ المجاهدون على القدس بيسالتهم وفدائهم عام ١٩٤٧م وأضاعها الحكام العرب عام ١٩٦٧م.
- (٢٧) نفسه.
- (٢٨) انظر: الفتح، العام الثاني عشر، ع: ٥٨٨، العام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م: «غداً يكون العيد.. فاذكروا بكاء اليتامى ولوعة الأراذل»، د. مصطفى السباعي، ص: ٩١٨.
- (٢٩) الفتح، العام: ١٢، ع: ٥٨٧، العام ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م: «العلماء والسياسة»، د. مصطفى السباعي، ص: ٨٩٨ - ٩٠١.

- (٣٠) نفسه .
- (٣١) المنار، السنة الأولى ١٩٤٧م، العدد: ١٦٨ : «يا شيوخنا في السياسة لقد آذانا ضعفكم فاتركونا نسير»، د. مصطفى السباعي . الاستبسال بالحق : الاحتفاظ به .
- (٣٢) المنار، السنة الأولى ١٩٤٧م، ع: ١٦١ : «هذه الأمة الواعية لن تقبل بعد اليوم...» ، د. مصطفى السباعي .
- (٣٣) مجلة الشهاب (الدمشقية)، العدد: ٥٧ ، ٥٨ ، كلمة الدكتور السباعي لشعب سيلان: «لنكن مع الجزائر كي نكون مع الله ويكون الله معنا» .
- (٣٤) الفتح، العام: ١٠ ، العدد: ٤٨٩ ، عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٩م ، من كلمته في الطلبة العرب في جمعية الشباب المسلمين بالقاهرة بعنوان: «مهمة شباب العرب»، ص: ٩٣٧ .
- (٣٥) الشهاب، ع: ٦١ ، ٦٢ : «تكتل المسلمين طريق السلام للإنسانية» ، د. مصطفى السباعي . لما اتلت: لما استطاعت .
- (٣٦) حضارة الإسلام، السنة الرابعة، ع: ٦ شعبان سنة ١٣٨٣هـ ، كانون الثاني ١٩٦٤م : «رمضان ومؤتمر القمة» ، د. مصطفى السباعي ، ص: ٥٧٨ .
* انظر: الكتاب المذكور في العقد الفريد لابن عبد ربه ، ١ : ٤٠ .
- (٣٧) نفسه .
- (٣٨) هكذا علّمتني الحياة ، ١ : ١١٣ .
- (٣٩) الفتح، العام: ١٢ ، العدد: ٥٨١ ، العام ١٣٥٦هـ / ١٩٤١م : «نكبة الإسلام في تعليم أبنائه» ، مصطفى السباعي ، ص: ٧٥٣ .
- (٤٠) حضارة الإسلام، السنة الثالثة، العدد: ٥ ، رجب سنة ١٣٨٢هـ / كانون الأول ١٩٦٢م : «فيَمَ تراق هذه الدماء؟» ، د. مصطفى السباعي ، ص: ٤٦٧ .
- (٤١) حضارة الإسلام، السنة الثانية، العدد: ١٠ ، شوال سنة ١٣٨١هـ / نيسان سنة ١٩٦٢م : «المعجزة الجزائرية» ، د. مصطفى السباعي ، ص: ١٠٩١ .
وإن ما يجري اليوم من فتن في الجزائر إنما هو مؤامرات مدبرة لضعضة الشعب الجزائري الصامد المؤمن، وانتقام من صموده .

- (٤٢) الشهاب، العددان: ٦١، ٦٢، ٢٠ تموز ١٩٥٦م: «كيف وُلِدَ هذا المؤتمر»، التحرير.
- (٤٣) رسالة بخط السباعي إلى محب الدين الخطيب صاحب جريدة الفتح.
- (٤٤) شهد هذه الوقائع الشباب الجامعي الذي عاصر الأحداث المذكورة آنذاك، وتظاهروا ضد الشيكلي احتجاجاً على اعتقال السباعي، وكان نصيبهم الاحتجاز والاعتقال.
- (٤٥) انظر: الباب الثاني - الفصل الأول: الداعية المجاهد.
- (٤٦) الفتح، العام: ١٣، العدد: ٦٣٦، عام ١٣٥٧هـ: «موقف سوريا من فلسطين»، د. مصطفى السباعي، ص: ٨٥٤ - ٨٦٢.
- (٤٧) الفتح، العام: ١٠، العدد: ٤٦٨، عام ١٣٥٤هـ: «فلسطين تستيقظ...»، د. مصطفى السباعي الافتتاحية.
- (٤٨) حضارة الإسلام، السنة: ٥، ع: ٣، جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ/ أيلول ١٩٦٤م: «الطريق الصحيح لحل مشكلاتنا»، د. مصطفى السباعي، ص: ٢٤٨ - ٢٤٩. يلاحظ تنامي عدد المسلمين من خمسمائة مليون لعهدده إلى زهاء ألف وخمسمائة مليون اليوم..
- (٤٩) كانت وفاته عام ١٩٦٤م، أي قبل ثلاث سنوات من نكسة ١٩٦٧م.
- (٥٠) الفتح، العام: ١٢، العدد: ٥٧٥، العام: ١٣٥٦هـ: «أيها المسلمون أنقذوا فلسطين قبل أن تبيد»، د. مصطفى السباعي، ص: ٦١٦.
- (٥١) حضارة الإسلام، (العدد الممتاز)، د. مصطفى السباعي، كلمة ألقاها في المجلس النيابي، ص: ١٩٢.
- (٥٢) نفسه.
- (٥٣) روى الواقعة طلبة الجامعة السورية الذين عاصروها آنذاك، وتظاهروا احتجاجاً على اعتقال السباعي والمبارك وكان نصيبهم الاعتقال.
- (٥٤) علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، ١: ٣٨٦.

(٥٥) حضارة الإسلام، (العدد الممتاز) - من كلمة ألقاها السباعي في المجلس
النيابي بتاريخ ١٨ كانون الأول ١٩٥٠م، ص: ٥٦٠ - ٥٦١.

(٥٦) روى الواقعة أحد كبار الدعاة.

(٥٧) حضارة الإسلام، (العدد الممتاز)، قصيدة «طريقي»، لمصطفى السباعي.

(٥٨) انظر: الباب الثالث: الفصل الثاني: دوره التاريخي في حياة سورية
المعاصرة.



الفصل الثالث

الاجتماعي المُرَبِّي

(أ) في القواعد التربوية والاجتماعية :

- ١ - الاتجاه التربوي .
- ٢ - المبادئ التربوية والاجتماعية .

(ب) في الجانب التربوي العملي :

- ١ - إنشاء المؤسسات الثقافية .
- ٢ - إعداد الدعاة .
- ٣ - تربية الناشئة المسلمة .
- ٤ - بناء كوادر المجتمع .
- ٥ - مشاريع المواساة الاجتماعية .

خاتون بیگم

بیگم بیگم بیگم

بیگم بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

بیگم بیگم

قد يتبادر إلى الظن غلبة النشاط السياسي على حياة السباعي، واستغراقه اهتمامه، وما ذلك إلا لأن الحياة السياسية لعهد كانت أكثر ضجيجاً وأوفر أحداثاً، فاستنفدت كثيراً من أوقاته، وربما رجع الجانب السياسي - ظاهراً - على حياة السباعي بما أبرزه به عصره في الصحافة والمجالس والملتقيات.

بيد أن مؤلفات السباعي الفكرية ومنجزاته التربوية والاجتماعية تشير إلى أن حياته كانت متكاملة الجوانب، لم يرجح فيها الجانب السياسي، إذ أُلّف فيه كتابين، بينما استغرقت الجوانب الاجتماعية والتربوية جل جهوده ومؤلفاته.

إذن، ما البرنامج التربوي الاجتماعي الذي زاوله السباعي؟

(أ) في القواعد التربوية والاجتماعية

١ - الاتجاه التربوي

كان السباعي في دعوته إلى الإسلام يحمل مشروعاً تربوياً يهدف من خلاله إلى إرساء الأصالة والاستقلالية في نفس الفرد والجماعة، ويجهد في تجنب أبناء الأمة مزالق التغريب ومكر الاستعمار الفكري.

وقد حمل مشروعه هذا على تحقيق ما يأتي:

(١) إرساء الأصالة والشخصية المستقلة :

عمل السباعي على تحصين أبناء الأمة ضد الغزو الفكري الأوروبي الذي كان يوالي إرسالياته أو شن غاراته على عقيدة الأمة وشخصيتها الإسلامية عن طريق بث البعثات التبشيرية وغرس المدارس الأجنبية . لذا كان دأبه التنبيه إلى هذه المؤامرات ، والدعوة إلى الاعتصام بأصالة الشخصية المسلمة واستقلاليتها التي تصون الأمة من الزلل أو الانحراف وإلى اعتزاز المسلم بدينه .

ويجلو السباعي منهج الاستقلالية في تربية الناشئة ، وتخير السبيل القويم الذي يبني عقول أبنائنا وأرواحهم على أساس من منهجنا الأصيل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيقول :

«وخير الثقافة ما طبعت الناشئ على الدين ، وربته على الفضيلة ، وغذته بلبان الحكمة ، وباعدت بينه وبين الهوى ؛ حتى تجعل منه الحريص على الدين ، الغيور على الفضيلة ، الناطق بالحكمة ، النافر من الإثم والهوى والرذيلة»^(١) .

(٢) مقاومة التغريب والاستعمار الفكري :

وهنا يقرع السباعي جرس النذير للأمة المسلمة التي يروم المستعمر أن يسرق عقول أبنائها ، ويفرغها من دينها وشخصيتها ليسهل عليه احتواؤها بعد أن فشل في معاركه الحربية سابقاً في أن يهيمن عليها وعاد مفلولاً مدحوراً... :

«بين الشرق والغرب عراك منذ أجيال متقادمة ، يشتد أحياناً فتتكلم الأسنة والرماح ، ويخف أحياناً فينكلم المكر والدهاء ، وفي كلتا الحالتين إنما يرمي الغرب في عراكه مع

الشرق إلى تبديد ثروته وتمزيق ملكه، والقضاء على ما يتمتع به من طمأنينة في العقيدة، وراحة في الحياة، وعزة في النفس، ليجعل منه الشعب الخاضع للقوة، المعذب في المعيشة، المضطرب في نظمه وعقائده وقوانينه .

وبين غفوة الشرق وجهل قاداته وتخاذل حكوماته، ضاعت الدولة، وغاضت العزة وتبددت الحضارة. فما هي إلا أن رأينا أعلامهم مرتكزة على القلاع تعلن الاحتلال، وجيوشهم تبني الثكنات إيداناً بطول المقام وعدم الارتحال، وقسسم تبني المعاهد لتجعل الاحتلال لدى أبناء الأمة أمراً محبوباً بعد أن رأوه بأعينهم واقعاً محتوماً. واستقرت الأمور بعد ذلك على هذا: جيش يعزز سلطة الغاصبين، وقسس ينشرون ثقافة المستعمرين»^(٢) .

وقد كانت عين السباعي الفاحصة - وعيون الكثيرين نيام - تحصي تلكم الثغرات التي ينفذ منها الاستعمار الفكري إلى قلوب أبنائنا وبناتنا، فألقى من ذلك تلكم الأخطار المحدقة بالأمة، وزعماؤها وقادتها لا يلقون إلى ذلك بالاً .

(١) خطر المدارس الأجنبية:

كان يرى السباعي أن الدول الأجنبية لم تنفق الأموال الطائلة على معاهدها في بلادنا حباً بنا، وإنما أنشؤها لتفسيخ أجيالنا من شبان وبنات، وليسلبوهم دينهم وأخلاقهم لينشأ منا في كنفهم جيلٌ طيع يذلّ لهم. قد فقد عقيدته سرّ قوته، وفقد أخلاقه عماد شخصيته ونهضته.

لذا يوجه نداءه هذا، وهو طالب، إلى الآباء أن يكونوا أوفر حرصاً على دينهم ووعيمهم فلا يتركوا أولادهم وبناتهم طعمة للغزو الاستعماري .

«أيها الآباء، إن هؤلاء الأجانب لم ينفقوا الأموال الطائلة على معاهدهم في بلادنا حباً بنا وشغفاً بسواد عيوننا... إنما أنشؤوا هذه المعاهد رغبة في نشر دينهم وثقافتهم وتلقيح عقول أبنائكم بها. فهل ارتضيتم لأبنائكم أن ينقش زعانفة الكفر والباطل في عقولهم مبادئ الإلحاد والضلال؟ وكيف تستبدلون بنور الإسلام ظلام الشرك، وبهدى الله ضلال البشر؟..

أيها الآباء، وبناتكم كيف استحللتم إلقاءهن في أحضان الراهبات، ومدارسُ الإناث في بلادنا أكثر من أن تعد وتحصى؟ لأجل العلم فعلتم هذا؟ ولكن أي علم هذا أيها المغرورون؟ العلم لتهديب الأخلاق لا لفسادها، ولتعليم الدين لا لضياعه، ولحفظ الشرف لا لفقده، وما تُعَلِّم بناتكم في هذه المدارس إلا فساد الأخلاق..

أيتها الأمة أيها الزعماء أيها المفكرون، إن أبنائنا وبناتنا في أتون مستعر تلتهم نار الإلحاد والفساد. إن أبنائنا وبناتنا تختطفهم ذئاب الدس والمكر والخداع. إن أبنائنا وبناتنا على شفا جرف هار من فساد الأخلاق وانحطاط المبادئ.

فنستحلفكم بأعز عزيز لديكم أن تعملوا على إنقاذهم وردّهم إلى حظيرة الدين والأمة قبل أن يتمكن المفترس من فريسته فنندم ولات ساعة مندم»..

ثم يثني على ذلك بالكشف عن مصدر هذه المدارس ومنشئها من المستعمرين الذين يرومون تحطيم أجيالنا ومحو إسلامنا والهيمنة على مقدّراتنا، ونحن سادرون غافلون..

«أيتها الأمة، إن أعداء الإسلام لا يزالون في جهاد مستمر للقضاء عليه ومحو آثاره من الوجود، مستعملين كل وسيلة مجدية: في السلم والحرب، في السياسة والتعليم، في الكذب والغش والخداع، وكلما رأوا منا غفلة ازدادوا تمادياً في عدوانهم.

أفنتبت للملأ أننا قوم جاهلون لا نعلم ماذا يحاك لنا من برود الشر، وما يحيق بنا من الخطر؟

أفنتبت للملأ أننا قوم أعماهم الهوى حتى تردّوا في الهاوية، واسترسلوا في الغفلة حتى أحاطت بهم الداهية، وخدعوا بالأضاليل حتى فرطوا بالمهج الغالية؟.

حسبكم غفلة أيها القوم، فقد فقدتم أبناءكم وأنتم لا تشعرون.

هيا فأنقذوهم قبل فوات الفرصة، وإلا فواحسرتنا على الشباب الخاسر ويا حسرتنا على الخلق المفقود، ويا حسرتنا على المستقبل الذليل»^(٣).

(٢) والخطر الثاني: العادات الأجنبية:

كانت الموجة الأجنبية الوافدة على سورية مع الاستعمار الفرنسي - تؤازرها حصائل المدارس الأجنبية - قد استهوت جانباً من الناس بدعوى التمدين والتحديث، دون مراعاة لعادات الأمة ولتمييز شخصيتها. . . وقد أذت السباعي لعده هذه الظاهرة التي تشي بالتبعية والتراجع عن الاعتزاز بشخصية الأمة. فهو يسرد لنا مثلاً واقعة جرت بين جابي الحافلة وسيدة أجنبية، حدثها بالفرنسية فخاطبته السيدة مغضبة بالعربية لتعلمه كيف يحترم لغته قائلة:

« - أنا لست في بلاد فرنسا ولا في أوروبا حتى
تخاطبني بالفرنسية، ولكنني في بلاد عربية وأنت عربي
وأنا أعرف العربية، فمن الازدراء بلغتك أن تخاطبني
بغيرها.

قالت له هذا ثم حولت وجهها عنه إذ رآته ضاحكاً من
كلامها والتفتت إليَّ قائلة:

- إنني يا سيدي لا أفهم معنى لصنيع كثير من شبابكم:
يزدري لغته ولغة آبائه وبلاده ليتقرب إلينا معشر الأجانب،
مع أنني أصارحك أنا لا ننظر إلى ذلك إلا نظر السخرية
والاحتقار، هذا مع علمي وبقيني أن لغتكم - وإن
لم أكن أجيدها تماماً - هي أجمل لغة وأعذبها
وأرقها»^(٤)...

ويأسى السباعي لهذه الواقعة، ويشكر السيدة على تقديرها
للغتنا، ويعتذر لها عن خطأ العامل الجاهل، ولكنه لا يلبث أن يجد هذه
الواقعة - آنذاك - تمتد لتصبح - في بلادنا - ظاهرة مخجلة تقتضي
العلاج..

(٣) والخطر الثالث: الفوضى الخلقية الوافدة:

يرى السباعي أن المستعمر الذي وطئ أرض العرب والمسلمين
بالغزو الفكري كان يعلم أنه لن يستطيع إخضاع شعبنا إلا بعد غرس
بذور الفساد في أبنائنا وبناتنا، ويشيع المنكرات والتحلل الخلقي في
مجتمعاتنا، إذ لا يستطيع التغلب على شعب متين العقيدة، راسخ
الأخلاق.

ولمّا كانت المرأة أطوع للمؤثرات، وكان فسادها يؤدي إلى

فساد الأسرة والأبناء: وجَّه الغزو الفكري اهتمامه إلى المرأة، مفتناً في إخراجها عن أصالتها؛ فأخذ ينمق لها نموذج المرأة الغربية، مدعياً أنها تمثل قمة التمدين والرقى، متهماً المرأة المسلمة بالرجعية والتأخر.

لذا، ينبه السباعي إلى هذه المغالطة التي تجوز على الكثيرين، ويوضح فيما يلي حقيقة معاملة الغربيين للمرأة في أوروبا...:

«ولقد رأيت الغربيين يقدِّمون المرأة في الحفلات ويؤخرونها في البيوت، ويُقبَّلون يدها في المجتمعات العامة، ويصفعون وجهها في بيوتهم الخاصة، ويتظاهرون بالاعتراف لها في حقِّ المساواة، وهم ينكرون عليها هذه المساواة في قرارة أنفسهم، ويحنون لها رؤوسهم في مواطن الهزل، وينصرفون عنها في مواطن الجدِّ»^(٥).

وفي كتاب السباعي «المرأة بين الفقه والقانون» عرضُ وافي لسوء حال المرأة الغربية، في لوائح الكتاب.

٢ - المبادئ التربوية الاجتماعية

بعد أن عرضنا لاتجاه السباعي التربوي الاجتماعي في إرساء الأصالة والاستقلالية في نفوس أبنائنا وإلى مقاومة التغريب والاستعمار بمؤسساته وأفكاره، نقضي إلى ما جادت به ملكته، وما طالعت به خبراته من مبادئ تربوية اجتماعية، استخلصها من واقع تجاربه، يمكننا أن نرى فيها:

(١) قواعد عامة :

يعرض السباعي إلى بعض القواعد التربوية الاجتماعية في ثنايا تأليفه . فهو ليس المنصرف إلى فن التربية أو الاجتماع بالمعنى الاصطلاحي ، ولكنه محيط بفن الحياة الذي يمتح منه القواعد الآتية :

(أ) الحركة حياة ونماء :

يرى السباعي الحركة سبيلاً للفاعلية والنمو ، ويضرب المثل بالشجرة التي تزدهر بهزات الرياح ، أما الشجرة التي لا تميلها الرياح فهي شجرة ميتة ، كذلك المعاني الإنسانية إنما تنمو جنباً إلى جنب مع معاناة الإنسان وكدحه ، وشقائه وفرط حركته . .

«الشجرة التي لا تميل الرياح أغصانها شجرة ميتة الجذور ، كذلك النفس التي لا تهزها المآسي نفسٌ ماتت فيها معاني الإنسانية»^(٦) .

وكما يتحرك الإنسان ، ويغشى كل ميدان بالخير والبناء ، يوافيه الشئ والمجد من كل سبيل كفاء حركته وبذله . .

«لكل مجدّ مكافأة ، فمن جدّ في طلب العلم ، كوفئ باحتياج الناس إليه ، ومن جدّ في بذل المعروف ، كوفئ بثناء الناس عليه ، ومن جدّ في معالي الأمور ، كوفئ بالخلود ، ومن جدّ في خدمة الناس ، كوفئ بالزعامة ، ومن جدّ في رضا الله عزّ وجلّ ، كوفئ بذلك كله في الدنيا ، وتُزاد له الجنة في الآخرة»^(٧) .

(ب) الاعتدال:

ويضبط السباعي «الحركة» بقاعدة «الاعتدال»، ففي ذلك التوازن والنجاح...

«أكل الطيبات من غير سرف، والاستجمام من غير إفراط،
واستعمال النعمة من غير ترف، فيه معنى الشكر، ويؤدي إلى
النشاط لعمل الخير، ويكبح ميل النفس نحو اللهو والعبث
والظلم»^(٨).

(ج) الحرية:

كما يشترط الحرية لازدهار خصائص الإنسان ومواهبه الذاتية،
فلا تنمو في غيابها، ويضرب المثل ببكاء الطفل حين ولادته...

«لَمْ وُلِدْ بَاكِياً مَعَ أَنَّهُ فَارِقُ الظِّلْمَةِ إِلَى النُّورِ؟ وَضِيقُ الرَّحِمِ
إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا؟ قَالُوا: لِأَنَّهُ فَارِقُ مَكَانِهِ الَّذِي أَلْفَهُ... وَمَا هُوَ
بِذَاكَ، وَلَكِنَّهُ تَأَلَّمَ، لِأَنَّهُ عَانِيَ ضَغْطَ الْخُرُوجِ عَلَى أَعْضَانِهِ
الْغَضَّةِ اللَّدْنَةِ، فَصَرَخَ... ضُغْطَ عَلَيْهِ فَتَأَلَّمَ فَصَرَخَ... هَذِهِ هِيَ
طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ، بَلْ قُلْ: إِنَّهَا أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْ طَبَائِعِ
الْإِنْسَانِ وَخَصَائِصِهِ، مِنْذُ أَنْ يَسْتَقِلَّ فِي وَجُودِهِ عَنْ أَيِّ إِنْسَانٍ
آخَرَ... فَالشُّعُورُ بِالْحُرِّيَّةِ مُلَازِمٌ لَشُعُورِ الْإِنْسَانِ بِالْحَيَاةِ»^(٩).

(د) العطاء:

هو أن يعطي الإنسان من ذات نفسه ومن راحة بدنه، متعقفاً عن لذائذ
الحياة، ومتعها وشهواتها، في سبيل أمته ودينه ومجتمعه، يرى السباعي في
تلكم العطاءات قمة الإنسانية...

« - من علامة الكرم، أن تكون للبذل فيما لا يتحدث عنه
الناس، أسرع منك للبذل فيما يُشتهر أمره بينهم.

- من علامة العظمة، أن تزداد ثباتاً في طريقك، كلما ازدادت فيه المتاعب.

- من علامة الزهد، أن تعرض عن الدنيا وهي مقبلة عليك.

- من علامة صدق المؤمن في إيمانه، بذله لله من أمواله، ومن علامة نجاحه في دعوته تخليه عن راحته، ولهفته في أداء رسالته»^(١٠).

(هـ) حفظ الطاقات :

ولعلها من القواعد التي شغل السباعي بها طويلاً، نظراً لما يرصده من هدر الأمة والأفراد طاقاتهم فيما لا ينفع فرداً ولا أمة، بفعل تدبير الأعداء وهم لا يشعرون..

« - ليس صدفة، ولا عن حسن نية أن توجه طاقات شبابنا وبناتنا إلى الرسم والرقص والغناء، ويكون ذلك محور التوجيه في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، من حيث لا توجه طاقاتهم ولا عبقرياتهم إلى العلم والصناعة والاختراع. إنها خطة استعمارية تنفذ من أموال الشعب على أيدي بعض الأغرار من المراهقين والمراهقات^(١١)!.

وهنا يبادر بتقويم النظرة إلى الفن، وهو التعبير عن الشحنة الشعورية الفائضة في الإنسان، فيرى الفن - بوصفه تجميلاً للحياة - لا يأتي قبل استكمال البناء وشد الأركان، وإنما يأتي تنويجاً للحياة القوية المزدهرة، وتزييناً لها..

« - الانصراف إلى الفن شغل الذين تم لهم البناء، أما الذين لم يبدؤوا بالبناء بعد، أو بدؤوا متأخرين، فمن أكبر الجرائم صرفهم عن الاهتمام في تقوية البناء، إلى الاهتمام بالرسم

والغناء، وعن الاختراع إلى رقص الإيقاع، وعن صنع الحياة إلى «رسم الحياة»^(١٢).

ويرى السباعي أن الفن يصقل مواهب الإنسان، ولكن الأمة المهددة بالأعداء أحوج إلى القوة والإعداد والذود عن الحمى الآن..

« - إذا كان الفن يصقل المواهب وينمي الشعور بالجمال، فإن الأمة المحاطة بالأعداء، في حاجة إلى ما يفتل السواعد، ويلهب الإيمان، ويقوي الأخلاق، ويفتح العقول، ويدفع عن الأمة خطر الإبادة أو الاحتلال»^(١٣).

ولعلّ هذه الكلمات تحمل مغزى خاصاً، إذ تأتي قبيل نكسة حزيران عام ١٩٦٧م!

٢) برنامج للإصلاح الاجتماعي:

نظر السباعي لعهدده في حال أمتنا العربية الإسلامية، فألفى ظواهر التفكك الاجتماعي تنتابها من كل جانب؛ فواجه الحيرة في شأن صلاح الأمة ببرنامج مبدئي للإصلاح الاجتماعي يمكن أن يكون منطلقاً في أيدي رجال الإصلاح..

يوجز مبادئه فيما يأتي...

« ١ - أن نستفيد من توثبنا واستعدادنا؛ لتكون حركة الإصلاح التي نريدها منبثقة من صميم الأمة وواقعها الحاضر وشخصيتها التي عُرِفَتْ بها بين الأمم، لا أن نلحق ثوباً مرقعاً نأخذ رقعة من هذه الدولة، ورقعة من تلك، وخيطاً من هنا وخيطاً من هناك؛ فإذا علينا ثوب مهلهل لا هو بالشرقي في روعته وجلاله، ولا هو بالغربي في أناقته وجماله!

٢ - وأن ننظم بنياننا الداخلي، فنصلح العقائد، ونهيئ الفرد الكامل والمجتمع العادل.

٣ - وأن نحرّر أجزاء وطننا الرازحة تحت أعباء الجهل والاستعمار.

٤ - وأن ننطلق بعد ذلك لنحمل راية الإنقاذ ونخلص العالم من ويلاته ومشاكله، ومن طغاته ومستبديه.

٥ - وأن نطرح الماضي، ولا ننجاهل الواقع بل نوائم بينهما، ويكون سيرنا إلى الأمام دائماً مع نور يضيء لنا الطريق ويجنبنا عثرات الظلام»^(١٤).

(ب) في الجانب التربوي العملي

رعى السباعي في القسم السابق - كما رأينا - جانب الفكر والتصور في تقويم فكر الأمة وتصوراتها على هدى الإسلام، وهي تجتاز حقبة صعبة تواجه فيها هجمة شرسة من الغزو الفكري الاستعماري.

وقد وضع لذلك قواعد وأسساً لمقاومة هذه الهجمة الاستعمارية التي تستهدف دين الأمة وشخصيتها وإفساد شبابها وفتياتها.

وقد أوضح من خلال ذلك الطريق الأصيل لحفاظ الأمة على عقيدتها وشخصيتها.

ولكن هل اكتفى السباعي بطريق التوعية ورسم الطريق؟

إن السباعي الذي أدت خطبه وكتبه ومقالاته رسالة التوعية لعهد، كان يعمل إلى جانب رسم القواعد التربوية الاجتماعية على ترجمة القول إلى عمل، والمشروع إلى مؤسسة في سبيل الترسيع للأصالة والحفاظ

على شخصية الأمة، فأنشأ لذلك المؤسسات التي تحتضن نشء هذه الأمة وترعاه بالتثقيف والتربية على مثل الإسلام وقيمه.

١ - إنشاء المؤسسات الثقافية :

لما كان للتعليم الأثر الأكبر في تحقيق مشروع السباعي الذي يهدف إلى صياغة النشء على أساس من مبادئ الإسلام، فقد أولاه السباعي عنايته واهتمامه. وحتى يكون المشروع متكاملاً فقد اتجه به إلى المرحلتين الآتيتين :

١ - إنشاء المدارس الثانوية على أساس من التعاليم الإسلامية، وبث روح الاعتزاز بمبادئ الإسلام وحضارته الزاهرة ورجاله العظام، فأنشأ «المعهد العربي الإسلامي» بدمشق، و«المعهد العربي الإسلامي» بحمص، وقد تميز المعهدان المذكوران بكل ما فيهما من برامج نظرية وتطبيقية بخطة ثقافية متميزة تبث الروح الإسلامية في نفوس النشء وتربيته على مبادئه، وتحصّنه من الغزو الاستعماري وثقافته المسمومة. هذا بجوار رعاية العلم التقني الذي يحسّن إعداد شباب الأمة ويعزز استقلاليتها.

٢ - إنشاء كلية الشريعة، ويأتي تنويجاً للمشروع الثقافي الذي يرمي إليه السباعي. وقد أعدّت مناهجها الإسلامية الحديثة لملء فكر الطالب، ولإعداده لأن يكون داعية للإسلام.

وقد أحدث السباعي تعزيزاً لذلك «قاعة بحث» للطلبة يباشر إدارتها بنفسه، ويرتقي بها عن المناهج المحددة إلى مناقشة القضايا في ضوء الإسلام. فكانت كلية الشريعة بمثابة مدرسة أو كلية للدعاة، وبناء قادة المستقبل.

٢- إعداد الدعاة:

كان من برنامج السباعي العملي تربية جيل من الدعاة على مبادئ الإسلام وقيمه، تقدمه الدعوة الإسلامية إلى المجتمع نموذجاً عملياً لشباب مهذب، حسن الخلق، خاشع لربه، مؤثر على نفسه، يبذل عونه لمجتمعه وبرّه، ويقدم قدوة صالحة لأترابه. وقد تميز السباعي - في برنامجه - بأسلوبه التربوي، وتربيته الدعوية...

(١) أسلوبه التربوي:

كان من برنامج السباعي أن يعيش الشباب حياة إسلامية طليقة تستهوي حيوياتهم، فكان يستكثر من الرحلات والمخيمات التي تمثل الحياة الإسلامية بكافة أنشطتها، ويصطفي من الشباب أرقاهم تمثلاً وتطبيقاً لمبادئ الإسلام فيكون منهم مدرسة دعاة، لها برنامجها الحافل بالتثقيف الإسلامي والإعداد الدعوي ليكون منهم القادة والمربون.

ومما يمتاز به نهج السباعي التربوي أنه لم يكن نهج معلم يتقاضى من تلامذته فعل الصواب وتحاشي الخطأ، وإنما كانت تربية قائد لجيل، مهمته صنع الرجال لا تلقين المعلومات، وتعهد الناشئة في الدعوة ومتابعتهم بصبر وأناة مواكبين بالتشجيع والتحفيز بما يمنحهم الثقة بأنفسهم.

كان يصبر على الآراء والأخطاء لأنه يدرك أن للناشئ مرحلة ومستوى ينبغي أن يُرعى بحسب مرحلته، وكان لديه من الصبر في هذا الميدان ما يختلف عن طبيعته الحارة المتقدة، لأنه يعلم أنه يبني الرجال؛ لذا كان يبتسم لخطأ الناشئ كيلا يشعره بالنقص، ولا يني يرفع من مستواه، وهذا ما لا تطيقه إلا القلة من القادة، لأنه يقتضي أن يهدد المربي ما يعتمل في نفسه من رغبات الإصلاح والتصويب.

إنَّ أسلوب السباعي الآنف يشرح الصدور للقائه، والأنس بحديثه، والإصغاء لقوله، لأنه امتلك القلوب بهذا الأسلوب الجذاب الذي لا تشيم فيه بارقة من نفي أو صد.

ولعل هذا الأسلوب من أسرار نجاح السباعي في جمع هذه الجماهير - وفي فترة قياسية - حول دعوته ورسالته، يرون فيها شخصه وذاته وأسلوبه.

كان يُحسن خطاب القلوب الغضة ببشاشته وشخصيته الجذابة، ويتدفق كالنبع السيل بما يُبهج ويعجب، فيستميل العواطف والمشاعر، ويهددها بكلمة العذب، فلا ترى منه توعداً ولا جفوة بل سلاسة وأنساً، ويتمنى من يلقاه ألا يفارقه، ينعم بكلمه، ويأنس بمحياه الوضيء، تزينه ابتسامة رضية وعاطفة صادقة، تسري كلمته إلى القلوب دون استئذان..

من ذلك تشجيعه لشباب الدعوة الناشئين. فقد مؤل كتاب «دروس في دعوة الإخوان المسلمين» الذي أعده طالبان جامعيان يثق بهما؛ ليغطي الكتاب فراغ التوجيه الدعوي آنذاك، ولينمي هذا العمل شخصيتهما الدعوية. وتبنّى الكتاب - دون أن يسمح له وقته بالاطلاع عليه، وكتب مقدمة له، فراج الكتاب، وتناقله الدعاة، حتى توهم البعض أن الكتاب من تأليفه. ولهذه الواقعة مشابه من هذا الخلق الدعوي الواسع الأفق..

(٢) التربية الدعوية:

في صفاء روعي رهيف، يرسم لنا السباعي نموذجاً لعباد الله الذين أخلصوا عبوديتهم له، بوصفهم المثل الأعلى الذي ينشده الدعاة يقتفون أثره وينشدون مثله..

«إن الله عبادةً قطعوا علائق الشهوات، وأسرجوا مراكب الجدد بصدق العزمات، وامتطوا جياذ الأمل، واتجهوا إلى الله على وجل، وتزودوا إليه بصالح العمل، مع إخلاص النية، وتوسلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية، فمروا بالخضرة الفاتنة مسبحين، وبالحطب اللاهب مستعيزين، ولم يعبؤوا بالعقبات، ولم يلتفتوا إلى المغريات، قد صانوا وجوههم عن الابتذال، وطهروا أقدامهم من الأوحال، استعانوا بالله على مشقة الطريق فذلّل لهم صعابه، وعلى بُعد المدى فلملم لهم رحابه؛ فلما اجتازوا الصعاب سألوا الله ففتح لهم بابه، فلما دخلوه استضافوه فقربهم ورفع دونهم حجابيه، فلما استطابوا المقام بعد طول السرى قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، أولئك أحبّاء الله، صدقوه العهد فصدقهم الوعد، ومحضوه الحب فمنحهم القرب»^(١٥)..

وبعد أن يزجي هذه الصفات الربانية للعباد نموذجاً للدعاة، يشد عزائم الدعاة إلى مبادئ تربوية تؤهلهم لأن يدعوا الناس إلى دين الله، وهم في كامل استعدادهم وتذخيرهم..

من هذه المبادئ التربوية:

(أ) الإعداد الروحي:

يوصي السباعي الدعاة أن يتزودوا لأرواحهم من القرآن الكريم وأن يتضلّعوا به:

« - ما رأيت شيئاً يغذّي العقل والروح ويحفظ الجسم ويضمن السعادة أكثر من إدامة النظر في كتاب الله »^(١٦).

ثم لا يني يزود الدعاة بمزيد من الإعلاء لدور المسجد وروحانية الدين في تربية الفرد الذي سيكون موضوع تربيتهم وإعدادهم ..

«ويوم قدم رسول الله ﷺ المدينة كان أول عمل قام به وأول حجر وضعه في أساس الدولة التي غيرت مجرى التاريخ، بناء المسجد النبوي الكريم .. ولقد كان مسجده هو المصنع الذي خرج الأبطال الذين يعتز بهم الإصلاح الإنساني الخالد .. فما أبو بكر ولا خالد ولا سعد ولا عمر ولا علي إلا تلامذة تخرجوا من المسجد» ..

بل إن المسجد الذي تبني فيه روح الفرد كان الأصل في التربية الروحية والعقلية، إذ كان يؤدي، في تاريخنا الزاهر، دور المدرسة التي يبنى فيها الإنسان عقله، ودور الجمعية التي يبنى فيها خلقه ..

«ومدارسنا التي حملت لواء العلم والحضارة في القرون الوسطى لم تبدأ إلا من المسجد، فلم تكن المساجد في الحقيقة إلا مدارس يجتمع الطلاب في أبهاؤها نهائياً للدراسة، ويأوون إلى غرفها ليلاً للنوم ..

ولقد حدثنا التاريخ عن المساجد الإسلامية الكبرى كمسجد المدينة وقرطبة والأزهر والأموي، إن أعمدتها كانت ظهوراً للعلماء الذين يتحلق الطلاب من حولهم حلقاً حلقاً، حتى قالوا: إن مسجد قرطبة كان فيه آلاف الأعمدة حول كل عمود عالم وتلاميذه»^(١٧) ..

ويرى في القرآن دستور الحياة كاملة، وإنه للقيمة في التربية، وإن الجيل الذي يتأدب بالقرآن هو أكرم الأجيال ..

«أدب القرآن هو أدب الحياة المناضلة بشرف، البتاءة بسمو
المكافحة بتفاؤل، المدافعة بياس، المهاجمة بحق،
المتعاملة بحب، المتعاونة بوفاء، المرحة بوقار، المتنعمة
باعتدال، العزيزة بتواضع، القوية برحمة، العاملة بقناعة،
المتريسة بشورى، المرؤوسة بيقظة، الحاكمة بحزم،
المسالمة بحذر، المتحضرة بخلق، المتعبدة بعلم، الماشية
على الأرض ونظرها في السماء، السائرة في الدنيا نحو
العلاء، وفي الآخرة نحو البقاء، فأى أدب في آداب الأمم
يهدف هذه الأهداف؟ وأي جيل في العالم أكرم من جيل
يتمثل بهذا الأدب؟»^(١٨).

(ب) الإخلاص والتجرد لله:

يرى السباعي أن أخص ما يتميز به الداعية خلوص نفسه لله وتجردها
له.. ذلكم هو الصفاء في التربية والنقاء؛ إذ لا يجتمع في نفس إخلاص
وطمع أو حق وباطل:

«لا يجتمع حبُّ الله وموالة الظالمين في قلب داعية أبداً.

ولا يجتمع حبُّ الحق وموالة المبطلين في قلب مخلص
أبداً»^(١٩).

فالإخلاص والتجرد لله شرطان لنجاح الإنسان في حياته لأنهما
استمداد من مصدر القوى والطاقات، والانحسار عنهما انقطاع وفشل
وخسار وإن زهت المواكب وغمرت الأضواء..

«من اعتزَّ بغير الله ذلٌّ، ومن استعان بغيره خاب، ومن توكل
على غيره افتقر، ومن أنسَ بسواه كان في عيشة موحشة،
ولو غمرته الأضواء وحقت به المواكب»^(٢٠).

وإذا ما رزق الإنسان اليقين بالله وأحسن التوكل عليه جادت له
عناية الله بكل خير.

«من أيقن بحكمة الله ورحمته، رأى يد الله تقوده إلى كل
خير، وتبعده عن كل أذى»^(٢١).

واختبار الدعاة لا يحين موعده إلا حين تمام التمحيص وإيثار الجنة
على متع الدنيا، وهي حكمة من الله ألا يختبر عباده المخلصين إلا حين
تمام الإعداد، يوجه السباعي إلى ذلك بقوله:

«يا شباب الإسلام! إن الإسلام لم يدخل معركته الكبرى
بعد، ولن يدخلها إلا يوم يستوثق من تنظيم صفوفكم،
وكفاءة قيادتكم، وحسن طاعتكم، وجودة أسلحتكم،
ومعرفتكم لأهداف معركته مع أعداء أمتكم، وتفضيلكم أن
تموتوا في المعركة شهداء ترتعون في رياض الجنة، على أن
ترجعوا منها أحياء يُزهيككم النصر، وترتعون في مفاتن الدنيا؛
فلا تسألوا عن وقت المعركة، فذلك مرهون باستعدادكم،
ولا تسألوا عن مكانها فذلك علمه عند ربكم»^(٢٢).

(ج) العقل وسعة الأفق:

يلزم الداعية المخلص المتجرد لله إلى جانب صفاء روحه: العقل
وحسن التدبير ليكون واسع الأفق طلق التفكير. . يقول السباعي:

«الفرق بين العاقل والأحمق: أن العاقل ينظر دائماً إلى مدِّ
بصره، والأحمق ينظر إلى ما بين قدميه»^(٢٣).

ومن لوازم سعة الأفق لدى الداعية أن يكون فكره ولأجاً، يفتح
المغاليق ولا تقعده الأزمات. . يقول السباعي:

«إذا وقعت في أزمة مستحكمة، فاجعل فكرك في مفاتيحها
لا في قضبانها»^(٢٤).

كما أن من سعة الأفق التي يجمل أن يتحلى بها الداعية: التروي في
الرأي والعمل، والرضا من العاجل بما يوصل إلى الآجل... يقول السباعي:

«لا تكن كأكثر الناس يفضّلون عاجلاً فيه تلفّهم على آجل فيه
خلاصهم، ولكن كن كما هو شأن عباد الله الصالحين: يرضون
من العاجل بما يوصل إلى الآجل لا بما يقطع عنه»^(٢٥).

ويرى السباعي أن على الداعية أن يستشعر شرف النهوض بمهمة
الأنبياء والحكماء، فيتحلى بخلق الأنبياء ويزدان بحكمة الحكماء...

«معاشرة الناس لإرشادهم من عمل الأنبياء، واعتزالهم
للتفكير في أمورهم من شأن الحكماء، فاحرص على أن
لا تفوتك مع خلق النبوة، خصائص الحكمة»^(٢٦).

(د) الثقة بالله:

الثقة بالله والثبات في طريق الدعوة من أَلِزم صفات الداعية إلى الله،
لذا يوليها السباعي عنايته الخاصة في تربيته الدعوية؛ لأن الشيطان من
مهمته تخذيل الإنسان عن طريق الحق.

لذا يعتمد السباعي إلى تحصين الداعية من تخذيل الشيطان بتذكيره
ما أفاء الله على المؤمن من عطاء ومدد رباني...

«إذا أياسك الشيطان من الجنة فتذكر مغفرة الله.

وإذا أياسك من النجاة بتقصيرك فتذكر فضل الله.

وإذا أياسك من الشفاء من مرضك فتذكر رحمة الله.

وإذا أياسك من كشف محتك فتذكر وعد الله»^(٢٧).

ويزيد السباعي الداعية علماً بحقيقة الدين الذي يدعو إليه . . إنه نظام وافي، متين، متكامل، يبني الحياة في مهارة المهندس ودقته . .

«الدين الحق هو الذي يعطيك فلسفة متكاملة للحياة، ونظاماً وافياً بحاجات المجتمع، كالمهندس الماهر يبني لك بيتاً متين الدعائم، مستوفي المنافع»^(٢٨).

ويرى السباعي أن الثقة بالدين الحق تفتح أمام الداعية وثوقاً بالمستقبل، فإذا آمن بوعد الله لم تثنه عن طريقه المحن، ولم يساوره شك أو يأس في الطريق . .

«لو كنت متوكلاً عليه حق التوكل لما قلقت للمستقبل، ولو كنت واثقاً من رحمته تمام الثقة لما يئست من الفرج، ولو كنت موقناً بحكمته كل اليقين لما عتبت عليه في قضائه وقدره، ولو كنت مطمئناً إلى عدالته بالغ الاطمئنان لما شككت في نهاية الظالمين»^(٢٩).

ثم يزود الداعية بشمار الطريق التي وعد الله بها عباده المتقين، فلن يخذل الله عبداً دعاه، ودعا إليه . . :

« - ربّ صرخة تذهب اليوم هباءً، تكون في المستقبل القريب عاصفة وبناءً »^(٣٠).

ثم يهيب بالداعية - وقد بلغ المستوى الوافي من الإعداد - ألا يتردد في غرس بذرة الحق، مهما خال من عقبات، فلا بد من تربة خصبة لبذرة طيبة . . :

« - لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنه لا تُسمع، فما من بذرة طيبة إلا ولها أرض خصبة »^(٣١).

ويرى أنَّ على الداعية أن يثق بعمله وجهده مهما تردى الناس في الباطل، فمهمته مستمرة، وواجبه إنقاص عدد الهالكين!

«لا يروعنك تهافت الجماهير على الباطل، كتهافت الفراش على النار، فالطبيب الإنساني هو الذي يؤدِّي واجبه، مهما كثر المرضى، فإذا استطعت أن تهدي واحداً فحسب، فقد أنقصت من عدد الهالكين»^(٣٢).

وزاد الختام أن على الداعية أن يفرح بالكفاح فهو دوام القوة لدعوته..

«العقائد تقوى بالكفاح، وتضعف بالنجاح»^(٣٣).

(هـ) حسن التأني:

العرض الجذاب، والكلمة الطيبة، والخطاب المناسب - على مستوى العصر والبيئة والمرحلة الزمانية - أمور يجدها السباعي على غاية من الأهمية، على الداعية أن يراعيها:

أولاًها: إتقان خطاب القلوب:

«ثلاثة أشياء لا يتم علم العالم إلا بها: قلب تقي، وفؤاد ذكي، وخلق رضي»^(٣٤).

وثانيها: فقه الدعوة: من حُرِّم حُرِّم الوصول إلى القلوب والنفوس... وتحز في نفس السباعي غفلة الفئة التي فقدت الحكمة في الدعوة، فيقول:

«وأشدَّ هؤلاء غفلة وأقتلهم جموداً، من يحرصون على السنن والمندوبات، ولا يبالون بالفرائض والمحرمات، فلا همَّ لهم حين يجتمعون إلى الشباب إلا أن ينكروا عليهم خلق لحاهم

وكشف رؤوسهم وتصفيف شعورهم، قبل أن يهتموا بحفظ عقائدهم وصيانة إيمانهم، وإذا ساق القدر إليهم شاباً ذا نزعة دينية كان أول ما يحملونه عليه أن يطلق لحيته، ويعفّر شعره، ويعتزل الناس، وينصرف إلى المساجد، ويكثر من الأذكار والأوراد.

وأنا لا أنكر أن اللحية ودخول المساجد وذكر الله من آداب الإسلام وسننه، ولكني أنكر أن تقتلع شبابنا من عصرهم الذي يعيشون فيه...

إنّ عصرنا الذي نعيش فيه عصر حركة وعمل وتطور عجيب سريع، فلا يتحمل منا هذه البلادة المتزمّنة، ولا هذه الروحانية السلبية، ولن يحتمل الشباب هذا الجو مهمل استجابوا له أول الأمر، ولا بد من أن يغلبهم الزمن ويجرفهم التيار، فإذا لم نهئهم له كانت النكسة شديدة، والردة قاسية مؤذية» (٣٥).

٣ - تربية الناشئة المسلمة :

الناشئة المسلمة هي القاعدة الفتية للدعوة الإسلامية.. كانت موضع عناية السباعي شباباً وفتيات..

(١) الشباب المسلم :

كان همّ السباعي منصرفاً إلى الجانب التربوي للشباب المسلم، يتعهده بالمحاضرات والدروس وينشئ الأندية، ويرصد له الأوقات الثمينة، ويوليه عناية خاصة بالتوجيه والتربية والإعداد للمهام. يبدأ في ذلك بإنشاء النادي الرياضي الإسلامي الذي يُعنى بتربية الجسم والروح معاً، كما صنع في عدد من المحافظات. ثم يمضي إلى إقامة الرحلات

حيث الجو الطلق والعبادة والترويض على الطاعة والنظام مع تغذية العقول والأرواح. ثم ينتقل إلى إقامة المخيمات في أيام الإجازات حيث يقضي الشباب أياماً من الحياة الإسلامية الرضية بين ربوع الطبيعة، يستشعرون إبانها وجودهم الإسلامي، وعبوديتهم لربهم، وانتماءهم لدينهم ولرسالتهم.

وقد رعى السباعي رعاية جادة تنظيم «الفتوة» فجعله ملتزماً في كل مركز من مراكز الجماعة، كان بمثابة جندي للشباب على الطاعة والنظام، واعتياد التقشف والرياضات الشاقة، وتحمل وعشاء السفر. كما كانت الفتوة - والسباعي قائدها الأعلى - تضيء، بملابس الجندي، على الأاحفال والمهرجانات التي تقيمها الجماعة هبة ونظاماً، وتشعر بالروح الجادة التي كان يروض السباعي الشباب عليها.

(٢) الفتاة المسلمة :

أولى السباعي الفتاة المسلمة جُلّ عنايته، فألف كتاباً خاصاً بها أسماه: «المرأة بين الفقه والقانون»، ضمّنه التوعية الحققة للفتاة المسلمة التي تحاول اجتياها عن صونها وأدبها الدعاوى الغربية والغزو الفكري.

ثم أخذ يترجم أفكاره في الكتاب إلى أعمال ومؤسسات، فجعل للفتاة نصيباً من التوجيه والتربية كما للشباب، وزاولت الفتاة - بمقتضى ذلك - نشاطها في الحقل الإسلامي بعد استكمال إعدادها في صفوف الفتيات تدعوهم إلى ارتياد الطريق الأصيل للأمة وعدم الانبهار بطريق التغريب والتبعية الذي ينحرف بالفتاة المسلمة عن أصالتها ورسالتها.

(٣) الأسرة المسلمة :

كان من أهداف السباعي التربوية إنشاء الأسرة المسلمة التي في ظلها تنامي الأجيال المؤمنة، فكان يوصي - حسب السُّنة الشريفة - بحسن اختيار الزوجة فيقول :

«الزوجة المؤمنة العفيفة، الولودة الودودة لزوجها وأطفالها،
ريحانة الدنيا.. وأنا لا أشك في أنها ستكون ريحانة
الآخرة»^(٣٦).

ويعلي السباعي من مقام الزوجة المسلمة في إنسانيتها وتقائها وطهرها
بقوله :

«رضي الله عن أمهاتنا وزوجاتنا المتقيّات ظلال الإسلام،
العاملات بأحكامه، فوالله ليوم من أيام الواحدة منهن، يعدل
- في إنسانيته وجلاله وطهره - عمراً كاملاً من أعمار أولئك
اللاتي يتفیان ظلال هذه الحضارة الغادرة المتمردة المبدلة
لصنع الله»^(٣٧).

وهو يطالب الزوج بحسن معاملة الزوجة ويحمّله للمسؤولية كاملة في
الشراكة الزوجية :

«السعادة الزوجية لا تتم إلا بأن تفهم زوجتك، وتفهمك
زوجتك، وتحملّها، وتحملّك، فإن لم تفهمك فافهمها،
وإن لم تحمّلْك فتحملّها»^(٣٨).

ثم يخص الأمومة بفِلذ من الوقائع والشواهد، تبوّئ الأمومة عليا
مقامها شعوراً إنسانياً دافقاً بالرحمة، ذائباً بالحنان، ولولاها ما بُني
الإنسان..

«رأيتها تذرف على ولدها المريض دمعتين وهي جالسة إلى جانب سريرته تحاول أن لا يراها ولدها، وهي تبكي رحمة به من أن يتألم لألمها...»

يا رحمتاه للأم تألم على ولدها وتحاول أن لا يألم لألمها،
فماذا يستطيع الولد أن يكافئ أمه؟»^(٣٩).

ثم يوجّه عناية الآباء إلى الأولاد، جيل المستقبل فيخصهم بوصاة تربوية لها مغزاها في بناء الجيل القادم، في مقدمتها جميل رعاية الولد وتوجيهه... :

«أعِن ولدك على برك بثلاثة أشياء: لطف معاملته، وجميل تنبيهه إلى زلاته، وحسن توجيهه إلى واجباته»^(٤٠).

ثم يحذّر من مرافقة الولد قرناء السوء قبل أن يستشري الداء ولا ينفع الدواء... :

«جنّب ولدك قرين السوء، كما تجنّب الممرض المعدي، وابدأ ذلك منذ طفولته، وإلا استشري الداء، ولم ينفع الدواء»^(٤١).

كما يوصي بتعويد الولد الاعتماد على نفسه حين يصبح قادراً على الكسب كيلا يكون متواكلاً، ويعيش كلاً على والده... :

«عوّد ولدك الاعتماد على نفسه ولو كنت غنياً، فإذا أصبح قادراً على الكسب وهو غير طالب علم، فحذار أن تطعمه على مائدتك، أو تسكنه في بيتك، أو تسدّد نفقاته من جيبك؛ فإنك تقتل فيه روح الكفاح في سبيل العيش وقد رأيت من هؤلاء كثيرين»^(٤٢).

ثم يكمل وصيَّته بأن يعودَّ الولدُ على الجد والعمل مهما كلفه ذلك من شقاء فهو خير له :

«لأن ترى ولدك يقاسي متاعب الحياة وهو يعمل لها، خيرٌ من أن تراه غارقاً في النعيم وهو يعتمد عليك»^(٤٣).

ويقدِّم السباعي المثل من عنايته بأسرته وأولاده إذ أعطاها، رغم أعبائه، من علمه وأدبه، وأدام لها المتابعة التربوية، من ذلك :

«كان يخص أولاده وأسرته بقاء أسبوعي صحيحة كل جمعة، يشتمل على درس رياضي، ودرس ثقافي في السيرة. وكان يتعهد أولاده بالرياضة كواجب إسلامي ويقول: على الإنسان المسلم أن يكون قوياً»^(٤٤).

ويدلّ على عمق شعوره الأسري ما كان يديم من أقوال عن الأسرة في كتبه ومجلاته، بوصف ذلك رسالة وأمانة.. من ذلك مناجاته لأصغر أولاده :

«يا ولدي الصغير! ترى حين تصبح رجلاً مثلنا يتطلبك الواجب أن تحمل المسؤولية، أ تكون في صف العاملين؟ أم تكون في جماهير الغافلين؟ أ يكون زمانك خيراً من زماننا؟ أم أسوأ؟ أ يكون جيلك أفضل من جيلنا؟ أم نكون نحن خيراً منكم؟ لست أدري يا ولدي الصغير..

ولكنني أدري أن من واجبي نحوك كأب أن أعدّك لحمل المسؤولية وتجشّم الصعاب، ورفع اللواء، وإنارة الطريق للركب السائر، فإن بلغت منك في ذلك ما أريد، فذلك خيرٌ وفق الله إليه، وإلا فحسبي أن أؤدي الأمانة، وأبلغ الرسالة، وألا أدعك تحاجني بين يدي الله»^(٤٥).

٤ - بناء كوادر المجتمع :

لا بد لانتظام بناء المجتمع ومثاقته من استكمال كوادر فعالة مريحة، وقد قام السباعي في صلب مشروعه الاجتماعي بخطوات عملية في بناء هذه الكوادر وريادتها إلى الطريق السوي: إنتاجاً، واستقامة، وولاء للأمة... ومن هذه الكوادر:

(١) المثقفون:

لم يكن السباعي يلقي محاضراته في المواسم والمناسبات الإسلامية والوطنية وحسب، وإنما كان له محاضرات أسبوعية دورية باسم «حديث الثلاثاء» في مركز السنجقदार بدمشق، وكان المثقفون يؤثون هذه المحاضرات الثمينة، إفادة من علم السباعي، ونهلاً من أدبه وحركته. وكان يولي الناشئة المثقفة عنايته، فيخصصهم بلقاءات مباشرة، ومشروع خاص له برنامجه النوعي..

(٢) العمال:

كان للعمال في جماعة الإخوان المسلمين التي يقودها السباعي مشروع خاص مكتمل، يبدأ بالبناء الإنساني، جسماً وعقلاً وروحاً، على مبادئ الإسلام، ويرفع من مكانة العامل في الأمة اقتداء بتكريم الرسول ﷺ للعامل وإنصافه له، وتحقيقاً لمبادئ الإسلام التي توازن بين فئات المجتمع بالحب والتعاون والتكافل. كما تتعهد الجماعة العامل بالتربية الدعوية ليكون عضواً بانياً فاعلاً للمجتمع، على هدى مبادئ الإسلام، بعرقه وتقواه.

وانطلاقاً من تعهد الجماعة العامل في المجتمع، استصدر السباعي من المجلس النيابي تشريعات منصفة للعمال، مثرية للإنتاج، كما أنشأ

مدارس ليلية للعمال تتولى استكمال تثقيفهم في جميع المحافظات، ومعظم الأقسية والقرى، وحصل الكثير منهم على الشهادات الدراسية حتى التعليم الجامعي . .

(٣) الفلاحون:

كان للسباعي من العناية والاهتمام بالفلاحين والريف ما لا يقل عن القطاعات الأخرى، إذ كان الإخوان المسلمون - بريادة السباعي - يفتتحون في أكثر القرى فروعاً، تكون منطلقاً للدعوة الإسلامية في الأرياف، وكانت الفروع مراكز إشعاع دعوي في الريف.

وكان يرسم مشروع العناية بالريف والارتفاع بمستواه لجنة الريف الخاصة التي تتلقى الدراسات والتوصيات والمشروعات من الفروع المبنوثة في كل محافظة، ويتوالى الاتصال بين المدينة والريف عن طريق الزيارات والرحلات الدعوية التي تتخللها المحاضرات والدروس وتفقد أحوال الريف وما يحتاجه من خدمات ومشروعات وعناية وإمداد ونوعية.

وكان السباعي في المجلس النيابي دائب المتابعة لما يتطلبه الريف من عناية الدولة: من تمديد للكهرباء، وشق للطرق، وافتتاح للمدارس، وتوفير للخدمات الصحية، وإمداد بالتوجيه الزراعي والتطوير الفني للزراعة، تمييزاً لموارد الأمة الزراعية، وتحسيناً لمستوى الفلاح.

٥ - مشاريع المواساة الاجتماعية:

إن إحساس السباعي بآلام الشعب، وهو يخرج من ظلام الاستعمار، مثقلاً بالمتاعب والمعاناة، كان يجعله يسعى سعياً حثيثاً لرفع هذه المعاناة أو تخفيفها؛ لذا كان - إلى جانب الدعوة العامة بين أبناء الأمة لتأدية

فريضة الزكاة وهي «حق معلوم للسائل والمحروم» - يسعى - في وقت مبكر - لرفع الحاجة عن المحرومين بوسائل كريمة، ومشروعات إنسانية تسمح للأواء عن جبين الشعب..

«كان السباعي بمثابة الأب الحاني لسائر الفقراء والمساكين والمحتاجين، والمعوزين والعجزة والأيتام والأرامل، ومن يشبههم من أبناء المجتمع السوري، قد أهّته أمورهم، وشغلته قضاياهم، في وقت مبكر من حياته الخصبة المليئة بجلائل الأعمال.

فقد حارب سائر أشكال الظلم الاجتماعي، وحاول إصلاح الخلل في المواضع الاجتماعية الجائرة، فعمل على القضاء على البطالة السافرة والمقنّعة، وعلى معالجة مشكلة غلاء المعيشة، وارتفاع الأسعار، ومحدودية الدخل، وغلاء الإيجارات، وقانون الإيجار، ومكافحة الجهل، والجوع، والبؤس، والمرض، والامية؛ فأنشأ المدارس الليلية للفقراء.

وخصص يوماً للفقير في كل عام، وأنشأ لجاناً لجمع التبرعات والإعانات، وتوزيعها على المحتاجين، وشكل لجنة دائمة لذلك، أطلق عليها اسم (اللجنة التعاونية).

وكان حرياً على سائر أشكال التخلف في الريف والأحياء الفقيرة في المدن، وقد أنشأ عدّة لجان لذلك، كاللجنة الثقافية، ولجنة مكافحة الأمية، واللجنة العمالية، واللجنة الطلابية، واللجنة الطبية، والجمعيات الخيرية» (٤٦)...

ولعلنا فيما عرضنا له في هذا الفصل - من آلاء السباعي في التربية والاجتماع في الحقل الإسلامي، على المستوى التنظيري في القواعد التربوية ومبادئها وبرامجها، وعلى المستوى التطبيقي في إنشاء المؤسسات الثقافية، وإعداد الدعاة، وتربية الناشئة المسلمة، وبناء كواد المجتمع، تتوجها مشاريع المواساة الاجتماعية لأبناء الشعب - ما يمنحنا فكرة جلية عن مدى إسهام السباعي الواسع في البناء التربوي الاجتماعي لأبناء الأمة، قدمه للدعوة الإسلامية المعاصرة برنامجاً لبناء الأجيال.



المراجع

- (١) مجلة الفتح، العام: ١٠، العدد: ٤٦٥، عام ١٣٥٤هـ: «أبناؤنا»، مصطفى السباعي، ص: ٣٥٤.
- (٢) نفسه، العام: ١١، العدد: ٥٤٧، عام ١٣٥٦هـ: «موقف من مواقف الشرق والغرب»، مصطفى السباعي، ص: ١١١٨.
- (٣) نفسه، العام: ١٠، العدد: ٤٦٥، عام ١٣٥٤هـ: «أبناؤنا»، مصطفى السباعي، ص: ٣٥٥.
- (٤) نفسه، العام: ٩، العدد: ٤٤٥، عام ١٣٥٤هـ: «لغة الأمة مظهر عزتها وعنوان استقلالها»، مصطفى السباعي، ص: ١٠٩٨.
- (٥) هكذا علّمتني الحياة، د. مصطفى السباعي، ١: ١٣٦.
- (٦، ٧، ٨، ٩) نفسه، ١: ١٧٥، ١: ١٦٥، ١: ١٢٤، ١: ٢٣١.
- (١٠، ١١، ١٢، ١٣) نفسه، ١: ١٦٥، ١: ١٦٦، ١: ٩٧، ١: ٩٩، ١: ٩٩ - ١٠٠.
- (١٤) منهجنا في الإصلاح، د. مصطفى السباعي - المكتب الإسلامي، ص: ٢٥ - ٢٦.
- (١٥) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٦٠.
- (١٦) نفسه، ١: ٧٨.
- (١٧) أخلاقنا الاجتماعية، د. مصطفى السباعي، ص: ٨ - ٩.
- (١٨) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٢٤٥.
- (١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢) نفسه، ١: ١٦٨، ١: ٢٦٦، ١: ١٦٣، ١: ٢٨٣.
- (٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦) نفسه، ١: ١٩٥، ١: ١٩٥، ١: ٢٤٣، ١: ٢٣٩.
- (٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠) نفسه، ١: ٧٥، ١: ١٧٧، ١: ٣٣، ١: ١٠٢.

- (٣١، ٣٢، ٣٣) نفسه، ١ : ١٠٢ ، ١ : ١٥٥ ، ١ : ٨٤ .
- (٣٤) نفسه، ١ : ١٦٠ .
- (٣٥) أخلاقنا الاجتماعية، ص : ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- (٣٦، ٣٧، ٣٨) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ٢٣٤ ، ١ : ٢٣٤ ، ١ : ١٢٦ - ١٢٧ .
- (٣٩) حضارة الإسلام، السنة السادسة، العدد : ٤ ، ٥ ، ٦ : «إلى أمّه»، مصطفى السباعي، (من كلماته التي لم تشر)، ص : ٤٤٣ .
- (٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣) هكذا علّمتني الحياة، ١ : ١١٩ ، ١ : ١١٥ ، ١ : ١١٥ ، ١ : ١١٦ .
- (٤٤) من مقابلة مع ابنه حسان .
- (٤٥) حضارة الإسلام، السنة الرابعة، العدد : ٤ ، ٥ ، ٦ : «يا ولدي الصغير»، مصطفى السباعي، ص : ٤٤٦ .
- (٤٦) مصطفى السباعي الداعية الرائد والعالم المجاهد، عبد الله محمود الطنطاوي، دار القلم - دمشق ص : ٦١ .



... ..
... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

الفصل الرابع الحكيم الناقد

أولاً: السباعي الحكيم:

- ١ - في الإيمان والدين.
- ٢ - في القضاء والقدر.
- ٣ - في الحق والخير.
- ٤ - الأسرة.
- ٥ - الحياة الإنسانية.
- ٦ - عالم الحقائق.

ثانياً: السباعي الناقد:

- ١ - كيف نستخدم مواهبنا؟
- ٢ - معنى الحرية.

مجلس السجدة

الحمد لله الذي
جعلنا من عباده

الذين يحبون السجدة

والذين يحبون الله

والذين يحبون رسوله

والذين يحبون دينه

والذين يحبون

الذين يحبون السجدة

والذين يحبون الله

والذين يحبون رسوله

والذين يحبون دينه

والذين يحبون

1330

الحكمة ثمرة تجارب الرجال، وكنوز معرفتهم، وسبرهم
لأغوار الحياة.. وهي بكثافة مضمونها، وثقل جوهرها تمثل لباب العقول
وصفو القرائح. تختزل تجارب البشر، وتبذلها لهم معالم خير وهدى
وعطاء..

أما الحكمة عند السباعي فهي - إضافة إلى ما سبق - محصلة خصبة
لعمر حافل بممارسة الحياة في أصعدتها المختلفة المتنوعة، ألفينا رجوعها
في مواهبه الشاملة عطاء خصيباً في كل آن وفي كل ميدان. فلا غرؤ أن
تملأ الحكمة كلمة السباعي الداعية.. الأديب.. الاجتماعي..
المربي.. إنها تغرف من كل موهبة وقرها، وخصبها، وشمولها،
وتنوعها.

هذا الخصب والتميز في حكمة السباعي ورؤيته جعلاه في عصره ذا
دور رائد في تصحيح مسار الأمة وإثابتها إلى شخصيتها وأصالتها بما أنار
لها الطريق من فلذات ناقدة رائدة تضع اليد على الداء وتصف ناجع
الدواء.

نحن هنا مع السباعي الحكيم في غرر حكّمه، ومع السباعي الناقد
في نظراته الثاقبة..

أولاً: السباعي الحكيم

في مقابلة صحفية سأل المحرر السباعي عن حكمته المفضلة فأجاب:

إنها الحكمة التي تقول:

«الحياة طويلة بجلائل الأعمال، قصيرة بسفاسفها»^(١).

إنها لحكمة تختزل تجارب الحياة، وتعبّر أصدق تعبير عن مُثل السباعي الحكيمية التي أهداها لعصره في كتابه «هكذا علمتني الحياة»، يعرفها لنا أحد خلصائه بقوله:

«حِكْم عملية واقعية، عاشها الشيخ رحمه الله، بكل جوارحه وأحاسيسه وآلامه؛ وآماله. اهتدى بنورها مرة، واكتوى بنارها مرة... وعاش في دخانها وظلالها مرات ومرات... بحيث يمكننا القول: إن هذا الكتاب يمثل عصارة الفكر والروح في كل حكمة من حكمه وكلمة من كلماته... وحرف من حروفه؛ لأنك تقرأ تحت ذلك كله تاريخاً حافلاً - أخذ طريقه إلى دنيا الواقع - من العمل الدائب، والعاطفة المشبوبة، والشجاعة المفرطة، والرجولة المستعلية، والتجربة الصادقة... والصبر الجميل»^(٢).

والجدير بالتنويه أن هذه الحِكْم قد تكون مختلفة عما عهد الناس منه.. إنها صورة أخرى، هادئة، تمتزج حروفها بالسكينة والاطمئنان..

يحلّل هذه الظاهرة من أحسن قراءة الكتاب بقوله:

«ولقد تخيلتُه في كتابه هذا، بعد الذي كتبه من بحوث وتآليف، كالماء العذب؛ إذ ينتشر رقيقاً يشفّ عما تحته في

تَلَأْلؤُ وإِشراق، بعد أن كان ينصبّ هائجاً زخّاراً فيه لألاء
الفضّة، وقوّة الاندفاع.

على أنّ الماء العذب هو هو، فيه جوهر الرّقة والصّفاء،
ولديه طبيعة الثّورة والهبّاج، سواءً كان يتصبّب من راسيات
الصّخور، أم يتجمّع في الجداول ووسط المروج.

وتلك هي طبيعة المسلم الصّادق في إسلامه: عمقٌ في
الإحساس، وصفاءٌ في النفس، ورّقةٌ في القلب، حتى
وهو يثور قائلاً: صَبَّحكم مَسّاكم... وثورةٌ في العزم، وحزمٌ
في الإرادة، حتى وهو يتفياً ظلال أسعد ساعات عمره»^(٣).

لقد جعل السباعي من خطرات الحكمة التي ألهمها محطات إرشاد
على طريق الحياة ترفد الساري بزاد الطريق. ولعل تجاربه الكثيفة التي
جاءت عبر رحلات حياته العميقة، نوّعت لديه هذه الحكمة المسداة التي
لا تكاد تغادر باباً من الحياة الإسلامية إلا وتناولته..

١ - في الإيمان والدين:

يطالعنا في هذا الباب من حكمته ببداهة الإيمان التي تبهت
الجاحدين فيقول:

« بدءُ حياة الإنسان ونهايتها مما حارت فيه عقول الفلاسفة
منذ عُرف تاريخ الفكر الانساني حتى الآن، ومع ذلك فهذا
الإنسان الذي لم يعرف كيف تبدأ حياته وكيف تنتهي، يريد
أن يعرف كُنّه الله وأين هو؟ ويتساءل: لِمَ لا يراه؟ يا لغرور
الجاهلين...! »^(٤).

ثم يقول :

« - من ظلم الإنسان وجَهِله أن يتلقى عن ربه ما لا يعطيه
إلا هو، ثم يسأل: أين الله؟ »^(٥).

ويتبع ذلك بدليل ذوقي على الإيمان بديع يسير . .

« - في جمال الأزهار وأرج الرياحين وهي من ماء وتراب،
يتجلى إبداع الخالق ودقة صنعه، فأى دليل بعد هذا على
وجود الله وحكمته يريدون؟ »^(٦).

والإيمان كما يعرفه العارفون ليس مجرد دعوى وإنما هو الانصراف
كل الانصراف إلى حب الله ورسوله، والأمل في لقائهما، والسعادة
بمرضاتهما ووصالهما، يقول:

« - ليس في قلب المؤمن مكانٌ لغير حبِّ الله ورسوله، وليس
له أمل أغلى من لقائهما، ولا عمل ألد من مرضاتهما،
ولا وصل أحلى من وصالهما »^(٧).

فمن يا ترى، حظي بالوصول - على هذا الطريق - إلى حقيقة
الإيمان؟

يجيب السباعي بالخُطرة الآتية الجامعة:

« - إن الله عباداً قطعوا علائق الشهوات، وأسرجوا مراكب
الجدِّ بصدق العزمات، وامتطوا جياد الأمل، وأتجهوا إلى الله
على وجلٍّ، وتزوّدوا إليه بصالح العمل، مع إخلاص النية،
وتوسّلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية؛ فمروا بالخضرة
القاتنة مسبّحين، وبالحطب اللاهب مستعيزين؛ ولم يعبؤوا
بالعقبات، ولم يلتفتوا إلى المغريات؛ قد صانوا وجوههم

عن الابتذال، وطهروا أقدامهم من الأوحال؛ استعانوا بالله على مشقة الطريق فذلَّلَ لهم صعابه، وعلى بُعد المدى فلملم لهم رحابه؛ فلما اجتازوا الصعاب سألوا الله ففتح لهم بابه، فلما دخلوه استضافوه فقربهم ورفع دونهم حجابَه، فلما استطابوا المقام بعد طول السَّرى قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾، أولئك أحباء الله، صدقوه العهد فصدقهم الوعد، ومحضوه الحب فمنحهم القُرب»^(٨).

وبعد أن يوافينا بذخائر حكمته الإيمانية يطالعنا بثمراتها وينعها..

ففي ظلها ينعم المؤمن بالراحة والطمأنينة، وينجو من التوتر والقلق - داء العصر -:

« - يكفيك من التقوى برد الاطمئنان، ويكفيك من المعصية نار القلق والحرمان»^(٩).

كما ينعم في ظلها المؤمنُ بالغبطة والسرور وعزة الطاعة..: « - يكفيك من عزِّ الطاعة أنك تُسرُّ بها إذا عُرِفَتْ عنك، ويكفيك من ذل المعصية أنك تخجل منها إذا نسبت إليك»^(١٠).

٢ - في القضاء والقدر:

لقد ذُخِّرنا السباعي في القَدَر بحكم عملية صدر فيها عن إيمان وتجربة، فإذا كان المسلم بمقتضى إيمانه بقدر الله لا يتخطى حدود تقديم الأسباب، ثم يسلم الأمر لله تعالى، فقد جعل السباعي بتجاربه الوفيرة

ومرضه الطويل هذه النظرة الإيمانية للقدر سلوكاً في ذات نفسه، زاد عليها الاستبشار بقدر الله ..

« - ربما كان بطء القدر في استجابته الدعاء وتحقيق الرجاء، رحمة بالمبتلى تدفع عنه مزيد البلاء، أو كرامة تُدخّر له في يوم الجزاء»^(١١).

ويتبع استبشاره بالقدر بنظرة جامعة توازن المصيبة بالرحمة، فإذا كل ما عند الله للمؤمن خير وسلامة ونجاح ..

« - ستة أشياء إذا ذكرتها هانت عليك مصيبتك: أن تذكر أن كل شيء بقضاء وقدر، وأن الجزع لا يردّ عنك القضاء، وأن ما أنت فيه أخفّ مما هو أكبر منه، وأن ما بقي لك أكثر مما أخذ منك، وأن لكل قدرٍ حكمة لو علمتها لرأيت المصيبة عينَ النعمة، وأن كل مصيبة للمؤمن لا تخلو من ثواب أو مغفرة، أو تمحيص أو رفعة شأن، أو دفع بلاءٍ أشدّ، وما عند الله خير وأبقى»^(١٢).

ويقدّم لنا من مخاض مشاعره إبان مرضه تجربة نادرة؛ فقد هلّت طلعة وليده الجديد ولكن الفرحة بقدومه كانت دون الفرحة بإخوته الخمسة الذين سبقوه، فلماذا؟

لقد أدرك السباعي عجزه عن تنشئة وليده الجديد، واستغرقه هذا الخاطر، فهو يود أن يكون أولاده في المقدمة حُسنَ أحواله وجميل أثر في أداء أمانة الدعوة وافتدائها، وهذا في حاجة إلى إعداد، وهو في ضعف وعلة، فماذا يصنع؟

إنه رغم هذا الخاطر الذي استبد به، وجد أن قدر الله من وراء ذلك كله، وأنه لن يستطيع ولو كان في سن الشباب والقوة ما استطاع تغيير لوحة القدر، فما هو إلا التسليم لله والرضا بقضائه بعد الأخذ بالأسباب..

«يا وليدي الجديد! لست أدري لِمَ لم أفرح كثيراً بولادتك، كما فرحت بإخوتك وأخواتك؟ أهو لأنني مريض متألم؟ أم لأنني حزين متشائم؟...»

لا يا وليدي الحبيب! ما أحسب ذلك كله بالذي خَفَّ من فرحتي بقدمك، وقد يكون بعض ذلك من بعض، ولكن أمراً واحداً قد يكون أقوى أثراً من كل ما ذكرت، ذلك أنني منذ أصبت بهذا المرض - منذ خمس سنوات وشهر تقريباً - وأنا أفكر في عجزتي عن تربية إخوتك وأخواتك كما أحب: جنوداً في سبيل الله، ليوثاً في نصرة الحق، بحوراً في فعل الخير، زهراً في فواحة في حسن الأحدثة وجميل الأثر..

وها أنت يا بني زدتهم واحداً فأصبحتم ستة، فإن يحل ببني وبين ما أحب لكم أمرٌ من الله قضاءه، فبحسبي هدوءاً أن أعتقد أن لكم عند الله طريقاً أمضاه.

ولو أنني كنت في مستقبل العمر وعنقوان الشباب، وبيع الفتوة لما استطعت أن أنقض ما أبرم فيكم، أو أحول ما أراد لكم.

وبحسبي نية الخير وإن لم أستطعه، وعزم الرشد وإن عجزت عنه، والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» (١٣).

٣- الحق والخير :

عالمًا الحق والخير من العوالم التي قصّر السباعي جلّ حياته على نصرتهما ببذل الجهد والافتداء ..

أمّا عالم الحق فكان يدعو إليه السباعي بكل قوة، وينادي بالجهر بنصرته مهما تعاظمت العقبات، فلا بد لكلمة الحق - في رأيه - أن تثمر ولو بعد حين ... :

« - لا تتأخر عن كلمة الحق بحجة أنها لا تُسمع، فما من بذرة طيّبة إلا ولها أرض خصبة »^(١٤).

وبالوضوح نفسه يزيح الستر عن عالم الشر والفتنة، فيعريّ عصابة الشر وشركاءه ويفضح الاستغلال الوطيء ... :

« - وراء كل خصومة شيطان يضحك، ووراء كل مشكلة ظالم يتحفز، ووراء كل فتنة مستغلون يتقاسمون منافعها »^(١٥).

ثم يحذّر ربائب الفتن بأن الشر لا بد أن يقع في رؤوس مدبريه :

« - الذين يشعلون النار ليحرقوا بيوت جيرانهم، أول ما تحرق النار بيوتهم وهم لا يشعرون »^(١٦).

والإنسان الذي يختار أحد الطريقتين، طريق الخير أو طريق الشر، يتبوأ مكانته حيث الطريق الذي اختاره، وجزاءه مغلّدًا حيث أراد واختار ..

يقول السباعي :

« - للخلود بابان : باب أمامي يدخل منه العظماء من هداة الإنسانية، وباب خلفي يدخل منه الأشقياء من أعداء الشعوب .. ومفتاح الباب الأمامي معدنه من ذهب، ومفتاح

الباب الخلفي شواظ من لهب . . والأولون يخلدون بترحم
الناس عليهم ، والآخرون يخلدون بلعنة الناس لهم»^(١٧).

٤ - الأسرة :

للسباعي في عالم الأسرة تجارب خصيبة يوافي بها البيوت المسلمة
لتترف عليها السعادة . .

قد تجد الزوجين متفاهمين متحابين ، ولكن ينقصهما أصغر الأمور ،
وقد يكون الحل قريباً ، ولكن صاحبه عنه بعيد ، يفتقر إلى من يقربه منه .

من هذا القبيل جملة من القضايا يوافي السباعي البيت المسلم
بحلولها . . :

« - إذا أتلفت لك زوجتك أو أولادك شيئاً من متاع البيت ؛
فلا تغضب غضباً يهيج أعصابك ، وخيرٌ لك ألا تغضب قط ؛
فإن خسارتك في تلف أعصابك أشدُّ من خسارتك في تلف
مالك ، وإذا ذكرت أنه لا يتلف شيءٌ إلا بقضاء الله وقدره
رضيت نفسك ، وهدأت أعصابك»^(١٨).

ثمَّ يقول :

« - إذا ساءت لك زوجتك بأشياء ، وسرتك بأشياء ، فلست
بمغبون ، واجعل ما ساءك لقاء ما سرَّك ، تكن غير مدبون ،
والزوج المحظوظ هو الذي يكون مع زوجته لا دائماً
ولا مديناً»^(١٩).

ويقول :

« - رُبَّ نزهة قصيرة مع عائلتك ، تحلُّ لك كثيراً من
المشكلات»^(٢٠).

ثم يطالعنا من هذا بفلذة شعورية تسمو بالعلائق الزوجية إلى مرتقى شفيف...

« - الزوج الوفيّ المحب يفرح بولادة زوجته مرتين: مرة لأنها ولدت له مولوداً، وأخرى لأنها سلمت في ولادتها... »

ولن أنسى فقد أخت حبيبة وهي على فراش الولادة يرحمها الله... لقد عرفتُ يومئذ معنى اللوعة على فقد الأحبة، لأول مرة في حياتي، ولأول مرة أبكي عن أبي مع أبي يرحمه الله، وقد هدّه الحزن عليها وهو شيخ كبير، وأنا بعد لم أعرف معنى الأبوة ولا دخلت عتبها...

فما أشدّ فرحة الزوج الأب بولادة زوجته الأم، وسلامتها له ولأطفاله الذين ما يزالون كأفراخ القطا»^(٢١)!

٥ - الحياة الإنسانية:

وتفيض سباحات حكمته مع خضم الحياة الإنسانية وأسلوب تعامل الناس فيسدي النصح لمن ينشد الطريق الأسمى في الحياة... إنه يبذل له حكمته لينال في مسلكه العالي مكافأته...

ويفتح ذلك بيان حقيقة العالم ومقومات علمه:

« - ثلاثة أشياء لا يتم علم العالم إلا بها: قلب تقي، وفؤاد ذكي، وخلق رضي»^(٢٢).

ثم يزجي النصيحة لمن ينشد انتقاء الصحبة واصطفاء الصديق...

« - ثلاثة احرص على صحبتهم: عالم متخلق بأخلاق النبوة. وحكيم بيّضت قؤديه ليالي التجربة. وشهّم له من مروته

ما يحمله على نصحك إذا أخطأت، وإقالتك إذا عثرت،
وجبرك إذا انكسرت، والدفاع عنك إذا غبت، والإكرام لك
إذا حضرت» (٢٣).

ويضيء - بعد - لنا المواقف الهادية إلى صلاح النفس والحياة في
نصائح رفيعة تروود وتقود إلى رفيع الشمائل ... :

«مواطنان افرح فيهما ولا حرج: معروف هُديت إليه، وخيرٌ
دَللت عليه.

ومواطنان لا تندم فيهما: فضل لك جحدَه قرناؤك، وعفو منك
أنكره عتقاؤك.

ومواطنان لا تترك الخشوع فيهما: تشييع الموتى، وشهود
الكوارث.

ومواطنان لا تقصر في البذل فيهما: حماية صحتك، وصيانة
مروءتك.

ومواطنان انسَ فيهما نفسك: وقوفك بين يدي الله، ونجذتك
لمن يستغيث بك.

ومواطنان لا تتكبرَ فيهما: حين تؤدِّي الواجب، وحين تجالس
المتواضع.

ومواطنان أكثرُ منهما ما استطعت: طلب العلم، وفعل
المكرمات» (٢٤).

ثم يردف هذه الفلذة الرفيعة:

« - رأيت نفسي دائماً تسمو بالآلام! ولكن من يطبق
استمرارها؟» (٢٥).

إنَّ الإنسان الذي يسير على هذه الخطا الراشدة الخصيبة، يبذل للناس الخير، ويسدي إليهم العون، ويمحضهم النصح، لا بد سيحظى منهم بالتقدير والمكافأة؛ فالعطاء يثري العطاء...

في هذا الميدان الرغيب يطالعنا السباعي بباقة نفيسة من حكمه فيقول:

« - أفدِ الناس من علمك، وأشركهم في مالك، وسعهم بخلقك. يحبُّوك كثيراً » (٢٦).

« - من أطاع ربه، وبرَّ والديه، ووصل رحمه، وأعان إخوانه، وأكرم أصدقاءه، ونفع سائر الناس، وأسهم في تقدُّم الحضارة وإسعاد الإنسانية؛ فذلك هو الذي يُدعى في ملكوت السموات عظيماً » (٢٧).

« - من كانت فيه خصلتان أحبه الله: التقوى وحسن الخلق.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه الناس: السخاء وبذل المعروف.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه جيرانه: البشاشة وكرم المعاملة.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه إخوانه: تذكُّر معروفهم ونسيان إساءتهم.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه تلامذته: بذل الجهد في إفهامهم، ولينُ الجانب لهم.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه أساتذته: سرعة الفهم عنهم وتوفير الاحترام لهم.

ومن كانت فيه خصلتان أحبه أهله : لطف معاملتهم وتفهم مشكلاتهم» (٢٨).

وبعد أن يمحض النصيح بخطرات حكمته ترود الحياة الإنسانية، يحذر بخطرات أخرى من السقوط في أشراك مزالق الحياة، وما أكثرها، فيما يمكن تلافيه وتجاوزه.

إن النفس كثيراً ما تميل إلى الاستعجال وامتناء الخيال، ويأتي دور الحكمة يلح بالتأني وسداد النظر وحسن التصرف.

يطالعنا السباعي من تجاربه الحكمية على هذا الطريق بالباقة الآتية :

« - الذين يبنون قصورهم في الأوهام تهدمها الحقائق،
والذين ينصبون خيامهم في مهابّ الرياح تمزقها العواصف،
والذين يرسون قواعدهم على الرمال تميّد بهم يوم تتحرك
الرمال، ولا ثبات إلا لما له أصل ثابت، ولا ثمرة إلا من
أصل مشر» (٢٩).

« - إذا انتهيت الصمت فتكلم، وإذا انتهيت الكلام
فاصمت، فإن شهوة الصمت وقار مفضوح، وشهوة الكلام
خفة مزرية» (٣٠).

« - لا تشته الزهد كيلا تبغى بالرياء، ولا تشته الجاه
كيلا تبغى بالكبرياء، ولا تشته المرض كيلا تبغى بالتبرّم
بالقضاء، ولا تشته الصحة كيلا تبغى بالعدوان على
الضعفاء، ولا تشته الفقر كيلا تبغى بحسد الأغنياء، ولا تشته
الغنى كيلا تبغى بظلم الفقراء، ولكن سلّ الله دائماً ما هو
خير لك عنده وأبقى، فإذا أقامك على حالة فقل : آمنت بالله
ثم استقم» (٣١).

ويختتم الوصايا الآتفة بالخلاصة الحكمية الآتية :

« - لا تستعجل الأمور قبل أوانها، فإنها إن لم تكن لك
أتعبت نفسك، وكشفت أطماعك، وإن كانت لك، أتنك
موفور الكرامة، مرتاح البال»^(٣٢).

ثم ينتقل بعد هذا إلى الحياة الداخلية للإنسان، يهذب مشاعره،
ويهدد من برمه بأعباء الحياة وسخطه، ويروده حيث راحته وراحة
الناس أجمعين :

« - لا تياس، فاليأس كفر برحمة الله. ولا تغضب فالفضب
قتل لفضائل النفس. ولا تحقد، فالحقد تشويه لجمال
الحياة. ولا تحزن، فالحزن إتلاف لأعصاب الجسم
والروح. وتحمل من الهموم ما لا يضرنيك، وما لا ينسبك
سلطان الله في قضائه وقدره في تصارييف الزمان. ولا تعش
غير مبال بما يجري حولك، فالمشاركة الوجدانية أنبل
خصائص الإنسان. ولا تكن أنانياً، فالإيثار أجمل فضائل
الإنسان»^(٣٣).

ويستكمل ما سبق بالتحذير من شرة الأنانية التي تستحوذ على بعض
النفوس؛ فيعالجها بالحكمة الطريفة الآتية :

« - رب جبل حاولت قطعه، ثم رأيت ملثفاً حول عنقك»^(٣٤).

ويفضي من هذه الخواطر الحكمية إلى عرض لتناقض طباع كثير من
الناس، ممن لم يحظوا ببيئة الصلاح، كي يكون الإنسان على بينة في
تعامله الاجتماعي ويكون أعرف بالأوساط البشرية. ولعل رصد السباعي
لهذا عائد إلى إدمانه معاشرة الناس ومخالطتهم على مختلف مستوياتهم.
وهي حِكْمٌ يهدف منها إلى حذر المخالط، وإصلاح ذي العيب.

« - أكثر الناس يقولون ما لا يفعلون، ويبتسمون لمن لا يودُّون، ويصادقون من لا يأتَمنون، ويخضعون لمن لا يحترمون، ويتملِّقون لمن لا يحبُّون، ويقتنون ما لا يحتاجون، ويدَّخرون ما لا يستعملون، ويبخلون بما يملكون، ويوجدون بما لا يملكون، ويحبون ما به يتضرَّرون، ويكرهون ما منه يتنفعون، وينفقون أعمارهم فيما لا يستفيدون» (٣٥).

ويعرض بعد هذا لسليبة خطيرة، يعلن من خلالها ضرورة الأخذ بقوة على يد من يهدمون المجتمع بدعوى الحرية ويفسدون الأخلاق باسم الأدب، وينادي بمعاقبتهم باسم الحق والقانون. . . :

« - من أراد أن يحمل المعول ليهدم بيتي لا أتركه يتم عمله باسم الحرية، ولكن آخذ على يده باسم الحق، ولا أدعه يتلذذ بمناظر الخراب باسم الفن، ولكن أجُرَّعه مرارة العقاب باسم القانون» (٣٦).

ثم يقول مفنداً القوانين الرخوة المشجعة على إفساد الأخلاق :

« - ما الفرق بين لصٍّ يتسلَّل إلى بيتي باسم زائرٍ محبٍّ، فيسرق أغلى ما فيه، وبين أديب يتسلَّل إلى عقل بنتي أو زوجتي باسم أديب مفكر، فيسلب منه أئمن ما فيه؟! .

إنَّ سرقة القيم الأخلاقية أسوأ عاقبة من سرقة الأشياء الماديَّة، فلماذا يسجنون لصوص المتاع، ويطلقون الحرية للصوص الشرف والسعادة الزوجية والعائلية؟» (٣٧).

ويرطب بخواطره الحكيمة قلوب ذوي المشاكل المستعصية، ويهدد من غلواء قلقهم حيث لا يجد الحصيف بعد هذه التوجيهات عقبات أو مشكلات.

« - إذا وقعت في مشكلة أو أزمة أو مصيبة، فافرض أسوأ ما يكون منها، فإن وقع ما افترضته؛ لم تفاجأ. وإن لم يقع؛ رأيت ذلك نعمة ترتاح إليها. وفي كلا الأمرين تخفيف من قلق نفسك وتعب أعصابك» (٣٨).

ثم يتم نصيحته بقوله:

« - إذا وقعت في أزمة مستحكمة، فاجعل فكرك في مفاتيحها لا في قضبانها» (٣٩).

ومع كل ما تقدم لا بد لصاحب كل قضية من اختبار الناس وتمحيص أحوالهم، فذلك عمدة كل موقف ورأس كل قرار.

وفي رصد السباعي الآتي شفاء:

« - لا تمتدح إنساناً بالورع حتى تبليه بالدرهم والدينار، ولا بالكرم حتى ترى مشاركته في النكبات، ولا بالعلم حتى ترى كيف يحل مشكلات المسائل، ولا بحسن الخلق حتى تعاشره، ولا بالحلم حتى تغضبه، ولا بالعقل حتى تجربته» (٤٠).

إلى أن يقول:

« - لا تُخدع بطيب الطعام حتى تبين فائدته، ولا ببكاء الزاهد حتى تتبين استقامته، ولا بوعود الحاكم حتى تعلم خلقه، ولا بدعوى العالم حتى يشهد له أقرانه، ولا بتظلم

الزوجة حتى تستمع إلى زوجها، ولا بصلاة العابد حتى ترى معاملته، ولا بوقار الشيخ حتى تشهد مجلس أنسه وسمره، ولا باندفاع الشاب حتى تجربيه في المكاره، ولا بدعيّ الوطنية حتى يصبح نائباً أو وزيراً، ولا بيمين البائع حتى تنظاها بالرجبة عن الشراء منه»^(٤١).

٦ - عالم الحقائق :

إذا صدرت الحكمة عن تجارب عالم خبير كانت صُوى رشادٍ ومعالم هداية، وحقائق تختصر تجارب البشرية، فلا غرو أن يقدم لنا السباعي من حصائل تجاربه الحقائق الآتية :

أولاًها : أنه ليس سعيداً من يعرف الحقائق ولكن من يتذكرها،
أو بالأحرى يحققها :

« - نحن لا نحتاج لكي نكون سعداء إلى أن نعلم ما نجهل،
أكثر من حاجتنا إلى أن نتذكر ما نعلم، وأكثر متاعب
الإنسان في حياته ناشئة من نسيانه للحقائق التي
يعرفها»^(٤٢).

والإنسان خلق هلوعاً، يطير مع أول هيلة ألم أو مصيبة - إلا من
رحم ربك -؛ لذا يذكر السباعي بالشاطئ الآخر الذي غفل عنه هذا
الإنسان الجزوع ..

« - إذا كان المرض يصحّح لك خط سيرك فهو بدء الشفاء،
وإذا كان الفقر يجبرك على حفظ النعمة فهو بدء الغنى، وإذا
كان الألم يصرفك عن التفكير في الشرّ فهو بدء السعادة،
وإذا كان العزل يمنعك من الظلم والإعانة عليه فهو بدء

الولاية، وإذا كان الموت يقصيك عن الشقاء وأسبابه فهو بدء الحياة» (٤٣).

ثم يذكّر الإنسان الهلوع بأن رحمة الله أوسع من استعجاله وجزعه:

« - ربما كان فيما تستعجل من الخلاص من الآلام والأمراض، تعرّض لمحنةٍ أقسى، وبلاءٍ أشدّ فلا تستبطئ وعد ربك بالرحمة، فإنه وعدك بما يراه هو رحمة لك، لا بما تراه أنت رحمة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» (٤٤).

وينقلنا إلى عالم النجاح والظفر، إذ لا يخطئ من أدّى تبعاته ولوّجّ بابه..

« - أربعة لا يخفقون أبداً: مكافح حدّد هدفه وسلك الطريق الصحيح إليه، ومتفائل أعد للحياة عدتها، وعامل أتقن عمله وأحسن دعايته، وطالب عمل مجتهد ذو ذكاء واستقامة» (٤٥).

بل إنّ المجدّ قد يجاوز درجة النجاح إلى عالم من المكافآت رحيب..

« - لكلّ مجدّ مكافأة: فمن جدّ في طلب العلم؛ كوفئ باحتياج الناس إليه. ومن جدّ في بذل المعروف؛ كوفئ بثناء الناس عليه؛ ومن جدّ في معالي الأمور؛ كوفئ بالخلود. ومن جدّ في خدمة الناس؛ كوفئ بالزعامة. ومن جدّ في رضا الله عزّ وجلّ؛ كوفئ بذلك كله في الدنيا، وتزاد له الجنة في الآخرة» (٤٦).

وإذا كنت تنشد معالي الأمور فزِن نفسك بعلاماتها، فإنها الدلائل على حقيقة توطن الخلال الرفيعة فيك . .

« - من علامة علوِّ الهمة، ألا ترضى لنفسك من كل شيء إلا بأحسنه .

- من علامة الزهد، أن تعرض عن الدنيا وهي مقبلة عليك .

- من علامة الورع أن تتوقَّى الشبهات .

- من علامة الكرم، أن تكون للبذل فيما لا يتحدث عنه الناس أسرع منك للبذل فيما يشتهر أمره بينهم .

- من علامة العظمة، أن تزداد ثباتاً في طريقك، كلما ازدادت فيه المتاعب»^(٤٧) .

ويخاطب السباعي طلاب الشهرة بأن للشهرة تكاليفها وأثمانها، فيقول:

« - الشجرة المثمرة تهفو إليها النفوس، وتتطلّع إليها الأنظار، وتساقط عليها الأحجار»^(٤٨) .

من هذه الأثمان البذل بسخاء والسرور بالعطاء .

« - من استعان بماله على حفظ كرامته فهو عاقل، ومن استعان به على تكثير أصدقائه فهو حكيم، ومن استعان به على طاعة الله فهو محسن ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾»^(٤٩) .

ثانياً: السباعي الناقد

كانت عينا السباعي تجول في أحوال أمته؛ فيثوب بصره بالكثير مما يجمال إصلاحه، وتقضي الضرورة بتسديد خطاه، وهي مهمة الداعية المفكر؛ يسبق أمته في خطاه فيكشف لها الطريق، ويبصرها بالصواب ويحذرها من الأخطاء والأخطار.

وإن كان السباعي فيما عرضنا له من حكمة كان ناقداً، فإننا نظفر هنا بفلذات نقدية ذات طابع متميز، نختار منها:

١ - كيف نستخدم مواهبنا :

لقد وجد الناس يستخدمون حواسهم في غير ما خُلقت له، ويضيعون مواهبهم في غير ما أهلت له، كما يضيعون طاقاتهم ويشقون أنفسهم بفعل جهلهم بالحقائق، فجاء بالخاطرة النقدية الآتية:

« - خلق الله لكل إنسان عيني، ولكن أكثر الناس لا ينظرون إلا بعين واحدة. وخلق لكل إنسان لساناً وأذنين، ولكن أكثر الناس يتكلمون بلسانين، ويسمعون بأذن واحدة. وخلق لكل إنسان يدين: يداً يستعملها ليعين نفسه، ويداً أخرى يستعملها ليعين غيره؛ ولكن أكثر الناس لا يستعملون إلا يداً واحدة. وخلق لكل إنسان رجلين: رجلاً يسعى بها للدنيا، ورجلاً يسعى بها للآخرة؛ ولكن أكثر الناس لا يستعملون إلا رجلاً واحدة، وخلق الله لكل إنسان قلباً واحداً، يحمل هموم حياته القصيرة؛ ولكنه يجلب لنفسه من الهموم ما تنوء بحملها القلوب الكثيرة. وجعل لكل إنسان عمراً واحداً، فأضاع من أوقاته كأن له مائة عمر. وقضى الله على كل إنسان بالموت مرة

واحدة، ولكنه رضي لنفسه - بجهله وشقائه - أن يموت كل يوم»^(٥٠).

وألقى العدو الصهيونيّ يسلك الطريق الإيجابي في الوصول إلى غايته التي عرفها وحدّدها وخطّط لها، بينما كنا نلهو ونلعب. وهذه كلمات قالها منذ أربعين عاماً... :

« - أليس من دواعي الأسى : أن تكون لإسرائيل صواريخها، ومعاملها النووية، وليس لها تلفزيون؛ ويكون لنا تلفزيون، وفرق للرقص والتمثيل، وليس لنا صواريخ، ولا أفران ذرية؟ »^(٥١).

لذا يتساءل ساخرأً، والألم يعتصر قلبه :

« - هل يشفي المريض المدنف باقة من الزهر، أم حقنة من البنسلين؟ .. وهل يكفي الجائع لحن مطرب، أم رغيف مشبع؟. وهل يسعد الفقير أن تزين له جدرانَه بالرسوم، أم أن نهئ له ما يحتاجه من أثاث؟. وهل يخاف العدو إذا كنت تحسن الرقص، أم إذا كنت تحسن صناعة الموت؟! »^(٥٢).

٢ - معنى الحرية :

ويجلو لنا معنى «الحرية» بمناسبة حلول رمضان المبارك في مقاله «رمضان شهر الحرية»؛ فيصحّح مفاهيم الذين يتشدقون بالحرية ممن جلسوا على موائد الغرب ولم يدركوا حقيقتها.

إنه يصور لنا المسلم الصائم كيف يمثل الحرية الإنسانية بأسمى معانيها في هذا الشهر الكريم، حين يملئ إرادته على نفسه ويقتدر على كفها عن المباحات في أيام الصيام، فيكون على كفها عن المحرمات

أقدر. وبذا يصبح رمضان معهداً لتربية الحرية ولتخريج الأحرار كما هو في
المقتطفات الآتية :

«ليست الحرية كما يتوهمها أكثر الناس مقصورة على نوال
الشعوب حقها في السيادة والاستقلال، فتلك هي الحرية
السياسية، ووراءها حرية الأمة في تفكيرها وثقافتها
واتجاهاتها الإنسانية الكريمة.

وليست الحرية كما يظنها كثير من الشباب أن ينطلق الإنسان
وراء أهوائه وشهواته، يأكل كما يشاء، ويفعل ما يشاء،
ويحقق كل ما يهوى ويريد، فتلك هي: الفوضى أولاً
والعبودية الذليلة أخيراً..

أما إنها فوضى، فلأنه ليس في الدنيا حرية مطلقة غير مقيدة
بقانون أو نظام، بل كل شيء في الدنيا له قانون يسيره
وينظمه، وحرية الفرد لا تصان إلا حين تقيد ببعض القيود
لتسلم حريات الآخرين، ومن هنا كانت الحكمة من الشرائع
والدساتير والأنظمة والقوانين..

خذ لذلك مثلاً: قانون السير في المدن الكبرى، هل تستطيع
أن تسير بسيارتك إلا وفق السهام التي تحدد اتجاهك في
السير؟ وخذ لذلك مثلاً قانون الراحة العامة: هل تستطيع أن
تغتنى بعد منتصف الليل كما تشاء في الشوارع الآهلة
بالسكان؟

إنَّ تمام الحرية، لا كمالها، قد يكون بالمنع أحياناً.
فالمرضى حين يمنع عن الطعام الذي يضره، إنما تحد حرته
في الطعام مؤقتاً، لتسلم له بعد ذلك حرته في تناول ما يشاء
من الأغذية. والمجرم حين يسجن، إنما تحد حرته مؤقتاً،

ليعرف كيف يستعمل حريته بعد ذلك في إطار كريم لا يؤذي نفسه ولا يؤذي الناس .

ثم إن الإنسان لا يعيش وحده ، وإنما يعيش جزءاً من مجتمع متماسك ، يؤذي كلّه ما يؤذي بعضه .

وقد ضرب رسول الله ﷺ لذلك مثلاً من أروع الأمثلة بقوم كانوا في سفينة وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها يأخذون الماء ممن فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقاً نأخذ منه الماء من البحر رأساً؟ قال عليه الصلاة والسلام : «فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً» .

إنه مثل كريم من معلّم الإنسانية الأكبر يضع فيه الحد الفاصل بين الحرية الشخصية التي لا تؤذي أحداً ، وبين الحرية التي تؤذي المجتمع وتعرضه للانهايار إذا أطلقت يد صاحبها فيها كما يشاء . . .

الحرية الحقّة : أن تستطيع السيطرة على أهوائك ونوازع الخير والشر في نفسك ، وإن الحرية الحقّة ، أن لا تستعبدك عادة ولا تستذلّك شهوة .

بهذا المعنى كان المؤمنون المتدينون ، أحراراً لا تحد حريتهم بحدود ولا قيود . .

إن الدين حرر نفوسهم من المطامع والأهواء والشهوات ، وربط نفوسهم بالله خالق الكون والحياة ، وقيد إرادتهم بإرادته وحده ، والله هو الحق وهو عنوان الخير والحب والرحمة ،

فمن استعبده الحق والخير والرحمة كان متحرراً من كل
ما عداها من صفات مذمومة..

بهذا المعنى الدقيق للحرية والعبودية، نستقبل رمضان على
أنه شهر «الحرية» وعلى أن الصيام مدرسة لتخريج الأحرار
بالمعنى العلمي الصحيح»^(٥٣).



المراجع

- (١) عظامونا في التاريخ: المقدمة، د. عدنان زرزور.
- (٢) نفسه.
- (٣) من الفكر والقلب، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص: ٢٢٢.
- (٤) (١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤) هكذا علّمتني الحياة، ١: ٢٣٦، ٥١، ٨٧، ٨٧، ٦٠، ١٧، ٨٨.
- (١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧) نفسه، ١: ١٦١، ٢٢٩، ٢٣٢، ١٠٢، ٢٦، ٢٦، ٢٣.
- (١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤) نفسه، ١: ٢٦، ١٢٧، ١٢٤، ٢٣٣، ١٦٠، ١٤٤، ٨٨ - ٨٩.
- (٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١) نفسه، ١: ٥٣، ١٧٤، ١٥١، ١٠٥، ٢٥٨، ٥٩، ٦٨.
- (٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨) نفسه، ١: ٢٠٥، ١٥٠، ٣٧، ٢٥٥، ١٤٣، ١٩٤، ١٤٣.
- (٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥) نفسه، ١: ١٩٥، ٥٨، ٩٦، ١٢٧، ٢٤٤، ١٨٢، ١٦٢.
- (٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠) نفسه ١: ١٦٥، ١٦٥، ١٨٤، ٥٠، ١٦٤.
- (٥١) نفسه، ١: ١٠٣. ولعلها فلذة تاريخية تسجل تفاقلنا نحو إحراز النافع وإسراعنا إلى ما يُلهي.
- (٥٢) نفسه، ١: ١٠٣.

(٥٣) أحكام الصيام وفلسفته في ضوء القرآن والسنة، د. مصطفى السباعي،
بيروت - دمشق - المكتب الإسلامي، ط ٦، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م،
ص: ٥١ - ٥٤.



الباب الثالث دوره التاريخي

تمهيد.

الفصل الأول: دور السباعي التاريخي في الذود
عن الإسلام.

الفصل الثاني: دوره التاريخي في حياة سورية
المعاصرة.



١ - السباعي منتصراً لفلسطين ومعه إخوانه
الصّواف، العطار، خليفة، الوليلي، بمظاهرة خارجة من سوق الحميدية بدمشق



٢ - لقطة أخرى من المظاهرة نفسها

حفلت حياة السباعي بالمنجزات الدعوية والمشروعات التربوية والاجتماعية، مما عرضنا له في فصول الكتاب مفصلاً حيناً ومجماً حيناً آخر.

فما أثر ذلك كله في حركة الزمن، وخطوات الأجيال؟ وهل كان للسباعي، دور متميز في التطوير والتغيير في سورية والعالم العربي والإسلامي بما بذل من جهود حثيثة استغرقت حياته كلها منذ صباه حتى وفاته؟

لعل الله قيّض هذا الرجل لسورية والأقطار العربية والإسلامية ليمهر دوراً تاريخياً مذكوراً بجلال الأعمال، وليباشر منعطفاً حضارياً لا تزال آثاره راسخة في المجتمع العربي والإسلامي.

ويتمثل هذا الدور التاريخي في: ذوده عن الإسلام في كل ميدان، وإسهامه المتميز في تطوير الحياة السياسية في سورية..



1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

1881

الفصل الأول

دور السباعي التاريخي في الذود عن الإسلام

أولاً : مصادر الذود :

١ - الصحافة .

٢ - الخطابة .

٣ - المؤلفات العلمية .

ثانياً : منهجه في الذود عن الإسلام :

القسم الأول : الجانب السلبي من الذود عن الإسلام .

١ - الكشف عن الأخطار الاستعمارية على ديار الإسلام .

(١) الرد على تشويه الاستعمار حقائق الإسلام .

(٢) توهين العالم الإسلامي .

(٣) إشاعة الانحلال الخلقي .

٢ - مقارعة علمنة الحكام .

القسم الثاني : الجانب الإيجابي من الذود عن الإسلام .

١ - تقديم الإسلام منهج إصلاح وتقدم .

٢ - تجديد اعتناق الإسلام في النفوس .

٣ - التبشير بالصحرة الإسلامية .

Handwritten title or header.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

Handwritten line of text.

كان عصر السباعي عصر صراع فكري وفراغ ثقافي، بفعل انتقال سورية من الحكم التركي المنحرف في آخر عهده، ومن ثم خروجها من الاستعمار الفرنسي إلى الاستقلال.

ولقد جدَّ هذا الفراغ الثقافي - عبر تلكم المتغيرات المرحلية الحادة - ورافق ذلك صراع فكري حاد، أتى ذلك كله نتيجة للانقطاع الطويل عن الأصول الثقافية العربية والإسلامية.

فماذا كان دور السباعي في هذه المرحلة؟

لم تكن الصورة السالفة المقدمة للدين تقنع المثقفين بالثقافة الأوروبية آنذاك بأنه الطريق إلى النهضة، ولا سيما أن أفهام العامة للدين قد اختلطت ببعض الجهالات والأوهام، وقدمت صورة سقيمة غير صحيحة عن الدين.

وكان لا بد والحال هذه من ظهور مصلح غيور على الإسلام يجلو حقيقته الناصعة بلغة العصر، ويذود عن حماه بوسائل العصر. وكان أن قيض الله للسباعي أن ينهض بهذا الدور التاريخي ويبذل حياته كلها في سبيل إنجازه.

لم تكن مهمة السباعي يسيرة ذلولاً.. وإنما كانت مفروشة بالأشواك، مزروعة بالعقبات..

كان على السباعي أن ينقي عقول الناس من تركات الجهالة وفهمهم المغلوط للدين، وذلك بالعرض الجديد الجذاب المقنع. وكان عليه أن يواجه أصحاب النموذج الأوروبي السائرين في ركب الغزو الفكري الأوروبي، الهادف إلى إطفاء شعلة الإسلام عن طريق الكتب المضللة والممهدة لاستعمار ديار الإسلام، وتذليل عقول أبنائه للثقافة الأوروبية وطبعهم بالمنهج الأوروبي. وقد انزلت زمرة من المثقفين في هذا الطريق جهلاً منها وغباوة أو افتتانه بطريق الأقوياء.

يعبر السباعي عن ألمه آنذاك لذلك بقوله:

«أجل إننا ما زلنا نتلقى السهام من أعداء الإسلام واحداً
تلو الآخر ما بين بعيد عنه وقريب منه حتى أصبح ذلك
أمراً عادياً.

وأعداء الإسلام من أبنائه أحد اثنين: إما جاهل لا يفقه من دينه شيئاً؛ نشأ في محيط غير إسلامي، وتثقف بثقافة لا دينية، فغدا يطعن في الإسلام عن جهل وغفلة وغباوة. وإما غرّ مفتون بالشهرة، مبتلى بحب الظهور، فهو يفتري على الإسلام ويشوه حقائقه ويتلاعب في أحكامه؛ حرصاً على أن ينعت بكلمة التجديد أو يوصف بحرية التفكير، فيكون له بعد ذلك من انتشار الصيت واتساع الذكر ما يجعله محط أنظار الشباب، وموضع ثقتهم وإعجابهم»^(١).

وهكذا يصوّر لنا السباعي من أول الطريق أنه في معركة يتأمر فيها أعداء الإسلام على دين الآباء والأجداد، فيسخرّون المفتونين من المسلمين بثقافتهم لحربه والطنع عليه..

«وعجيب والله أن يتألب على الإسلام من درج في مهده، ويكون عوناً لأعدائه عليه، وكأنه لم يكف الإسلام كل ما أصابه من نكبات المستعمرين حتى قام فريق من المنتمين إليه بوجهون إليه سهامهم. وما نظن أن التاريخ حدثنا بعصر نكب فيه الإسلام كما نكب في هذا العصر: الكماليون في بلاد تركيا، ومقلدوهم في بلاد فارس، وفرنسا في شمال إفريقيا وسورية، وإنكلترا في الهند ومصر وفلسطين، وإيطاليا في طرابلس المغرب وأرتيريا، والشيوخ في بلاد الروس. كل هؤلاء يكيدون للإسلام بطرق مختلفة ويتفننون في إيذاء المسلمين تفناً غريباً»^(٢).

أولاً: مصادر الذود

إن الذائد عن الحمى في المعارك الفكرية في حاجة إلى قلم ولسان، ولقد أعطى السباعي في زمن عمره القصير - بلسانه الخطيب الذرب وقلمه السيال - الكثير الكثير مما يحكي لنا ضروب انتصاره للإسلام في سائر الميادين ومختلف الموضوعات، فكان من وسائل ذوده:

١ - الصحافة:

ولعل طبيعة المعركة كانت تقتضي امتطاءه متن الصحافة للذود عن الإسلام، فقد كانت الوسيلة السريعة الأولى المباشرة آنذاك، تطالع القراء بالآراء والأحداث والمواقف، ولعل السباعي كان من الأفذاذ الدعاة الذين قدّر لهم أن يعطوا الصحافة كلَّ وجدهم ورأيهم وكفاحهم، فلقد ظل قلمه يسجل حصاد يومه منذ بدأ جهاده حتى وفاته.

(أ) جريدة الفتح:

أولى الصحف التي كانت مطية جهاده وذوده عن حمى الإسلام جريدة «الفتح» التي كان يصدرها الأديب العالم محب الدين بن الخطيب من مصر في فترة مبكرة. ولعلها كانت أولى الصحف الإسلامية في العالم العربي آنذاك.

يحدثنا السباعي عن اكتشافه جريدة «الفتح» وهو طالب، وكيف كان يجهل من دونها آنذاك أمهات القضايا الإسلامية، فكانت النور الذي أضاء له الطريق، وعليها تفتحت عيناه لحقائق المجتمع الإسلامي.

«منذ بضع سنوات كنت أتلقى العلم في إحدى دور العلم في مدينتي (حمص)، وكان شأني كشأن إخواني من طلبة العلم لا نعلم عن الإسلام إلا أنه دين لا يتَّبَعه المسلمون اليوم، ولا نعلم عن المسلمين إلا أنهم في ذلة واستكانة، ولا نقرأ من الصحف إلا الصحف السياسية ذات الغايات المختلفة، أما الصحف الإسلامية فما كانت أيدينا تصل إلى شيء منها إذ لم تكن قد خلقت بعد، فكنا في عزلة تامة عن العالم الإسلامي: لا نعلم من حوادثه إلا ما تتكرم به علينا صحفنا السياسية بعد أن تلوّن تلك الحوادث باللون الذي تشاؤه.

وحسبك أننا كنا نعد أعمال الكمالبيين في تركيا إصلاحاً ونهوضاً! وأعمال أمان الله خان رقباً وتمدناً! ونعجب كيف يشور أبناء الأفغان على إصلاحات مليكهم!؟

في هذه الفترة اطلّعتُ على صحيفة «الفتح»، وكانت في سنتها الثالثة، فما تصفحْتُها حتى غدوتُ إلى إخواني أبشرهم بها، وكنت في فرحي كأنما هديتُ إلى شيء ثمين كنت

أنشده منذ زمن بعيد. وفرح إخواني بالفتح كما فرحت،
وغدونا نبشر به كل مجلس، حتى أصبح له أحباء كثيرون
يكنّون له من الحبّ والحرمة أوفر نصيب.

وما كدنا نتصل بالفتح حتى بدأنا نعرف واجبنا في الحياة
كشبان مسلمين، وأخذنا ندرك خطر ما يبّيته الاستعمار من
وسائل الكيد للمسلمين، وتأججت في أفئدتنا نار الحمية
لدين الله والنقمة على أعدائه، وشعرنا بأن الفتح هو همزة
الوصل بيننا وبين أقطار الإسلام، فلولا الفتح لما عرفنا من
حقائق ثورة الأفغان على أمان الله خان شيئاً، ولولا لما قدرنا
مبلغ المصيبة في الظهير البربري، ولولا لبقيتنا نجهل أخبار
بلاد كثيرة من بلاد المسلمين كان ينفرد «الفتح» بنشرها.

وظللنا نتصل بالفتح ونرجع إليه في مهمات الأمور لنرى
رأيه فيها، حتى أدرك المستعمرون في سورية ما كان للفتح
من فضل في هتك أسرارهم، وإفساد خططهم، فمنعوه من
دخول بلاد الشام، وحرّمونا صيحاته ونصائحه، إلى أن
شاء الله أن يتصل بمحبّيه فيها مرة أخرى بعد ذلك الغياب
الطويل»^(٣).

ويوالي السباعي في جريدة «الفتح» ثورة المسلم الغيور على أخلاق
الأمّة ودينها، محذراً من اتجاه الميوعة والتهتك في الأدب والصحافة لدى
أدعياء التجديد المخربين شباب الأمّة وصمودها..

ثم يعرّي هؤلاء الأدعياء حين ينفشون ريشهم الفارغ في الهجوم على
الاستعمار، وجعبتهم خاوية من كل قوة أو إعداد..

وينادي - مبكراً - جماهير المسلمين نداء النذير أن يعملوا على

الإعداد للمعركة القادمة الوشيكة بكل قوة.. وأن على ذوي الأهواء أن يتحرروا من استعمار الشهوات قبل ادعاء محاربة الأعداء..

«أيها المسلمون: أنتم مقبلون على حرب سيصطلي بنارها الشرقي قبل الغربي، فإن لم تعدّوا لذلك اليوم عدته كنتم وقوداً لتلك النار وطعاماً لها، وعند ذلك تبوءون بخزي الدهر وعار التاريخ.

أيها المسلمون: من اتكل على زاد غيره طال جوعه، ومن نام في مواطن الخطر طال هجوعه، ومن شغلته شهوته عن كرامته كثرت حسرته، ومن صرفته أحلامه عن تحقيق آماله ازدادت ندامته، ومن لم ينظر إلى الأمام قليلاً تردّى في الحفر كثيراً. وأنتم أيها المجددون لبنيان الهوى، حاربوا أهواءكم قبل أن تحاربوا أعداءكم، وتخلصوا من استعمار الشهوة لقلوبكم قبل أن تتخلصوا من استعمار الغرب لبلادكم. وعجيب والله أن تحاولوا إطفاء النار بسائل «البنزين»^(٤)!...

كان السباعي يتحرق فؤاده وهو يرى عبث الصحف التجارية بأخلاق الشباب والمراهقين، فيتمنى أن ينزل إلى ساحة الجهاد الصحفي بقلمه كل يوم - لا كل شهر - فالمصلحة الإسلامية تقتضي الحيلولة دون وقوع الجماهير المسلمة في الخطر الميّت لها..

«لا جرم أن كان لتلك الصحف - وأكثر من يشرف عليها قوم لا يرون الوفاء للإسلام أمراً محتتماً - أثر قوي في توجيه الرأي العام إلى مفاتن الغرب ونحو المادة واللهو والهوى والعبث. كما كان لها أثر في إخماد شعلة العصبية الإسلامية والتهاون في أمر العفة والحشمة والأخلاق الفاضلة في المجتمع.

أفلا أكون على حق حين أتمنى على الله عزّ وجلّ أن يؤتيني شيئاً من الأمر لأجعل من «الفتح» مناراً يضيء السبيل كل يوم لتلك السفن الماخرة في عباب اليم، التي ضلت طريقها فتقاذفتها الأمواج من ههنا ومن ههنا، وحالت دون وصولها إلى الشاطئ قوية سالمة؟؟

أجل، إن مثل هذا العمل إذا تم - وهو وجود صحيفة إسلامية يومية - من شأنه أن يفتح أبواب الدعوة إلى الله، ويتغلغل في قلوب الأمة ومجتمعاتها وبيوتها فيطهرها من أدران المادة والمدنية الخليعة المستهترّة، ويجعل من المسلمين أمة متماسكة القوى متساندة البنيان لا تهون على كل مغير، ولا تسهل على كل طامع، ولا يوجهها من شاء بما شاء في غفلة من القادة والسادة وحملة الأفلام!

أما متى يتم هذا الأمر؟ فذلك أمر يتفرّد به علام الغيوب الذي لا يجري في الكون شيء إلا بأمره ومشيئته^(٥).

كان يتمنى - مع كل ما يبذله من جهود - أن تكون له صحيفة يومية يزود بها عن الإسلام ويحول دون وقوع الجماهير المسلمة في شرك المفاسد الأوروبية الوافدة، يتمنى ذلك وهو ابن اثنين وعشرين عاماً. فهل تحقق له ذلك الحلم الإيماني فيما بعد؟! .

وفي الجدول الآتي نموذج لذود السباعي بقلمه عن حمى الإسلام خلال عشر سنوات في جريدة «الفتح»، شرع فيها وهو ابن ثلاث عشرة سنة، يتضح من خلالها ميادين ذوده في هذه الجريدة وآفاق معالجاته لحقائق المجتمع الإسلامي وقضاياه. .

مقالات السباعي في جريدة «الفتح»

العنوان	الصفحة	عام الجريدة	العام الهجري	العام الميلادي	الزاوية أو المناسبة	رقم العدد
١- ماذا في حمص؟ الهياج ضد حفلات السينما	١٢٠١	السادس	١٣٥٠	١٩٣١	مقال	٢٧٢
٢- لفة الأمة مظهر مرها وعنوان استقلالها	١٠٩٨	التاسع	١٣٥٤	١٩٣٥	من صور الحياة	٤٤٥
٣- خير مولود عرفه التاريخ	١٢١٤	التاسع	١٣٥٤	١٩٣٥	من صور الحياة	٤٥٠
٤- المسلمون وحفلات المولد	٢٩	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	من صور الحياة	٤٥٢
٥- قوة الحق وحق القوة	١٣٤	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	من صور الحياة	٤٥٦
٦- أبتاؤنا	٣٥٤	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	من صور الحياة	٤٦٥
٧- فلسطين تستيقظ... ولكنها...	٤٢٤	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	الافتاحية	٤٦٨
٨- المرأة المسلمة بين تعاليم القرآن...	٥٥٢	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	مقال	٤٧٣
٩- من أحاديث رمضان	٥٩٢	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	الافتاحية	٤٧٤
١٠- من أحاديث رمضان	٦٤٠	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	الافتاحية	٤٧٦
١١- ليزان بعد تركيا	٧١١	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	الافتاحية	٤٨٠
١٢- واجب الشباب نحو بلادهم	٨١٨	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	ألقيت في الاجتماع الذي عقده الطلبة السوريون والفلسطينيون	٤٨٤
١٣- مهمة شباب العرب	٩٣٦	العاشر	١٣٥٤	١٩٣٥	ألقيت في الطلبة السوريين والفلسطينيين في دار جمعية الشباب المسلمين	٤٨٩
١٤- دورة من دورات الفلك	٩٦٢	العاشر	١٣٥٥	١٩٣٦	مقال	٤٩٠
١٥- ماذا يراد بهذا كله	٩٢٤	الحادي عشر	١٣٥٥	١٩٣٦	مقال	٥٣٩
١٦- تصريح خطير لعام ١٣٥٥	١٠١٧	الحادي عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٤٣

العنوان	الصفحة	عام الجريدة	العام الهجري	العام الميلادي	الزاوية أو المناسبة	رقم العدد
١٧- موقف من مواقف الشرق مع الغرب	١١١٨	الحادي عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٤٧
١٨- تجارة أحمد مكي وتجارة جحا	١٠٩٦	الحادي عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٤٨
١٩- هو الكوكب الهادي	١١٩٢	الحادي عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٥٠
٢٠- يوم العيد الأكبر	٤٢	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٥١
٢١- الحالة السياسية في سوريا	٣٩٤	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٦٦
٢٢- موقف لبنان من القضية العربية	٤٧١	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٦٩
٢٣- واجبات الأمة في عهد الاستقلال	٤٩٨	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	خطبة له في مكتب الكتلة الوطنية بجمص على مئذني الأحزاب والجمعيات	٥٧٠
٢٤- رسالة الفتح رسالة بعث وإنشاء	٥٤٤	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	إلى الجمعيات الإسلامية في سوريا	٥٧٢
٢٥- صبراً فلسطين!	٣٧١	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٧٣
٢٦- أيها المسلمون أنقذوا فلسطين قبل أن تبعد	٦١٤	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	بمناسبة ذكرى وعد بلفور	٥٧٥
٢٧- ماذا يراد بالقضاء الشرعي في سوريا؟	٦٣٤	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٧٦
٢٨- رمضان يحاضر (١)	٦٥٥	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٧٧
٢٩- رمضان يحاضر (٢)	٦٨٤	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	مقال	٥٧٨
٣٠- نكبة الإسلام في تعليم أبنائه	٧٥١	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٧	الافتتاحية- آلام وآمال شوال (٢٠)	٥٨١
٣١- نكبة الدين في أخلاق علمائه	٨٢٣	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٨	مقال آلام وآمال	٥٨٥

المنوان	الصفحة	عام الجريدة	العام الهجري	العام الميلادي	الزاوية أو المناسبة	رقم العدد
٣٢- نكبة الدين في انحراف علمائه	٨٨٠	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٨	مقال آلام وآمال	٥٨٦
٣٣- العلماء والسياسة	٨٩٨	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٨	مقال آلام وآمال	٥٨٧
٣٤- غداً يكون العيد، فاذكروا بكاء اليتامى...	٩١٨	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٨	الافتتاحية	(٩) ٥٨٨
٣٥- المعنى المزدوج	٩٧٢	الثاني عشر	١٣٥٦	١٩٣٨	مقال	٥٨٨
٣٦- عام ١٣٥٦ يتحدث إلى إخوانه	١٠٣٩	الثاني عشر	١٣٥٧	١٩٣٨	الافتتاحية	(١٥) ٥٩٣ المحرم
٣٧- الحالة السياسية العامة في سوريا	٨٠٤	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٨	مقال	٦٣٣
٣٨- الدعاية الكمالية في سوريا	٨٢٨	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٨	أربعة أشهر في بلاد الشام - ١	٦٣٤
٣٩- الدعاية الكمالية في سوريا (٢)	٨٤٩	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٨	(الافتتاحية) أربعة أشهر في بلاد الشام - ٢	(١٤) ٦٣٥ ذو القعدة
٤٠- موقف سوريا من فلسطين	٨٥٤	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٨	(الافتتاحية) أربعة أشهر في بلاد الشام - ٣	٦٣٦
٤١- الحالة الدينية في سوريا (جميعيات العلماء)	٨٩٧	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٩	(الافتتاحية) أربعة أشهر في بلاد الشام - ٤	(٢٨) ٦٣٧ ذو القعدة
٤٢- شباب محمد ﷺ (جميعياتهم)	٩٤٥	الثالث عشر	١٣٥٧	١٩٣٩	(الافتتاحية) أربعة أشهر في بلاد الشام - ٥	(١٣) ٦٣٩ ذو الحجة
٤٣- البلد المنكوب	١٠٤٤	الثالث عشر	١٣٥٨	١٩٣٩	مقال	٦٤٣
٤٤- حير المصائب	١٠٨٩	الثالث عشر	١٣٥٨	١٩٣٩	الافتتاحية	(٢٥) ٦٤٥ المحرم
٤٥- كلهم صادقون	١٢٠٩	الثالث عشر	١٣٥٨	١٩٣٩	الافتتاحية	٦٥٠ ربيع الأول
٤٦- الفتح في عامها الرابع عشر، جهاد متواصل	١٤	الرابع عشر	١٣٥٨	١٩٣٩	مقال	٦٥١
٤٧- الجهاد الضائع	١١٥	الرابع عشر	١٣٥٨	١٩٣٩	الافتتاحية	(٦) ٦٥٥ ربيع الآخر

المعنوان	الصفحة	عام الجريدة	العام الهجري	العام الميلادي	الزاوية أو المناسبة	رقم العدد
٤٨ - بين مصر والشام	٨٤٨	الرابع عشر	١٣٥٩	١٩٤٠	التعارف والتعاون الإسلامي	٦٩٣
٤٩ - هل شباب الجيل الحاضر خير من شباب الجيل الماضي؟	٨٧٨	الرابع عشر	١٣٥٩	١٩٤٠	مقال	٦٩٥
٥٠ - الفتح في عامها الخامس عشر	٢٢	الخامس عشر	١٣٥٩	١٩٤٠	مقال	٧٠٠

(٢) وثاني الصحف: «المنار» (الدمشقية):

ظل يراود السباعي حلمُ الصحيفة اليومية التي يستطيع بها أن يتابع معركة الذود عن الإسلام، ظل يعدّ لذلك العدة ويدلّل الصعاب حتى استقام له حلمه عام ١٩٤٧م، حيث أصدر جريدة «المنار» من قلب بلاد الشام، من مدينة دمشق «لساناً لدعوة الحق والقوة والحرية». يطالع فيها القارئ في سائر المحافظات السورية يومياً - ولأول مرة - أخبار البلاد من منظور إسلامي وتحليلات إسلامية للأوضاع الإقليمية والعربية والدولية، مبرزة خطوات الدعوة الإسلامية ومناهجها وخط سيرها، تنصدها كل صباح افتتاحية بقلم السباعي.

ولقد كان توقيت إصدار السباعي جريدة المنار عام ١٩٤٧م، أي بعد عام واحد من استقلال سورية وخروج الاستعمار الفرنسي، وتولي الحكم الوطني زمام البلاد في غاية التوفيق، إذ كانت المرحلة آنذاك تأسيسية، وعلى قدر كبير من الأهمية، من سبق فيها إلى البناء نال خطوة التأسيس لفكرته ودعوته والسبق إلى كسب الرأي العام وثقته، وإلى إرساء النظم والأصول التي سيكون لها صفة الاستمرار.

يضاف إلى ذلك أن فرنسا حينما خرجت من الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٤م آزرت الشيوعية ونمّتها في بلادها ومستعمراتها، وقد أصاب

سورية من ذلك أن نشط الشيوعيون في العهد الاستعماري تحت المظلة الفرنسية، ودخلوا بكوادرم الجاهزة في العهد الوطني، فأخذوا ينشرون أفكارهم بضراوة - بفعل الدعم الخارجي - الأمر الذي كان يتهدد البلاد بأفكارهم الهدامة.

كان إخراج السباعي «المنار» جريدة يومية ترفع لواء الإسلام بعد الاستقلال، ما جعل الجماهير المسلمة تجد في «المنار» الملاذ الإسلامي الذي يقيهم لوثات الأفكار المنحرفة، وينشر الفكر الأصيل، ويعيد للبلاد - بعد تخريب الاستعمار البغيض - أصالتها واستمساكها بإسلامها.

وهكذا لعبت «المنار» اليومية دوراً كبيراً في هذه المرحلة، فأرست دعائم التوجه إلى الإسلام في سورية. . وجد الناس فيها ضالتهم؛ فكانوا يترقبونها كل صباح ليطلعوا الرأي الإسلامي في قضاياهم الراهنة وموقفه من الأفكار الضالة المنحرفة.

وإذا عرفنا أن السباعي كان يطالع الجماهير المسلمة كل صباح بافتتاحيته اليومية في «المنار»؛ أدركنا العبء الكبير الذي كان يحمله في إرساء دعائم الإسلام، وثقل المعركة الضخمة التي كان يخوضها ضد الأفكار الضالة يومياً، لذا كانت افتتاحيته قطعة فكرية دعوية متوهجة بمشاعره، إلى جانب توجيهه أبواب الصحيفة وأخبارها وتحقيقاتها.

«وكثيراً ما كانت تنفذ جميع نسخ الجريدة في ساعة مبكرة من الصباح ويرتفع سعر العدد في كثير من المناطق عند بعض الباعة إلى أضعاف أضعاف ثمنه. . ولا غرابة؛ فقد كان السباعي يكتب بقلبه وأعصابه ودمه وفكره. لقد كان ابن الشعب الذي عاش مشكلاته وعاناها في جميع مراحل حياته وفي مختلف الميادين، فاستطاع أن يجسّد في مقالاته

الافتتاحية آلام هذا الشعب وآماله أصدق تجسيد ويعبر عنها
أبلغ تعبير.. ثم يقدم الحلول الإيجابية العملية لحل
مشكلات الأمة وقضاياها.. فلم يكن سلبياً يكتفي بالنقد
وتصوير الواقع ومشكلاته فحسب.. وإنما كان يقدم لكل
مشكلة الحل المناسب لها ويطالب الحكومات بتنفيذها
ويلاحقها بذلك بدأب وإلحاح...»^(٦).

وظل السباعي يصدر - بهذه الحرارة - جريدة «المنار» اليومية حتى
عام ١٩٤٩م، وكان عبء الجريدة اليومية يرهقه مالياً؛ فهي جريدة إسلامية
لا تقبل الإعلانات المخالفة للشرع أو الأخلاق، والإعلانات مورد ثمين
للجرائد. ولا تقبل مهادنة الظلم والتراجع عن مواقف الحق.. وهكذا
كانت مواردها تقتصر على البيع وتبرعات أبناء التيار الإسلامي في مطلع
نشوئه، وكان هذا لا يكفي لنفقاتها وتكاليفها، فبذل لها السباعي جل
ما يملك، ثم أخذ يجمع التبرعات من أنصار الخير الذين لا مآرب لهم،
وظل يناضل لإصدارها حتى اضطر إلى التنازل عنها للأستاذ بشير العوف
الذي والى إصدارها باسمه ولحسابه.

(٣) وثالث الصحف: جريدة «الشهاب» (الأسبوعية):

كان عام ١٩٥٥م عام خصب سياسي في سورية، وصراع فكري بين
أحزابها، ولا سيما أن التيار اليساري أخذ يتلقى دعماً إقليمياً ودولياً،
لذا عمد السباعي إلى تأسيس جريدة «الشهاب» أسبوعية؛ لتكون لسان حال
الدعوة الإسلامية في سورية، تترجم عن مواقفها وتنشر آراءها وأفكارها،
وقد أعاد السباعي فيها خلال ثلاث سنوات النشاط الصحافي الذي كان
زاوله في جريدة «المنار»، فكانت افتتاحيته تتصدر الجريدة معربة
عن مواقف الدعوة الإسلامية في سورية. وكان للشهاب وجود ملحوظ

في المحافل السياسية وأثر كبير في الجماهير، فضلاً عن تمثيلها للرابطة الدعوية.

(٤) ورابع الصحف: مجلة «المسلمون» (الشهرية):

وفي عام ١٩٥٥م حصل السباعي على امتياز بإصدار: مجلة «المسلمون»، الشهرية، التي كان يصدرها الداعية الإسلامي سعيد رمضان في مصر ثم احتجبت.

وظلت المجلة تصدر بإدارته، تنصدها افتتاحيته حتى عام ١٩٥٨م. وكانت مجلة ثقافية إعلامية تلتقي فيها أقلام أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ومناشطه.

(٥) وخامس الصحف: مجلة «حضارة الإسلام» (الشهرية):

كانت تعويضاً عن مجلة «المسلمون» التي توقفت عام ١٩٥٨م. وظل يصدرها حتى وفاته. ولقد أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشق طريقها مدرسة للفكر الإسلامي المعاصر، توضح معالم الطريق، وتوحد مناهج التفكير، وتعكس حقيقة الإسلام الناصعة في صورة مشرقة واضحة..

«أراد رحمه الله أن يجعل من «حضارة الإسلام» منبراً للدفاع عن كل قضية إسلامية من قضايا العالم الإسلامي الكبير، ولقد خص أهم قضايا الوطن العربي والإسلامي باهتمام زائد فأفرد للقضية الفلسطينية باباً باسم «الدرة المغتصبة» لمتابعة تطوراتها ومراحلها، وآخر باسم «أرض البطولات» لمتابعة تطورات القضية الجزائرية وثورتها حين كانت قائمة، وألغى هذا الباب بعد أن أدى واجبه واستنفذ أغراضه إثر انتصار

الثورة الجزائرية في «أرض البطولات»، كما أحدث باباً جديداً لمتابعة القضية العُمانية والانتصار لها وتوعية القراء بأهدافها وحقيقتها وسماء «ثورات إسلامية - عمان الثائرة في طريق التحرر».

ولم يكتف بذلك، بل عمل رحمه الله على إصدار عدد خاص ممتاز عن الجزائر وثورتها وجهادها وذلك من السنة الأولى للمجلة.

وفي السنة الثانية خص القضية الفلسطينية بعدد خاص ممتاز.

وكل من هذين العديدين يعتبر مرجعاً هاماً للقضيتين من أهم المراجع التاريخية العلمية لما احتواها من وثائق وحقائق وأرقام ووقائع لم يجمعها مصدر آخر^(٧).

لقد كانت الصحافة الإسلامية التي أسسها مصطفى السباعي متكاملة في أداء أدوارها، قائمة على المنهج الإسلامي في تنوعه وسعته.

فإذا كانت «المنار» و«الشهاب» مثلاً قد غلب عليهما الطابع السياسي للدعوة الإسلامية المعاصرة، فقد كانت مجلّتا «المسلمون» و«حضارة الإسلام» خالصتين لنشر الفكر الإسلامي ومعالجة قضاياها في موضوعات يكتبها علماء مختصون وفقهاء وأدباء في أناة وروية تنسجم مع إصدارهما الشهري، وإن كانتا تتصلان بواقع الأحداث بافتتاحية السباعي الوجدانية التي كانت تبعث الحرارة في المجلة الفكرية، من مثل قوله في الاستهلال:

«باسم الله نعود إلى قرائنا في مستهل عام جديد، لنعاهدهم على النطق بكلمة الإسلام ما دامت في أفواهنا السنة تتكلم، وعلى كتابة الحق الصراح ما دامت في أيدينا أقلام تخط...

ننطق ونكتب ضمن صراط من الحكمة والرفق، وعلى صعيد
من الإخاء والتواد والنصح».

ومن مثل قوله في الختام:

«ومن الله نستمد العون والهداية، وعلى هدي رسوله
محمد ﷺ نسير، وإلى خير أمتنا نسعى، وفي سبيل الله نحيا،
ولرضاه وثوابه نعمل، وهو أرحم الراحمين»^(أ).

وأما ثاني وسائل ذوده عن الإسلام فهي:

٢- الخطابة:

لعل الخطابة في زمن لم تتوفر فيه بعد وسائل الإعلام الحديثة، تعد
من أجلّ الوسائل في إبلاغ الكلمة والرأي في عصر السباعي، لأنها وسيلة
مباشرة متاحة، تخاطب الأسماع والقلوب، وتباشر النفوس والعقول
بالكلمة الحية الموقّعة الملهمة.

وكان السباعي خطيباً مفوهاً، رقي المنابر وهو ابن ثماني عشرة سنة،
ذا مذخور واسع، ولغة طيبة عذبة، يستميل الأسماع بعذب كلمه، ويلهب
الأفئدة بحرارة مشاعره.

كان صاحب قضية، وصاحب القضية مضطرم القلب دوماً؛ لذا كان
السباعي لا يجد راحة لقلبه المشتعل إلا بالإفضاء عما في جوانحه من
هموم وآمال.

كانت قضيته الأولى الإسلام، يحمل بين جنبيه حبه وعهده بأن يزود
عنه ما حيي، لذا كانت لكلماته فعل السحر في القلوب، يهزها ويرودها
بحسن بيانه وروعة تهذّره وعذوبة جرسه.

لقد ألفت منابر دمشق والمدن السورية أن يرتقيها السباعي لقضايا الإسلام، كما ألفت منابر الدول العربية والإسلامية ارتقاءه، وبعض بلاد الغرب أيضاً.

تري، كم مجموع الخطب التي ألقاها خلال بضعة وثلاثين عاماً؟ وما أثرها؟!

إنها عشرات الآلاف، تتوزعها المواسم: الجمعة، إحياء ذكرى المولد النبوي، إحياء ذكرى الهجرة، ذكرى غزوة بدر... كما تتوزعها خطب التوعية، والتعريف بقضايا العالم الإسلامي، والدعوة إلى نصرتها، والخطب الإقليمية... لذا كان لخطبه الأثر الأكبر في ترقية فهم الشعوب للإسلام، والانتصار لقضاياها، والذود عنه.

ويمكننا أن نعد خطابته من أوفر فنون قوله أثراً في الذود عن الإسلام؛ لأنها كانت تنقل الصورة الحية المباشرة لالتقاءه مع الجماهير، تعكس روح ذوده عن الإسلام، وتوقه إلى تحقيقه في مجتمعه، لذا تراه على المنبر يكاد يتفجر اشتعالاً، تنطلق كلماته صواعق على الاستعمار والإلحاد، ثم تعود كالماء الرقاق توعية ونصحاً وبياناً.

ولنعرض نموذجاً من خطبه، وهي بمناسبة تأبين، كيف جعل من المناسبة ذوداً عن الإسلام وتخليداً لرجاله، فهذه فقرات من خطبته على مشوى الأمير شكيب أرسلان، ساعة مواراته الثرى، يستهلها بهذه النفحات:

«إيه أبا غالب! يا مالى الدنيا وشاغل الناس! يا من كنت إلى آخر أيامك في الحياة تنصح وترشد وتعلم وتوقظ، فما عرف فكرك الجمود، ولا جسمك الراحة، ولا قلمك الركود، وإنما كنت ثورة جامحة، تزلزل أركان الاستعمار

بما تنفحه في العرب والمسلمين من آيات هي النار والنور،
وهي القوة والحياة، فكافأك العرب والمسلمون بالحب
والإعجاب، وعاقبك المستعمرون بالتشريد والاغتراب،
أما هؤلاء فقد رأوا بأعينهم أن ما يبتوه لهذه الأمة من كيد
أفسدته عليهم الأقدار، وأما أنت فلقد رأيت في حياتك ثمرة
جهادك!

لقد رأيت أوطان العروبة تحطم القيود وتسير نحو المجد
وبلاد الإسلام تسري فيها هزة عنيفة من اليقظة والوعي
والنهوض، وها أنت يا أبا غالب تدفن في أرض تحررت من
الأجنبي فلم يبق له فيها جيش ولا مستشارون، ولا سلطة
ولا أمر، ولطالما أعلنت على جيش الاستعمار وسلطانته
حرباً عواناً، وكنت لآمال قومك في الجلاء حجة وتبياناً،
ولو قدر لك أن تعود إلينا لحظات لرأيت هذه الجموع تبكيك
بكاء الشكلى ولرأيت في بلاد العروبة والإسلام مناحات
ومآتم، وقد خلف نعيك في كل عين دمة؛ وفي كل قلب
حسرة، وفي كل نفس زفرة، فسلام عليك في الأولين،
وسلام عليك في الآخرين، وسلام عليك إلى يوم الدين».

ويختتمها بهذه السبحات:

«يا روح الفقيد العظيم! انطلقى اليوم في دنيا الخلود؛
فلطالما كنت في هذه الدنيا حبيسة سجيئة. وغردي ما شئت
أن تغردي! فلطالما كان تغريدك في دنيانا ألماً وبعثاً وإيقاظاً.
وانطلقى يا روح الفقيد في دنيا لا تعرف الظلم ولا البغي
ولا المكر ولا العدوان، وابحثي عن أرواح أبطالنا الخالدين
فبلغهم الشكوى، وبشي إليهم الأحزان، وانقلي إليهم من

دنيا ما يكون أعجوبة الأعاجيب في دنياهم! غردني يا روح
الأمير وانطلقني وارتمي ثم رفر في علينا دائماً وأبداً، وذكرينا
الدين في أسمى معانيه، والوطنية في أقوى مظاهرها، والعلم
في أوسع آفاقه، والوفاء في أروع آياته. سلام عليك يا روح
الأمير ورحمة الله ورضوانه وبركاته»^(١).

٣ - المؤلفات العلمية :

إن كتب السباعي العلمية تجلو رسالته في الذود عن الإسلام،
وتحبوها عمقاً ونضجاً. وهي أوفر فاعلية ودواماً؛ لأنها تخاطب العقول
المثقفة بلغة العلم الهادئة المدعمة بالأدلة والبراهين، ولعلها من أوفى
الوسائل ثمرة وأجدى عطاء.

ويمكننا أن نعد مؤلفات السباعي كلها - على تنوع موضوعاتها - ذوداً
عن الإسلام، نعرض لمجمل مضمونها، بوصفها وسائل للذود - لا التعريف
الكامل بمحتواها - إذ لذلك مجاله الواسع.

(١) كتاب «السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» :

ولعله أوفى كتبه العلمية أثراً: يحتوي على ثلاثة أبواب؛
ويتضمن الأول معنى السُّنة وتعريفها، والوضع في الحديث، وجهود
العلماء لمقاومة حركة الوضع، وثمار جهود العلماء في تدوين السُّنة
وعلمومها. ويتضمن الباب الثاني الرد على الشُّبه المثارة حول السُّنة في
القديم والحديث وهو الباب الذي بذل فيه السباعي جهده وفكره في الذود
عن السُّنة الشريفة ثاني مصدر للتشريع الإسلامي، ولا سيما إزاء تشكيك
المستشرقين وتلامذتهم من أتباع الثقافة الأوروبية، مما سنجلوه أكثر
في مقام ذوده عن السُّنة في منهج ذوده عن الإسلام في هذا الباب.

ويتحدث في الباب الثالث عن مرتبة السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي .
ثم يختتم الكتاب بإعلاء شأن الأئمة الأربعة الأعلام : أبي حنيفة ، ومالك ،
والشافعي ، وابن حنبل ، من خلال عرضه لجهودهم الحثيثة في خدمة
الحديث النبوي والشريعة الإسلامية .

(٢) كتاب «أخلاقنا الاجتماعية» :

وهو ذود عن الأخلاق الإسلامية وتأصيل لها في المجتمع الحاضر
ضد تيارات الانحراف والأعراف الأوروبية الدخيلة . يعالج فيه ما لمسه
في زمنه من سلبيات في المجتمع على ضوء منظوره الإسلامي .
ويسلك في ذلك سبيل التوازن بين نوازع النفس الإنسانية من مثل :
«بين البخل والسرف» ، و«بين النصيحة والتشهير» ، و«بين الحرية
والفوضى» . . ثم يمضي إلى استعراض المشكلات العائلية وأسبابها ،
والتفاوت الملحوظ بين الجيل الماضي والجيل الحاضر ، ويجد الحل
أن نكون حكماء في خطوات التطور ، بحيث نأخذ ما هو سُنَّة الله في
العلم والاختراع ووسائل الحياة مع محافظتنا على ثوابتنا العقدية
والخلقية .

وينتهي إلى ضرورة أن يأخذ العلماء مكانهم الراشد في المجتمع ؛
بأن ينهضوا بأعباء النصيحة والتعليم والدفاع عن الإسلام ، مستشهداً
بمواقف علماء السلف ودورهم في تربية الجماهير والنصح للحكام .

(٣) «من روائع حضارتنا» ، و«عظماؤنا في التاريخ» :

وكلاهما ذود عن حضارتنا الإسلامية ورجال تاريخنا الميامين ، ضد
هجمة الغزو الفكري على مجتمعاتنا ورجالنا .

يعالج فيهما بأناة حضارية افتتاحان البعض بحضارة أوروبية ورجالها، وهم لا يعلمون عن حضارتنا ورجال تاريخنا إلا السطحي القليل.

عرض في الكتاب الأول لخصائص حضارتنا وآثارها في التاريخ الإنساني بوصفها زاداً للشعوب وللأمم، في ميادين العقيدة والدين، والفلسفة والعلوم، واللغة والأدب، والتشريع ومفهوم الدولة، كما أفرد أبواباً طريفة، نادرة في زمنها، حيث رعت حضارتنا الجانب الإنساني في وقت مبكر، كالرفق بالحيوان، ومؤسسات أبواب الخير (الوقف الإسلامي)، والمستشفيات، والمعاهد الطبية، كما رعت الجانب الثقافي بشيade المدارس وإنشاء المكتبات، وإقامة الندوات العلمية. مختتماً الكتاب بأن أمة الإسلام وحدها الجديرة برعاية الدور الحضاري المرتقب في العالم؛ للمزايا الربانية والإنسانية.

كما عرض في الثاني، لجُلة من عظماء تاريخنا في الماضي وفي الحاضر، «رباهم محمد ﷺ في حياته فكانوا خير جيل أنجبته الرسائل خلقاً وكمالاً وجلالاً». وكانوا مصابيح الهدى في كل عصر، وملاذ الشعوب في كل جيل، وأئمة الناس في كل ما يصلح شؤونهم من دين ودنيا، وعلم وكلمة، وأدب وفضيلة، وكفاح ونضال، وبذل وفداء. المقدمة

(٤) «المرأة بين الفقه والقانون» :

وهو خير ذود عن مكانة المرأة المسلمة من خلال ما كرمها الله به من مكانة في التشريع الإسلامي وتحقيق ذلك في المجتمع الإسلامي.

وقد ذيل الكتاب بملحقات موثقة تروي ما تعانيه المرأة الأوروبية المعاصرة - بعيداً عن هدي الله - من عسف الرجل وجوره في ظل

الحضارة الأوروبية، وما تخفيه البهارج الزائفة المقامة حولها من أسى وشقاء وانعدام استقرار.

(٥) الكتب الشرعية: «شرح قانون الأحوال الشخصية»، و«مشروعية الإرث وأحكامه في الإسلام»، و«المرونة والتطور في التشريع الإسلامي»، و«نظام السلم والحرب في الإسلام»:

كلها ميادين ذود عن التشريع الإسلامي، وتأصيل لأحكامه، وتطبيقاتها في المجتمع الإسلامي، بما يلائم العصر ويورث الاعتزاز، ويبرز السبق، وينفي الشبهات.

(٦) «الدين والدولة في الإسلام»:
وقد عرضنا له في مكانه من الكتاب^(١٠).

وهو ذود رائع عن الإسلام وتحكيم شرع الله في الحياة، وفي الدولة والمجتمع بخاصة، بعد أن انجرف بعض مثقفينا مع مقولة فصل الدين عن الدولة الوافدة من أوروبا.

وهو محاورة موضوعية ينتهي فيها إلى أن الدين لا يقوم في الحياة إلا بتحكيم شرعه، وبأن الإسلام نظام كامل للحياة يلبي متطلبات الدولة الحديثة ومقتضياتها، موضحاً الفرق - في تصور الدين وممارساته - بين النصرانية في أوروبا وبين حقيقة الإسلام في نظامه ومبادئه وواقعه التاريخي، ويفند الدعاوى المختلفة.

(٧) «هكذا علّمتني الحياة»: (القسم الاجتماعي، والقسم السياسي):

هو مجموعة خواطر وأفكار، وفلذ شعورية، سطرها قبل سنتين من وفاته على سرير مستشفى المواساة بدمشق، وكان يختلس القلم والقرطاس في غفلة من الأطباء الذين أوصوه بالإخلاء التام إلى الراحة.

وقد حوت في القسم الاجتماعي المواعظ والأفكار والحكم في تنوع
وبلاغة وتبسط، كما حوت في القسم السياسي نظرات وأحكاماً في
السياسة والحكم من خلال تصوره الأخلاقي والاجتماعي.

وقد لمست هذه الأفكار والنظرات سائر جوانب الحياة الإنسانية
وتخللت زواياها قصاً لعمر من التجارب من منظور إيماني. فكان الكتاب
بجزأيه مرآة لذوده عن الإسلام، وتكريساً للسلوك الإسلامي بأسلوب مركّز
حكيم طريف.

(٨) «الاستشراق والمستشرقون»:

لعله أول كتاب يبحث عن الاستشراق والمستشرقين بروح موضوعية،
يضع أبحاثهم وآراءهم موضع البحث.

وينتهي إلى أن الاستشراق في غالب مساره - خلا قلة من
المستشرقين - مرتبط بالاستعمار الأوربي والتبشير وخادم لأغراضهما،
موضحاً أهداف الاستشراق ودوافعه، وأبرزها: التشكيك في صحة الرسالة
الإسلامية، وجحود سماوية القرآن، وإنكار الإسلام ديناً من عند الله،
وما يتبع ذلك من التشكيك في الحديث النبوي والفقه الإسلامي وتراث
الإسلام الحضاري، وذلك لأغراض تبشيرية استعمارية وسياسية، ولتفكيك
وحدة المسلمين بالدعوة إلى إحياء القوميات السابقة على الإسلام، وإحياء
النزعات المذهبية والعنصرية.

ويعدّد أسماء بضعة عشر مستشرقاً ناصبوا الإسلام وتراثه وحضارته
العداء من مثل: [چيب، نيكولسون الإنجليزيين، وجولدتسيهر المجري،
وماسينيون الفرنسي، وماكدونالد الأمريكي، ومرجليوث الإنجليزي،
وشاخت الألماني].

ثم يحاكم منهج المستشرقين المتعصبين ويعرض لموازينهم في أبحاثهم الموسومة بالمغالطة والفكرة العدائية المسبقة للإسلام حيث يخلطون في ذلك خلطاً شائناً لا يخفى على مثقف مسلم. ولم يصدر السباعي في بحثه عن الكتب والآثار الثقافية وحدها وإنما عرض ذلك من خلال رحلة ميدانية قام بها إلى الأقطار الأوروبية، قابل خلالها عدداً من المستشرقين الخطرين، حاورهم وكشف فيها عن مغالطاتهم وتهافت ثقافة بعضهم.

وقد نال الدافع النزيه عن بعض المستشرقين المنصفين حظاً من دراسة السباعي، ولكنهم كانوا قلة، انتهى ببعض منهم إلى اعتناق الإسلام.

(٩) «السيرة النبوية دروس وعبر»:

وتمثل الذود عن الإسلام في أسلوب عرض الكتاب فيه لحقائق السيرة النبوية حية ملهمة، ماثلة للعيان.

فهو لم يسردها سرد المؤرخين، وإنما نظر فيها نظرة الداعية الخبير؛ ليستخرج منها كنوز العبرة في تربية الشباب المسلم: «ليستمدوا منها استقامتهم وصلاح مسيرتهم، وحسن هديهم في الدعوة إلى الإصلاح بما يتلقونه من سيرة النبي ﷺ الشاملة لكل نواحي الإنسانية، مما يجعله القدوة الصالحة لكل داعية، وكل قائد وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربٍّ، وكل سياسي، وكل رئيس دولة»؛ فهي بهذه السمات مصنع للرجال، وملهمة للأبطال.

(١٠) «دعوة الإسلام واقعية لا خيال»، و«منهجنا في الإصلاح»:

وساوها من الكتب والرسائل، تؤدي - كما يتضح من عناوينها - الدور نفسه في الذود عن الإسلام، وترسيخ دعوته، كما تقدّم الإسلام منهج إصلاح للحياة المعاصرة، تبني به الشخصية الإسلامية.

تلك جملة من وسائل الدعوة رعاها السباعي في عصره ليزود عن حمى الإسلام. ولكن هل كان ذوده حماسة فائرة، وعواطف مشبوبة عابرة، أو كان منهجاً وطريقاً سخر له كل مواهبه وطاقاته؟

ثانياً: منهجه في الذود عن الإسلام

اتخذ السباعي منهجه في الذود عن الإسلام من خلال الواقع المعاصر الذي يحيط بالمسلمين وما يكتنونه من طاقات، فكان نهجه في الجانب السلبي بدفع الهجمات والأخطار الاستعمارية عن ديار الإسلام ومقارعة الحكام العلمانيين المضادين للإسلام. أما نهجه في الجانب الإيجابي فكان ماثلاً في تقديم الإسلام منهج إصلاح ورفي، وتجديد اعتناقه وأدائه في النفوس مع إرفاق ذلك بنظرة مستقبلية متفائلة.

القسم الأول: الجانب السلبي من الذود عن الإسلام

١ - الكشف عن الأخطار الاستعمارية على ديار الإسلام:

يميط السباعي الستار عن الأخطار التي تتهدد المسلمين في أقطارهم كافة، ضمن حملة يقودها الاستعمار الأوروبي لغزو ديار الإسلام، مهيباً بالمسلمين أن يستيقظوا من غفلتهم، ويفطنوا إلى ما يكاد لهم من مؤامرات تحت أسماء براق، تخفي خلفها سماً زعافاً..

«إن هذه المؤامرات التي ابتدأت من عهد أبي جهل وأبي لهب والوليد وعقبة وأضرابهم، واستمرت في العصر العباسي على أيدي زعماء الفرق الضالة التي اندست في الإسلام لتفسد عقائده، ثم تكتلت في الحروب الصليبية لتحتل قلب العالم الإسلامي ومركز إشعاعه، ثم تتوجت أخيراً باحتلال العالم الإسلامي كله تقريباً، هذه المؤامرات لم تنته - كما يظن

بعض الناس - باستعادة أكثر الأقطار الإسلامية حريتها وسيادتها، بل ابتدأت مؤامرات فكرية وسياسية جديدة تحت شعارات متعددة لتعمل عملها المستمر الدائب في تهديم الكيان الإسلامي والفكر الإسلامي الواعي، فالشر لا يعرف الهزيمة أمام الحق حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولهذه المؤامرات الجديدة مظاهرها المتعددة التي لا تخفى على المراقب الخبير»^(١١).

ثم يوضح نوايا الاستعمار الخبيثة التي لا تني بالإلحاح على الحياة الإسلامية بالتوهين والإضعاف للإبقاء على نفوذه في العالم العربي والإسلامي، وقد رسم لذلك خطة خبيثة وأهدافاً أنشأت الأخطار الآتية يوافينا السباعي بكشف ترهاته فيها وأباطيله..

(١) الرد على تشويه الاستعمار حقائق الإسلام:

يرى السباعي أن الاستعمار قد عدل عن حرب الإسلام جهاراً بعد أن رأى الوعي الإسلامي ينتشر في ربوع العالم الإسلامي، وإنما أخذ يخاتل ويراع ليجتث الإسلام من نفوس المسلمين عن طريق تشويه حقائق الإسلام وشن الافتراءات عليه لإضعاف الثقة به، وزرع الشك في نفوس الجيل الإسلامي المعاصر نحو صلاحية الإسلام لهذا العصر وملاءمته للعلم.

ويستعرض السباعي - ذوداً عن الإسلام - مواطن الافتراءات والتشويه التي حاول أن يبذرها الاستعمار والاستشراق المسخر له في نفوس المسلمين لتوهين عقيدتهم والخفض من اعتزازهم بحقائق الإسلام، فوجدها - حسب أبحاثه ومشاهداته - فيما يأتي:

(أ) في السُّنة المطهرة :

نهض السباعي في كتاب كامل وهو «السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» بإعلاء شأن السُّنة والرد على افتراءات المستشرقين وتلامذتهم بالحجة والدليل^(١٢). وفيما يأتي يوضح لنا لِمَ غُنِيَ الاستعمار ومن ورائه المستشرقون بحياسة الشكوك حول السُّنة المطهرة، وماذا كانوا يرومون من وراء ذلك، فيقول موضعاً أبعاد المؤامرة:

«وأهم ما يوجهون جهودهم إليه الآن تهديم «السُّنة» باعتبارها مصدراً ثانياً من مصادر التشريع في الإسلام، وباعتبارها جاءت مفضّلة لما أجمل من كتاب الله، أو موضحة لما أشكل... ولما كانت أحكام الفقه التي أخذت من السُّنة أو استنبطت منها تشكل تسعة أعشار الفقه، كان نسف السُّنة وإثبات تزويرها على الرسول - كما يدعون - كان نسفاً لأهم تراث المسلمين وهو الفقه الإسلامي، وثغرة ينفذ إليها من يشاء للتحلل من أحكامه وشرائعه»^(١٣).

ولمّا كان التشكيك بالسُّنة يمثل مؤامرة على الإسلام، ألممنا بأبعادها، كان ذود السباعي عن السُّنة منهجه وخطه العقدي، وكان حوارهِ حولها يتسم بالاستقصاء والموضوعية. وإن كان يصعب علينا عرض التفاصيل هنا لسعة الموضوع واستفاضته، فحسبنا أن نشير إلى أبرز خطوات الذود هذه..

لقد اهتدى السباعي إلى رأس الفتنة الاستشراقية الهاجمة على السُّنة في شخص «چولدسيهر» شيخ المستشرقين فيعرفنا به:

«لعل أشد المستشرقين خطراً وأوسعهم باعاً وأكثرهم خبثاً وإفساداً في هذا الميدان، هو المستشرق اليهودي المجري

«جولدتسيهر»؛ فقد كان واسع الاطلاع على المراجع الإسلامية - على ما يظهر - حتى اعتبر شيخ المستشرقين في الجيل الماضي، ولا تزال كتبه وبحوثه مرجعاً خصباً وأساسياً للمستشرقين في هذا العصر، وقد كان له أثر كبير في التشكيك بالسُّنة، وترى آراءه منثورة في كتبه المتعددة.

ويجمل خطوط الشبهات التي أثارها «جولدتسيهر» حول السُّنة فيما يأتي من المزاعم:

«أولاً - إن القسم الأكبر من الحديث ليس وثيقة للإسلام في عهده الأول عهد الطفولة، ولكنه أثر من آثار جهود المسلمين في عصر النضوج!

ثانياً - إن الخلاف الذي اشتد - في العصر الأول - بين الأمويين والعلماء الأتقياء، وخاصة علماء المدينة، جعل هؤلاء يعنون بجمع الحديث، ولما كان ما في أيديهم منه قليلاً لا يسعفهم في تحقيق أغراضهم، اخترعوا أحاديث رأوها مرغوباً فيها لا تتنافى مع الروح الإسلامية، وبرروا ذلك أمام ضمائرهم بأنهم إنما يفعلونه في سبيل محاربة الطغيان والإلحاد والبعد عن سنن الدين!

«ثالثاً - إن الأمويين قابلوا هذا الوضع بوضع مقابل له، واستغلوا لذلك بعض علماء يخضعون لنفوذهم كالزهري الذي كان يستغله البيت المالك الأموي في صنع الأحاديث!».

ويرد السباعي على الخط الأول من الزعم الذي يثيره المستشرق

بقوله:

«يقول جولدتسيهر إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأول والثاني، وهذا زعم باطل تكذبه النصوص الثابتة؛ فرسول الله ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد وضع الأسس الكاملة لبنان الإسلام الشامخ بما أنزل الله عليه في كتابه، وبما سنّه عليه الصلاة والسلام من سنن وشرائع وقوانين شاملة وافية».

ويعلّل وحدة الشعائر والشرائع بعد عهد النبي ﷺ بقوله:

«إن الباحث المنصف يجد أن المسلمين في مختلف بقاع الأرض التي وصلوا إليها كانوا يتعبدون عبادة واحدة، ويتعاملون بأحكام واحدة، ويقيمون أسس أسرهم وبيوتهم على أساس واحد، ولا يمكن أن يتم ذلك لو لم يكن لهم قبل مغادرتهم جزيرة العرب نظام تام ناضج وضع لهم أسس حياتهم في مختلف نواحيها.

ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجة للتطور الديني في القرنين الأولين للزم حتماً أن لا تتحد نظم المسلمين السياسية والاجتماعية والاقتصادية، من كان منهم في جنوب الصين مع من كان منهم في شمال إفريقيا، فكيف اتحدوا في ذلك وبينهم من البعد ما بين الصين وإفريقيا؟

أما قيام المذاهب بعد القرن الأول وتعددّها؛ فذلك بلا شك أثر للكتاب والسنة ولمدارس الصحابة في فهم كتاب الله وحديث رسوله، ولقد كان الكتاب محفوظاً متواتراً بينهم ولا تجد قولاً لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلا وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي،

وهذا أكبر دليل على أن الإسلام في القرن الأول كان تاماً
ناضحاً لم يفعل المسلمون فيه شيئاً من بعد إلا الشرح
والتطبيق والتفريع»^(١٤).

ويفيض السباعي في كشف افتراءات المستشرق التي يزعم فيها أن
الخلاف بين الأمويين والعلماء الأتقياء ألجأ هؤلاء إلى وضع أحاديث في
محاربة طغيان بني أمية وبعدهم عن سنن الدين، فيشرع بتبرئة بني أمية من
تهمة الزيغ والطغيان ويرد إليهم اعتبارهم بوصفهم خلفاء الإسلام وسدنته،
وفي عهدهم كانت الفتوح الكبرى.

ويدلل على كذب نظرية الوضع المذكورة بأن التاريخ لم يذكرها،
وأن المستشرق لم يبلغ آفاق سمو علمائنا وقيمنا حتى يطلق أحكامه
الزائفة عنها.

ويفتد الأرجوفة (الثانية) بقوله:

«ومن الجرأة البالغة على الحق والتاريخ: ما زعمه من أن
علماءنا استجازوا الكذب في الحديث، وبرروا ذلك أمام
ضمايرهم بأنهم إنما يفعلون ذلك في سبيل محاربة الإلحاد
والبعد عن سنن الدين!...

إن هذا قول من لم يصل - ولن يصل - إلى مدى السمو الذي
كان يتصف به علمائنا الأتقياء، ولا المدى الذي وصلوا إليه
في الترفع عن الكذب حتى في حياتهم العادية، ولا مبلغ
الخوف الذي استقر في نفوسهم بجنب الله خشية ورهبة،
ولا مدى استنكارهم لجريمة الكذب على رسول الله ﷺ،
حتى ذهب كثيرون منهم إلى كفر من يفعل ذلك وقتله وعدم
قبول توبته.

إن هذا المستشرق معذور إذا لم يفهم عن علمائنا هذه الخصائص، لأنه لا يجد لها ظلاً في نفسه ولا فيمن حوله، ومن اعتاد الكذب ظن في الناس أنهم أكذب منه، ومن عاش في جو يستبيح الكذب في السياسة وفي الحكم وفي العلم، ظن أن الكذب مستساغ في جميع الأجواء، وعند جميع الشعوب... وإلا فمن الذي يقول إن مثل سعيد بن المسيّب الذي تعرض للضرب والإهانة حتى لا يخالف سُنّة رسول الله ﷺ في النهي عن بيعتين في وقت واحد، يستبيح بعد ذلك لنفسه أن يكذب على رسول الله ﷺ ليدافع عن سُنّته، ومن الذي يرضى لنفسه أن يتهم قوماً جاهرُوا بالإنكار على بعض ولاتهم - لمخالفتهم بعض أحكام السُنّة - بأنهم استجازوا لأنفسهم مع ذلك أن يقعوا في جريمة الكذب المنكرة في كلام الناس، الكبيرة في حديث رسول الله، وأن يضيفوا إلى السُنّة أحكاماً لم يقلها رسول الله ﷺ، أيها الناس أليست لكم عقول تحكمون بها، أم إنكم تتكلمون لقوم لا عقول لهم؟!...

إن رجلاً كالزهري يقول لهشام بن عبد الملك: والله لو أن الله أباح الكذب ما كذبت!... سيظل دليلاً ناصعاً على صدق علمائنا وأمانتهم وتحريمهم الحق والتزامهم حدود الشريعة، وهو كفيّل بأن يجعل ممن يتهمونهم بالكذب من المستشرقين وأضرابهم سخرية الساخرين...

ويبني المستشرق على فريته السابقة المدحوضة فرية زائفة ثالثة وهو أن الأمويين قابلوا وضع العلماء الأتقياء بوضع من عندهم، واستغلوا بعض علماء يخضعون لنفوذهم كالزهري في صنع الأحاديث، فيرد الساعي فريته بقوله:

«أما إن الأمويين وضعوا أحاديث ورؤجوها فهذا زعم باطل لا وجود له إلا في خيال هذا المستشرق، ونحن نسأله: أين تلك الأحاديث التي وضعها الأمويون؟ إن علماءنا اعتادوا أن لا ينقلوا حديثاً إلا بسنده، وها هي أسانيد الأحاديث محفوظة في كتب السُّنة، ولا نجد من بين آلاف الأحاديث حديثاً واحداً في سنده عبد الملك أو معاوية أو يزيد أو أحد عمالهم كالحنظلة وخالد بن عبد الله القسري وأمثالهما، فأين ضاع ذلك في زوايا التاريخ لو كان له وجود؟» (١٥).

ثم يفيض السباعي في رد هذه الفرية ويكشف تحريف المستشرق في النصوص لتوافق هواه، ثم يعقد بحثاً كاملاً عن الزهري (١٦) موضحاً مكانته ونزاهته وصدقه بشهادة جل العلماء والأئمة الفقهاء ويكشف افتراء المستشرق على الزهري الإمام الثَّبت في الحديث بأن يورد فريته:

يقول جولدتسيهر:

«إن الأمويين استغلوا أمثال الإمام الزهري بدهائهم في سبيل وضع الحديث ضد خصومهم السياسيين، وذلك أن عبد الملك بن مروان منع الناس من الحج أيام فتنه ابن الزبير وبني قبة الصخرة في المسجد الأقصى ليحج الناس إليها بدلاً من الكعبة!.. ثم أراد أن يحمل الناس على الحج إليها بعقيدة دينية، فوجد الزهري - وهو ذائع الصيت في الأمة الإسلامية - مستعداً لأن يضع له أحاديث في ذلك، فوضع أحاديث منها، «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى»،

ويدلنا على أن الزهري واضح هذا الحديث وأمثاله أنه كان صديقاً لعبد الملك وكان يتردد عليه، وهذه الأحاديث التي تتحدث عن فضائل بيت المقدس مروية من طريق الزهري فقط، والزهري، رغم تقواه لم يستطع أن يتحاشى تأثير الدوائر الحكومية عليه.

ويرد السباعي على فرية المستشرق إزاء الزهري بما يأتي:

* مكانة الزهري لدى علماء الإسلام ورأي أئمة الجرح والتعديل فيه:

«كان من أبرز صفاته، سخاء اليد، وعزة النفس، وصدق اللهجة، وقوة الحفظ، وتحمل المشاق في طلب العلم، وشدة الحرص على بذله للناس. وبذلك فاق أقرانه، حتى غدا إمام المسلمين في الحديث، يقبل عليه الناس من كل فج يكتبون حديثه.

قال الإمام مالك: «كان الزهري إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحد من العلماء حتى يخرج منها، وأدركت بالمدينة مشايخ أبناء سبعين وثمانين لا يؤخذ عنهم، ويقدم ابن شهاب وهو دونهم في السن فيزدحم عليه».

وقال عمر بن عبد العزيز يوماً لجلسائه: «هل تأتون ابن شهاب؟»، قالوا: إنا لنفعل، قال: «فأتوه فإنه لم يبق أحدٌ أعلم بسنة ماضية منه».

قال عمر بن عبد العزيز هذا في حق الزهري والحسن وأقرانه أحياء يومئذ...

ولمكانة الزهري من السنة وإحاطته بها وثقة الناس فيما يرويه منها، وكل إليه عمر بن عبد العزيز تدوين السنة بعد أن كتب

في ذلك إلى علماء الأمصار كأبي بكر بن حزم وغيره، وقد قام الزهري بتدوين السُّنة وحفظها، أخرج أبو نعيم من طريق محمد بن الحسن عن مالك أنه قال: «أول من دوّن العلم ابنُ شهاب»، وكذلك أفاد ابن عبد البر وابن عساكر والحافظ ابن حجر في الفتح.

وإن رجلاً يكون له شرف تدوين السُّنة حتى لا يكاد يخلو باب من أبواب الحديث إلا وللزهري فيه رواية أو أثر، جدير بنا أن نطمئن إلى صدقه وثبته فيما يروي.

وقد أجمع علماء الجرح والتعديل قاطبة على توثيقه وإمامته وجلالة قدره، قال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري. وقال ربيعة شيخ مالك: ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب. وقال عمرو بن دينار بعد أن اجتمع بالزهري طويلاً: والله مثل هذا القرشي ما رأيت قط. وقال سفيان بن عيينة: لم يكن في الناس أحد أعلم بالسُّنة من الزهري. وقال ابن سعد: كان الزهري ثقة كثير العلم والحديث والرواية فقيهاً جامعاً. وقال الإمام أحمد: الزهري أحسن الناس حديثاً وأجودهم إسناداً. ويقول ابن حجر: هو أحد الأئمة الأعلام وعالم الحجاز والشام، متفق على جلالة وإتقانه وثبته.

* صلة الزهري بالأمويين وحديث المسجد الأقصى:

«أما حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد»، وفيه ذكر المسجد الأقصى، وأن الزهري وضعه إرضاءً لصديقه عبد الملك الذي بنى قبة الصخرة ليحول الحج إليها بدلاً من الكعبة، وأراد عبد الملك أن يستفيد من شهرة الزهري في

العالم الإسلامي ليكسو هذه الرغبة ثوباً دينياً، فهذا ما لا يكاد
عجبنا ينتهي منه، ومن وقاحة هذا المستشرق الكذاب ..

إن عبد الملك لم يكن هو الذي بنى قبة الصخرة وإنما الذي
بناها ابنه الوليد، وقد كان مولعاً بالبناء والعمران، وهو الذي
بنى الجامع الأموي وغيره مما لا يجهله أصغر طالب في
المدارس الابتدائية .. وعبد الملك من المستحيل أن يقدم
على تحويل الحج من الكعبة إلى مكان آخر فإن ذلك كفر يهز
العالم الإسلامي هزاً عنيفاً، ولقد اتهم العباسيون والهاشميون
عبد الملك بأشياء كثيرة لا نجد من بينها هذه التهمة الشنيعة،
فكيف خفيت على خصومه السياسيين المعاصرين، ولم يعرفها
إلا هذا المستشرق!!؟

على أن حديث «لا تشد الرحال» حديث مستفيض روته كتب
السنة كلها، وهو مروى من طرق مختلفة غير الزهري، فقد
أخرجه البخاري ومسلم من طرق غير طريق الزهري، وقال
ابن تيمية عن هذا الحديث: «إنه حديث مستفيض متلقى
بالقبول، أجمع أهل العلم على صحته»، والحديث نفسه
ليس فيه ذكر قبة الصخرة، وإنما فيه ذكر المسجد الأقصى،
والقرآن قد تحدث عن فضيلته صراحة في أول سورة
الإسراء، فلم يزد هذا الحديث فضلاً لم يكن معروفاً لدى
المسلمين من قبل ..

ولو كان الزهري وضعه لعبد الملك ليحول به الحج إلى
قبة الصخرة لذكر فيه قبة الصخرة والطواف حولها كما يطوف
الناس بالكعبة، فأين في الحديث المذكور ما يدل على
هذا!!؟

ثم يقف على هذه الأدلة العلمية التي تنطق بذوده الرائع عن السنة إلى
البراهين التاريخية التي تصمي المستشرق وتصيبه في مقتله العلمي جزاء
افترائه بقوله :

«وهناك أيضاً أدلة تاريخية تكذب «جولدتسيهر» وهي
مما لا مجال للشك فيها، فالنصوص التاريخية قاطعة بأن
الزهري لم يكن يعرف عبد الملك في عهد ابن الزبير، وإنما
وفد عليه ولقيه لأول مرة عام ثمانين من الهجرة، ومقتل
عبد الله بن الزبير كان سنة ثلاث وسبعين، فالزهري لم يجتمع
بعبد الملك إلا بعد مقتل ابن الزبير بسبع سنوات، وقد كان
سنة يومئذ تسعاً وعشرين سنة، وهذا يكذب أيضاً ما زعمه
جولدتسيهر من أن الزهري كان حين وضع الحديث ذائع
الصيت في العالم الإسلامي.

وحديث لقاء الزهري عبد الملك - كما يرويه الذهبي وغيره -
حديث طريف يدلنا على أن الزهري كان لا يزال «طالب
علم»، وقد امتحنه عبد الملك ببعض الأسئلة، وتوسم فيه
الخير والنباهة، فنصحه بأن يلزم دور الأنصار في المدينة
ليستفيد منها العلم، فالزهري هنا تلميذ بين يدي عالم، فمن
أين جاءت فرية الاستنجاد بصيت الزهري وشهرته الذائعة
ليستفيد منها عبد الملك في وضع الأحاديث التي يريدناها؟».

ودليل آخر: إن الزهري روى حديث «لا تشد الرحال» عن
شيخه سعيد بن المسيّب، وقد لزمه ثمانين سنوات كما قدمنا .
ولا يجهل أحد ما كان من الجفاء بين سعيد وعبد الملك بن
مروان، وقد توفي سعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة أي بعد
مقتل ابن الزبير بعشرين سنة، وظل الزهري ملازماً لشيخه

سعيد حتى توفي، فلو كان الزهري هو الذي وضع حديث لا تشد الرحال ونسبه إلى شيخه سعيد، لكان من الواجب على چولدتسيهر أن يفسر لنا لماذا سكت سعيد على افتراء تلميذه الزهري عليه وهو الذي لم يبال بغضب عبد الملك يوم رفض أن يعطيه بنته لأحد أولاده، حتى تعرض من أجل ذلك للضرب والإيذاء، وظل مخاصماً للأمويين حتى مات، وكان يقول: «لا حاجة لي في ملك بني أمية حتى ألقى الله»، فكيف سكت سعيد عن حديث ينسبه إليه تلميذه الزهري حتى استفاض في العالم الإسلامي وكاد يبلغ حد التواتر؟!..

إن النقد العلمي ليدمغ بالبهتان والافتراء «چولدتسيهر»، وبتهمه بتجاهل أصول البحث العلمي لغرض دفين في نفسه، ويأبى الله إلا أن يهتك ستره»^(١٧).

ويتابع السباعي ذوده عن السُّنَّة في رحلته إلى أوربة، فيجد آثار الكذوب «چولدتسيهر» في الطعن على السُّنَّة لا تزال على ألسنة تلامذته من المستشرقين، فيستأنف رسالة الذود عن السُّنَّة في حوارهم معهم، ويوضح أن المسلمين يقظون لتشويهاتهم وترهاتهم التي يروجونها - كذباً - باسم العلم.

يحدثنا عن أحد هذه الحوارات بقوله:

«في جامعة «لیدن» بهولندا اجتمعت بالمستشرق الألماني اليهودي «شاخت» وهو الذي يحمل في عصرنا هذا رسالة «چولدتسيهر» في الدس على الإسلام والكيد له وتشويه حقائقه، وباحثته طويلاً في أخطاء «چولدتسيهر» وتعمُّده تحريف النصوص التي ينقلها عن كتبنا، فأنكر

ذلك أول الأمر؛ فضربت له مثلاً واحداً مما كتبه «جولدتسيهر» في تاريخ السنة، فاستغرب ذلك ثم راجع كتاب «جولدتسيهر»، وكنا نجلس في مكتبته الخاصة فقال: معك الحق، إن جولدتسيهر أخطأ هنا، قلت له: هل هو مجرد خطأ؟ فاحتد وقال: لماذا تسيئون به الظن؟

فانتقلت إلى بحث تحليله لموقف الزهري من عبد الملك بن مروان وذكرت له من الحقائق التاريخية ما ينفي ما زعمه «جولدتسيهر»، وبعد مناقشة في هذا الموضوع قال: وهذا خطأ أيضاً من «جولدتسيهر» ألا يخطئ العلماء؟ - قلت له إن جولدتسيهر هو مؤسس المدرسة الاستشراقية التي تبني حكمها في التشريع الإسلامي على وقائع التاريخ نفسه، فلماذا لم يستعمل مبدأه هنا حين تكلم عن الزهري؟ وكيف جاز له أن يحكم على الزهري بأنه وضع حديث فضل المسجد الأقصى إرضاء لعبد الملك ضد ابن الزبير مع أن الزهري لم يلق عبد الملك إلا بعد سبع سنوات من مقتل ابن الزبير؟

وهنا اصفرَّ وجه «شاخت» وأخذ يفرك يداً بيد، بدا عليه الغيظ والاضطراب؛ فأنهيت الحديث معه بأن قلت له: لقد كانت مثل هذه الأخطاء كما تسميها أنت تُشتهر في القرن الماضي، ويتناقلها مستشرق منكم عن آخر على أنها حقائق علمية، قبل أن نقرأ - نحن المسلمين - تلك المؤلفات إلا بعد موت مؤلفيها، أما الآن فأرجو أن تسمعوا منا ملاحظاتنا على «أخطائكم» لنصححوها في حياتكم قبل أن تتقرر كحقائق علمية»^(١٨).

ويُجمل السباعي بعد هذا أطراف المؤامرة على السُّنة المطهرة،
ويكشف حلقاتها المختلفة وما وراءها من أبعاد بقوله:

«إن التشكيك في السُّنة النبوية الصحيحة التي تدعن لها
جماهير المسلمين، والتي أقامت صرح الفقه الإسلامي
العظيم الذي لا تملك أمة من أمم الأرض عشر معشاره،
هو مثل بارز لمحاولات أعداء الإسلام في القديم
والحديث؛ فقد أخذت هذه المؤامرة طريقها إلى عقول بعض
الفرق الإسلامية في الماضي، كما أخذت طريقها إلى عقول
بعض الكتاب المسلمين أمثال أحمد أمين في الحاضر،
إنها مؤامرة لا ريب فيها، فالمستشرقون اليهود واللاهوتيون
المتعصبون يلحون عليها إلحاحاً شديداً في كل ما يكتبون،
وأقسام الدراسات الإسلامية في الجامعات الغربية
توجه أنظار طلابها المسلمين إلى هذا الموضوع توجيهاً
دقيقاً، وتأبى لأي طالب منهم أن يكون موضوع رسالته
الجامعية دحض الافتراءات التي يملؤون بها كتبهم على
السُّنة ورواتها.

وقد حدث في الصيف الماضي حين كنت في ألمانيا
للاستشفاء أن اتصلت بي فتاة ألمانية مسلمة منتسبة إلى قسم
الدراسات الإسلامية في جامعة فرانكفورت تطلب إليّ دلالتها
على بعض المراجع التي تساعد في كتابة رسالتها الجامعية
التي أصر رئيس ذلك القسم أن يكون موضوعها «أبو هريرة»،
وقد طلب إليها بحث عدة نواح في هذا الموضوع، منها:
ما قيل عن أبي هريرة وما نسب إليه من الكذب، وما قالته فيه
بعض الفرق الإسلامية غير أهل السُّنة، وهكذا.

ومنذ بضع سنوات عقد مؤتمر للدراسات الإسلامية في «لاهور» بباكستان حضره علماء مسلمون من مختلف البلاد الإسلامية ومن بينهم علماء من سورية ومصر، كما حضره عدد من المستشرقين.

وقد ظهر للعلماء المسلمين أن هؤلاء المستشرقين هم الذين أوصوا بفكرة عقد هذا المؤتمر، ودعوا إليه عدداً من تلاميذهم الفكريين في الهند وباكستان، وكان أشدهم تعصباً وأكثرهم جهلاً - باعترافه هو بعد أن ألقى بحته - المستشرق، الكندي «سميث» ولعله يهودي.

وكان مما ألح عليه المستشرقون يومئذ بحث السُّنة والوحي النبوي ومحاولة إخضاعهما لقواعد العلم كما يزعمون، وقد انتهى بعض تلامذتهم إلى إنكار الوحي كمصدر للإسلام واعتبار الإسلام أفكاراً إصلاحية من محمد ﷺ!..

وفي العام الماضي قامت ضجة في الباكستان حول جماعة من المثقفين المسلمين بدؤوا يدعون إلى إلغاء اعتبار السُّنة مصدراً من مصادر التشريع الإسلامي، وتبين بعد ذلك أن هؤلاء من تلاميذ ذلك المستشرق الكندي «سميث»!..

ولمّا وضع أيوب خان دستوره الذي فرضه على الباكستان جعل من مواده تأليف لجنة من علماء المسلمين لعرض القوانين التي يصدرها البرلمان الباكستاني على هذه اللجنة لتحكم إن كانت موافقة للإسلام أم لا؛ ومعلوم أن هذه المادة إنما وضعت لإرضاء الرأي العام الإسلامي في الباكستان. ولمّا وضع الدستور موضع التنفيذ تألفت اللجنة

المذكورة آنفاً، وكان كل أعضائها من تلامذة المستشرق «سميث»، وليس من بينها عالم من علماء المسلمين في باكستان.

وحين أُلّف بعض الجاهلين المغرورين كتاباً عن السُّنة ينتهي إلى التشكيك بالسُّنة كلها ويفيض بالحقّد البذيء على أكبر رواتها من الصحابة وهو أبو هريرة رضي الله عنه، تلقفت الجهات الأجنبية الاستعمارية هذا الكتاب فبعثت به إلى جميع الجامعات الغربية كما حدثني بذلك عدد من مختلف طلابنا المسلمين في أوربا في الصيف الماضي.

إن أي واع منصف يتتبع هذه الحوادث لا يشك في أنها حلقة مترابطة الأجزاء من سلسلة التآمر على السُّنة النبوية وعلى أكبر رواتها ومحدثيها^(١٩).

(ب) في مهمة الدين الإسلامي في المجتمع:

وثاني التشويهات التي تبنتها الهجمة الأوربية على الإسلام محاولة تشويه مهمة الدين الإسلامي في المجتمع، بما كاد ينطلي على عامة المسلمين لُبعد العهد بينهم وبين الحكم بالشرعية الإسلامية، ولجهلهم مهمة النبي ﷺ الأساسية، وهي تحكيم الدين وشرعه في سائر جوانب الحياة على ما ارتضاه الله للبشر، وليس مجرد صلة بين العبد وربّه:

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

ولم يتشكك المسلمون عبر عصور الإسلام الزاهرة في هذه المهمة الأساسية إلّا حينما عطّلت بفعل الجهل والغزو الأوربي.

لذا كان الاستعمار الأوروبي وأذنا به يُفَرِّقُونَ فَرْعاً من وعي الجماهير المسلمة لتحكيم دين الله؛ لأنها ستفقد من قبضتهم وتسترد بحكم الإسلام عزتها ومنعتها، ويبدلون قصارى جهودهم في إبعاد المسلمين عن تحكيم دينهم في حياتهم ومجتمعهم، تكريساً لإضعافهم، وتبيديداً لطاقتهم إيمانهم، وتوهيناً لنهضتهم، كي يكونوا عالة على أعدائهم؛ لذا نجد السباعي كثيراً ما ينادي - في ميادين ذوده - العقول الوُسْنَى إلى اليقظة لهذه المؤامرة، مجلياً تميّز الإسلام - في مبادئه وواقعه التاريخي - بالعلم والنهضة ..

«إن من أعظم دسائس الاستعمار الفكرية التي أراد بها تهديم مجتمعنا الإسلامي ما ألقاه في أذهان كثير من شبابنا الذين تعلموا في ديار الغرب، وما رَوَّجَه مستشرقوهم اللاهوتيون وكتّابُهم الاستعماريون؛ أنَّ من أكبر أسباب انحطاط المسلمين اليوم وتخلفهم عن ركب الحضارة، إنما هو تمسُّكهم بدينهم.

وهم يزعمون بأن الدين عموماً والإسلام خاصة لا يتفق مع العلم ولا يؤدي إلى التقدم والتطور، بل يقف حجر عثرة في سبيل ذلك كله.

وقد تجاهل هؤلاء الدساسون، وغاب عن أذهان تلاميذهم المغفلين من أبناء أمتنا ذلك الفرقُ الشاسع بين دينهم وديننا، وأنه إذا كان دينهم أو رجال دينهم قد حاولوا عرقلة النهضة وقاوموها في بلادهم؛ فإن ديننا وعلماءنا المصلحين الواعين هم الذين أقاموا صرح حضارتنا الإنسانية الزاهرة، وهم الذين أنهضوا العالم من كبوته بعد أن كان يغط في سبات عميق» ..

وفي أناة موضوعية يحاور المفتونين بثقافة الغرب في دعواهم الآنفه،
فيعرض لمقومات النهضة الحضارية ماثلة في :

١ - العقيدة الصحيحة الحضارية .

٢ - العلم الثابت الذي يكتشف نواميس الكون وأسرار الحياة .

٣ - الخلق القويم الذي يتحمل أعباء النهضة وتكاليفها .

ثم يوضح بجلاء كيف يمتلك الإسلام هذه المقومات، وكيف يرود
الحياة بها ويتميز .

«وإنا لنعلم جميعاً أن كل نهضة حضارية لا تقوم إلا على :
أساس عقيدة صحيحة حضارية ، وعلم ثابت يكتشف نواميس
الكون وأسرار الحياة ، وخلق قويم يتحمل أعباء النهضة
وتضحياتها وتكاليفها .

هذه هي العناصر الثلاثة الأساسية في بناء كل نهضة
وحضارة ، ونحن لا نريد أن نناقش غير ديننا لنرى إن كان قد
جاء بهذه العناصر الثلاثة أم لا ، ولكننا سنناقش الأمر في
ديننا الإسلامي مناقشة علمية بعيدة عن العاطفة والهوى ،
لنرى إن كان ديننا قد تكفل بالأسس الثلاثة الضرورية للنهضة
أم لا ؟

أما العقيدة الصحيحة الحضارية التي تبعث الحياة في
المجتمعات فليس أصفى ولا أنقى من عقيدة الإسلام
في الألوهية والنبوة وغيرها ، فالله في الإسلام إله واحد
لا شريك له لم يلد ولم يولد ولم تكن له صاحبة ولا ولد ،
وهو حي عليم قادر سميع بصير يعلم خائنة الأعين
وما تخفي الصدور . وهو ليس جسماً يحده زمان أو مكان ،

ولا خلقاً من هذه المخلوقات، فليس شجراً ولا حجراً
ولا شمساً ولا قمراً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ آتِلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي
خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وهكذا تجد المسلم لا يخضع إلا لإله واحد هو خالق كل
شيء ومنه مصدر كل شيء، وهو لا يحابي أحداً ولا يظلم
أحداً، ومقياس القرب منه والبعد عنه العمل الصالح والعمل
السيئ، فمن أحسن عمله واتقى ربه، وكفى الناس شره،
ومنح الناس خيره كان هو المقرب إلى الله. ومن أساء وظلم
وفسق وفجر، وأشاع الفساد، ومنع الخير كان هو البعيد
عن الله.

وأما الأساس الثاني من أسس النهضة، وهو العلم، فليس
في الأديان دين حث على العلم ورغب فيه ولفت نظر
الإنسان إلى ظواهر الكون والطبيعة، وطلب إليه أن يكتشف
نواميسها كالإسلام - ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ كَيْفَ خُلِقَتْ
وَالِىَ السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ (١٨) ﴿وَالِىَ الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ (١٩) ﴿وَالِىَ
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي مهّدت ﴿فِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (٢٠)
﴿فَلْيَسْكُرُوا أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾، وأعجب
من ذلك في الإسلام تنبيهه إلى أن كل ما في الكون، من
بحار وأنهار وشموس وأقمار، مسخر للإنسان.

وإذا علمت أن مثل هذه الآيات بلغت سدس آيات القرآن
أي أكثر من ألف آية، بينما لم يرد في الصلاة إلا ما يقرب
من سبعين آية، وفي الصيام إلا آيات، وفي الزكاة إلا آيات،
وفي الحج إلا آيات، وهذه هي أركان الإسلام بعد

الشهادتين، أدركت أي دين عظيم هذا الإسلام الذي وضع العلم هذا الموضع، وفتح العقول ونبه إلى أسرار الكائنات ودعا إلى اكتشاف نواميسها، وأدركت أي دين عظيم هذا الإسلام الذي جعل المؤمنين به بعد انسياحهم في آفاق الأرض يبشرون برسالته، هم أعظم أمة تحمل لواء العلم في العصر الوسيط، حتى كانت مساجدها مدارس، ومدارسها جامعات يفد إليها طلاب المعرفة والثقافة من شتى أنحاء العالم. وكان المسجد عندنا إما مدرسة أو بجانبه مدرسة يأوي إليها طلاب العلم.

ولقد بلغ من انتشار العلم والثقافة في ازدهار حضارتنا أن كانت قرطبة من أكبر مدن الدنيا يومئذٍ تضم ما يزيد على مليوني نسمة ليس فيها أمي واحد باعتراف مؤرخي الغرب وكتابهم المنصفين.

أما الأساس الثالث من أسس النهضة والحضارات وهو الأخلاق القوية المستقيمة التي تدأب وتكافح وتصبر على عناء النهضة، وتقدم التضحيات في سبيلها، فليرجع من أراد ذلك إلى مراجعته من كتب الدين والأخلاق في الإسلام.

وحسبك أن تعلم أن الذين قاموا بالفتوحات في صدر الإسلام كانوا يأخذون معهم نساءهم وأطفالهم يشاركون معهم في الجهاد في سبيل الله، ولقد خاضوا أقسى المعارك وأشدها ضراوة مع دولتي العالم الكبيرتين يومئذٍ فانتصروا عليهما مع الفارق الكبير بينهما في العدد والعُدَد، وما كان لهذا الانتصار من سبب إلا العقيدة والأخلاق، فلما استقر

بهم الملك وقامت لهم الحضارة رأينا من أخلاقهم ما يكاد يكون من الأساطير لولا صحة الأخبار التي جاءت بها، من صدق الحديث، وأداء الأمانة، وتكافل المجتمع في السراء والضراء، وقيام المؤسسات الاجتماعية التي نسميها بالأوقاف، حتى كان منها ما لم يخطر في بال أهل الحضارة اليوم».

وبعد أن يخلص إلى هذه النتيجة الظافرة من الحوار يهيب بأبناء الإسلام أن يعوا فضل دينهم وسبقه في ميادين النهضة والحضارة، وألا يصغوا إلى الترهات:

«إذا كان الدين في أوربا قد حاول إيقاف النهضة وحارب العلم والعلماء؛ فإن الإسلام على عكس ذلك كله، هو الذي أقام الحضارة. وكان علماءه الواعون الصادقون هم دعائمها وأركانها. لا تستمعوا يا شباب الإسلام ويا فتياته إلى ما يقال لكم عن تأخير الدين للنهضة فذلك شأن دينهم لا دينكم، ومن نادى ذلك من مثقفي أمتنا فهم مقلدون، إما حمقى وإما عملاء.

إن في دينكم القوة.. إن في دينكم التقدم.. إن في دينكم الحياة.. والذين يصدونكم عنه لا يريدون قوتكم ولا تقدمكم ولا حياتكم. فاحذروا هذه المكيدة الخطيرة إن أردتم لأمتكم القوة ولبلادكم السيادة ولشعبكم السعادة»^(٢٠).

(ج) في عقيدة القضاء والقدر:

ومن افتراءات الاستعمار في حملته على المسلمين: أنهم بإيمانهم بالقضاء والقدر يتفقهرون إلى الكسل والتواكل بما يورثهم التخلف.

ويرد السباعي على فريتهم التي وقع فيها بعض المسلمين: أن عقيدة القضاء والقدر في الإسلام عقيدة إيجابية، وهي سر انتصارات المسلمين في معارك حروبهم وميادين بنائهم، إذ تمنحهم قوة دافعة لا يمنحها دين آخر أو نظام، ويدلل على ذلك بالبطولات التي ابتعثتها هذه العقيدة في فتوحات المسلمين، وأن من يفترى على عقيدة القضاء والقدر أجهل الجاهلين.. ونجتزئ من حوارهِ العلمي الضافي ما يبرزه من ثمرات عقيدة المسلمين في القضاء والقدر:

«إن ما نقرؤه في تاريخ الصحابة، صحابة رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان من آيات البطولات، ومعجزات الشجاعة، حتى كانوا ينتصرون مع قلة عددهم وعدتهم على أضعاف أضعافهم عدداً وأمضى منهم سلاحاً، ليس لذلك سبب إلا عقيدة الإيمان بأن الموت حق لا بد منه وأن لكل إنسان أجلاً معيناً، فإن جاءه أجله وهو في المعركة مات شهيداً وإلا فلن تضره سيوف الأعداء وسهائمهم..»

وبذلك ربّى الإسلام أجيالاً تباهاي الدنيا ببطولاتهم وجرائهم، جهرأً بالحق وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر، ودأباً على العلم، وسعيأً وراءه مما لا تجدون عُشر معشارهم في أمة من أمم الأرض. فمن أجهلُ ممن يزعم أن عقيدة المسلمين بالقضاء والقدر سر تأخرهم وكسلهم وانحطاطهم؟!».

(د) في معنى الجهاد:

الجهاد أساس عزة المسلمين ومنعتهم، فيه ذكرى فتوحاتهم وبلاغ دعوتهم وانتشارها في العالمين. هو عاصم لهم من الذلة والاستعباد، ووقود نضالهم ضد كل مغتصب.. وهو القوة المستعصية على القهر.

وهذا سر ارتعاد الصهيونية والاستعمار من إعلان الجهاد في العالم الإسلامي، ولقد ذاقوا آثاره اللاذعة في الحروب الصليبية قديماً وفي حركات المقاومة حديثاً في ديار الإسلام، ففتشوا عن طريق لاتقاء خطره، فوجدوا أخصر طريق لذلك أن يطفئوا روح الجهاد في نفوس المسلمين بتشويه مفهوم الجهاد وتصويره بمعنى القهر والعدوان وحديثاً الإرهاب! وجندوا طائفة من المستشرقين الضالعين معهم ليتخذوا من تشويه الجهاد منهجاً يفرضونه على طلبتهم...

يكشف السباعي فيما يأتي للعيان صوراً غفل عنها الكثيرون من افتراءات الاستعمار على فريضة الجهاد ومشاركة المستشرقين لهم في هذا التشويه بقوله:

«وكان مما يزعج الاستعمار ويؤرق جفونه: أحكام الجهاد في الإسلام، وهي التي توجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من نفس ومال وجهد لطرده الاستعمار من بلاده، حتى لا تعلو رأسه راية تذكر بالذل، ولا يملأ أرضه جنود يمثلون الغصب والنهب، وحكام يفسدون الأخلاق ويعملون على إخراج المسلمين من دينهم.

ولقد ذاق الاستعمار - وبخاصة في الهند قبل تقسيمها - من ثورات المسلمين ورأى من بطولاتهم وتضحيات علمائهم ما جعله حانقاً على فكرة الجهاد في الإسلام، فصوّر مستشرقوه الجهاد على أنه إيجاب بحد السيف للناس على الدخول في الإسلام، ودفع غلام أحمد القادياني المرتد على المناداة بنسخ الجهاد في شريعة الإسلام.

حدثني أخ كان بمصر يهَيِّئ رسالة الدكتوراه في الحقوق من جامعة القاهرة، وقد اختار موضوعاً لرسالته مشروعية الحرب ومعنى الجهاد في الإسلام، بأنه قد التقى في القاهرة أثناء ذلك بالبروفسور «أندرسون» المستشرق البريطاني المعروف ورئيس قسم تشريعات الأحوال الشخصية المعمول بها في الشرق الإسلامي حديثاً، والتابع لمعهد الدراسات الشرقية في جامعة لندن، وجرى الحديث بينهما عن موضوع الرسالة، فكان مما أشار به «أندرسون» على الأخ أن يؤكد في رسالته أن الجهاد يتناقض الآن مع ميثاق هيئة الأمم وشرعة حقوق الإنسان، ولذلك لم يعد الجهاد مما يتفق مع روح هذا العصر»!...

ولعلنا نلاحظ في هذه الأيام صدق نظرة السباعي في تشويه الاستعمار معنى الجهاد، وترويج هذا التشويه في وسائل الإعلام؛ لأن الجهاد كما يقول السباعي:

«يقدم إلى معارك الحرية مواكب الشهداء التي لا تنتهي إلا بزوال سلطانه زوالاً نهائياً، وعند فرنسا وشعب الجزائر الخبر اليقين»^(٢١)...

(هـ) في قضية المرأة:

ولقد آذى الاستعمار وأتباعه أن يروا المرأة المسلمة مهذبة مصونة تؤدي دورها الفطري في المجتمع، وتحفظ توازن الأسرة، فكانت مكائده وأعوانه لإخراجها من صونها وتوازنها إلى عروض الشوارع، والاشتغال بالزينة والمتع بغية إفسادها وإفساد الأجيال، ولفك تلاحم الأسرة وتوازنها باسم تحرير المرأة.

ولقد هال السباعي والغيورين على المرأة المسلمة ذاك السيل من الافتراءات على مكانة المرأة في الإسلام، فكان لسانه وقلمه بالمرصاد لهذه المكائد، مفنداً ادعاءات الاستعمار وأعوانه، موضحاً كيف حرر الإسلام المرأة وبوأها مكانتها الإنسانية . .

ويشرع في استعراضه بتصوير تردّي مكانة المرأة الإنساني لدى اليهودية قبل أن ينتشلها الإسلام من ذاك السفح إلى القمة فيقول:

«واني سأحاول أن أوجز لك ما جاء به الإسلام من إصلاح لقضية المرأة يوم كانت المرأة متاعاً حقيراً في نظر الشعوب عند بعثة الرسول ﷺ . .

لقد كانت اليهودية تعتبرها سبب شقاء آدم وطرده من الجنة، وبسببها حلت اللعنة عليها وعلى بنات جنسها إلى يوم الدين . وأخذ رجال المسيحية الأوائل في القرن الأول الميلادي ممن كانوا وثنيين أو يهوداً قبل أن ينتصروا هذه النظرة اليهودية عن المرأة فأدخلوها في النصرانية . وتدل أقوال قديسيهم في تلك الفترة عن المرأة ولعنهم لها، وأنها باب الشر والإثم على حقيقة نظرة النصرانية في عصورها الأولى إلى المرأة ومكانتها . . . ولم يكن للمرأة حق الميراث في الشريعة اليهودية إلا إذا لم يكن لها أخ ذكر»^(٢٢) .

ثم يعقّب على ذلك :

«ولم يكن الغربيون المسيحيون في القرون الوسطى أحسن من هؤلاء جميعاً، فقد عقدوا في القرن السادس مؤتمراً كبيراً في إحدى مدن فرنسا للنظر في المرأة ما هي؟ حيوان ذات روح أم لا؟ أمهي شيطان أم إنسان شرير؟ وأخيراً انتهوا إلى أنها حيوان ذات روح وخلقت لخدمة الرجل فقط» .

ثم يصوّر التحول الخلاق بالإسلام الذي ارتقى بالمرأة من هذه المهانة وإنكار الآدمية إلى مرتقى الكرامة الإنسانية والاجتماعية . .

«ومن عجائب القدر ومفاخر تاريخنا أنه بينما كان الفرنسيون يشكّون في إنسانية المرأة ويعقدون المؤتمرات لذلك، ارتفع صوت الصحراء في جزيرة العرب في مكان ناءٍ عن الحضارة ومعاهدها وفلسفاتها، من إنسان أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا دخل مدرسة ولا جلس بين يدي أستاذ، إنه صوت محمد رسول الله ﷺ يعلن من مكة أم القرى أن النساء شقائق الرجال، ويتلو قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ ويعلن من يثرب شقيقة مكة وجارتها قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَعَلَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾» (٢٣).

وفي نظرة مقارنة يوازن السباعي بين ما حصلت عليه المرأة في الإسلام من حقوق مادية واجتماعية قبل أربعة عشر قرناً وبين المرأة الأوروبية التي ما تزال تعاني ضياع حقوقها ومكانتها . .

«إن الإسلام قبل أربعة عشر قرناً قرر أهليتها المالية الكاملة، فهي في حق التملك والتصرف في أموالها كالرجل سواء بسواء متى كانت بالغة سن الرشد، وهذا الحق الذي قرره الإسلام للمرأة منذ أربعة عشر قرناً كانت أرقى شعوب الأرض تنكره عليها: فكان القانون الروماني يجعل أسباب الحجر على الإنسان في تصرفاته وخضوعه والوصاية عليه ثلاثة: الصّغر والجنون والأنوثة. واستمر ذلك حتى قانون نابليون في الثورة الفرنسية، فقد نص فيه على أن الذين لا تصح تصرفاتهم ثلاثة: الصبي والمجنون

والمرأة. وكانت المرأة المتزوجة لا تملك حق التصرف بأموالها الخاصة إلا بإذن زوجها وموافقته، واستمر هذا النص قائماً حتى عدل في عام ١٩٣٩ حيث أعطيت المتزوجة قدراً من حرية التصرف بأموالها دون الحاجة إلى موافقة زوجها.

ولا يزال الأمر كذلك في القانون الفرنسي وهو الذي يعتبر أب القوانين الأوروبية كلها.

فانظروا كيف سبق الإسلام العالم كله إلى تقرير الأهلية المالية (للمرأة) ومساواتها بالرجل بأربعة عشر قرناً، ولم يزل العالم مقصراً دون الإسلام في تقرير هذه الأهلية الكاملة.

ثم يحذر النساء المسلمات المثقفات من الانسياق وراء بهرج الدعوات الكاذبة التي تطلقها أبواق الغزو الفكري الأوروبي وما تدعيه - زوراً - من تحرير المرأة العربية المسلمة لتكون كالمرأة الأوروبية وما يزعم من تحررها..

فيجيب على ذلك من واقع تجربته ومعاينته في جولاته المتعددة في أوربا؛ حيث اطلع على واقع المرأة الأوربية هناك فيقول:

«لقد زرت أوربا نحواً من خمس مرات وطففت في أكثر بلدانها، وزرت دولها؛ فوالله ما رأيت أشقى من المرأة في حياتها، لئن كان في أوروبا عشرات من النوابات في المجالس النيابية، لا يقدمن ولا يؤخرن شيئاً في السياسة العامة، فإن فيها عشرات الملايين يكنسن الشوارع وينظفن المراحض العامة، ويمسحن الأحذية، ويخدمن في المقاهي والمطاعم.

ولقد رأيت بنفسي حين زرت مع وفد جامعة دمشق تلك البلاد تلبية من جامعاتها، رأيت كيف يشتغل النساء - دون الرجال - بتنظيف الشوارع وغسلها بعد منتصف الليل، وكيف تجلس العجائز حارسات حتى الصباح على أبواب العمارات الكبيرة التي تسكنها العائلات، ورأيت في شوارع باريس العجائز يبعن الصحف في الليل، رأيت في سويسرا كيف يخدم الرجال في المراحيض العامة ليأكلن لقمتهن وقد يكون أولادهن من أحسن الناس حالاً!

إن البنت في أوربا متى بلغت سن الثامنة عشرة كان عليها أن تعمل نفسها، وعليها أن تفتش عن العمل في أي مكان دون أن يهتم لذلك أبواها، وتظل تشقى وتكابد وتعاشر هذا وذاك من زملائها في العمل حتى تجد من يقتنع بزواجه منها، ثم إذا صارت أما عجوزاً، لا يكلف ابنها بأي شيء نحوها»^(٢٤).

ويوجّه بعد ذلك نداءً حاراً إلى شباب الأمة وفتياتها للصمود في وجه الغزو الفكري والتشويهات الاستعمارية بشخصية أصيلة عزيزة ليكونوا جديرين بمكان أمتهم الريادي ورسالتها إلى العالمين ..

«يا شباب الإسلام، يا فتيات الإسلام: نحن نريد لكم بالدعوة إلى الإسلام أن تصنعوا تاريخنا من جديد، أن تصنعوا أمجادنا من جديد، أن يكون لنا أبطال جدد وبطلات جديديات نفاخر بهم ونهز الدنيا. ولكن أعداء الإسلام وأذئابهم يريدون لكم أن تكونوا نسخة مشوهة من أولئك الغربيين الأشقياء، نسخة تضيع معالمها، وتضيع شخصيتها.

فأيّ الدعوتين أكرم لكم؟ وأي الطريقين يؤدي إلى قوة أمتكم واحترام العالم لها؟؟

إننا ندعوكم لأن تعتزوا بهذا الإسلام، وبتاريخه العظيم
وبحضارته الخالدة. وبذلك وحده تفرضون احترامكم على
أعداء الإسلام وأعداء أمتكم..

واذكروا دائماً قول عمر رضي الله عنه: «نحن قوم أعزنا الله
بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله»^(٢٥).

هذه جملة من التشويهات التي أراد الاستعمار الأوربي أن يدلّس بها
على المسلمين، مستخدماً في ذلك أدلة واهنة لا تثبت على التحقيق
العلمي، نهض السباعي بدحضها.. هي نموذج من برنامج الفكري
في الذود عن الإسلام ورد شبهات أعدائه، بما يورث إعادة الاعتبار
لجماهير المسلمين ويؤصل فيهم الاعتزاز بثوابتهم الإسلامية، وحقائقها
الشامخة.

(٢) وثاني أخطار الاستعمار - التي يكشف عنها السباعي، بعد
تشويهه حقائق الإسلام - : توهين العالم الإسلامي المعاصر:

وذلك بالعمل على تفكيك عرا الوحدة بين أقطاره بكافة السبل..
من ذلك ما يعرض له السباعي فيما يأتي من بعث القوميات الجاهلية
السابقة على الإسلام ليسهل عليه هضم الأقطار الإسلامية والهيمنة عليها.
يقول:

«وثاني ما يهدف إليه الاستعمار اليوم بمستشرقيه ومبشريه
وكتابه تفكيك عرى الوحدة التي أقامها الله بين المسلمين
وجعل الحج من أبرز مظاهرها؛ فلقد كانت هذه الوحدة فيما
مضى أكبر عامل من عوامل اندحارهم في الحروب الصليبية
وفي كل مؤامراتهم على الدولة الإسلامية خلال مائتي عام.

فحرّضوا الأتراك في أوائل القرن الحاضر على المناداة بالقومية الطورانية ليضعفوا شأن الخلافة ويسهل لهم القضاء عليها. كما بثّوا في الفارسيين القومية الفارسية، وفي المصريين القومية الفرعونية، وفي السوريين القومية الفينيقية أو السورية..

والمستعمرون يريدون أن ينشئوا شيئاً اسمه القومية الإفريقية ليقطعوا كل صلة بين مسلمي إفريقيا وبين مسلمي العالم، وليسهل عليهم بعد ذلك إدخالهم في النصرانية»^(٢٦).

(٣) وثالث أخطار الاستعمار - التي يكشف عنها السباعي في التآمر على العالم الإسلامي -: إشاعة الانحلال الخلقي :

«إشاعة ذلك في الشباب والفتيات عندنا باسم التقدم والمدنية ليصرفوا جيلنا المعاصر عن مهامه في البناء وشيادة الحضارة..!

«ومما يهدف إليه المستعمرون إشاعة الانحلال الأخلاقي في الشباب والفتيات عندنا : فهم يزينون لهم الخروج على آداب الإسلام وأخلاقه بحجة أنها رجعية وتخلف، ويزينون لهم الانصراف إلى العبث واللهو والانحلال وفقدان المثل الأعلى، وضياح الشخصية بحجة أن ذلك كله تقدم وتمدن وأنه علامة الرقي والحضارة، هذا مع أنهم في بلادهم يشكون من انحدار الأخلاق ويرون ذلك نذير انقراض في حضارتهم ومدنيتهم، إنهم يفعلون ذلك فيشجعون الأدب الإباحي والكتاب أو الشعراء الإباحيين.. كل ذلك ليصرفوا جيلنا الناشئ عن بناء المجد، وعن العيش مع أمته وبلاده في أحزانها وأفراحها»^(٢٧).

هذه قطوف مما عرض له السباعي في دفع الهجمات والأخطار الاستعمارية التي تتهدد عقيدة المسلمين وحياتهم حذر منها في منهجه في الذود عن الإسلام..

فقد عرض من ألوان تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام: تشكيكه بالسُّنة المطهرة، وتشويهه مهمة الدين في المجتمع، ومغالطته في عقيدة القضاء والقدر، وتشويهه معنى الجهاد، وعمله على إفساد المرأة.

ثم عرض لنا بعد ذلك من أهداف الاستعمار تمزيق وحدة المسلمين، وإشاعة الانحلال الخلقي في أبناء جيلنا وبناته، وذلك حسب ما خطط له في القضاء على الإسلام من داخل المسلمين.

ثم ينتقل السباعي من عرضه للهجمات الاستعمارية على بلدان الإسلام ليتتبع نتائج هذه الهجمات التي خلفها المستعمر في جسم المسلمين بعد رحيله، وأبرزها معضلة النفر الجاهلين بالإسلام الذين تولى المستعمر تنشئتهم الثقافية. وكثيراً ما يتولون الحكم في البلاد فيُقصون الدين عن الحياة باسم التقدمية والتمدن لحاقاً بأوربا، لذا كان من برنامج السباعي في ذوده عن الإسلام - على الجانب السلبي - معالجة هذا الخطر الداهم وهو علمنة الحكام..

٢ - مقارعة علمنة الحكام

لعل ظاهرة علمنة الحكام غير بعيدة عن الثمار الكثيرة التي حصدها الغزو الفكري الأوروبي في بلادنا، وكانت من الانتشار في العالم العربي والإسلامي بحيث تشكل خطراً على عقيدة الشعب، ومنهجه في الحياة.

وكان السباعي - في برنامجه الإسلامي - يعالج هذه الظاهرة في جل كتبه، ويأسى لحجب الحكام العلمانيين محاسن الإسلام وعدالته عن أبناء

الشعب، وكانت خطبه وكلماته في كثير من المناسبات تندد بانحراف
الحكام العلمانيين عن جادة الإسلام، وتصور نفور شعوب العالم
الإسلامي من هذا الاتجاه الخطير، موضعاً في كل مناسبة أصالة نظام
الحكم الإسلامي في هذه الكلمات:

«وإن الانحراف المتعمد من بعض حكام المسلمين عن
الإسلام وأنظمتهم وتعاليمه وأخلاقه... إن هذا الانحراف
المتعمد المقصود هو بادرة خطيرة في تاريخ الإسلام
لم تحدث مثلها في عصور الانحطاط والتخلف، فما علتها؟
وما الباعث عليها؟ وما الهدف الذي نتوخاه ونسعى إليه؟

نريد أن نقصي قبل كل شيء احتمال أن يكون هذا هو اتجاه
العالم الإسلامي بمحض اختياره وإرادته كما يحاول بعض
المستشرقين أن يصوروا ذلك، بل هو اتجاه شخصي لهؤلاء
الحاكمين، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى. والأدلة تتزايد
عندنا يوماً بعد يوم على نفرة العالم الإسلامي من هذا
الاتجاه، وسخطه له، وتآلمه من الذين يحملون أوزاره
وأخطاره».

ويرجع أسباب هذا الانحراف إلى جهل هؤلاء الحكام المنحرفين
بالإسلام، أو وقوفه ضد أهوائهم الشخصية، أو الافتتان بما عند
الأوروبيين...

ولكن أصالة الشعوب الإسلامية تظل عصية على هذا الانحراف،
ويضرب مثلاً لذلك تجربة (أتاتورك) المخففة...!

«إن العلة الأولى كما تبدو لنا في هذا الانحراف هو جهل
هؤلاء المنحرفين بالإسلام جهلاً فاضحاً ناشئاً من دراساتهم

وثقافاتهم وبيئاتهم التي عاشوا فيها، وإصغائهم إلى كل ما يقوله أعداء الإسلام عنه من المستشرقين والاستعماريين . . ولو أتيح لهؤلاء أن يفهموا الإسلام في جوِّ خالٍ من التشويش والخلط بين الحقائق والأوهام، لما قُدر لهم هذا الانحراف، ولا حُبَّ إلى نفوسهم التعلق بشيء منه .

ومن علله الكبرى وقوف الإسلام في وجه أهوائهم ومطامعهم الشخصية وسلوكهم الشخصي . والهوى إذا ران على القلب أعمى وأصم وأصبح في نفس صاحبه إلهاً يعبد ويطاع من دون الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَغَلَّقَ عَلَى بَصَرِهِ عِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

إن من أهم الأهداف لخروجهم على الإسلام وتنكرهم له هو - عند من يجمعون بين الجهل بالإسلام وحسن النية في تقدم أمتهم - رغبتهم في اللحاق بركب الحضارة المتقدم كما يظنون، وقد سبقهم إلى ذلك كمال أتاتورك - برغم سوء نيته -، وحاول أقصى جهده أن يسلخ قومه عن الإسلام، وأن يلبسهم جلدأً أوروبياً وقبعة أوروبية فوق رؤوسهم المسلمة ونفوسهم الشرقية، فماذا كانت نتيجة هذا الانحراف الخطير؟

لقد بقي الشعب التركي أمدأً طويلاً تائهاً بين أعماق نفسه وبين الحياة التي تفرض عليه، فلم يصبح غربياً كما أراد الطورانيون، ولا شرقياً مسلماً كما يبدو الشرقيون المسلمون، حتى تغلبت النزعة الأصبلة في نفوسهم - نزعة ماث السنين التي عاشوها في ظل الإسلام -، فإذا هم

يؤيدون كل من يدعوهم للعودة إلى دينهم، ويدعمونه في الحياة السياسية ولو كان متظاهراً بذلك كمندريس.

وبرغم أن الاستعمار أعدم مندريس وأعوانه وحل حزبه، فإنه قد بُعث إلى الحياة من جديد في ثوب «حزب العدالة» الذي يتبنى عودة الشعب التركي إلى الحياة الإسلامية، وإذا بالشعب التركي المسلم يدعمه ويؤيده بحيث يسهم في الحياة السياسية التركية إسهاماً بارزاً ويعارض في حرمان الشعب التركي المسلم من كل مكاسبه الدينية في عهد مندريس، ولا يجد بقايا الطورانيين مجالاً للعودة إلى سياسة أتاتورك الدنيئة وانحرافه المشؤوم».

ثم يؤكد بكل حزم مقولته إلى الحكام بأن كل من سؤلت له نفسه - عبر التاريخ - أن يقصي الإسلام عن حياة شعبنا كان نصيبه الهزيمة والخسارة. وأن تاريخنا ما فتى يحمل الخلود والمجد لكل قائد انتزع النصر باسم الإسلام..

«ألا ليت الذين ينحرفون بنا عن الإسلام اليوم من حكام العرب والعجم يرجعون إلى هذا الدرس الذي لا تزال عبره قائمة، ويفهمون أن سلخ الشعوب عن دينها أمر مستحيل، وبخاصة إذا كان هذا الدين الذي يراد إقصاؤها عنه هو الإسلام، وأن كل تجربة من هذا القبيل لا بد من أن تفشل مهما طال الزمن، وأن من الخير لشعوبهم أن يوفروا عليها هذا الزمن الذي تتيه فيه بين حقيقتها وبين الأوهام التي تفرض عليها، وأن من الخير لمن كان حسن النية مخلصاً في تقدم المسلمين أن يوفر هذا الزمن ليبنى مجده ومجد أمته على أساس حقيقي ثابت، أصله في الأرض وفرعه في السماء..»

إن للإسلام من قوته الذاتية ما يستعصي على الهزيمة أو الفناء، وإن لمن يبني مجده على أساس الإسلام يبني مجداً لا يطويه الزمان، ولا يذهب بذهاب أصحابه، ولا يتكسر بانتكاس ألويتهم وذهاب سلطانهم.

إن مجد صلاح الدين أخلد وأبقى وأزكى من مجد أتاتورك، فقد كاد يمحي مجد هذا ولما تمض عليه أربعون سنة، وبقي مجد ذاك وقد مضى عليه مئات السنين وسيبقى ما بقي إنسان على ظهر الأرض يعشق الحق ويسخر من الباطل ويمجد الأبطال الحقيقيين^(٢٨).

القسم الثاني: الجانب الإيجابي من الذود عن الإسلام

يصعب حصر منهج السباعي الإيجابي في الذود عن الإسلام، إذ يكاد يشمل كل كلمة قالها في خطبة أو مقالة أو رسالة أو كتاب عرض فيها لحقائق الإسلام التي نذر لها سحابة عمره.

وما نورده فيما يأتي إنما هو طرف من ذوده الدائب عن الإسلام أو نموذج له:

١ - تقديم الإسلام منهج إصلاح وتقديم

يرى السباعي بعد اطلاع وممارسة وتجارب أن الإسلام - بمصدره الرباني - هو منهج الإصلاح والحياة السعيدة للبشرية، ذو جدارة واقتدار على حل معضلات الحياة الإنسانية، وإرساء قواعدها السليمة.

ثم يشرح منهج الإسلام وأهدافه في سعادة البشر، ويحاول المعترضين، وينتهي إلى أن غياب الدين عن شرقنا العربي هو سبب تأخرنا الحضاري.

(١) الدعوة الإسلامية منهج رائد لإصلاح الأمة :

يستهل السباعي طرحه بتشخيص ما يمر به الشرق العربي الحديث من فوضى فكرية متعثراً في خطواته لا يدري أي طريق يسلك - وهذا ما تعانيه الأمم في بدء نهضتها - ثم يستعرض بعض الاتجاهات الفكرية التي تتوزع الشباب في الأمة وهي على مفرق الطرق، فيجدها تتجاهل الدين والقوى الكامنة في ضمير الأمة من عقيدة وتراث وماضي مشرق جميل، فيطرح المنهج الإسلامي سبيلاً للنهضة والتقدم بقوله:

«في وسط هذه المذاهب الفكرية يرتفع صوت قوي من أعماق نفوس مؤمنة، يدعو إلى اتخاذ الإسلام أساساً لنهضتنا وحركتنا التجديدية، والاستفادة من العناصر القوية التي يفيض بها مجتمعنا الحاضر، والتثبيت في كل ما نأخذ عن أمم الحضارة فلا نقبس منها إلا ما ثبت صلاحه واستقام أمره.

هذا الصوت القوي الذي بدأ خافتاً ضئيلاً وما زال يقوى وينتشر حتى أصبح بعيد المدى، قوي الأثر، هو صوت الشباب المسلم الحديث، ممن تضمهم رابطة شباب محمد ﷺ.

ومما يدعو إلى الاهتمام بهذه الحركة أن القائمين بها شباب نهلوا من معين الثقافتين الإسلامية والأوروبية، ودرسوا الحضارتين العربية والغربية، ومن ثم كان حتماً لزاماً أن تنال هذه الدعوة الجديدة حظاً كبيراً من التوسع والانتشار».

ثم يورد سنانين قوين، لا يتطرق إليهما الشك، على جدارة المنهج الإسلامي - دون غيره - لإصلاح هذه الأمة :

«الأول: إن الإسلام أحدثَ فيما مضى أكبر انقلاب عرفه التاريخ سواء في محيط العرب الذين نزل عليهم الإسلام أم في محيط غيرهم من الأمم التي دانت به أو خضعت لسلطانه..»

الثاني: إن الجماعات لا يمكن أن تعيش بغير دين كما قرره علماء الاجتماع.

وقد قال رينان في كتابه «تاريخ الأديان»: من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه وكل شيء نعهده من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية؛ ولكن من المستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى.. وما دام الأمر كذلك فليكن هذا الدين هو الإسلام، لأنه أساس حضارتنا ومجدنا ولأن فيه من الخصائص ما يجعله عظيم الأثر في رفع مستوى الأفراد والجماعات، وصيانة كيان الأمة من التحلل والسقوط والفساد.

ويتَّوَجَّ السباعي طرحه بجلاء دور الإسلام العالمي في القرن السابع الميلادي، حيث جاء من لدن الله، تلبية لحاجة البشرية إلى الإنقاذ والإصلاح، وكيف قلب أوضاع العرب في فترة وجيزة من جاهلية منعزلة إلى أكبر حضارة عرفها التاريخ.. يقول:

«من الثابت تاريخياً أن العالم في بدء الدعوة الإسلامية كان مملوءاً بالفتن، مستعراً بالحروب التي خضبت وجه الأرض بدماء الأبرياء، وكان الملوك والرؤساء ورجال الأديان يتحكمون في عقول الناس وأبدانهم وأموالهم، وكانت الشرور الخلقية عامة طامة، مما هوى بالإنسانية إلى درك سحيق جعل الحيوانات خيراً منها وأسلم عاقبة. أما العرب

فقد كان فيهم ما في غيرهم من تفكك وجهالة ووثنية، مع ما كانوا يتحلون به من صفات فردية ممتازة كالشهادة والشجاعة والكرم وصفاء الذهن وجِدَّتِه وحب الحرية والاستماتة في سبيلها.

في هذا العالم المضطرب انبعث صوت الإسلام من صحراء الجزيرة، وكان صوتاً قوياً مجلجلاً لم يلبث في عقدين من السنين أن أحال الجماعة العربية المتأخرة إلى جماعة راقية تحيا حياة جديدة في تفكيرها ومثلها العليا.

ثم لم ترض لنفسها أن تظل كما كانت من قبل منزوية عن العالم بل اندفعت من جزيرتها لتحقيق هدف الإسلام في إحداث ثورة عالمية جارفة تتغير معها خرائط وتتبدل بها عقائد وتزول بها دول وحضارات وتقوم على أنقاضها مدنية لم يعرف التاريخ أسمى منها مبادئ ولا أجزل منها خيراً. فالثورة التي أحدثها الإسلام في أمد وجيز جداً ثورة لا نظير لها في تاريخ الحركات العالمية الكبرى»^(٢٩).

(٢) أهداف الإسلام كفيلة بإسعاد الشعوب :

وبعد عرضه للنهضة الحضارية التي حققها الإسلام في عصور الازدهار، يطالعنا - في ذوده - بالنهج الإسلامي للحياة، وما تحقَّقه أهدافه وترمي إليه من سعادة للبشر، فيقول :

«إن أهداف الإسلام واضحة شاملة كفيلة بالسعادة لجميع شعوب الأرض إذا اتبعتْ هديه، وفهمته على وجهه الصحيح، وطبقته بالطريقة التي كان يطبق بها رسول الله ﷺ ما أوصى الله إليه من هديه وإرشاده»^(٣٠).

(١) الكرامة الإنسانية :

ويرى السباعي - على هدي المنهج الإسلامي - أن الكرامة الإنسانية لا تتحقق دون التحرر من العبوديات الأرضية والجور البشري، وطريق ذلك العبودية لله وحده :

«هو وحده الذي يُخشى عقابه ويُرجى ثوابه، فلا ظالم إلا ويد الله فوق يده، ولا طاغية إلا وقوة الله فوق قوته، فعلى الناس أن يكونوا مع الله عبيداً ومع من سواه أحراراً كراماً شرفاء أَعْزاء، إن خضعت جباههم له بالسجود ارتفعت نفوسهم لغيره بالإباء، وإن اتضعوا معه بالعبودية فهم مع غيره أحرار. يتصرفون تصرف الشرفاء الأَعْزاء، يعطون بتعاون وبأخذون بكرامة، ويخضعون لنظام وينقادون لحق» (٣١).

(٢) تربية ضمير الإنسان :

كما يرى السباعي أن مبعث الشكوى في حياتنا ليس النقص في العلم، أو في الذكاء، أو الأخذ من الحضارة الغربية فكل ذلك موجود، وإنما هو في :

«ضعف «الضمير» الأخلاقي عند جمهرة العاملين في حقول النهضة وميادينها المتعددة، ثم امتداد هذا الضعف إلى جماهير الشعب، ولا شك في أن استمرار ضعف الضمير يؤدي إلى موته، وموت ضمير الأمة الأخلاقي انهيار محقق لا ريب فيه.

ولا علاج لهذه المشكلة - بعد أن أثبتت التجربة فشل الوسائل الأخرى - إلا العودة إلى الدين لتربية ضمائر الناس،

وحملهم على الاستقامة في سلوكهم الأخلاقي والاجتماعي والوطني، ذلك أن الدين عند المؤمن يجعل العلاقة بينه وبين الله مباشرة، فهو يراقبه في حركاته وسكناته، ويعلم دخائل نفسه وحقيقة نيته: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

ومن ثم فهو يخشى عقابه إن أساء، ويرجو ثوابه إن أحسن، ويبادر إلى التوبة إن انحرف فأَي منبه لضميره أقوى من هذا؟ وأية راحة تعدل راحة ضميره إذا قام بواجبه؟ وأي تأنيب لضميره أشد من أن يراه الله مخالفاً لأمره مرتكباً لزوجره؟ وأية مكافأة تدفعه إلى الاستقامة وإحسان العمل أكبر من مكافأة الله له بالرضا والخلود في جنات لا يمسه فيها نصب ولا لغوب؟

وفي تاريخ الديانات عامة، وتاريخ الإسلام خاصة، أمثلة رائعة لما فعله الدين في نفوس معتنقيه الأوائل، حتى أتوا بأنواع من البطولة والفداء والتضحية ونكران الذات وبقظة الضمير ما يكاد يشبه المعجزات، وكلنا ما يزال يترنم بمآثر هذه الأجيال التي رباها الدين الصحيح تربية ممتازة على قلة الثقافة والمعرفة إذا قيس بمقاييس العصر الحاضر»^(٣٢).

(٣) التكافل الاجتماعي:

ويرى السباعي أن لكل مسلم الحق في الحياة الإنسانية الكريمة على الدولة والمجتمع أن يقدماه له، بوصف ذلك واجباً لا منة، وهكذا تتوفر لكل فرد في المجتمع الإسلامي شروط العدالة والكرامة..

(٤) الدولة المسلمة حاضنة للخير:

«بأرجز بيان: مهمة الدولة الإسلامية أن تنشر السمو الروحي بالطاعة والعبادة، وتحقق التكافل الاجتماعي باليسر والحب، وتعمّر البلاد بمشروعات التقدم، وتصون البلاد من فتن الأشرار ودسائس المفسدين».

(٥) الأخوة والسلام:

ويختتم عرضه لما يقدمه النهج الإسلامي من أهداف تسعى لسعادة البشرية بنشر الإسلام رايات السلام في العالم عن طريق الأخوة..
«فالمؤمنون إخوة يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، يجتمعون على قلب واحد من مختلف بقاع الأرض، ويتحابون حباً يمحو فيما بينهم من فوارق العروق والألوان والأجناس والثروات والكثرة والقلّة، وأبرز ما يتجلى هذا الإخاء العظيم الأثر في نشر السلام بين الأمم والشعوب، إنما هو في مؤتمر الحج العظيم»^(٣٣).

(٣) الحوار مع المعارضين:

إن منهج السباعي في ذوده الإيجابي عن الإسلام لا يكفي بالعرض، وإنما ينهد إلى مواقع المعارضين على المنهج الإسلامي، فيحاوّرهم في هدوء وموضوعية، مستهلاً بعرض حيثيات الاعتراض، ويصنفها كما يأتي:

«١ - قال قائلون: إن العقلية الحديثة لم تعد تستسيغ الدين، ولم تعد تراه مؤثلاً مع رقي الإنسانية وتقدمها، فالدعوة إلى الإسلام الآن دليل على تفكير ساذج قديم، ورجوع بالأمّة إلى حياة القرون الوسطى».

٢ - وقال آخرون: إن أوروبا قد غزتنا في عقر دورنا واستولت على مختلف ميادين النشاط في مجتمعنا، فلا بد من أن نجاريها في مضمار الحضارة لنتزع منها السيطرة والنفوذ، ولا بد أن نسلك السبل التي سلكتها للوصول إلى هذه القمة الباذخة من السؤدد والسلطان.

ومما لا ينكره أحد أنها لم تبلغ ذلك إلا يوم اطرحت رداء الدين، وتخلصت من سلطة رجاله، فعلاً يراد بنا أن نكبّل بالقيود التي لم تقم المدنية الحديثة إلا على تحطيمها؟

٣ - وقال كثيرون: إن الدعوة إلى الدين اليوم، تشير في الناس نعرات وعصبية، تؤدي إلى الخصام والنزاع، بل ربما أدت إلى الفتن والحروب، فما أغنى الأمة عن استعمال السلاح الخطر المزعج، وما أولاهها بالانعتاق من أثره وسلطانه، لتسير في موكب المجد والنور يداً واحدة وصفاً واحداً؟!.

هذا ما يعترض به المعترضون على دعوتنا التحريرية الفتية، فما مبلغ ذلك من الحق والصواب؟^(٣٤).

ويجب السباغي على هذه الاعتراضات تباعاً بما يأتي:

(١) العقلية الحديثة تأتلف مع الدين:

وتأتي إجابته على الاعتراض الأول القائل بأن العقلية الحديثة لم تعد تستسيغ الدين بما خلاصته:

إن هذه العقلية قد تجاوزتها الأبحاث العلمية الحديثة والمفكرون المعاصرون، فانجابت عن سماء الفكر، وحلت محلها - في أوربا نفسها - أصالة الإيمان.

ويفضّل ذلك بقوله :

«من ضلال الرأي السائد في أوساط الشباب : أن الدين وراثـة
تقليدية عن الآباء والجدود لا تحتـمـه الفـطـرة ولا توجـبه
واقعات الحياة .

وبدهي أن نقول إن هذا صدى للموجة المادية التي اكتسحت
أورُبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والتي جعلت
للإلحاد سوقاً رائجة ودعاة متضافرين .

ولكن العقل العلمي الفلسفي في القرن العشرين أخذ يتحرر
من فلسفة المادة الضيقة، وتأثير أدبائها وفلاسفتها عليه، وقام
يحمل معاول الهدم في بنائها الشامخ، ليأتي عليه من
قواعده، وقد كاد يبلغ من ذلك أرباً .

يقول هيلار بيلوك : «إن أوروبا ستعود إلى الإيمان
أو تتلاشى» . ويقول أجوست سباتيه في كتابه فلسفة
الدين : «لماذا أنا متدين؟» : إنني لم أحرك شفتي بهذا السؤال
مرة إلا وأراني مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب .
وهو : أنا متدين لأنني لا أستطيع غير ذلك، فالتدين لازم
معنوي من لوازم ذاتي . يقولون : ذلك أثر من آثار الوراثة
أو التربية أو المزاج، فأقول لهم : قد اعترضت على نفسي
كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنني وجدته يقهر المسألة
ولا يحلها، وإن ضرورة التدين أشاهدها أكثر قوة، في الحياة
الاجتماعية البشرية؛ فهي ليست أقل تشبهاً مني بأهداب
الدين» .

إلى أن قال : «وإذن فالتدين باقٍ وغير قابل للزوال، وهو فضلاً
عن عدم نضوب ينبوعه بتمادي الزمن، نرى ذلك ينبوع

يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفي والتجارب الحيوية المؤلمة».

فالعقل الحديث عقل مؤمن، والنفسية الحديثة تميل إلى التدين وتقبله، ولكنها تشترط في الدين ليكون متفقاً مع وجهتها العلمية وحياتها الواقعية أن تتحقق فيه عدة شروط» (٣٥).

ويعرض السباعي لهذه الشروط واستيفاء الإسلام لها كلها (٣٦).

(ب) الفرق بين تجربتنا وتجربة أوروبا:

ويناقش الاعتراض الثاني الذي يزعم نهوض أوروبا حين تركت الدين، بأن هناك بوناً شاسعاً بين تجربتنا وتجربة أوربا في قضية الدين، ممارسة وتصوراً، فيقول:

«إن ذلك الزعم - القائل بأن أوربا لم تنهض إلا يوم تحررت من ربة الدين ورجاله، فلا تنهض، إلا إذا سلكتنا سبيلها - هو زعم ناشئ من الجهل بطبيعة الإسلام أولاً، وقلة الإحاطة بموقف رجال الدين من العلم، والعلماء في فجر نهضة أوربا ثانياً.

طبيعة الإسلام - كما سمعتموها الآن - تختلف تمام الاختلاف عن طبيعة غيره من الأديان التي عافت خطي الحضارة..

رجال الدين الذين كان شعارهم كما جاء في دائرة معارف القرن التاسع عشر: «أطفئ مصباح عقلك واعتقد وأنت أعمى». والذين كانوا يحكمون على القائلين بكروية الأرض ودورانها بالكفر والإحراق. والذين كانوا ينفرون الناس من

فلسفة أرسطو وتعاليم ابن رشد. هؤلاء غير رجال الدين الذين كانوا يقررون للناس قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

وهم غير رجال الدين الذين كانوا يشرحون كروية الأرض ويقررونها في مساجدهم ويشتونها في تفسير قرآنهم كما فعل البيضاوي والفخر الرازي.

وهم غير رجال الدين الذين تأدبوا بآداب القرآن: ﴿فَبَيِّنْ عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ يَسْمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ ويعملون بوصية رسولهم: «الحكمة ضالة المؤمن يَلْتَقِطُهَا أَنِي وَجَدَهَا. خذ الحكمة ولا يضررك من أي وعاء خرجت».

لئن كان أولئك آخروا سير النهضة في أوروبا وقاوموا العلوم والفلسفة والآداب، فلقد كان هؤلاء حملة مشاعل الحضارة وُحْدَاة ركبها وأعلام قادتها»^(٣٧).

(ج) الإسلام دين حب وإخاء:

ويرد على من يدعي بأن الدين باعث على العداوة والخصام، وأن انتعاق الناس من الأديان تجلب إلى الوثام:

إنه قول من لا يعرف، أو يتجاهل طبيعة الإسلام.

ويوضح ذلك بقوله:

«أما أن تكون دعوتنا للإسلام باعث عداوة وتفرقة طائفية، فقد يكون ذلك معقولاً، لو أن طبيعة الإسلام طبيعة عدوان، ولو أن تعاليمه تثبت الكره لمخالفيه، وتحمل على عداوتهم...»

ولكن الإسلام دين حب وإخاء، يفرض في الناس جميعاً أخوة الإنسانية، فلا تمايز لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح، والخدمة للمجتمع، وهو يوجب الإيمان بجميع الأنبياء السابقين، ويلزم حبهم وتقديسهم.

وقد وضع لمعاملة غير المسلمين مبدأ لا أعتقد أن في الدنيا أسمى منه غاية أو أكرم عدالة، أو أوسع صدراً، وذلك هو قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبَرُّهُمُ وَقَتْلُهُمْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

الدين الذي يضع مثل هذا المبدأ، والدين الذي يقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾.

والدين الذي يقول: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

هذا الدين، ليس من طبيعته البغي ولا التفرقة ولا نشر العداوة والبغضاء، فإذا رأيتم في المنتسبين إليه من بغي واعتدى، فذلك أثر الانحراف عن تعاليمه، والابتعاد عن السُّرى في ضوء أقماره ونجومه.

وهكذا يقرّ للإسلام السماحة والبعد عن البغي والتعصب، ويحيل التعصب على من ينكر اعتناقنا للإسلام والدعوة إليه..

«ليس التعصب - يا سادة - أن ندعو إلى مبدأ نعتقد فيه القوة والخير والكرامة لنا، ولكن التعصب أن يُنكر علينا اعتناق هذا المبدأ، والدعوة إليه، والاستفادة منه، وهو لا يسيء إلى أحد ولا يلحق بالمخالفين لنا ضرراً، ولا ينتقص لهم حقاً...» (٣٨).

٤) غياب الدين سبب تأخر الأمة :

وفي ذود إيجابى رأينا فيه السباعى يقدم الدين منهجاً لإصلاح الأمة،
يسلط الضوء - فيما يأتى - على عامل الدين فى حياتنا الأخلاقية
والاجتماعية والسياسية، فى موازنة دقيقة بين عهدىن، قريب وحاضر،
فإلام يخلص فى موازنته؟!

«كان مجتمعنا حتى ثلاثىن سنة خلت - برغم تخلفه وتقهقره -
يعيش على بقية من الأخلاق التى عُرفنا بها منذ أكرمنا الله
بالإسلام: من صدق الحديث، والوفاء بالوعد، وأمانة
الذمة، وحسن الجوار، وتقدير المواهب، وكرم الضيافة،
واستقامة العمل، وغير ذلك مما لا نزال نذكر بقاياه يوم كنا
أطفالاً، ولا يزال يذكره الشيوخ منا ويتحدثون عنه باعتزاز
يشوبه الأسى على فقدانه فى مجتمعنا الحديث.

لقد كان يقال لنا إن العلم يهذب الأخلاق ويوقظ الضمائر،
وإن الحضارة تحسن علاقات الناس بعضهم ببعض، وتعلمهم
وجوب احترام القانون، والتقىد بالنظام.

ونحن الآن لا نشك فى أننا متعلمون أكثر من تلك الأيام،
ومتحضرون أكثر بكثير من أيام آبائنا وأجدادنا، ولكن أحداً
لا يشك فى أننا فى تلك الأيام كنا أحسن أخلاقاً، وأوفى
رعاية للحقوق الاجتماعية مما نحن عليه اليوم.

لقد كانت كلمة الناجر الشفوية تلزمه بما لا تلزمه الآن
العقود المسجلة فى دوائر العدل، أو دوائر الدولة الأخرى،
وكانت حقوق الناس مصنونة دون أن يأخذ صاحب الحق
وثيقة بحقه، أكثر مما تصان حقوق الناس اليوم برغم
السندات والكمبيالات، ولم يكن يعرف الناس فيما مضى

شيئاً اسمه «ادعاء الإفلاس» ومصالحة أرباب الديون على نسبة معينة ضئيلة من ديونهم، بل كان التاجر إذا أحس بتأخر أحواله المادية باع كل ما يملك من دار يسكنها، أو حلي تلبسها زوجته ليظل محتفظاً بشرفه وحسن سمعته بين الناس، وكان أصدقاؤه يسرعون إلى نجده، فيتحملون عنه ديونه من غير أن يستمسكوا بوثيقة تثبت حقوقهم، ولهم في هذا نواذر تبعث على العجب، وتحمل على الفخر والاعتزاز.

كان في كل بلد علماء يدرّسون للناس ولطلابهم، ابتغاء وجه الله لا يريدون جزاءً ولا شكوراً، وكان في كل بلد، بل في كل حي من كل بلد أناس من الموسرين عرفوا بالأريحية والسخاء، فيتفقدون العائلات المستورة في حيهم، ويشركونهم معهم في أفراحهم ومسرّاتهم في المواسم والأعياد.

ومن الذي لا يذكر - ممن هو في مثل عمرنا - الولايم العامة التي كانت تقام في رمضان في البيوت، منها ما يكون للأصدقاء، ومنها ما يكون للمحتاجين والفقراء؟

فمن منا لا يشكو اليوم من فساد الذمم، وفقدان الوفاء، وانشغال كل إنسان بنفسه عن أقربائه وجيرانه، وانتشار الرشوة بين الحاكمين والموظفين، وإخلاف المواعيد، وعدم النصح في أوساط العمال والتجار والصناعيين؟ واستغلال الشعارات الأخلاقية والوطنية والسياسية بين أكثر المشتغلين بالسياسة وأكثر الوزراء والرؤساء والحزبيين؟»

بعد هذه الموازنة الشاملة بين ماضيها القريب الأقل تحضراً وبين
حاضرنا الأكثر تنوراً، يتساءل السباعي عن سبب تدهور العلائق الإنسانية
والاجتماعية، فيلفيه في الابتعاد عن الدين ..

«مثل هذا لم يكن بمثل هذا القدر في مجتمعنا القديم،
فما هي العوامل التي أدت إليه؟ أهو الجهل؟ نحن اليوم أكثر
علماء، أهو التخلف؟ نحن اليوم أكثر رقياً، أهو الفقر؟ نحن
اليوم أكثر ثروة وغنى!

ليس لذلك سبب فيما نعتقد سوى ضعف الدين في نفوس
الناس، ولضعفه عوامل كثيرة، من أهمها في رأيي:
انتشار الأفكار العلمانية التي تزري بالدين، أو تقلل من
أهميته، أو تزعم أنه من عوائق رقينا وتقدمنا، وأنه عنوان
الرجعية والطائفية والجمود، وأنه لا يتفق مع العلم
وسير الحضارة، إلى ما أشبه هذه الدعاوى الكاذبة التي هي
صدى التفكير الغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
في أوربا.

وقد نشأ عن اقتناع بعض المتعلمين عندنا بهذه الأفكار أن
أنشؤوا أحزاباً سياسية تقوم في أساسها على محاربة الدين،
ومهاجمة الداعين إليه بشتى نعوت الرجعية والجمود
والعمالة، ومحاولة إقصائهم بكل الوسائل غير المشروعة
وغير الشريفة عن وظائف الدولة، وبخاصة التوجيهية منها،
 وإقصائهم عن مجالس النيابة عن الشعب، وعن مقاعد
الحكم، وعن وسائل الدعاية والإعلام.

تُرى ماذا فعل هؤلاء بالأمة في موقفهم هذا من الدين؟
لقد أنشؤوا أجيالاً تضج دوائر التعليم من سوء أخلاقها،

وتتضح دوائر الأمن والشرطة من سوء تصرفاتها، وتتضح دوائر الدولة من سرقاتها أو خياناتها أو إهمالها أو رشواتها، أو إضرارها بالمصلحة العامة في كل عمل تتولاه من وزارة أو نيابة أو وظيفة أو أي أمر فيه مسؤولية وله صلة بمصالح الشعب.

فهل هذه هي التقدمية؟ أم هذا هو الرقي؟ أم هذا هو النهوض بالأمة، وهو ما أخذت هذه الأحزاب على عاتقها القيام به كما تدعي؟!».

ثم يوضح كيف عادت أوربا إلى دينها حين تنبعت إلى قيمته في حياتها. فما بالناس نحن؟

«لقد كان الشاعر الفرنسي المشهور «فيكتور هوجو» يقول: يجب أن يرسل إلى السجن كل أب يرسل ابنه إلى مدرسة كتب على بابها: لا نعلم الدين هنا. ولقد أصبحت العناية بالدين الآن أمراً متفقاً عليه بين الكنيسة والحكومات في جميع ديار الغرب، وما ذلك إلا لشعورهم بالانهيار المخيف الذي أصابهم منذ استهانوا بشأن الدين وتربيته. هذا، وهو دينهم، فأبي مُخلص لأمته ووطنه لا يعمل على تقوية روح الدين وآدابه وأخلاقه في جماهيرنا، وديننا هو الإسلام^(٣٩)»

وبعد أن يطرح للعالم الإسلام منهج إصلاح وتقدم يسمو بالمقومات التي يمكنها أن ترقى بالبشرية اليوم وتعالج سلبياتها، ينتقل إلى الجانب الثاني من الذود الإيجابي عن الإسلام، وهو: تجديد اعتناق الإسلام في النفوس..

٢ - تجديد اعتناق الإسلام في النفوس

كان من أبرز ما يتسم به ذود السباعي الإيجابي عن الإسلام، تقديمه الإسلام للناس تقديماً فطرياً، جذاباً، ملهماً، يجدد اعتناقه في النفوس، ويعمق حقائقه ومبادئه في القلوب، وتكاد هذه المهمة تشغل عليه وقته واهتمامه، فما يكاد يغادر مناسبة للاتصال بأبناء الشعب إلا اغتنمها، تذكيراً بعظمة الإسلام والاعتزاز به، يتخذ من الوقائع الإسلامية والمناسبات مواسم للتوعية والحفز، وتجديد الولاء للإسلام، في المساجد أو المنتديات أو الصحف. وكانت الجماهير أسرع استجابة لطروحاته في خطبه أو مقالاته، إذ كانت تعيش في ضميرها - ولا تزال - بذور الاعتزاز بالإسلام وعهوده الزاهرة، تطوي القلوب على حب علمائها وأبطالها والتأسي بهم. وهو يقدم الإسلام - بمفهوم العصر - نظاماً شاملاً كاملاً مليئاً لحاجات الإنسان وتطلعاته، سباقاً في ميادين الحضارة.

(١) آفاق رمضان العبادية :

وكان شهر رمضان الحافل بالنفحات الإيمانية والوقائع الإسلامية في مقدمة هذه المواسم التي ينشط فيها السباعي للتوعية والتربية وتجديد الولاء والأداء للإسلام.

يقول في إحدى كلماته، حافزاً إلى الاعتزاز بذكرى الإسلام ومواسمه :

«ما أروع هذا الشهر في التاريخ، وما أقل عناية الناس بهذا الشهر في عصرنا الحاضر، إن كل أمة تحتفل بيومها الخالد في التاريخ؛ فلفرنسا يوم الثورة فيها، ولأمريكا يوم التحرر والاستقلال فيها، ولروسيا يوم الثورة الشيوعية، ولهيئة الأمم يوم إعلان حقوق الإنسان تتنادى الدول الموقعة على هذا

الميثاق كلها في يوم الذكرى لإعلان الميثاق لتبين ما لهذا اليوم من أثر خالد في تاريخ الدول المعاصرة له ..

أما نحن فلهذا الشهر أعظم أثر في التاريخ؛ إذ لم يكن شهر ذكرى واحدة، بل شهر ذكريات ثلاث متلاصقة أخذ بعضها بحجز بعض، أولها ذكرى بدء الرسالة الإسلامية في التاريخ حين ابتدأ الوحي على محمد ﷺ في غار حراء تنزل عليه لأول مرة قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ ..

ما هي إلا سنوات قليلة حتى وقعت في هذا الشهر ذاته وفي اليوم ذاته في اليوم الذي بدأت فيه الرسالة الإسلامية وقعت أول معركة في الإسلام. هي معركة الفرقان «بدر».

وما هي إلا بضع سنوات أخرى حتى وقعت في الشهر ذاته وبعد يومين اثنين من ذكرى بدء الرسالة الإسلامية وذكرى بدر وقعت ذكرى «فتح مكة» آخر معركة حربية في جزيرة العرب تم فيها الصراع بين رسالة الإسلام وبين الوثنية القديمة، فالذكرى الأولى ذكرى بدء الإسلام، والذكرى الثانية ذكرى بدء معارك الإسلام في داخل جزيرة العرب، والذكرى الثالثة ذكرى انتهاء الصراع في داخل جزيرة العرب؛ ليبدأ العرب من بعد ذلك رسالتهم التحررية الكبرى إلى العالم كله «رسالة الإسلام».

إن من العجيب أن تقع هذه الذكريات الثلاث في شهر واحد وأن تقع أيضاً في يوم واحد أو يومين متقاربين.

وإذا كان المسلمون يعلمون أن شهر رمضان شهر الصيام، والعبادة، والخلاص الروحي، والانعتاق النفسي من أوزار المادة وشهواتها، فإن الإسلام يعرف في هذا الشهر ذكريات جمعت بينها عبادة روحية، فدل ذلك على أن الإسلام في بدئه تهذيب روحي وفي نهايته عهد روحي»^(٤٠).

ثم يبرز تفرد رسالة الإسلام وسبقها كافة الرسالات بخصائص ثلاث:

الأولى: في العقيدة، بتحرير البشر من عبودية العباد إلى عبادة رب العباد.

الثانية: في الحياة الاجتماعية: تحقيق مبدأ المساواة على شكل لا نظير له.

الثالثة: في الحياة الإنسانية: السبق إلى التعاون مع كافة شعوب العالم^(٤١).

ويعلن مؤكداً أن مبادئ الإسلام الرفيعة لا تحمل قيمتها فيما يروق لنا منها وحسب، وإنما تمتاز بسبق الإسلام إليها، وعلى صورة لم تستطع الإنسانية حتى اليوم أن ترقى إلى مستواها، وذلك بما يزيد الإنسان المسلم اعتزازاً برسالته ويحدوه إلى تمثلها والحفاظ عليها...

«إن هذه المبادئ التي أعلنتها رسالة الإسلام طبقها صاحبها بيده وطبقها أصحابها الذين أعلنوها، ولم تكن كالمبادئ التي تعلنها الأمم اليوم والتي أعلنتها الأمم في ثورتها في القرنين الماضيين، ولم تكن مبادئ نظرية ما تكاد تستوي الأمة على قدميها ويعود لها السلطان والسيطرة حتى تنسى مبادئها في حكم الشعوب. طبقها رسول الله بنفسه يوم انتصر

وطبقها أول خليفة بنفسه يوم انتصر، حين قال: «أيها الناس
إني وليت عليكم ولست بخيركم، القوي فيكم ضعيف عندي
حتى أخذ له الحق. أطيعوني ما أطيع الله فيكم فإذا عصيته
فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»^(٤٧).

(٢) إحياءات الإسراء والمعراج:

ومن المناسبات التي كان يغتنمها السباعي لرفع مستوى الولاء
والأداء لهذا الدين ذكرى الإسراء والمعراج بما فيها من عبر وحوافز،
فيستخلص منها ما يبعث على الحمية الإيمانية لاستنقاذ أرض الإسراء
والمعراج «فلسطين» من أيدي اليهود الغاصبين، فهو مع ما يرى من تكريم
هذه المعجزة رسول الله ﷺ والتسامي بمكانته ومنزلته، تطالعه فيها إهابات
ثلاث: إقليمية واجتماعية وسياسية.

«الأولى: إن هذه الأمة التي أسرى الله بقائدها من مكة -
وهو ما يزال فيها مضطهداً معذباً - إلى المسجد الأقصى يجب
أن تحطم كل قيد وأن تزيل من طريقها كل عقبة، وأن لا ترضى
بالحياة إلا أن تكون كريمة منطلقة فسيحة الجنبات.

الثانية: إن هذه السياحة الروحية العظيمة التي أشرف فيها
قائد الأمة على الكون فرأى من آيات الله وأسراره وعجائب
خلقه ما رأى يجب أن تبعث الأمة إلى التحليق في أجواء
الفكر والعلم والسمو والكمال، فما ينبغي لأمة أطل قائدها
على الدنيا وما فيها إلا أن تكون متمكنة من شؤون نفسها،
مستعيلة عن صغائر الإنسانية وسفاسفها، سباقة في البحث
عن أسرار الحياة وما بث الله فيها من حقائق لا ينتهي عجب
الإنسان من صنعها وامتدادها!

والثالثة : ومغزاه السلساسى : إن لهذا الجزء الذى أسرى الله برسوله إليه ، وهو فلسطين أهمية كبرى فى حياة هذه الأمة ، وإن الصلة بين مكة وبيت المقدس صلة وثيقة العرى لا تنفصم أبداً ، وإن لبيت المقدس من الخطر فى مستقبل الزمن ما لا ينبغى أن تجهله الأمة أو تغفل لحظة واحدة عنه ، فإذا اتجه الرسول عليه صلاة الله وسلامه إلى بلد خارج الجزيرة كانت فلسطين أول من يتجه ويرحل إليها . فكيف يصح أن تنام الأمة عن فلسطين؟!» (٤٣).

وبعد أن يشحن النفوس بهذا الدفع الإيماني يقدم الحل العملي لتحرير فلسطين ، منبثقاً من قدسية أرض الذكرى فيقول :

«وإن أمامنا طرقتاً عملية كثيرة من أهمها فى رأيي تحويل الشعور العاطفي نحو فلسطين إلى شعور عملي واقعي بحيث يشعر كل فرد من أبناء العرب والمسلمين أن عليه واجباً نحو فلسطين لا يقوم به الكلام وإنما يؤديه الحسام ، ولا تجزئ فيه صرخات الألم والاستنكار ، وإنما يجزئ فيه دفع الدرهم والدينار ، ويوم يصبح شعورنا نحو فلسطين قوياً لا نمسك أنفسنا معه من مد الأيدي إلى الجيوب بغير اختيار ، ومن امتشاق الحسام بدون تردد ، ومن الإسراع إلى الأراضي المقدسة بدون إبطاء ، يوم نصل إلى هذا فقل : سلام على الصهيونية ، ووداع لها إلى غير لقاء .

- نحن لا نحتاج فى تقوية هذا الشعور العملي فى نفوسنا إلى أكثر من الاستفادة من ذكرياتنا الدينية فى فلسطين .

ففى ذكرى الإسراء والمعراج ، وفى ذكرى فتح صلاح الدين لبيت المقدس ، وفى ذكرى موقعة حطين ، وفى ذكرى معركة

عين جالوت... في هذه الذكريات كلها ميادين واسعة لإذكاء
النار الدينية في نفوس المسلمين»...

ثم يقفُّ على ذلك باستنهاض همم المسلمين للتحرير، ويذكي في
النفوس حمية الذود عن أرض النبوات فيقول:

«أيها العرب! أيها المسلمون! اذكروا في هذا اليوم أن
الإسراء والمعراج رمز سمو، وعنوان تحرر، ودليل كرامة،
وأن رسولكم ﷺ الذي تحتفلون بذكرى إسرائه في هذا اليوم
لن يقر له قرار في دنيا الخلود إلا أن تحرروا فلسطين وتنقذوا
بلادكم من جحافل الصهيونية الغازية التي جعلت من فلسطين
ميدان المعركة الأولى لتنتقل بعد النجاح إلى بغداد والقاهرة
بل إلى مكة والمدينة»^(٤٤).

٣ - التبشير بالصحة الإسلامية

وفي تفاؤل يبعث على الخير، وبعد عمر قضاه السباعي في الدعوة
إلى الله، جاز فيه عقبات جساماً، وخاض المعارك في شتى الميادين
وعلى مختلف المستويات، لم تكلّ - على الرغم من الشدائد والمرض -
عزائمه، ولم تهرم هممه، ظل فؤاده يصرّح بالبشرى ويثق بنصر الدعوة
الإسلامية...

ها هو من قلب المعامع والمحن يطالع العالم الإسلامي بنبوءة
الامتداد الشعبي للإسلام المعاصر، يبشر بها العاملين للإسلام، وبأن
جهودهم وتضحياتهم لم تذهب عبثاً، فها هي الصحة الإسلامية الشعبية
على الأبواب... فلنصغ إلى البشرى على وقع التفاؤل الميمون...

«إن وجهة العالم الإسلامي تتجلى في مساجده التي تغص
بالمصلين، وفي متدبنيه المثقفين الذين يزدادون يوماً بعد يوم،

وفي هذه الخرافات والبدع التي تنحسر عنه شيئاً بعد شيء وفي هذه اليقظة الفكرية الإسلامية التي تقذف إلى المطابع كل يوم بكتاب إسلامي جديد، إن وجهة العالم الإسلامي هي عند جماهيره المؤمنة في المدن والقرى، والمساجد والمصانع والبيوت والمدارس، ولا تتجلى أبداً في فريق من الناس ضلوا طريقهم مهما كثر، ولا في حفنة من تلاميذ الاستشراق الكهنوتي مهما كانت مكانتهم في المجتمع، ولا في فئة من الحكام، كل همهم بحسن نية أو سوء نية أن ينفذوا إرادة المستعمرين وأعداء الإسلام في إيقاف المد الإسلامي الجارف الذي لا ينتهي حتى تقول الدنيا لأمتنا... يا فرحة اللقاء بالامة المنقذة بعد أن طال غيابها».

ثم يؤكّد قدوم الصحوة الإسلامية لأن الدعوة الإسلامية - في عهودها المختلفة - إنما تزيدها المحن ذيوماً وانتشاراً، وإن الله ناصر دينه..

«كما أثبت تاريخ الإسلام عبر القرون المواضي أن المحن مهما اشتدت لا تقضي على آثاره في نفوس المؤمنين، بل تنبعث من جديد - بعد أن تكون غافلة - لتعمل عملها في تكوين الأبطال وصنع المعجزات وتحويل مجرى التاريخ، وذلك هو شأن الدين الحق الذي أراد الله لعباده صراطاً مستقيماً وهدياً مستبيناً وعيشاً كريماً»^(٤٥).

وبعد عقدين من هذه الكلمة المشرقة النيرة تصبح الصحوة الإسلامية الشعبية واقعاً حياً في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي، وتحقق نبوءة السباعي..



المراجع

- (١) الفتح، العام: ١١، العدد: ٥٤٨، عام ١٣٥٦هـ: «تجارة أحمد مكي وتجارة جحا»، مصطفى السباعي، ص: ١٠٩٦.
- (٢) الفتح، العام: ١٠، العدد: ٤٨٠، عام ١٣٥٤هـ: «إيران بعد تركيا»، مصطفى السباعي، ص: ٧١٢.
- (٣) الفتح، العام: ١٢، العدد: ٥٧٢، السنة: ١٣٥٦هـ: «إلى الجمعيات الإسلامية في سورية»، مصطفى السباعي، ص: ٥٤٤.
- (٤) الفتح، العام: ١٠، العدد: ٤٥٦، السنة: ١٣٥٤هـ: «قوة الحق وحق القوة»، مصطفى السباعي، ص: ١٣٥.
- (٥) الفتح، العام: ١٥، العدد: ٧٠٠، السنة: ١٣٥٩هـ: «الفتح في عامها الخامس عشر»، مصطفى السباعي، ص: ٢٢.
- (٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «تاريخ دعوة في حياة رجل»، محمد بسام الأسطواني، ص: ٥٠٤.
- (٧) نفسه، ص: ٥٠٥ - ٥٠٦.
- (٨) حضارة الإسلام، السنة الرابعة، العدد: ١، ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ/ آب ١٩٦٣م: «نحن وكلمة الحق في العام الجديد»، مصطفى السباعي، الافتتاحية.
- (٩) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «جيل من المفاخر...»، مصطفى السباعي، ص: ٤٤٠.
- (١٠) انظر: الباب الثاني - الفصل الثاني: السياسي المسلم.
- (١١) حضارة الإسلام، السنة: ٤، العدد: ٧، رمضان ١٣٨٣هـ/ شباط ١٩٦٤م: «وجهة العالم الإسلامي»، مصطفى السباعي، ص: ٦٩١.

- (١٢) انظر: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، د. مصطفى السباعي، الباب الثاني - الفصل السادس والسابع.
- (١٣) حضارة الإسلام، السنة: ٧، العدد: ٩، ذو القعدة سنة ١٣٨٦هـ/ شباط ١٩٦٧م: «وسائل الاستعمار لإضعاف المسلمين»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٠.
- (١٤) المسلمون، المجلد: ٤، العدد: ٤، ذو القعدة ١٣٧٤هـ/ حزيران ١٩٥٥م: «الأعاصير في وجه السُّنَّة حديثاً»، د. مصطفى السباعي، ص: ٣٣١ - ٣٣٣.
- (١٥) المسلمون، المجلد: ٤، العدد: ٥، ذو الحجة ١٣٧٤هـ/ تموز ١٩٥٥م: «الأعاصير في وجه السُّنَّة حديثاً - ٣»، المستشرقون (٢)، د. مصطفى السباعي، ص: ٤٦٠، ٤٦١.
- (١٦) انظر: السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي، الباب الثاني، الفصل السادس، ص: ٢٠٦ - ٢٢٦.
- (١٧) المسلمون، المجلد: ٤، ع: ٧، ربيع الثاني سنة ١٣٧٥هـ/ تشرين الثاني ١٩٥٥م: «الأعاصير في وجه السُّنَّة حديثاً - ٣»، المستشرقون (٣)، د. مصطفى السباعي، ص: ٦٣٧، ٦٣٩، ٦٤١.
- (١٨) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «نجم تألق ثم هوى»، محمد الحسني الندوي، ص: ٤٠٦ في حديثه عن الفقيه مصطفى السباعي.
- (١٩) حضارة الإسلام، السنة: ٤، العدد: ٩، ذو القعدة ١٣٨٣هـ/ نيسان ١٩٦٤م: «متى نسد هذه الثغرة من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ٩٢٠.
- (٢٠) حضارة الإسلام، السنة: ٨، العدد: ٧، رمضان ١٣٨٧هـ/ تشرين الثاني ١٩٦٧م: «من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٤ - ١٧ (مذاعات تنشر لأول مرة، وهي آخر ما كتبه السباعي).
- (٢١) حضارة الإسلام، السنة: ٣، العدد: ١٠، ذو الحجة ١٣٨٢هـ/ أيار ١٩٦٣م: «معركة الإسلام مع الاستعمار»، مصطفى السباعي، ص: ١٠٢٩. يقصد بالسلطان الزاثل سلطان الاستعمار.

- (٢٢) حضارة الإسلام، السنة: ٨، العدد: ٥، رجب ١٣٨٧هـ/ تشرين الأول ١٩٦٧م: «من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ٩ - ١٠ مذاعات لم تُنشر.
- (٢٣) حضارة الإسلام، السنة: ٨، العدد: ٦، شعبان ١٣٨٧هـ/ كانون أول ١٩٦٧م: «من تشويه الاستعمار لحقائق الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ٩ - ١٠ مذاعات لم تُنشر.
- (٢٤) نفسه.
- (٢٥) حضارة الإسلام، السنة: ٨، العدد: ١٠، ذو الحجة ١٣٨٧هـ/ شباط ١٩٦٨م: «إليكم يا شباب الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ١١ - ١٤.
- (٢٦) حضارة الإسلام، السنة: ٧، العدد: ٩، ذو القعدة ١٣٨٦هـ/ شباط ١٩٦٧م: «وسائل الاستعمار لإضعاف المسلمين»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٢ مذاعات لم تُنشر.
- (٢٧) نفسه، ص: ١٣.
- (٢٨) حضارة الإسلام، السنة: ٥، العدد: ١، ربيع الأول ١٣٨٤هـ/ تموز ١٩٦٤م: «هل نحسن الاستفادة من ذكرى المولد»، د. مصطفى السباعي، ص: ٤ - ٥.
- (٢٩) هذا هو الإسلام، رسالة (أصدق الاتجاهات الفكرية في الشرق العربي)، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي بيروت - دمشق ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م، ص: ٦ - ١٢.
- (٣٠) حضارة الإسلام، السنة: ٧، العدد: ١، ربيع الأول ١٣٨٦هـ/ حزيران ١٩٦٦م: «الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٢.
- (٣١) نفسه، ١٣.
- (٣٢) حضارة الإسلام، السنة: ٢، العدد: ٤، ربيع الثاني ١٣٨١هـ/ تشرين أول ١٩٦١م: «أثر الدين في بناء المجتمعات»، د. مصطفى السباعي، ص: ٣٩٠.

- (٣٣) حضارة الإسلام، السنة: ٧، العدد: ١، «الأهداف الكبرى لرسالة الإسلام»، ص: ١٣ - ١٤.
- (٣٤) هذا هو الإسلام، «أصدق الاتجاهات الفكرية»، ص: ٢٨.
- (٣٥) المصدر نفسه، ص: ٢٩ - ٣٠.
- (٣٦) انظر المصدر نفسه، ص: ٣٢ - ٣٦.
- (٣٧) المصدر نفسه، ص: ٣٧ - ٣٨.
- (٣٨) المصدر نفسه، ص: ٢٩، ٣٧، ٣٩، ٤٢.
- (٣٩) حضارة الإسلام، السنة: ٣، العدد: ٤، جمادى الآخرة ١٣٨٢هـ/ تشرين الثاني ١٩٦٢م: «إلى أين المسير»، د. مصطفى السباعي، الافتتاحية.
- (٤٠) حضارة الإسلام، السنة: ٦، العدد: ٧، «يوم الفرقان»، د. مصطفى السباعي، رمضان ١٣٨٥هـ/ كانون الثاني ١٩٦٦م، ص: ٦٨٨ - ٦٨٩.
- (٤١) انظر المصدر نفسه، ص: ٦٨٨ - ٦٩٣.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص: ٦٩٣ - ٦٩٥.
- (٤٣) حضارة الإسلام، السنة: ١٥، العدد: ٥، «في ذكرى الإسراء والمعراج»، د. مصطفى السباعي، ص: ١٢ مذاعات لم تنشر.
- (٤٤) نفسه، ص: ١٣ - ١٤.
- (٤٥) حضارة الإسلام، السنة: ٤، العدد: ٧، رمضان ١٣٨٣هـ/ شباط ١٩٦٤م: «وجهة العالم الإسلامي»، د. مصطفى السباعي، ص: ٦٩٣.



الفصل الثاني

دوره التاريخي في حياة سورية المعاصرة

- ١ - في مقاومة الاستعمار الفرنسي لسورية.
- ٢ - في ميدان التوعية السياسية.
 - (١) كشف الدعاية الكمالية.
 - (٢) مؤامرة تسليم لواء إسكندرون.
 - (٣) تسرّب الشيوعية.
- ٣ - في درء أخطار العلمانية والتردي الخُلقي.
- ٤ - في إرساء المبادئ الإسلامية في التشريعات السورية.



السباعي يتوسط مسيرة العلماء
المطالبة بإرساء الأحكام الإسلامية في الدستور السوري

بعد أن عرضنا في الفصل الأول من هذا الباب لدور السباعي التاريخي في الذود الشامل عن الإسلام متضمناً وسائل ذوده من : صحافة، وخطابة، ومؤلفات علمية؛ وموضحاً منهجه في الكشف عن الأخطار الاستعمارية بألوانها المختلفة على ديار الإسلام، وتقديمه الإسلام للعالم منهج إصلاح وتقدم.

نستطلع في هذا الفصل - على المستوى الإقليمي - ما قدمه السباعي في حياة سورية السياسية، بوصفه ابن سورية الوفي الذي أصفى بلاده جهده ومواهبه، والسياسي الصادق^(١) الذي شارك في رسم حياة سورية المعاصرة، وسعى إلى بناء حياتها على قواعد راسخة من التقدم والرفي في ظل مبادئ الإسلام وقيمه.

لقد كانت حياة السباعي كتلة من المواهب^(٢)، أفرزت منجزات سياسية غطت جانباً كبيراً من المشروعات، واستغرقت شطراً كبيراً من حياته، أعطت سورية دفعاً ونهوضاً في سائر الميادين في فترة حساسة من حياة البلاد.. يقول أحد عارفيه:

«لقد عاش هذا الرجل الفذ كل لحظات عمره التي وعها -
لدينه ودعوته مذ كان طالباً يافعاً حتى قبضه الله إليه...
خاض معارك الإصلاح في كل ميدان.. وكان في كل معركة
منها فارسها المعلم وبطلها الذي لا يشق له غبار..»

خاض معركة الإصلاح في ميدان السياسة وصحح ذلك المفهوم الخاطئ المستورد الهجين وهو: فصل الدين عن الدولة، وعزل رجل الشريعة عن ميدان السياسة والإصلاح العام... فشارك في الحياة النيابية في بلادنا، وأبلى البلاء الحسن دفاعاً عن عقيدة هذه الأمة ومبادئ العدالة الاجتماعية التي جاءت بها الشريعة السمحة. وأبدى كفاءة منقطعة النظير في معالجة جميع القضايا الهامة، استحق بها احترام زملائه من جميع الفئات... واستطاع - مع إخوة له في النضال - أن يسدّد دفة السفينة، وأن ينأى بها - ما وسعه الجهد - عن مهب الأهواء، والأمة ما برحت على مفترق الطريق»^(٣)!

هذا العمر الحافل بالعطاء في شتى الميادين، ثرى، هل لبي تطلعات بلاده - على المستوى السياسي - إلى الرقي والنهضة؟

لعلنا نلاحظ - غير مبالغين - بأن السباعي كان أوفر زعماء سورية، في عمره السياسي، جداً ودأباً. فهو لئن كان يجيد الكلام، فقد كان يترجم كلماته إلى عمل، وما كان يطلق الكلام للتغطية الإعلامية ومجرد كسب الأنصار. كان السباعي يبتغي بالسياسة نصرة دعوته، ويروم بجهد رضاء ربه، ويصدق عمله قوله.

أما الميادين التي غطاها السباعي بقلمه ولسانه وعنائه، فهي تلك الميادين الخطيرة التي ترتقب الرجال الأفاضل.

١ - في مقاومة الاستعمار الفرنسي لسورية

لا نزعم أن السباعي انفرد بجهاده في هذا الميدان، فإن جل رجالات سورية أسهموا في مقاومة الاستعمار الفرنسي، ولكن مقاومته - مع ذلك - تتميز بالطوابع الآتية:

(أ) فضح مخازي المستعمر :

لقد احتلّ الاستعمار الفرنسي سورية عام ١٩٢٠م بالحديد والنار؛ بحجة وصايته المدنية على سورية بوصفه البلد المتمدين - كما يزعم - يروض بلداً متخلفاً، يعلمه المدنية الحديثة.

فماذا كان من شأن هذه الوصاية؟ وماذا كانت حصيلة البلاد من المستعمر الفرنسي خلال هذه السنوات كما يرويها السباعي؟

(١) امتصاص المستعمر ثروات البلاد :

«وماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو يتعامل بما يزيد على خمسة وأربعين مليوناً من النقد الذهب فما زالوا يأخذونه شيئاً بعد شيء حتى لم يبق منه اليوم إلا زهاء ربع مليون؟ وماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه، وتجارته تغزو الأناضول والعراق والحجاز واليمن ومصر وسائر أقطار الإمبراطورية العثمانية وتنفذ منها إلى إيران وما وراءها، فما زالت تضمحل وتتضاءل حتى غدت ضيقة محصورة تعالج سكرات الموت.

(٢) تمزيق وحدتها :

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله والٍ واحد يحكمه من أقصاه إلى أقصاه، فما لبثوا أن جعلوه دولاً وممالك، لكل مملكة برلمان وحكومة، ولكل حكومة وزراء ورئيس جمهورية، حتى إن المسافر من حمص إلى طرابلس يجتاز ثلاث دول وما بين البلدين إلا ساعة ونصف ساعة؟!.

ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو شعب واحد وأمة واحدة فما لبثوا أن جعلوه موزعاً بين عرب مسلمين

ومسيحيين ويهود ونصيرية ودروز وإسماعيليين وشيعة وأكراد
وتركمان وشركس وداغستان وغجر (نور) ثم زادوا عليها
الأرمن والأشوريين فأسكنوهم أخصب البقاع وأغنى
الأراضي؟

(٣) تشريد نخبتها :

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وهو غني بالنبغاء والقواد
والعلماء والأدباء، فإذا هم اليوم موزعون في الأقطار مشتتون
في الممالك لا تخلو منهم بلد ولا قرية؟»

(٤) إفساد دينها وأخلاقيها :

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله أوقاف كبيرة رصدت
على البر ونشر العلم، فما زالوا بها حتى جعلوها تحت
تصرفهم يُؤكلون منها من شاؤوا ويحرمون من شاؤوا،
ويولّون عليها من شاؤوا ويُقصون من شاؤوا؟»

ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله محاكم تحكم
بما أمر الله، فما زالوا يهدمون منها شيئاً بعد شيء حتى
غدت هياكل تتداعى للسقوط وتنتظر النهاية ساعة بعد
أخرى؟

ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه وله دين يعتصم بعروته،
وخلُق يعتز برفعته، فما زالت عرى دينه تنفصم، وما زالت
أخلاقه تنحط في عهد أوصيائه، حتى أصبح اليوم
مرتعاً خصباً للإباحية والشيوعية والماسونية والفاشيستية
وما شاكل هذه المذاهب الهدامة الخطرة على الأديان
والأخلاق؟

٥) خراب نظمها وعمرانها :

«ماذا تقول في بلد دخله أوصياؤه ليزيدوا عمرانهم ويمدّنوا أهله ويصلحوا نظمهم، فلم يفعلوا شيئاً مدى عشرين عاماً أكثر من تخريب بنيانه، وتهديم نظمهم، وإراقة دماء أبنائه وتشتيتهم، والتضييق عليهم في أرزاقهم وحرياتهم لا للذنب إلا أنهم طالبوهم بما وعدوا به يوم احتلوا البلاد؟».

وبعد أن يضع السباعي المستعمر الفرنسي في جرائمه بجوار جزاري محاكم التفتيش، ينذر السباعي رجال هذا الاستعمار بغضبة الشعب التي ستصعق الاستعمار كما صعقته مرات..

«أيها الفرنسيون! إن التاريخ لا يزال يصب اللعنات على محاكم التفتيش، ولا تزالون تحمر وجوهكم خجلاً كلما ذكرت فظائعها، ولئن كان التاريخ لم يغتفر لأولئك همجيتهم وقد وقعت في ظلمة التاريخ الأوروبي، فكيف ينسى تسجيل إساءتكم وقد اقترفتم مثل ما اقترفوا في راحة النهار، غير أنكم لبستم مسوح الرهبان وهم لبسوا جلود الذئاب، وفعلتم فعلتكم وأنتم في عصر العلم والحضارة، وفعلوها وهم في عصر التأخر والانحطاط.

أيها الفرنسيون! إن مما تعلمناه من رسولنا ﷺ أن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولو كان لكم إيمان كإيماننا لعدلتم عن هذه التجربة التي تقومون بها أخيراً بعد أن لدغتم من الجحر مراراً متعددة، فذقتم في كل مرة مرارة فشلكم، فإن لم تكن تلك اللدغات السابقة كافية لاعترافكم بالحق فانظروا لدغة أخرى كفيلة بردكم إلى الصواب وأنتم نادمون آسفون^(٤)!

ويعقب على إنذاره هذا بدعوة أبناء سورية إلى الجهاد حتى النصر.

(ب) جهاده المستعمر الفرنسي :

إن الكثيرين من أبناء سورية حملوا السلاح ضد المستعمر الفرنسي، وكثرة من الزعماء حرصوا على حمل السلاح ضده، ولكن السباعي تميز من أولئك بأنه كان يقود معركة منظمة تحت لواء فريضة الجهاد المقدسة^(٥)، فكان المستعمرون الفرنسيون يتلقون الضربات من الشباب المؤمن المجاهد في كل بلد وفي كل قرية، فكانت الأرض تهتز تحت أقدامهم، فيزدادون حمقاً وتنكيلاً، ويزداد الشعب ثورة وتصميماً.

ولقد أحيا السباعي هذه المعاني الإسلامية في النفوس على وقع المدافع والرصاص، فكان لها الدور الأوفى في معارك الجهاد مع المستعمر حتى دحره من البلاد وطرده.

٢ - في ميدان التوعية السياسية

ظل السباعي طوال حياته يخاطب الشعب السوري بقلمه ولسانه وحركته الناشطة، يبصّره بالحقائق، ويحذره من العواقب، ويفضح الألاعيب السياسية الدولية. كان ينهض بذلك قياماً بواجب النصيحة: «الدين النصيحة...».

من تلك القضايا التي كان للسباعي دوره المتميز في التوعية لها :

(١) كشف الدعاية الكمالية :

وكانت وافداً جديداً وجد له في سورية أنصاراً بسبب جدته وغرابته، وقد لا يفتن الناس إلى أن في بعض الجديد جرعات سامة تخفى على الكثيرين. وكان هذا ينطبق على (الحركة الكمالية) المشبوهة التي طالعت الناس بجدتها وغرابتها فظنوا بها خيراً، وهي تخفي السم الزؤام والمنهج الهدّام.

لعلَّ السباعي من القلة النادرة التي عرضت وقتذاك للحركة ودعايتها
المغرضة التي تبغي تمزيق كيان سورية عبر المؤامرات التاريخية التي مرت
عليها، وكانت وقتذاك قد بلغت ذروتها الخطيرة، يقول:

«تكلمتُ في العدد الماضي من (الفتح) عن شيء من نشاط
الدعاية الكمالية في بلاد الشام، وذكرت أن في مقدمة
أغراض تركيا من بث هذه الدعاية فيها التمهيد لاستيلائها
عليها ثقافياً ودينياً، قبل استيلائها عليها عسكرياً.

وأذكر اليوم ما وافتنا به البرقيات الأخيرة من أن الدعاية
التركية نشطت في القسم الشمالي من سورية نشاطاً كبيراً؛
فإن صور الزعماء الأتراك توزع علناً، والخطب في تمجيد
أعمالهم تلقى باستمرار على الجمهور، وكثير من الموظفين
الأتراك يترددون على تلك المنطقة بكثرة.

وجاء في برقيات أخرى: «أن جميل مردم بك رئيس الوزارة
السورية صرح لبعض المتصلين به أن في جملة مطالب تركيا
من فرنسا، لقاء حياذ الأتراك في حالة الحرب، أن تتخلى
فرنسا عن انتدابها على القسم الشمالي من سورية، وهو يشمل
أراضي الجزيرة الفنية بمناجم البترول وحلب وحماة وحمص.

إذاً فالأمر جدُّ ليس فيه هزل، وأناب الدعاية اللادينية مستعدة
لنهش الكيان السوري الإسلامي وتمزيقه».

والعجيب في الأمر، وهو الذي يبرز دور السباعي التاريخي في
التوعية لهذه القضية، أن بعض المتزعمين في سورية كانوا يشيدون
بالحركة، ويجمعون بفعلهم بين نقيضين، هجومهم على الاستعمار
وتأييدهم للكمالية:

«ومع هذا كله فلا يزال بعض المتزعمين والمتشدّقين بالوطنية ينشرون الفصول الطوال عما يسمونه (إصلاحات) تركيا ونهضتها وبطولة زعمائها، ويدخلون في رُوع الجماهير أن أتاتورك ورفاقه من أبطال الشرق الذين يفاخر بهم. ولو بحثت عما يحملهم على نشر هذه الفصول لعلمت أنه الهوى والرغبة في تقليص ظل الإسلام قبل كل شيء...»

قليل من الحياء يا هؤلاء الناس!.. فلسنا نفهم كيف نوفق بين تبجحكم بالغيرة على الوطن والجهاد في سبيله ومقاتلة أعدائه وكراهيتهم، وبين هذه السموم التي تنشرونها عن الطامعين في الوطن، العاملين على تفكيك أوصاله والمتآمرين على استقلاله مع المستعمرين!..»

ثم يحذّر هؤلاء من التماذي في غيِّهم وإلا حاقت بهم العمالة والإجرام...

«فليكفوا عن تلك المقالات التي تصور الطامعين في الوطن أجمل تصوير وأحسنه؛ وإلا كانوا مجرمين من جهتين؛ من جهة الدين الذي تدين به الأمة إذ يزينون لها طريق الخروج عليه، ومن جهة الوطن إذ يقومون بالدعاية لمن ينوون اكتساحه وسحق عروبه حتى لا تقوم لها قائمة فيه إلى الأبد».

ولعل السباعي لم يكتفِ بالتوعية للقضية على صفحات الصحف فدعا القاعدة الشعبية الإسلامية جماعة «شباب محمد ﷺ»، والعلماء والشباب إلى قيادة مقاومة الدعاية الكمالية الخبيثة ودرء خطرها الاستعماري عن البلاد مهما كلف ذلك من تضحية:

«هذه كلمة عاجلى، ولنا عودة إلى الموضوع حين نرى استرسال القوم في جنائتهم. ونكتفى الآن بأن نتوجه إلى الزعماء والعلماء والشباب في سورية. وخاصة شباب محمد ﷺ، قرة عين الإسلام في تلك الديار، بالتفكير في المسألة جدياً، والبحث في الوسائل المؤدية إلى مقاومة تلك الدعايات الخبيثة، غير مبالين بكل ما قد يعترضهم في طريقهم من عقبات، فالحق يجب أن يجهر به أصحابه مهما نالهم من أذى وعناء، ولقد أعذر من أنذر، ولنصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز»^(٦).

٢) مؤامرة تسليم لواء الإسكندرون:

في غيبة الشعب وجثوم الاستعمار الفرنسي على البلاد حيكت المؤامرات على سورية وبعد تفتيتها إلى دويلات، اغتصب جزء حيوي منها هو لواء «الإسكندرون»، وقد نهض الشعب في سورية مطالباً بإعادة اللواء السليب إلى سورية الأم.

فماذا كان دور السباعي المتميز في التوعية لهذه القضية؟

إن أبرز ما يميز توعية السباعي لقضية «الإسكندرون»، ما يؤكد من خطورة خروج بلد من العروبة والإسلام إلى العلمانية والتتريك، فضلاً عن جو المؤامرة بين المستعمر والغاصب.

لذا يشير إلى تلك الملابس حين احتدام القضية.

ويكشف فيما يأتي عن مراحل الانتقال أو الاغتصاب، وعن أصابع تركيا الكمالية في صبغ اللواء بالصبغة العلمانية اللادينية.

«إن هذا اللواء العربي منذ أحقاب طويلة تقطن فيه أقلية تركية. ولما كانت تركيا تطمع بالبلاد السورية، فقد رأت في وجود هذه الأقلية ما يحقق لها أغراضها، فانفقت أولاً مع فرنسا على أن يكون لهؤلاء الأتراك بعض امتيازات في تعليمهم وإدارة شؤونهم، وبذلك أمكنها أن تبت بينهم دعائها لحملهم على اعتناق المبادئ الكمالية، فنجحت إلى حد بعيد.

وأذكر أنني زرت أنطاكية في صيف ١٣٥٥هـ فحدثني بعض الأفاضل المتدينين من أتراكها بأن الكماليين يبذلون نشاطاً كبيراً لبث الدعاية لهم في أوساطهم، وأول ما فعلوا في هذا السبيل أنهم أقنعوا بعض الشباب بخلع الطربوش وارتداء القبعة والدخول بها إلى المساجد العامة، فلقى هؤلاء إعراضاً من سواد الشعب المتدين وإصغاء من بعض من لا خلاق لهم، وفي يوم من أيام الأعياد أحضر الشباب الكماليون صناديق كبيرة مملوءة بالقبعات إلى أكبر المساجد في أنطاكية فأعلنوا أن كل من يخلع طربوشه يعطى قبعة جديدة فاخرة مجاناً ومبلغاً من المال لا بأس به. فتهافت الفقراء وضعفاء العقيدة على لبس القبعة، فلما كثر عددهم أحضروا إلى المساجد مشاجب يضعون عليها قبعاتهم، فكان الواحد منهم إذا دخل المسجد خلع قبعته ووضعها على المشجب ثم شرع في الصلاة مكشوف الرأس.

قال لي الفاضل التركي: ثم أخذوا يدعون إلى استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية، فاستجاب لهم فريق كبير، ثم طفقوا يتحدثون في المجالس والأندية والمدارس والأسواق بأن تركيا لم تستقل ولم تنج من مؤامرات الدول

إلا يوم نبذت تقاليد الشرق والإسلام واعتنقت مبادئ الغرب
واقترفت أثره، وأن الكماليين إذا حكموا اللواء فسيزدهر،
ويغدو في بحبوحة من النعيم، ويكون أهله أعزة مكرمين!

بمثل هذا سَمَّموا أفكار شبابنا وبناتنا وعامتنا حتى لا يجرؤ
اليوم أحد منا على أن يتفوه بكلمة حق عن أتاتورك
أو حكومته..

قال هذا وهو يبكي ويدعو الله أن يقبضه إليه قبل أن يرى بلاده
يتحكم فيها الكماليون أو أذئابهم.

إلى هذا الحد وصلت مساعي تركيا في اللواء العربي.

وبعد أن يوضح خطوات تركيا العلمانية الزاحفة على اللواء، يكشف
عن خطوط المؤامرة التي لعبتها تركيا مع فرنسا المستعمرة لسورية في
الاستيلاء على اللواء..

«تحركت تركيا بطلب استقلال داخلي لمنطقة الإسكندرون
مستندة إلى أن أكثرية اللواء أتراك، فلها الحق بأن تُعنى
بشؤونهم وتدافع عن حقوقهم.. فتظاهرت فرنسا بمعارضتها
في دعوى الأكثرية..

وأرسلت عصبة الأمم لجنة دولية لتقوم بإحصاء السكان فيه،
وسعت تركيا سعياً حثيثاً لتكثير سواد أتراكه بوسائل صيبانية،
فلما عجزت عن تحقيق الأكثرية أخذت ترسل الأتراك
القاطنين على حدود اللواء أفواجا.. ليقيدوا أسماءهم في
عداد سكانه.

ورغم هذا كله ورغم عن تحيز السلطة الفرنسية لها في
التسجيل فقد يئست من الحصول على الأكثرية، عند ذلك

عمدت إلى القوة وإثارة الشغب، فسَلَّحت الأتراك وحرضتهم على إيقاد نار الفتنة وإراقة الدماء لتحول دون تمام التسجيل الذي باشرته لجنة عصبة الأمم، وكان لها ما أرادت، فالغي التسجيل، وطلبت تركيا الدخول في مفاوضات جديدة مع فرنسا، وتدخلت إنكلترا في الأمر ورضخت فرنسا للتهديد الذي تظاهرت به، وكانت النتيجة أن قدمت لها اللواء غنيمة باردة، ودخله الجنود الكماليون ظافرين، واحتفل بتوقيع معاهدة الصداقة (الفرنسية التركية) على أنقاض العروبة والإسلام».

وبلغت تركيا الكمالية لبانتها بسلخ اللواء عن سورية، فأخذت تنفذ مخططاتها اللادينية فيه، وتطرد سكانه العرب الأصلاء، وتقطع صلات اللواء مع سورية ليصبح بالتدريج قطعة من مشروعها الأبق من الشرق والإسلام إلى الغرب الأوروبي!

«ومنذ ذلك الحين أصبح اللواء جمهورية مستقلة أطلق عليه اسم جمهورية «هاناي» له مجلسه النيابي ووزراؤه ورئيس جمهوريته!... وما كادت تركيا تخرج من هذا المعركة غانمة حتى أخذت في تنفيذ برنامجها، فألغت المحاكم الشرعية الإسلامية، وطردت علماءها وموظفيها، وأمرت بأن يكون الأذان باللغة التركية، وأنزلت بالعرب أفظع أنواع البطش والانتقام لتلجئهم إلى الاستراك، فاضطر عدد كبير منهم إلى هجر ديارهم وأموالهم واللجوء إلى الأراضي السورية، وإن السائر في طرقات حلب الآن ليرى فيها ما يزيد على عشرين ألف لاجئ يفترون الأرض ويتكفون الناس وأكثرهم من كرام الأسر والعائلات»^(٧).

(٣) تسرّب الشيوعية :

تسرّبت الشيوعية إلى سورية تمنّي بالجنة الأرضية وبكفاح الاستعمار، وكانت قد وفدت على أرض فرنسا، بعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية على دول المحور (ألمانيا، وإيطاليا، والنمسا).

وكان لروسيا الشيوعية دورها البارز في ترجيح كفة الحلفاء. فرعاية للمصالح المشتركة، أفسح الاستعمار الفرنسي للشيوعية في سورية، وروج لها.

آذى السباعي أن تدخل هذه الفكرة المعادية للإسلام والأديان بلاد الشام المباركة^(٨)، وأن تؤذي عقائد وأخلاق أبنائها؛ فشرع في التحذير منها والهجوم عليها في جريدة «الفتح» ثم في «المنار»، وكان له معها جولات وصولات.

ولعل دوره في التحذير منها كان مبكراً، منبهاً إلى خطرها على العقيدة والأخلاق وحرية الإنسان..

فمما قاله في خطبة له ألقاها بحمص على ممثلي الأحزاب والجمعيات في سورية:

«لقد بحثت طويلاً لأرى مبلغ ما قمنا به من واجبات هذا العهد الجديد، فرأيت ما آلمني وأحزنني حقاً، فما كدنا ننعم بلذة الاستقلال حتى بعدت الشقة بيننا وبين الله جلّ جلاله، وقام فينا نفر من المغرورين المغفلين يثون الدعاية للمذهب الشيوعي القائم على إنكار وجود الله ومحاربة الرسل والشرائع، وأظنكم تدركون ما في هذه الدعوة من خطر على البلاد وباعث على الفوضى والفساد، ويكفي أن تعلموا أن روسيا التي فيها نبتت هذه الدعوة الخبيثة أصبحت اليوم أكثر

بلاد الله فوضى واضطراباً، ولقد أحصى الذين قتلهم ستالين
رئيس الدولة الشيوعية فبلغوا آلافاً عديدة، وكثير منهم كانوا
من أنصاره وأعوانه، ولقد بلغ من تحكمه واستبداده بالشعب
أن أخذ الناس يترحمون على عهد القياصرة»^(٩).

٣ - في درء أخطار العلمانية والتردي الأخلاقي

شرع السباعي مبكراً في التنبيه إلى الأصابع العلمانية في البلاد، فبعد
أن حصلت سورية على استقلالها الذاتي، بمعاهدة وقع عليها ممثلو سورية
وفرنسا، وأخذت تسوس شؤونها حكومة دستورية تحت إشراف الكتلة
الوطنية، كان المصلحون في البلاد والذين قاوموا الاحتلال طويلاً
- ومن أبرزهم السباعي - يأملون أن تكون الحكومة الوطنية أرعى لأخلاق
الأمة ودينها، ولكن خاب الأمل فيها، ويورد على ذلك مثلاً بما حلَّ
بوزارة المعارف من نكبات..

«إن البلاد السورية عانت في عهد الاحتلال من وزارة
المعارف نكبات لا تزال آثارها ماثلة في أخلاق الشباب
وعقائدهم، فلما تنسبت الأمة نسيم الحرية أهابت برجالاتها
الذين أولتهم الحكم أن يحولوا دفة المعارف إلى وجهة هي
أقرب إلى المحافظة على الأخلاق والوفاء للإسلام من أية
وجهة أخرى، فنحن نسأل وزارة المعارف ونريد أن تجيبنا
بكل صراحة: هل من الوفاء للإسلام أن يدرس تاريخه أستاذ
ملحد فيطمعن في الإسلام ونبيه وصحابته بما هو كفيل بتقديمه
إلى محكمة الجنايات في كل قانون من قوانين العالم،
ثم لا يكون من وزارة المعارف إلا أن تنقله من وظيفته إلى
وظيفة أخرى؟!..»

أفبمثل هذا يراد حمل الناس على الثقة بالعهد الحاضر
والاعتقاد بأنه لا يضر للإسلام شراً ولا عدواناً؟

ألا إن الناس لا تزال لهم عقول يدركون بها ، ولا تزال عقولهم
في موضعها كما خلقها الله ، وإن عقولهم تقول لهم : إن اختيار
الجهلة والمتعصبين والمغرضين وعميان العيون والقلوب
لتدريس تاريخ الإسلام في عاصمة معاوية وعبد الملك
وعمر بن عبد العزيز على طلبة مسلمين تدرساً مشوهاً مقلوباً
مع وجود أكفاء صالحين لذلك ، ليس إلا مناورة من أشخاص
مختبئين وراء الستار لتشويه حقائق الإسلام في أدمغة الناشئة
المسلمين ، وتخريج أعداء لهذا الدين»^(١٠).

ثم يعرض إلى أن سورية من أوفر الأقطار العربية استمسكاً بالدين
لولا الغزو الأجنبي الذي أشاع المنكرات ، فهل ينهض زعماءها وقادتها
السياسيون بواجبهم في حماية الدين والأخلاق؟! .

«عُرفت بلاد الشام منذ زمن بعيد بالتمسك بالإسلام
والمحافظة على تقاليده والغيرة على دين الله وكتابه ، ولا تزال
فيها حتى اليوم بقية من ذلك تفوق ما عليه بعض البلاد
الإسلامية المشهورة ، فالسفور بشكله المعروف في مصر
وغيرها لم يُعرف إلى الآن فيها إلا في بعض بيئات بعيدة
الصلة بالدين جداً ، وانحلال الأخلاق والتهتك أقل منه هنا ،
ومحبة العامة لدينهم وفهمهم لأحكامه أكثر منه في بلاد
أخرى ، والحمية للإسلام والعربية تمتلئ بها قلوب الشاميين :
فلا يحدث في الإسلام حادث ولا تنزل بأقطار العروبة
فادحة ، إلا كانوا أول من يغضب ويلبى ويثور ، وهذا شيء
نقوله حين نقرر الواقع ونقارن بين بلد وآخر .

أما إذا نظرنا إلى المثل الأعلى الذي يتبغى أن يكون المسلمون عليه، فالبون شاسع والفرق كبير، فلقد غزتنا هذه المدنية بآثامها وفجورها، وتحكّم بنا أصحابها، حتى لم يبق قطر من أقطار الإسلام إلا وهو متدنس بأقذارها، إن لم يكن إلى حد بعيد فألى درجة غير قليلة.

وبلاد الشام بحكم موقعها الجغرافي أشد البلاد العربية الإسلامية صلة بالأجانب واختلاطاً بهم، فليس بغريب أن تشيع فيها المنكرات وينتشر الفساد ويقل الاعتصام بأحكام الدين، ولكن الغريب هو أن يتخلى القادة والزعماء عن واجبهم إزاء هذه الحالة ويفرّوا من الميدان فراراً مكّن المهاجمين من اقتحام الخنادق واحتلال القلاع والحصون، أما الزعماء فقد وجهوا كل عنايتهم إلى شؤون السياسة وأهمّلوا كل عناية بالدين وأهله حتى استوى عندهم قوته وضعفه.

ويوضح في الاحتفاء بذكرى مولد النبي ﷺ بأن جوهر رسالة النبي ﷺ وسر عظّمته يتجلّى في:

إتمام بناء الصرح الأخلاقي الذي بدأ به إخوانه الأنبياء من قبله حيث قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وكان في حياته كلها مثلاً سامياً لدعوته الأخلاقية في شتى نواحي الحياة، فتجلت عظمة النبوة العملية في طراز ممتاز من الخلق الإنساني الكامل في قيادته لأمته، وسياسته لأمرها، وكفاحه لأعداء الدعوة التي حمل أعباءها»^(١١).

ويعطف من ذلك إلى حاجة الزعماء والقادة إلى تمثّل هذا المنهج الأخلاقي الذي يقود الأمة إلى السعادة والبناء، بيد أنه لا يخفي ألمه من

تفلّت الزعماء والقادة في البلاد من هذا المنهج كأمازة من أمارات الدهاء التي توصلهم إلى المجد...!

«وبعد، أفليس قادة الشعوب وزعمائها وساستها في أشد الحاجة اليوم إلى مثل هذه الأخلاق؟

إن سر الشقاء الذي يعيش فيه العالم اليوم، وسر الاضطراب الذي تعانيه أمتنا في عصرها الحاضر، هو انفصال الأخلاق عن السياسة، فالزعيم أو القائد أو السياسي لا يرى نفسه ملزماً بالتقيد بمبادئ الأخلاق، بل يرى أكثرهم أن التقيد بها عائق من عوائق النجاح، وأن الخروج عنها من أمارات الدهاء الذي يوصله إلى قمة المجد»^(١٢).

وينعنى على الحكومة الوطنية التي بدأت عهدها بتضمير القضاء الشرعي، مكرسةً للعلمانية، ويحذر من هذه البادرة الخطيرة التي تُعدّ عدواناً على دين الأمة، ما كان للحكومة أن تقع فيه..

«نشر «الفتح» في الأسبوع الماضي نص الكتاب الذي وجهته جمعية الشبان المسلمين بدمشق إلى رئيس المجلس النيابي السوري احتجاجاً على تصديق المجلس للمرسوم الاشتراعي القاضي «بانتداب قضاة البداية والاستئناف والقضاة المدنيين للقيام بوظائف القضاة الشرعيين عند شغور وظائفهم بالإجازة أو الإحالة على التقاعد».

نحن لا نريد أن نذهب مذهب الذين يسيئون الظن بهذه البادرة السيئة، بل لا نزال نعتقد أن الحكومة الوطنية لن تفكر في يوم من الأيام بالعدوان على أقدس شيء تقدسه الأمة التي أجلستها على منصة الحكم وسلمت إليها زمام أمورها».

ثم يذكر أعضاء المجلس النيابي بأن الأمة قد رفعتهم إلى هذه المقاعد ليرعوا دينها ومصالحها، فحذار أن يفقدوا ثقتها بالمصادقة على مثل هذا المشروع المناهض لدين الأمة فسيكون حكم التاريخ والأمة قاسياً^(١٣).

٤ - في إرساء المبادئ الإسلامية في التشريعات السورية

كان للسباعي جزيل الفضل في تمتع سورية المعاصرة بالمبادئ التشريعية الإسلامية وذلك عن طريقين وهما اعتماد المبادئ الإسلامية في الدستور السوري، وتغذية المبادئ التشريعية بالمرجعيات القانونية.

(أ) اعتماد المبادئ الإسلامية في الدستور السوري:

لم يمض على إقامة مصطفى السباعي في مدينة دمشق - وهو من مواليد حمص - بضع سنين حتى انتخب نائباً عنها في الجمعية التأسيسية، وكان أحد الأعضاء التسعة الذين وضعوا دستور سورية بعد الاستقلال^(١٤).

في هذا العهد القريب من الاستقلال الذي لم تختمر فيه النظرات السياسية لدى الكثيرين قادةً وشعباً، كان على السباعي أن يقود حركة توعية لوضع دستور يحفظ لبلاد الشام أصالتها وإيمانها..

هذه الحركة التي شملت البلاد كلها، قادها السباعي صحبة إخوانه في التجمع الإسلامي بعزيمة باهرة حتى تمكّن من استبعاد الطابع العلماني عن دستور البلاد، والاحتفاظ بأصالة الأمة وعقيدتها. وكانت الجماهير المؤمنة وفي طليعتها الناشئة المثقفة يترقبون افتتاحيات السباعي في جريدة «المنار» اليومية ويتداولونها في لهفة حارة.

يُجِبُّ لَنَا أَحَدٌ عَارِفِيهِ هَذَا الْمَوْقِفَ بِقَوْلِهِ :

«ووقف وقفات جبارة أمام من أرادوا أن يكرّسوا عِلْمانية الدستور، وعلمانية سورية، البلد الإسلامي، ووقفه الله أن يبرز خصائص الإسلام في الدستور الإسلامي :

١ - الدولة تعلن استمساكها بالإسلام ومثله العليا.

٢ - الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع.

٣ - يهدف التعليم إلى إنشاء جيل مؤمن بالله، معتز بالتراث العربي، متحلّ بالأخلاق الكريمة^(١٥)...

ننقل فيما يلي إلى الأجيال أطيافاً من هذه الحركة التاريخية، لما كان لها من أهمية قصوى في حياة سورية المعاصرة، وما لذلك من انعكاس على دساتير الأقطار العربية التي استقلت بعدها واستلهمت في دستورها التشريعات الإسلامية.

ونشرع من ذلك بالحيثيات الموجبة التي اعتمدها السباعي لإقرار إسلامية الدولة، وذلك من خلال الملخص الآتي للبيان التاريخي الذي ألقاه في المجلس النيابي السوري :

(١) لماذا نطالب بالنص على دين الدولة؟

يقدم السباعي لذلك بالقول :

«إن الدساتير تعبر عن رغائب الشعوب واتجاه قادتها وممثلها في الإصلاح الذي يلزمها. وطريق أمتنا إلى المجد إنما هو في ظلال العقيدة والأخلاق، لذا كانت الدعوة إلى العلمانية والإلحاد تنذر بخطر جسيم على حاضر العرب ومستقبلهم.

والإنسانية اليوم تتجه إلى الروح والإيمان بعد أن حطمت
المادية أعصابها، والدليل على ذلك افتتاح هيئة الأمم
المتحدة حفلاتها بالصلاة.

وإن أحدث الدساتير في بلاد أوروبا قد نصّت على الدين في
دستورها ابتغاء الطمأنينة والثقة..

ولعلنا أحوج إلى الثقة والطمأنينة بعد أن قامت بجوارنا
إسرائيل التي تجند الدين لتجمع شمل اليهود في العالم،
وأقامت قوانينها على أساس التشريع اليهودي.

ويخلص إلى القول: ألسنا ملزمين بأن نعتمد الدين منطلقاً
إلى التحرير والبناء، بعد أن رأينا في معركتنا مع الصهاينة في
فلسطين عام (١٩٤٨م) أن الذين حاولوا أن يستثيروا العرب
عن غير طريق الدين قد فشلوا، وأن الذين جاهدوا
واستسلموا واستشهدوا كان دافعهم الدين والجنة.

وفي كلمة اللورد «صموئيل» زعيم حزب الأحرار البريطاني
الآتية عام ١٩٤٧م ما يفسر الحاجة إلى الدين: «إن الأزمة
الحالية التي تعانيها الإنسانية هي أزمة أخلاقية، ويجب
إنعاش الروح الدينية إذا أردنا التغلب عليها».

وما دمنا في حاجة إلى الإيمان لتغلب على الصعاب
والأزمات فالنص على أن للدولة ديناً أمر ضروري.

(٢) لماذا يجب أن يكون دين الدولة الإسلام؟

١ - القواعد الديمقراطية: «إن القواعد المتبعة في دساتير
العالم وأنظمة الأحزاب ومداولات المجالس النيابية،
وفي العرف العام أن رأي الأكثرية هو المتبع والمعمول به،

فإذا قلنا: إن دين الدولة الإسلام، وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب، لا نكون تجاوزنا الحق، ومضينا على القواعد الديمقراطية.

٢ - المصلحة الداخلية: إن الوضع الداخلي المتأزم في الدولة، وعدم الانصياع للقوانين يحتاج إلى وازع نفسي لدى كل فرد، يحفزه إلى تنفيذ النظم التي تسن له، والشعب في أكثرية المسلمة إذا حمل هذا الوازع الديني مؤثراً صالح العام كان خيراً على الدولة والشعب.

٣ - الوحدة العربية: إن النص على أن دين الدولة الإسلام عامل قوي من عوامل الوحدة بيننا وبين إخواننا العرب الذين تنص دساتيرهم على أن دين الدولة الإسلام كما في مصر والعراق والأردن، أو يقوم واقعها عليه كالسعودية واليمن.

٤ - المصلحة السياسية: لا بد للعرب في واقعهم المؤلم من ميدان نفوذ يساعدهم في الميادين الدولية، يتصل بهم بعاطفة الحب والصداقة، وقد جعل لنا الإسلام ميدان نفوذ يضم مئات الملايين من المسلمين، يحبون قرآننا ولغتنا وتراثنا وثقافتنا، ونموذج لذلك دولة باكستان، رأيناها تدافع عن حقنا في فلسطين في الأمم المتحدة دفاعاً حاراً، وتتخذ اللغة العربية لغة رسمية لها، وما كان دافعها إلى ذلك سوى الإسلام، وهذا ما يملئ علينا تقوية هذه الرابطة مع الدول الإسلامية.

فاتخاذنا الإسلام عماداً للدولة يجعل من الشعوب الإسلامية ميدان نفوذ طبيعي بريء للغتنا وثقافتنا وحضارتنا.

وبعد أن جلا السباعي المكاسب التي تُجنى من اعتمادنا الإسلام ديناً للدولة، تناول الاعتراضات محاوراً ومدللاً، ثم موضحاً منطقية التشريع الإسلامي وعدالته، والتدرج والتقريب بين التشريعات المدنية والنظم الإسلامية، وتجنب الطفرة والارتجال^(١٦).

هذا ولم يقتصر دور السباعي على تأصيل المبادئ الإسلامية في الدستور السوري وحسب، وإنما كان دائب الحرص في كل ميدان على إثبات المبادئ التشريعية الإسلامية وتقنينها، ما استطاع لذلك سبيلاً، واتخذ لذلك الوسائل والأسباب. من هذه الوسائل ما قام به في الخطوة الثانية وهي:

(ب) تغذية المبادئ التشريعية بالمرجعية القانونية:

(١) إنشاء كلية الشريعة:

وابتغاء للتكامل في الخطوات سعى السباعي إلى تعزيز الطريق الأول وهو اعتماد المبادئ التشريعية الإسلامية في الدستور السوري، وذلك بتغذيتها بالمرجعية القانونية..

فكانت جهوده لإنشاء كلية الشريعة بدمشق لتكون المرجعية الحية والدائمة للدستور السوري، تخرج العلماء والفقهاء الذين يرعون المبادئ الإسلامية في البرلمان وقوانين البلاد، ويسهرون على تحقيقها..

«وأراد أن يثبت بذلك جدارة التشريع الإسلامي لتحقيق الخير والتقدم والازدهار لأمتنا ولكل أمة، في عصرنا وفي كل عصر.. ولقد نجحت مساعيه رغم المراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود، فكان أن تم تأسيسها عام ١٩٥٥م، وكان أول عميد لها

إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق واضطلاعه
بكافة المسؤوليات العامة الملقاة على عاتقه كداعية
وصاحب فكرة ..

ولقد عمل منذ تسلمه عمادة كلية الشريعة بالتعاون مع إخوانه
من الأساتذة الجامعيين الذين يؤمنون بفكرته على إرساء
دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية
والأساليب الحديثة لتحقيق الهدف المنشود في تخريج أجيال
من العلماء الدعاة والفقهاء والمدرسين الجديرين بحمل لواء
الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له.

ولعلّ من خطوات التميز والتكامل أن مشروع السباعي العلمي لم يكن
يقف عند المعرفة النظرية، وإنما يُشفع بالروح الدعوية تمثلاً وتحقيقاً
للمبادئ الإسلامية في بناء الفرد والجماعة، فكانت كلية الشريعة، بتأسيسه
وريادته، نموذجاً لهذا المنهج العملي ..

«كان يريد أن يكون خريجوا الشريعة علماء ودعاة، وللدعوة
فن وروح، وإذا كان العلم يصنع العلماء فإن التربية والتوجيه
يصنع الدعاة، ولذلك عني رحمه الله بمناهج التربية والتوجيه
في الكلية. فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص
على بثها في كافة المناهج العلمية، عمل على توجيه الطلاب
توجيهاً مباشراً؛ فأحدث درساً أسبوعياً سمّاه: «قاعة البحث»
وقد تولى بنفسه إدارة هذه القاعة وإلقاء محاضراتها
التوجيهية.

وكان رحمه الله حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث
لأي عذر أو سبب ولو كان المرض الشديد والآلام
المبرحة... وكم كنت أعجب من همته وحيويته وإخلاصه

واندفاعه لأداء الواجب رغم ما يعانيه من الآلام التي تنوء بها
الجبال الراسيات».

(٢) تأسيس موسوعة الفقه الإسلامي:

ثم أثر أن يدعم المبادئ التشريعية الإسلامية، على مستوى علمي
أعلى، فعمل على تأسيس موسوعة الفقه الإسلامي في نظرة مستقبلية
رائدة..

تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة وتبويه وتصنيفه على
أحدث الأساليب المتبعة في أرقى الموسوعات العلمية
والقانونية في العالم لتكون مرجعاً لكل فقيه وعالم، ولتلبى
حاجة التشريع عندما تنهأ الظروف لإقامة كافة تشريعات بلادنا
على أساس الإسلام، وتحقيقاً لذلك ركب كل صعب حتى
أخرج المشروع إلى حيز الوجود، وكان أول رئيس لهذه
الموسوعة التي جمعت خيرة العناصر العلمية والفقهية
والقانونية في الجامعة وبأشرت عملها الكبير^(١٧).

كل ذلك في سنوات من عمره القصير في الزمن الحافل بجلال
الأعمال.

وهكذا يسجّل للسباعي - من خلال ما عرضنا له - الدور التاريخي
الرائد في بناء حياة سورية المعاصرة في كافة مجالاتها الحيوية، تحريراً من
المستعمر، وتوعية للشعب، وريادة إلى طريق الإخلاص في خدمة قضايا
الأمة على خط الأمة الأصيل، وعلى أساس من بنائه الشامخ لمؤسسات
التشريع الإسلامي في البلاد.



المراجع

- (١) انظر: الباب الثاني - الفصل الثاني: السياسي المسلم.
- (٢) انظر: الباب الثاني: مواهبه المتكاملة.
- (٣) حضارة الإسلام، (العدد الممتاز): «دمعة على الرائد العظيم»، عبد الله الشيرازي الصباغ، ص: ٥٨٢.
- (٤) الفتح، السنة: ١٣، العدد: ٦٤٣، عام ١٣٥٨هـ: «البلد المنكوب»، مصطفى السباعي، ص: ١٠٤٤ - ١٠٤٦.
- (٥) سبق أن أفضنا في الجانب الجهادي من منجزات السباعي في مقارعة الاستعمار الفرنسي سواء بالمظاهرات التي قادها أو المعارك التي خاضها. . انظر: الباب الثاني - الفصل الأول: الداعية المجاهد.
- (٦) الفتح، السنة: ١٣، العدد: ٦٣٥، عام ١٣٥٧هـ: «الدعاية الكمالية في سورية»، مصطفى السباعي، ص: ٨٤٩ - ٨٥٠.
- (٧) الفتح، السنة: ١٣، العدد: ٦٣٣، عام ١٣٥٧هـ: «الحالة السياسية العامة في سوريا»، مصطفى السباعي، ص: ٨٠٤ - ٨٠٥.
- (٨) من حديث رسول الله ﷺ: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا»، أخرجه البخاري والترمذي.
- (٩) الفتح، السنة: ١٢، العدد: ٥٧٠، عام ١٣٥٦هـ: «واجبات الأمة في عهد الاستقلال»، مصطفى السباعي، ص: ٤٩٨.
- (١٠) الفتح، السنة: ١٢، العدد: ٥٨٨، عام ١٣٥٦هـ: «خيبة أمل في الحكومة الوطنية»، مصطفى السباعي، ص: ٩٧٣.
- (١١) الفتح، السنة: ١٣، العدد: ٦٣٧، عام ١٣٥٧هـ: «الحالة الدينية في سوريا»، مصطفى السباعي، الافتتاحية.

- (١٢) حضارة الإسلام، السنة: ٣، العدد: ١، ربيع الأول ١٣٨٢هـ/ آب ١٩٦٢م: «درس للقادة والزعماء»، مصطفى السباعي، ص: ٤ - ٦.
- (١٣) انظر: الفتح، السنة: ١٢، ع: ٥٧٦، عام ١٣٥٦هـ: «ماذا يراد بالقضاء الشرعي في سوريا؟»، مصطفى السباعي، ص: ٦٣٤ - ٦٣٥.
- (١٤) انظر: حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «تاريخ دعوة في حياة رجل»، محمد بسام الأسطواني، ص: ٤٨٩.
- (١٥) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «السباعي الداعية»، فتحي يكن، ص: ٥٣٧.
- (١٦) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): «السباعي ومعركة الدستور»، (نص البيان التاريخي)، ص: ٤٧١ - ٤٧٩.
- (١٧) حضارة الإسلام (العدد الممتاز): الأسطواني، ص: ٤٨٧ - ٤٨٨.



الخاتمة

إنَّ ما عرضنا له في صفحات الكتاب الواسعة كان غوصاً على سمات شخصية نادرة ذات أبعاد كبرى ملأت عصرها بالفاعلية الإيمانية والمنجزات الثقافية، يوافينا منها في سطور الكتاب مَعْلَمان رئيسان هما: الشخصية المزدهرة، والعطاء الخصب.

١- الشخصية المزدهرة

إن شخصية السباعي في بحثنا تمثل الازدهار الإنساني والمواهب العليا، حَوّت من السمات والخصائص ما يؤهلها لأن تكون شخصيات عدة في إنسان، فهي:

(أ) شخصية متكاملة:

تزدان الشخصية الإنسانية بموهبة أو نبوغ في طرف من أطراف الحياة، يميّزها، ويبرزها، ويثري شهرتها..

أما شخصية السباعي فلم تكن كذلك؛ إنها مجموعة من القوى والمواهب تكاد لا توجد في واحد، ولعل هذا كان سبب شهرته السريعة والثقة الوطيدة بمواهبه وعطاءاته.

السباعي إن شئت ثوري، مقدم، دائب الحركة، مَوّار العزيمة.. وإن شئت صاحب فكر، رزين، يرقب بأناة، وينظر بروية وهدوء..

السباعي إن شئت سياسي ماهر يحسن التعامل مع الجماهير المتدفقة،
ويحسن خوض جربات المعارك وصخب الجماهير.. وهو إن شئت المفكر
الحكيم الوقور الذي يصدر عن تجارب الحياة وقضاياها في هدوء وروية
بمعزل عن الضجيج..

السباعي إن شئت داعية مجاهد، ينذر وقته وجهده للدعوة إلى الله
وإلى الجهاد في سبيله، خطابة وعراكاً والتحاماً واشتباكاً.. وإن شئت
هو الظريف الفكه يُمتّعك بالطرائف ويسرّي عنك بالمُلح والنوادر،
أو هو الأديب الشاعر يقرض الشعر ويوافيك بطرائف الأدب وأعذب
الكلم..

هو الناقد الذي يديم النظر إلى الناس، ومتقلّب الأحوال والأقوال،
ويؤوب براجح القول وصائب التجربة.. وهو المربي الاجتماعي الذي
ينفق وقته في تربية الفرد وبناء الجماعة.

لقد كانت شخصية السباعي منجماً لا يكاد ينفد من محاسن الخصال
وتلاؤمها في ذاته. أنى طلبتها في ميدان وجدتها تلبي الموقف وتلائم
الحال.

(ب) شخصية إيمانية :

شيدت أفكار السباعي وآماله منذ نعومة أظفاره على الدعوة الإسلامية
ونصرة قضايا الإسلام، وهذا ما عزّز من شخصيته وأغنى عطاءاتها منذ كان
فتى، فقد كان يرتكن إلى قوة كبرى هي قوة العقيدة..

كان إعزاز الإسلام والإيمان الهدف الأصيل الذي يعمل له وتعتمده
مشروعاته. من الإيمان يستمد قوّته وطاقته، جهاده ودعوته، صبره وجلده،
علمه وأدبه.

هذه الشخصية الإيمانية كوّنت أهدافه وأفعاله، ومنحته قوة الثبات والصمود في وجه العقبات والتحديات من سجن وعداء وكفاح، جعلته شعلة مضطربة يقف أمام الخصم ويقارع الأحداث ويصبر على الشدائد، ويجترح عسير المنجزات.

هو مع الله في حله وترحاله، راضٍ بقضائه، ذاكِر نعمته، سائر على منهجه، صابر على ابتلائه، فإذا به - بهذا الإيمان - قوة لا تنفد، وصمود لا يتزعزع، وصبر لا يبلى، وأنس بالله ترفرف له الروح وتبتهج، وشغف واله بالله في مناجاة قدسية رضية، تشف عن منزع روحي عال وذات رفيعة، في تجرد إيماني وخلوص لله، دون ارتقاب مغنم أو جزاء أرضي إلا من الله وحده.

(ج) شخصية فاعلة :

لم يكن السباعي يعرف الراحة والسكون، كأنه شخص صيغ من موار الحركة والفاعلية، ولعل كل جارحة فيه كانت تتوَّب للإنجاز والعمل دون كلال أو انقطاع، بدأب عجيب يعسر على الآخرين أن يجاروه.

كانت روح الجد والدأب تعيش في ذاته، وتبعث فيه الفاعلية والحركة لذةً ونشوة، وبهذه الروح كان ينظر إلى قضايا الأمة بروح الجد، ويتألم كلما رأى أمة تلهو والعدو يخطط لاختراقها والعبث بها.

ولقد أثمرت هذه الفاعلية نتاجاً ثراً على سائر الأصعدة، وفي ميادين العمل على مختلف مجاليه الدعوي والجهادي والسياسي والتربوي والاجتماعي والثقافي والحضاري كما حفظت له آراء وأفكاراً وتجارب وكتباً وبحوثاً ومشروعات ومؤسسات، صافحت عيوننا روعتها في جل سطور الكتاب.

(د) شخصية استقامة سياسية :

دخل السباعي حلبة السياسة في سورية، وغشيانُ السياسة - في الغالب - احتراف وتجارة ومصالح ومنافع. دخل السياسة داعية إلى الله فكانت عنده وسيلة لا غاية، وسيلة لخدمة الدعوة الإسلامية، وميداناً لخدمة البلد وأهله، وتأصيلاً للخط المستقيم في العمل السياسي الذي يعطي ولا يأخذ ويبذل ولا يجتني، مبتعداً عن المظاهر والمناصب والمنافع، فأب من السياسة بما يؤوب به المواطن المخلص بثمرات طيبة، أعلت من ذكره وخلدت أعماله.

* قامت مبادئه السياسية على رعاية عقيدة الأمة وشيادة نهضتها على أساسها، بوصفها قلعة الصمود والفداء.

ويأتي بعد العقيدة عنده مبدأ الإخلاص، والجرأة في الحق، وقد ضرب السباعي في ذلك المثل في توعيته لوهرن القادة وفي مواقفه الجريئة منهم.

ويأتي بعد ذلك مبدأ الاستقلالية، وحرية القول، ومناهضة الاستبداد وتعسف الحكام.

الاستقلالية عنده تلد الحرية، والحرية - في ظل الإيمان - تلد العزة والكرامة والسيادة.

ثم يأتي عنده مبدأ وحدة الوجهة والهدف على طريق أصالة الأمة وسيادة شخصيتها الحضارية، ووحدة كلمتها في وجه الخطوب والمعارك، حيث يلتهب جنانه ولسانه في جمع شتات الأمة، ضارباً الأمثال بانتصار الوحدة ورص الصفوف في معارك الأمة القديمة والمعاصرة.

* دخل السباعي الحلبة السياسية بوعي المؤمن ورشاد المصلح، فحذّر من ادعاءات الغرب ومطامعه - وسط دعاوى الأحلاف في عصره - وأزاح الستار عن أحابيل الاستعمار الغربي ومؤامراته على العالم العربي والإسلامي، فاضحاً دعوة الدول الكبرى إلى السلام وهي تبطن السيطرة والاستيلاء، فدعا بقوة إلى الجهاد لتحرير فلسطين والأقطار المستعمرة، نابذاً روح الاستسلام والاستكانة، والعدو الصهيوني يتحدانا كل يوم.

* دخل السياسة ليؤصل لدين الله في المعترك السياسي، فوفقه الله - بعد جهود مضية - لأن يستصدر من المجلس النيابي التأسيسي السوري مواد تاريخية في الحياة السياسية، أبرزها:

- الفقه الإسلامي المصدر الرئيسي للتشريع.

- الدولة تستمسك بالإسلام وتحارب الإلحاد.

- هدف التعليم إنشاء جيل مؤمن بالله متحلّ بالأخلاق الفاضلة.

كانت هذه المواد التاريخية سفر خلود للسباعي في الحياة السورية، حفظ لسورية وجهها الإسلامي، وصان بها البلد من لوثات التغريب والانزلاق وراء حبائله، وذلك بإرساء منهج الأصالة والإيمان في أول مجلس نيابي بعد الاستقلال، بما جعلها أساساً للبناء السياسي المستقيم.

ولما كانت سورية أول بلد عربي نال استقلاله الكامل وأرسى مجلسه التأسيسي هذه المواد التاريخية، فكأنه وضع للبلدان العربية المستقلة بعده أساساً وبنیاناً للمنهج الإيماني في دساتير الدول العربية الشقيقة، سيذكر له على مر الأيام.

(هـ) شخصية مسؤولة :

كان إحساس السباعي بالمسؤولية والتبعة شعوراً غامراً يمتلك نفسه وأعصابه .

هو دائم التفكير في مصلحة المسلمين ، مستشعراً واجبه نحوهم ، يديم التفكير في قضاياهم والعمل على نصرتهم ، يفضي به التألم لمآسيهم إلى أن يحرم السرور على نفسه والابتهاج بالعيد إذا كان هناك قطر إسلامي منكوب .

وقد رافقه هذا الشعور بالمسؤولية طوال سني حياته بحيث لا يجد وقتاً للراحة إلا وقد شغلته إحدى المسؤوليات .

كانت قضايا الإسلام ترعى قلبه وتأكل فؤاده . .

(و) شخصية مثقفة :

كانت ثقافة السباعي في الأصل شرعية ، ولكنه كان دائب الاطلاع على العلوم والآداب وممارستها ، لا تكاد تجده في فراغه إلا وفي يده كتاب ، وهذا ما جعله موسوعي الثقافة ، أخذ بالاطلاع من أوسع أبوابه ، وغشي ميدان التأليف بغرر من كتبه ومؤلفاته بما خوَّله أن يبدع في الثقافات المختلفة ، وأن يجيب على كل علم أو فن .

ولقد صبَّت هذه الثقافة المتنوعة جداول عطاءاتها في خطب السباعي وكتبه ومقالاته ، وفي مشروعاته ومؤسساته ، فكانت إسهاماً ثقافياً فذاً في حياة أمته وقطره السوري ، نقل بها جماهير الأمة من درك الجهل بالإسلام والغفلة عن قضاياها إلى مراقي الوعي والصحو والدعوة والجهاد .

(ز) شخصية بعيدة النظر :

النظر البعيد سمة من سمات القيادة والريادة، فالقائد يرتاد لجماعته أسرار الطريق، ويخطط لهم السبيل، ويسبقهم إلى اختبار النتائج. كان السباعي من ذلك على نصيب وافر كبير، يرقب المستقبل، ويستنبط منه الوقائع،، ويكسوه بالحقائق، ويفاجئ الجميع بنظرات جديدة.

ولعل فيما أصدره من مؤلفات وما كتبه من أبحاث يطلعنا على بعض ثمار عقله السَّابِق وتجاربه الرائدة، وإن دخوله وإخوانه المعترك السياسي في سورية بُعيد الاستقلال، وإرساء المواد الإسلامية في الدستور وسوى ذلك من المنجزات الفريدة كان ثمرة لنظره البعيد.

٢ - العطاء الخصيب

لقد كان عطاء السباعي خصيباً في كل ميدان راده أو أسهم فيه من خلال ما كان يمتلك من مواهب عليا وشخصية رائدة معطاء.

ويتألق لنا عطاؤه في ميادين كثيرة، نعرض منها لميدانين هما: الحقل السياسي، والحقل الثقافي.

أولاً: عطاؤه في الحقل السياسي :

لم يقصر السباعي عطاءه السياسي على بلد دون آخر، فقد كان يعم نشاطه السياسي الأقطار الإسلامية كلها، عوناً وفداءً، وفي مقدمتها قطره السوري.

(أ) لقد أصفى السباعي قطره السوري جهده وجهاده منذ نعومة أظفاره، لم يأله بذلاً وفداءً، أسهم في تحرره من الأجنبي، وأسهم في بناء حياته على قواعد راسخة من الكرامة والحرية والتقدم في ظل مبادئ الإسلام وقيمه، نذكر من ذلك :

* الثورة على الاستعمار الفرنسي، وقد اتخذت هذه الثورة عنده أشكالاً عدة حتى انتزاع الحرية والاستقلال، وذلك بقيادة المظاهرات الشعبية وإلقاء الخطب النارية مما أدى إلى اعتقاله مرّات، وكان بعضها قاسياً جداً.

* الدعوة إلى استقلالية الشعب وحرّيته ومقاومة الاستبداد والديكتاتورية بما أورثه الاعتقال مرّات.

* الفوز للدعوة الإسلامية في الدستور السوري بالمواد الإسلامية التاريخية، حيث كان أحد تسعة وضعوا الدستور السوري، وكان كسباً عظيماً حفظ لسورية وجهها الإسلامي.

* كشف الدعاية الكمالية، ومؤامرة تسليم لواء الإسكندرون وسلخه عن سورية. ولعله من القلائل الذين ندّدوا حينها بخروج بلد من العروبة والإسلام إلى التتريك والعلمانية.

* التحذير من أخطار العلمانية على سورية، ومن التردّي الخلقي الموجه على بلد حديث الاستقلال والبناء.

(ب) لقد كان السباعي - وهو يولي عطاءه السياسي القطر السوري - يوالي نصرّة الأقطار العربية والإسلامية ومدّها بجهدته السياسي وافتدائه، من ذلك:

* دعمه استقلال الجزائر وإشادته بصمود الشعب الجزائري مستنهضاً دول العالم في المحافل الدولية للوقوف في وجه المجازر الوحشية التي تنصبها فرنسا المستعمرة للشعب الجزائري، واتخاذ تجربة صمود الشعب الجزائري حتى دحر الاستعمار الفرنسي وطرده نموذجاً لانتصار الشعب المؤمن المجاهد.

* - كان من أوائل من عملوا للقضية الفلسطينية، فقد طاف البلاد السورية مراراً يعرف بقضية فلسطين، ويثير الجماهير ويحفزها على النهوض لتحريرها:

- قاد المجاهدين في معارك فلسطين ضد الغزو الصهيوني عام ١٩٤٧م، ونهض وإخوانه بشكل منقطع النظير، للدفاع عن المسجد الأقصى، فخاض وإخوانه معركة القدس الكبرى التي صانت القدس والمسجد الأقصى - آنذاك - من رجس اليهود، قبل نكسة الجيوش العربية عام ١٩٦٧م.

- ظل يذكر بكارثة عام ١٩٤٨م وأخذ العبرة منها بالإعداد التام للعدو، وعدم الانصراف إلى اللهو والتوافه، ويدعو إلى تكريس الطاقات والإمكانات للمعركة القادمة..

- جعل قضية فلسطين قضية العرب الأولى، وعاش القضية بروحه ودمه حتى آخر لحظة من حياته وهو يحفز الأمة ويدعوها للإعداد وصيانة المسجد الأقصى من الضياع.

* - دعم ثورة الشعب المصري على الاستعمار البريطاني حيث قاد مظاهرات الطلبة تنديداً بالاستعمار مما أدى إلى اعتقاله وترحيله.

- حين ثار الشعب المصري على الاستعمار البريطاني ونازله في القنال صرح بتقديم عشرة آلاف متطوع من سورية ليحاربوا مع إخوانهم في القنال مما أدى إلى اعتقاله من قبل حاكم سورية العسكري الشيشكلي.

* وقف بجانب عُمان حين ثورتها على الاستعمار وفتح باباً خاصاً للثورة العُمانية في مجلته حضارة الإسلام.

* ناصر طرابلس المغرب ضد وحشية الاستعمار الإيطالي واستعدى عليه كافة الفعاليات الحرة.

* دعم جهاد الشمال الإفريقي في تونس والجزائر والمغرب ضد الاستعمار الفرنسي.

* يُذكر له تأييده استقلال باكستان، وإشادته بالبلد الإسلامي الجديد وزيارته له وتعزيزه لاستقلاله، ودعوته إلى عونه ورفده بالخيرات، ومناصرته لقضاياه، مما كان حافزاً لباكستان أن تقف في المحافل الدولية بجانب القضايا العربية وفي مقدمتها قضية فلسطين.

* مناصرته الجاليات الإسلامية وعونه لها في سائر أنحاء العالم.

ثانياً: عطاؤه في الحقل الثقافي :

جاء السباعي آفاق الثقافة والمعرفة باطلاع واسع متنوع، وأثمرت مطالعته وتجاربه الثقافية مؤلفات غزيرة العطاء، متنوعة الألوان، تظاهرها خطبه ومقالاته الغزيرة العدد، وتتألق في الميادين الآتية :

(أ) في الفكر الإسلامي :

إن مهمة السباعي الأساسية في الدعوة الإسلامية التعريف بالإسلام بوصفه النظام الصالح للحياة، والمتسامي بها، لذا كانت مقالاته وخطبه وكتبه ومشاريعه تجلو هذا الجانب المضيء من تحكيم الدين وشرعه في سائر جوانب الحياة، على ما ارتبضه الخالق للبشر، وليس مجرد صلة بين العبد وربّه.

وقد دُلِّل في أبحاثه على أن الإسلام منهج الإصلاح الإنساني ومصدر السعادة للحياة البشرية، وهو ذو جدارة واقتدار على حل معضلات البشرية وإرساء الحياة الإنسانية على قواعد سليمة، مبرزاً دور الإسلام العالمي في

القرن السابع الميلادي حيث انتشل البشرية من الجهالة والتفكك والوثنية، وارتقى بالعرب في فترة وجيزة، من جاهلية منعزلة إلى أكبر حضارة عرفها التاريخ.

ثم يعرض لدور الإسلام المعاصر فيبشر العالم بأن أهداف الإسلام كفيلة بإسعاد الشعوب، إذ تُهدي لها الكرامة الإنسانية ونظافة الضمير، وتحقق بينها الأخوة الإنسانية. وفي تقاطع مع العلمانيين يصرح بأن العقلية الحديثة تأتلف مع الدين وأن تجربة أوربة مع الدين غير تجربتنا، من الخطأ التمثل بها، وأن غياب الدين هو سبب تأخر أمتنا.

ومن قلب المعامع والمحن يبشر السباعي بالامتداد الشعبي للإسلام المعاصر وقدوم الصحوة الإسلامية. ويعد عقدين من بشراه تصبح الصحوة الإسلامية الشعبية واقعاً حياً في كل قطر من أقطار العالم الإسلامي.

(ب) في السُّنة المطهّرة:

نهض السباعي بمهمة جُلّي في بحث كامل هو «السُّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» والبحث - حسب عنوانه - يتضمن التعريف بالسُّنة وجهود علمائها في تدوينها وعلومها ومكانتها في التشريع الإسلامي.

ولكن، عبّر هذه البحوث، كان للسباعي مهمة علمية خاصة، خلّدها له الزمان، وهي: إعلاء شأن السُّنة، والرد على افتراءات المستشرقين المغرضين خلال رحلته العلمية إلى أوروبا، حيث كشف أكاذيب كبارهم ودحض مزاعمهم المريبة عن السُّنة الشريفة بالأدلة العلمية والبراهين التاريخية، وأظهر أطراف المؤامرة على السُّنة المطهرة وما وراءها من أبعاد، ضمّن ذلك كتاباً جديداً هو «الاستشراق والمستشرقون» كما ردّ على بعض المتغربين الذين أساءوا إلى السُّنة فدحض ريبهم وكشف جهالاتهم.

(ج) في النظر السياسي:

كان على السباعي أن يقدم شرحاً وافياً لنظرة الإسلام السياسية في عهد الاستقلال، حيث التيارات السياسية المختلفة تتجاذب البلاد، فقدم الحثيات الآتية لإقرار إسلامية الدولة في سورية:

- ١ - رأي الأكثرية هو المعمول به سياسياً وديمقراطياً في العالم، والإسلام دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب.
- ٢ - حاجة البلد إلى الوازع الديني حافزاً للعمل وحارساً للتنفيذ.
- ٣ - الإسلام عامل وحدة متينة مع إخواننا في الأقطار العربية.
- ٤ - الإسلام يمد نفوذنا إلى العالم الإسلامي، حيث تشدنا مع أقطاره رابطة واحدة، متعاونة متآزرة.

(د) في النظر الاجتماعي:

كان السباعي يحمل مشروعاً اجتماعياً في حقل الدعوة الإسلامية ضمّنه عدداً من كتبه، وأبرزها «أخلاقنا الاجتماعية».

ويحقق المشروع ما يأتي:

* إرساء الشخصية المستقلة على أساس من الأصالة في أبناء الأمة، وتحصينها ضد الغزو الفكري الأوربي الذي كان يعمل على سرقة عقول أبنائنا وبناتنا، وإفراغها من دينها وشخصيتها، ليسهل عليه احتواؤها والتهامها. من ذلك تحذيره أبناء الشعب من خطر المدارس الأجنبية التي تذل عقول أبنائنا للمستعمر الأجنبي.

كما يحذر من العادات الأجنبية الوافة التي تكرر التبعية للأجنبي والتراجع عن شخصيتنا الحضارية.

* يقدم من مطالعته وتجاربه قواعد عامة لازدهار الحياة الاجتماعية في ظل المبادئ الإسلامية، في الحركة، والاعتدال، والحرية، والعطاء، وصيانة الطاقات، ويضع برنامجاً مفصلاً للإصلاح.

* ويأتي في ذروة مشروعه الاجتماعي تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في سورية التي أصبحت، بتوجيهه، مركز إشعاع ثقافي، ومزدهقاً لنشاط الشباب المسلم، حيث أخذت موقعاً رائداً في البلاد، وشاركت في حمل المسؤولية، وأثبتت وجودها الإسلامي، وبثت الوعي الاجتماعي بين أبناء الأمة، وأسهمت إسهاماً ملحوظاً في نهضة البلاد ثقافياً وحضارياً.

* كان جل نشاط السباعي منصرفاً إلى الجانب التربوي للشباب المسلم، يتعهد به بالمحاضرات والدروس، وينشئ له الأندية ويقيم المخيمات. وكان يُعنى عناية خاصة بالفتاة المسلمة فيخصها بكتاب وبرامج، وتلتحق الفتاة بالعمل الإسلامي كالفتى وتزاول الدعوة، كما كان يصرف عنايته إلى الأسرة المسلمة، بوصفها خلية المجتمع الأولى، فيرعى باهتمامه قضايا الأمومة والزوجية والبنوة وتربية الأولاد على مستوى رفيع.

* كان السباعي يحيط فئات الشعب من مثقفين وعمال وحرفيين وفلاحين بعنايته وبرامجه وتوجيهه إلى جانب تبنيه لقضاياهم في المجلس النيابي لإنصافهم وسداد حقوقهم ورفع مستواهم.

(هـ) في الأدب:

كان السباعي فيما يكتبه من مقالات وما يتهدّر به من خطب، وما يؤلفه من كتب أديباً موهوباً، تشع عبارته في النفس والعقل فتفتح فيهما منافذ التأثير والإلهام.

ترك لنا في آثاره كلها أسلوباً فنياً موحياً يوقّع على القلوب بالاستجابة
والرضا في افتنان عفوي يأخذ بمجامع الأفئدة.

جمع بين أدب المقالة والبحث والخاطرة والأقوال السائرة، ووافانا
شعره الوجداني بموهبة شعرية رضية.

تطالعنا مختاراته الأدبية بذوقه الأدبي الرفيع واطلاعه الواسع على
أمهات الكتب الأدبية.

ولقد شهر بأدبه الخطابي، فكان لخطابته أسر السحر في النفوس،
وكانت رسولاً لفكرته ودعوته، يجول بها ما يشاء في القلوب، ثم يؤوب
بالهدف الذي ينشده في عذوبة واستجابة واستلهاً.

وهكذا كان لطابع خطابه الأدبي الأثر الأكبر في سيرورة فكرته
وحسن توصيله في طلاوة من العبارة وافتنان في البيان.

(و) في الحكمة وتجارب الحياة:

الحكمة عند السباعي محصلة لعمر حافل بممارسة الحياة في
أصعدتها المتنوعة. إنها حكمة تختزل تجارب الحياة في كلمات، أهداها
لعصره في كتابه «هكذا علمتني الحياة»، فكان ينبوعاً فياضاً بالحكم
الرفيعة.

إن حكم السباعي المسداة لا تكاد تغادر باباً من أبواب الحياة
إلا طرقت، يطالعنا فيها بفلذات حية من بدهة الإيمان وإشراقه في القلوب
الحية وانسيابه فيها برد طمأنينة وعز طاعة، واستبشاراً بالقضاء والقدر،
وإيماناً بحكمته.

كما يطالعنا بثقل وزن كلمة الحق ويانع بذرتها، وبآفاق الحرية
والتححر الوجداني. ويوافينا بعالم الأسرة الرضي الذي ترفرف في سمائه

مشاعر السعادة والحب، ثم يمحض النصح لمن يروم الحياة الإنسانية الفائزة الهائلة بخير الدارين بالمنهج القويم، ثم يوافينا في عالم الحقائق بأسرار السعادة والظفر، وسبل الفوز والمجد، وعلائم الجد وعلو الهمة وارتقاء القمة.

(ز) منجزاته الثقافية:

كان السباعي وهو يرسم القواعد التربوية الاجتماعية لأُمَّته ودعوته إلى الله، يترجم القول إلى عمل، والمشروع إلى مؤسسة؛ تكريساً لنهضة الأمة وازدهارها على أساس من مبادئ الإسلام وشرعته، لذا أنشأ المؤسسات الثقافية التي تحتضن نشر الأمة وترعاه على مثل الإسلام وقيمه، نذكر منها:

* المعاهد الثانوية، التي أنشأها على أسس من التعاليم الإسلامية والاعتزاز بمبادئ الإسلام وحضارته الزاهرة.

* كلية الشريعة بدمشق، وقد أعدّ مناهجها الإسلامية لتخريج دعاة للإسلام وقادة المستقبل ومرجعاً للمواد الإسلامية في الدستور السوري.

* موسوعة الفقه الإسلامي، وكانت مؤسسة ثقافية رفيعة استقطبت فقهاء العالم الإسلامي. وأثرت المجتمع الإسلامي المعاصر بدائرة معارف فقهية تزود أرباب العلم بأحكام الإسلام، مصنفة مبوبة في قنوات حضارية حديثة، تحيي في النفوس جدارة التشريع الإسلامي بريادة العصر الحاضر، وتوافينا بمعجم حضاري جديد.

* عكف طيلة حياته على إصدار الصحف والمجلات الإسلامية التي كان لها دور رئيس في بث الوعي الإسلامي في جماهير الشعب على مختلف مستوياته، تملأ القلوب والنفوس بحقائق الإسلام.

وفي الختام، نرجو من العليّ القدير - سبحانه - أن يتقبل منا عملنا
وأن يُزجى نفعه ورجاؤه للعرب والمسلمين، وأن يكون نشر سيرة الداعية
الكبير، مؤسس الدعوة الإسلامية في سورية خيراً وبراً على البشر
أجمعين.



مآثر السباعي

للشاعر شريف قاسم

Wm. H. H. H. H.

Wm. H. H. H. H.

- ١ - في كلِّ وارفة عطاؤك مثمرُ
- ٢ - طال النوى وصدى جهادك لم يزل
- ٣ - ويمرُّ طيفُك مشرقاً في كربنا
- ٤ - ويطيبُ ذكرك في أرومات العلا
- ٥ - والغوطةُ الفيحاءُ يهفو سمعُها
- ٦ - وزرعتها عزاً حقول شامنا
- ٧ - متألِّقاً بيقينِ قلبِ مؤمنٍ
- ٨ - وعلى محيَّك الشموخُ تعطَّرتْ
- ٩ - يا حاملَ الشرعِ الأغرِّ لأمةٍ
- ١٠ - يخطو بطلعتك البهيَّة جندها
- ١١ - ديوانُ مجدك - يا سباعي - فخره
- ١٢ - يا فارساً حاز المحامد ما نأى
- ١٣ - هابتَه أفئدةُ الطغاة، تنكروا
- ١٤ - سادَ البلادَ محبةً، وتهلَّلتْ
- وبجلَّق مسكُ يفوح وعنبرُ
- سيفاً يُسلُّ وثورةُ تتفجَّرُ
- فإذا الدُّجَّةُ - يا سباعي - تُقمرُ
- ونهارُ سفرك بالفضائل يزخرُ
- لرفيفِ روحك إذ تمُرُّ وتخطرُ
- فعلى روابيها يفيضُ ويُنشرُ
- لا تنثني، لا تنحني، لا تعثرُ
- أنفاسُه، وشذاهُ منك وأكثرُ
- رغمَ العنا والكيد لا تتقهقرُ
- وشبابُها في همَّةٍ لا تُكسرُ
- يُتلى بالسنةِ القلوبِ ويؤثرُ
- عمَّا بميدانِ البطولة يُذكرُ
- لشريعةٍ ترجو شذاها الأعصرُ
- جنباتها، وبوجهه تستبشرُ

* * *

١٥- قال السباعي في (الفرائد)^(١) حكمة
 ١٦- بطلٌ مضى لله بعد جهاده
 ١٧- قاذ الشبَاب إلى الجهاد ثباته
 ١٨- لبوا فلسطين التي لم ينتصر
 ١٩- فتراهم - ويد السباعي شمرت -
 ٢٠- علمت يهود بآسهم، وبحبهم
 ٢١- لا يرهب الأعداء غير عصابة
 ٢٢- يتسابقون إلى الجنان كأنهم
 ٢٣- وأمام جحفلهم أمير شامهم
 ٢٤- والقائد المقدام يرفع ذكره
 ٢٥- فإذا بها نادى رأيت كتائباً
 ٢٦- ولقد علمت عن السباعي بره
 ٢٧- أسفاره نورٌ تضاء بها النهى
 ٢٨- قد صاغها القلب الندي لأمة
 ٢٩- ومشى بأربعها يجدد عزها
 ٣٠- هذي دمشق إليه يصغي أهلها
 ٣١- وإلى الفرات العذب جاء محدثاً

ولنعمة ما يسدي الحكيم ويأمر
 والقدس^(٢) تشهد والمعارك تذكر
 فهمو الذين إلى الفداء استنصروا
 لحقوقها إلا الشباب المؤثر
 كالأسد في نفع المعامع شمروا
 لشهادة في الله إن هم كبروا
 هي بالجهاد وبالشهادة أجدر
 طير، ومن حلل النعيم تخيروا
 إن الأمير هو التقي الأطهر
 حباً لأمتيه، وصدق أوفر
 هبت إلى الميدان لا تتأخر
 والفضل - في سير الندى - لا ينكر
 وبها الفوائد بالفرائد تسفر
 كاذ الجفاف بأهلها يستأثر
 فيه مرابع أهلها تستنصر
 وحماة مع حلب الأباة ودمر
 يدعو، ودعوته به لا تخسر

(١) كتاب للسباعي بعنوان: «الفرائد من الفوائد»، فيه مجمع للحكم البليغة وجوامع الكلم.

(٢) قيادة السباعي لكتيبة المجاهدين في فلسطين عام ١٩٤٧م ذوداً عن الأقصى والقدس.

والله للعلماء في الغد يؤجر
للعاملين بعلمهم والكوثر

* * *

في المسلمين وخطبهم يتسعر
باتت بإرهاب اليهود تدمر
وبقلب كل مدينة قد عسكروا
يأتي إلى النشب المباح قوبصر!!
(لحماس) لا تلوي ولا تتأخر
أن المروءة شرعة لا تقهر
لتعود تلحفهم بذل خبير
عانى وإن طال الطريق سينصر
مارده يوماً ظلام أوعر
حرباً، وعشت لمجدها تستنصر
واليوم بعدك للبطولة شمروا
بغى اليهود، وأهلها لن يقهروا
جلد على لقياء العدا وتصبر

* * *

هي بالفرائد والمآثر تزخر
يوماً لطاغية لها يتنكر
بوفائهم علم، ودين نير
قمم بأعلى قاسيون تكبر
وله على صدر البطولة منبر
فيها نعيم لا يزول وأنهر

٣٢- فاهناً - أبا حسان - علمك نافع
٣٣- جنات عدن خيرها لم ينصرم

٣٤- ولقد ذكرتك والنوائب جمّة
٣٥- هذي فلسطين التي عليها
٣٦- وبغى اليهود ففي رباها ماتم
٣٧- ولفيف فجار أتوها مثلما
٣٨- لولا الحجارة أنطقتها دعوة
٣٩- هي، لا المدافع، أنبات أعداءنا
٤٠- عادت مع الفجر الكريم خيولنا
٤١- وثبات إخوتنا بمقدسنا الذي
٤٢- وجهادنا ماضٍ يؤججه الفدا
٤٣- لو كنت فيها (يا سباعي) خضتها
٤٤- ورجال دعوتك الأباة تركتهم
٤٥- وهنا بقديسك والحجارة بددت
٤٦- ولأحمد الياسين مع إخوانه

٤٧- يامصطفى: عاشت خمائلك التي
٤٨- طابت بك الشام التي ما أذعن
٤٩- ووقفت بين شباب جامعة علا
٥٠- وبك ازدهى وجه الشام، وهلك
٥١- ذكرى تقي تستشير قلوبنا
٥٢- يا رب فاجعل في الجنان مقامه

وكانها مسكٌ يفوحٌ وعنبرٌ
 مثوى مآثره وعيناً تسهرُ
 وغداً يزولُ بعادُنَا والقيصرُ
 وعلى الغصونِ الوارفاتِ سنسمرُ
 بالفتح لهفته ترفٌ وتزهرُ
 ننسى هُماماً بالمفاخر يُذكرُ
 لك من فرائدك الأثيرة ومنبرُ

* * *

لك في المآثر وجهها لا يُنكرُ
 ما انثُلَ مجدٌ - في يديه - معنبرُ
 قلمٌ - يمسُ مداده - متنورُ
 عقداً نفيساً للبطولة يُذكرُ
 وكأنها للظامئين الكوثرُ
 آثارها منهم فتى يتحدّرُ
 ... التي بفدائها تتأزّرُ
 مُدُنُ تراءت والليالي تقمرُ
 عزمات قلبك عودها والمِجمرُ
 لي شاهد الأعمى السّنا والمُبصرُ

٥٣- في حمص^(١) من ذكره أعذب سيرة
 ٥٤- ودمشق^(٢) يراها الإله ولم تزل
 ٥٥- يا شامُ معذرةً فقد طال النوى
 ٥٦- وتُشقيقُ الأطيّارُ تسكبُ شجوها
 ٥٧- ونرى بغوطتك الجميلة ركبنا
 ٥٨- عفواً أبا حسان لن ننساك لن
 ٥٩- فاهناً بجنّات النعيم

٦٠- أغنى أبو النّضر^(٣) المحامد سيرة
 ٦١- وأبانَ فيها جوهرَ الرجل الذي
 ٦٢- فالهاشميُّ الفدّ فاضَ بفكره
 ٦٣- ما استشرَفَ الأمجاد إلا صاغها
 ٦٤- جمعَ الفرائد والفوائد والرؤى
 ٦٥- تسقي بنيتها، ما سلّوها، أو جفا
 ٦٦- ما زالت الفيحاء والشهباء والأخرى ...
 ٦٧- أخواتها ونهارُ مجدٍ حافلٍ
 ٦٨- بوركت يا هذا الأديبُ، وطاب في
 ٦٩- أزجت صحائف ما خبت أنوارها



(١) بلد مولد السباعي ونشأته.

(٢) ميدان جهاده الدعوي والسياسي.

(٣) المؤلف.

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٧ المقدمة

الباب الأول

حياته وشخصيته

١٥ تمهيد

١٧ الفصل الأول: نشأته ومراحل حياته

١٩ ١ - ولادته وأسرته

٢٠ ٢ - فتوته اللامعة

٢٠ ٣ - طلبه للعلم

٢٢ ٤ - مقاومته الاستعمار الفرنسي

٢٣ ٥ - قيادته للجمعيات

٢٣ ٦ - دراسته بالأزهر: نشاطه واتصالاته بمصر

٢٦ ٧ - كتابته في جريدة الفتح

٢٧ ٨ - عودته بالعالمية وقيادته الحركة الإسلامية

٢٨ ٩ - اعتقاله من الاستعمار الفرنسي

٢٨ ١٠ - إثارة قضية فلسطين

٢٩ ١١ - قيادته المقاومة المسلحة بحمص

٣٠ ١٢ - تأسيسه جماعة الإخوان المسلمين

٣٠ ١٣ - إخراج جريدة المنار اليومية

- ١٤ - قيادته كتائب المجاهدين لفلسطين ٣٢
- ١٥ - فوزه بالنيابة ودوره في صياغة الدستور ٣٤
- ١٦ - منحه الدكتوراه في التشريع الإسلامي ٣٥
- ١٧ - مناصرته مجاهدي القتال واعتقاله ٣٦
- ١٨ - تأسيسه كلية الشريعة والموسوعة ٣٧
- ١٩ - إخراجه الشهاب والمسلمون ٣٩
- ٢٠ - ابتعائه إلى أوربة وردّه على المستشرقين ٤١
- ٢١ - الانتخابات التكميلية والتزيف ٤٢
- ٢٢ - مرضه بالشلل ٤٢
- ٢٣ - فترة الخصب وقاعة البحث ٤٥
- ٢٤ - حجّه الأخير ٤٦
- ٢٥ - استجابته لنداء ربه ووفاء البلد في تشييعه ٤٧
- ٢٦ - أولاده ٤٩
- الفصل الثاني: طبيعته وشخصيته ٥٣
- أولاً: المؤثرات التي أسهمت في تكوين شخصيته ٥٥
- (١) المكونات الذاتية لشخصية السباعي ٥٦
- ١ - أسرته ٥٦
- ٢ - والده ٥٧
- ٣ - ذكاؤه وفطنته ٦١
- ٤ - حساسيته المرفهة ٦١
- ٥ - طموحه الوثاب ٦١
- ٦ - جذوة الإيمان ٦٢

- (ب) العوامل الموضوعية التي أسهمت في تطوير شخصيته ٦٢
- ١ - مجالات كفاحه ٦٣
- ٢ - اتصاله بكبار الرجال ٦٣
- ٣ - قيادته الدعوة الإسلامية ٦٤
- ٤ - مزاولته العمل السياسي ٦٥
- ٥ - الاطلاع الواسع ٦٥
- ثانياً: محاور شخصيته ٦٦
- (١) شخصية السباعي العقدية ٦٦
- ١ - حرارة الاعتقاد ٦٧
- ٢ - تعبده لله ٧٠
- (١) خشوعه وتقواه ٧٠
- (٢) رضاؤه بقدر الله ٧٣
- (٣) مناجاته ودعاؤه ٧٥
- ٣ - الشعور بالتبعية ٨١
- ٤ - الإخلاص ٨٦
- ٥ - التضحية والبذل ٨٨
- ٦ - الصمود والثبات ٩٢
- ٧ - العفة والزهد ٩٤
- ٨ - التجرد وصفاء النفس ٩٦
- ٩ - روحانيته وشفافية نفسه ٩٨

(ب) شخصية السباعي القيادية	١٠٢
١ - شمول الطاقات	١٠٣
٢ - الشجاعة والجرأة	١٠٥
٣ - الذكاء والفطنة	١٠٨
٤ - روح الجهاد والكفاح	١١٠
٥ - الدأب والمواصلة	١١٣
٦ - الجد والعمل	١١٥
٧ - الإتيقان	١١٦
٨ - الإنصاف	١١٧
٩ - الفيض والعطاء	١١٩
١٠ - النظر البعيد	١٢١
(ج) طبيعته الوجدانية	١٢٤
١ - التفاؤل	١٢٥
٢ - الصبر والجلد	١٣٠
٣ - الحلم والسماحة	١٣٣
٤ - المروءة والوفاء	١٣٦
٥ - الدماثة والتواضع	١٣٧
٦ - صلاته الأخوية	١٤١

الباب الثاني: مواهبه الشاملة

تمهيد	١٥٥
الفصل الأول: الداعية المجاهد	١٥٩
القسم الأول: السباعي الداعية	١٦١
١ - تعريفه بالدعوة والدعاة	١٦٢
٢ - إنجازاته الدعوية ومواقفه في سورية	١٦٨
٣ - دوره الدعوي في العالم العربي والإسلامي	١٧٩
٤ - مشاعره نحو جنود الدعوة	١٨٠
٥ - أمله الدعوي الذي تحقّق	١٨١
القسم الثاني: السباعي المجاهد	١٨٢
١ - تأصيله معاني الجهاد في النفوس	١٨٣
٢ - مواقع جهاده	١٨٦
(أ) جهاده الاستعماريين الفرنسي والبريطاني	١٨٨
(ب) توعيته للقضية الفلسطينية	١٩١
(ج) قيادته المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين المستعمرين	١٩٤
(د) قيادته المجاهدين في معارك فلسطين	١٩٤
(هـ) جهاده ضد الديكتاتورية والاستبداد	٢١٥
٣ - جهاده إبان مرضه	٢١٧
٤ - جهاده في قضايا العالم الإسلامي	٢٢٠
٥ - نموذجه الجهادي	٢٢١

٢٢٧	الفصل الثاني : السياسي المسلم
٢٢٩	١ - تنظيره السياسي
٢٣٠	(أ) ما السياسة ؟
٢٣٤	(ب) الفطنة السياسية
٢٤٧	(ج) الدين والدولة في الإسلام
٢٥٧	٢ - مبادئه السياسية
٢٥٧	(أ) عقيدة الأمة أساس نهوضها وعزتها
٢٥٩	(ب) الإخلاص في الممارسة والجرأة في الحق
٢٦٩	(ج) الاستقلالية
٢٧٦	(د) توحيد الوجهة والهدف
٢٨٥	٣ - نصرته قضايا العالم العربي والإسلامي
٢٨٥	(أ) رعاية المؤتمر الإسلامي الشعبي
٢٨٦	(ب) دعم باكستان الإسلامية الناشئة
٢٨٦	(ج) مناصرة الأقطار العربية والإسلامية
٢٨٧	(د) رعايته قضية فلسطين
٢٩٨	٤ - مواقف رفيعة في حياة السباعي
٣١١	الفصل الثالث : الاجتماعي المرَبّي
٣١٣	(أ) في القواعد التربوية والاجتماعية
٣١٣	١ - الاتجاه التربوي
٣١٤	(أ) إرساء الأصالة والشخصية المستقلة
٣١٤	(ب) مقاومة التغريب والاستعمار الفكري

٣١٩	٢ - المبادئ التربوية الاجتماعية
٣٢٠	(١) قواعد عامة
٣٢٣	(٢) برنامج للإصلاح الاجتماعي
٣٢٤	(ب) في الجانب التربوي العملي
٣٢٥	١ - إنشاء المؤسسات الثقافية
٣٢٦	٢ - إعداد الدعاة
٣٢٦	(١) أسلوبه التربوي
٣٢٧	(٢) التربية الدعوية
٣٣٥	٣ - تربية الناشئة المسلمة
٣٣٥	(١) الشباب المسلم
٣٣٦	(٢) الفتاة المسلمة
٣٣٧	(٣) الأسرة المسلمة
٣٤٠	٤ - بناء كوادر المجتمع
٣٤٠	(١) المثقفون
٣٤٠	(٢) العمال
٣٤٠	(٣) الفلاحون
٣٤١	٥ - مشاريع المواساة الاجتماعية
٣٤٧	الفصل الرابع: الحكيم الناقد
٣٥٠	أولاً: السباعي الحكيم
٣٥١	١ - في الإيمان والدين
٣٥٣	٢ - في القضاء والقدر
٣٥٦	٣ - الحق والخير

٣٥٧	٤ - الأسرة
٣٥٨	٥ - الحياة الإنسانية
٣٦٥	٦ - عالم الحقائق
٣٦٨	ثانياً: السباعي الناقد
٣٦٨	١ - كيف نستخدم مواهبنا
٣٦٩	٢ - معنى الحرية

الباب الثالث:

دوره التاريخي

٣٧٧	تمهيد
٣٧٩	الفصل الأول: دور السباعي التاريخي في الذود عن الإسلام
٣٨٣	أولاً: مصادر الذود
٣٨٣	١ - الصحافة
٣٨٤	(١) جريدة الفتح
٣٩١	(٢) المنار
٣٩٣	(٣) الشهاب
٣٩٤	(٤) المسلمون
٣٩٤	(٥) حضارة الإسلام
٣٩٦	٢ - الخطابة
٣٩٩	٣ - المؤلفات العلمية
٤٠٥	ثانياً: منهجه في الذود عن الإسلام
٤٠٥	القسم الأول: الجانب السلبي من الذود عن الإسلام
٤٠٥	١ - الكشف عن الأخطار الاستعمارية على ديار الإسلام

- (١) الرد على تشويه الاستعمار حقائق الإسلام ٤٠٦
- (أ) في السنّة المطهّرة ٤٠٧
- (ب) في مهمة الدين الإسلامي في المجتمع ٤٢١
- (ج) في عقيدة القضاء والقدر ٤٢٦
- (د) في معنى الجهاد ٤٢٧
- (هـ) في قضية المرأة ٤٢٩
- (٢) توهين العالم الإسلامي المعاصر ٤٣٤
- (٣) إشاعة الانحلال الخلقي ٤٣٥
- ٢ - مقارنة علمنة الحكام ٤٣٦
- القسم الثاني: الجانب الإيجابي من الذود عن الإسلام ٤٤٠
- ١ - تقديم الإسلام منهج إصلاح وتقدّم ٤٤٠
- (١) الدعوة الإسلامية منهج رائد لإصلاح الأمة ٤٤١
- (٢) أهداف الإسلام كفيلة بإسعاد الشعوب ٤٤٣
- (١) الكرامة الإنسانية ٤٤٤
- (٢) تربية ضمير الإنسان ٤٤٤
- (٣) التكافل الاجتماعي ٤٤٥
- (٤) الدولة المسلمة حاضنة للخير ٤٤٦
- (٥) الأخوة والسلام ٤٤٦
- (٣) الحوار مع المعترضين ٤٤٦
- (أ) العقلية الحديثة تأتلف مع الدين ٤٤٧
- (ب) الفرق بين تجربتنا وتجربة أوروبا ٤٤٩
- (ج) الإسلام دين حب وإخاء ٤٥٠

٤٥٢	٤) غياب الدين سبب تأخر الأمة
٤٥٦	٢ - تجديد اعتناق الإسلام في النفوس
٤٦١	٣ - التبشير بالصحة الإسلامية
٤٦٧	الفصل الثاني : دوره التاريخي في حياة سورية المعاصرة
٤٧٠	١ - في مقاومة الاستعمار الفرنسي لسورية
٤٧١	(أ) فضح مخازي المستعمر
٤٧٤	(ب) جهاده المستعمر الفرنسي
٤٧٤	٢ - في ميدان التوعية السياسية
٤٧٤	(١) كشف الدعاية الكمالية
٤٧٧	(٢) مؤامرة تسليم لواء الإسكندرون
٤٨١	(٣) تسرب الشيوعية
٤٨٢	٣ - في درء أخطار العلمانية والتردي الخلقي
٤٨٦	٤ - في إرساء المبادئ الإسلامية في التشريعات السورية
٤٨٦	(أ) اعتماد المبادئ الإسلامية في الدستور السوري
٤٩٠	(ب) تغذية المبادئ التشريعية بالمرجعيات القانونية
٤٩٥	الخاتمة
٥١٣	مآثر السباعي، للشاعر شريف قاسم
٥١٧	الفهرس



الكتب الصادرة للمؤلف

- ١ - الإنسان في الأدب الإسلامي
- نشر مكتبة الطالب الجامعي بمكة المكرمة.
- ٢ - أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية
- نشر مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن.
- ٣ - شعر عصر صدر الإسلام من منظور التصوّر الإسلامي
- نشر مكتبة المنار - الزرقاء - الأردن.
- ٤ - في الأدب الإسلامي: تجارب .. ومواقف
- نشر دار القلم.
- ٥ - شعراء وأدباء على منهج الأدب الإسلامي (الجزء الأول والثاني)
- نشر دار الثقافة - الدوحة - قطر.
- ٦ - قضايا .. وحوار في الأدب الإسلامي
- نشر دار عالم الكتب - الرياض.
- ٧ - مصطفى السباعي رائد أمة .. وقائد دعوة
- نشر دار البشائر الإسلامية - بيروت.

كتب قيد الطبع

- ١ - عالم الإيمان في الأدب الإسلامي.
- ٢ - شعراء وأدباء على منهج الأدب الإسلامي - الجزء الثالث.
- ٣ - الأدب الإسلامي والصحة المباركة.
- ٤ - التفريب المبكر في أدبنا المعاصر.
- ٥ - رؤى الإيمان في الأدب الإسلامي.

THE HISTORY OF THE

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

... ..

هَذَا الْكِتَابُ

١ - يجلو هذا الكتاب سيرة (الدكتور مصطفى السباعي) العلامة، الداعية، المجاهد، الأديب، المفكر، يجلو - على مستوى فريد - حياته ونشأته، مؤلفاً مواهبه وعطاءاته، ويكشف عن دوره التاريخي ومكانته، ومنجزاته الحضارية والعلمية والدعوية في العالم العربي والإسلامي، من خلال ما شاهده المؤلف بنفسه أو عاينه من منجزات السباعي من خلال صحبته أعواماً عديدة.

٢ - حلل المؤلف في الكتاب شخصية السباعي في طبيعته وأسلوب إنجازه، وتنوع ممارساته، فصاغ ما شاهده على ضوء ما هاین **ورأى من تلكم المشروعات الثقافية والاجتماعية الكبرى**، خلا السياسية، التي نهض بها السباعي في عهده الحافل بالوقائع المفعم بالمنجزات، شارك فيها المؤلف، وراز عظيم قيمتها.

٣ - أعانت الفترة الطويلة التي استغرقها تأليف هذا الكتاب عن السباعي على استقصاء أخباره ومواقفه، وإبراز عطاءاته واصطفاء وقائمه الأحفل بالأهمية والتشويق، وثقتها المصادر والشواهد الحافلة في الكتاب.

٤ - كان تأخر صدور هذا الكتاب عما كُتبَ عن السباعي معيناً على إبراز عناصر وحقائق جديدة تمنحه صفة الطرافة والإقبال عليه بما له من طابع خاص. ولعل من مزايا الكتاب اطلاع الكثيرين على صحبة مؤلف الكتاب أستاذه السباعي وإسهامه في أعماله، الأمر الذي يزيد الكتاب وثوقاً وقرباً من صدق رسم شخصية الراحل الكبير.